قبسات

(Qabasat)

تأليف

سيفي سيفي النعيمي

2004 م

العقلُ نعمة من الله لمعرفة خالقه، وليس أداة للكفر بنعمةِ موجده.

عبدالبهاء عباس

*** * ***

نحن البشر من نخلق الأنظمة ونسن القوانين الوضعية لمصلحة ورقي ورفاهية بني جنسنا ومجتمعاته، ولا نسنها لصلب الإنسان وقتل الإنسانية على أعواد مشانق الأنظمة والقوانين.

عبدالبهاء عباس

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الفهرس

الموضـــوع		الصفحة
مدخـل		**11**
الباب الأول :		
الفصل الأول	**موازين الإدراك عند البشر**	**21**
– الميزان الأول: الحواس الخمسة		25
– الميزان الثاني: العقل		27
– الميزان الثالث: النقل (الاستدلال)		28
– الميزان الرابع: الإلهامات الإنسانية		30
الفصل الثاني	**الفرق بين الدماغ (المخ) والعقل**	**35**
الفصل الثالث	**إثبات وجود الله**	**43**
الفصل الرابع	**بداية وجود المخلوقات على الأرض**	**59**
الباب الثاني :		
الفصل الخامس	**دور التربية في المجتمعات**	**75**
الفصل السادس	**أثر الدين في المجتمعات**	**87**
الفصل السابع	**ما سبب ظهور الرسل، ونزول الأديان**	**103**
الفصل الثامن	**لماذا تتعدد الأديان وما سبب الاختلاف بين أتباعها**	**135**

المـوضــوع		**الصفحة**
الباب الثالث :		
الفصل التاسع	**الجبر والاختيار**	**151**
الفصل العاشر	**القضاء والقدر**	**157**
– القضاء المحتوم والقضاء المشرط		158
الفصل الحادي عشر	**الحسـد**	**167**
الفصل الثاني عشر	**ما هو الخير وما هو الشر**	**173**
الفصل الثالث عشر	**الشيطان وحقيقته!**	**189**
الفصل الرابع عشر	**الجن والعفاريت**	**201**
الباب الرابع :		
الفصل الخامس عشر	**نظرة على بعض القصص القرآنية**	**211**
– قصة سيدنا آدم(ع).		217
– قصة سيدنا نوح(ع).		227
– قصة سيدنا ابراهيم(ع).		233
– قصة سيدنا صالح(ع).		233
– قصة سيدنا موسى(ع).		235
– قصة سيدنا المسيح(ع).		240
– نبوءة النبي أشعيا.		243
الفصل السادس عشر	**من السُنـّة**	**249**
– حف الشوارب وإطلاق اللحى.		255
– الملابس العربية.		256

الموضـــوع	الصفحة
– حرق الجباه.	268
– البدعة.	268
– فريضة الحج.	270
– الوضوء.	272
– مواقيت الصلاة.	273
– تعدد الزوجات.	274
– الأكل باليد اليمنى.	277
الباب الخامس :	
الفصل السابع عشر عوالم الروح	**279**
– أدلة مادية على وجود الروح.	284
– الروح والزمن.	286
– الجسد وطول العمر.	287
– علاقة الروح بالجسد.	290
– متى تخلق الروح.	290
– مكان الروح.	291
– شكل الروح.	292
– جنس الروح	294
– غذاء الروح.	294
– عين الروح.	295
– قوى الروح.	298

المـوضــوع	**الصفحة**
– حركة الروح.	301
– عوالم الروح.	302
– الروح والنوم والأحلام.	303
– رجوع الجسد وعودته.	308
– حياة الروح بعد الموت.	313
– قوة العقل.	317
– الجسد قفص والروح عصفور.	318
– المعاق وقوة الروح.	319
– غاية وجود الإنسان.	320
– كيف تتكون الحضارات.	322
الفصل الثامن عشر	
نظرة الى فلسفة كتاب ابن طفيل (حي ابن يقظان)	**325**
– مكان الروح عند ابن طفيل.	334
– معرفة الله .	335
– العقل والمعقول.	337
– المنقول والمعقول.	338
– لقاء الخالق عند ابن طفيل.	340
الباب السادس :	
الفصل التاسع عشر النظم العالمية الى أين؟	**347**
الفصل العشرون من أسباب تخلف العالم العربي	

الموضـــوع	الصفحة
وسبل الخروج منها	**363**
الباب السابع :	
الفصل الواحد والعشرون	
نبذة مختصرة عن ماهية النظام العالمي الجديد	**379**
1 – إيجاد لغة عالمية مشتركة وخط واحد للكتابة.	386
2 – توحيد المقاييس والأوزان عالميا.	388
3 – توحيد العملات النقدية عالميا.	389
4 – إلزامية التربية والتعليم لكل شعوب العالم.	389
5 – الاهتمام بتربية وتعليم المرأة.	390
6 – تأسيس حكومة عالمية	393
7 – إنشاء محكمة عدل دولية.	393
8 – تأسيس جيش عالمي موحد.	395
9 – إنشاء مؤسسة أمنية عالمية (شرطة عالمية).	396
10 – إلزامية حكم المحاكم القضائية الأولية	397
11 – تغيير طريقة الانتخابات	399
12 – تقليل كميات الأسلحة والجيوش	400
13 – خضوع الحكومات الوطنية للمحاسبة الدولية	403
14 – تقليص أحجام السفارات والقنصليات في دول العالم	404
15 – حرية السفر والتنقل لكل مواطني العالم.	405
– السلام العالمي.	406

المـوضــوع	**الصفحة**
– تقاسم الموارد الطبيعية بين بني البشر.	407
18 – حل المشكلة الاقتصادية العالمية.	410
19 – حل مشكلة العمال عالميا.	413
*** الخاتمة**	**417**
*** مصادر الكتاب**	**418**

مدخـل

في أول القول، إن سبب الخوض في هذه الأفكار والمواضيع المهمة التي دفع كثير من العلماء والمفكرين أثماناً غالية بسببها طالت حتى حياتهم، هو ما يسود معظم مجتمعات العالم من أفكار ونظريات وفلسفات وممارسات وسياسات خاطئة أو قابلة للخطأ تصل بالإنسان العاقل المدرك حد اليأس وفقدان الثقة بكل ما ينتشر منها، لا فرق بين مجتمع شرقي أو غربي، ولا بين مجتمع متقدم أو متخلف، فالكل غارق في حالة من المتاهة والتخبط والاضطراب والقلق، تدفعهم الى التأمل والتفكير ومحاولة البحث والمشاركة في إيجاد حلول معقولة أو مقبولة لما تتخبط فيه البشرية جمعاء. وثانياً، الإيمان المطلق بمبدأ حرية الإنسان وحرية الفكر والتفكير كحقوق مقدسة، باعتبارها أعظم أنواع الحريات التي وهبها الخالق للإنسان.

فإلى متى سيستمر الحال على هذا المنوال، ومتى يصل العقلاء وأولو الأمر الى حلول ترضي غالبية الناس؟ ان تردي المجتمعات الإنسانية الى أدنى مستويات الأخلاق والثقافة والفكر والسياسة والمعتقدات في كل أنحاء العالم، يحيّر الإنسان الباحث ويربكه في اختيار الاتجاه الصحيح ويدفعه للبحث عن ملجأ آمن يحتمي به من اضطراب الحياة وتيار الانجراف، فغالبية الذين استلموا زمام السلطة

من القادة أو الفلاسفة أو العلماء، مهما سمت وارتقت غاياتهم وأفكارهم وطموحاتهم وآمالهم، ومهما تفانوا في الإخلاص لخدمة مجتمعاتهم وسمت وارتفعت وعودهم وأقوالهم وأعمالهم، فلابد ان تجد مصالحهم الشخصية سبيلا الى نفوسهم، إن كان بتخطيط مسبق أو في غفلة منهم، رغم عظم مساهماتهم التي لا تنكر في خدمة وتقدم الشعوب، لكن هذا لم يكن خالصاً نقياً تماماً، بدليل ما وصلت إليه البشرية اليوم من اضطرابات ومآسي نتيجة أعمالهم وممارساتهم!!

فإذا كانت كل هذه الأفكار والنظريات والعلوم وما طبق منها منذ القدم وحتى اليوم، لم تؤد الى سعادة الإنسان وتنظيم حياة البشر، واتضح ان أغلبها مجانبة للصواب، رغم كل هذا التقدم العلمي والتكنولوجي وانتشار المفكرين والعلماء! فما هو الصحيح يا ترى؟

ان ايمان شرائح واسعة من المجتمعات بأفكار قديمة بالية واعتقادهم بموروثات لا تمت للواقع بصلة وانتشار الجهل والأمية بينها، يعتبر السبب الرئيس لما تنزلق إليه من تخلف. لذلك فان تصحيح بعض الأفكار والعقائد القديمة والنظر إليها بمنظار علمي إيماني روحاني جديد، قد يساهم في نهضة عالمية جديدة لم تصل إليها البشرية من قبل، خاصة إذا أضيف لها ما جدَّ من علوم وتقنيات حديثة. ان الإيمان المتعصب المطلق ببعض الأفكار التي لا تغني ولا تسمن من جوع أسهم ويسهم بشكل مؤثر فعّال في البقاء خلف صفوف المجتمعات

المتقدمة. لذلك لابد من التحلي بالجرأة والشجاعة والتيقّن من تأييد الله في قول الكلمة الشجاعة الخلاّقة للمساهمة مع بقية رجال الدين والعلم والفكر والثقافة في إنهاض همم الشعوب العريقة المغلوب على أمرها وإخراجها من لحود الغفلة وقبور الجهل والتعصب. فتنوير الأفكار وفتح آفاق جديدة للتفكير والتأمل هو الهدف الأساس من تأليف هذا الكتاب.

وكل الذي يرجى هو ألا يتحرك ذوو السلطة والسطوة وأصحاب الأفكار القديمة على منع انتشار هذا الكتاب لمخالفته أفكارهم ومصالحهم، وبالتالي "يسلكون سبل من قبلهم شبراً بشبر وباعاً بباع". فإن لم تمارس الحرية المنظمة اليوم فسوف تمارس غداً، فهذا أمر لابد منه، فاستقراء تاريخ تطور البشرية يجزم بهذا. لذلك كان من الضروري فتح خزائن العقول والقلوب واستخراج كنوز الأفكار والمشاعر لتفحصها، فلعلها قد بليت مع انقضاء الزمن وتطور أحوال الشعوب، أما ان تناسب منها شيء مع هذا التطور، فلا بأس من الاستفادة منه.

يلاحظ ان أهل القرون الماضية رغم بساطة حياتهم وأفكارهم، كانوا أسعد حالاً وأفضل حياةً مما تعيشه البشرية اليوم، رغم ما ولجته من مجالات التقدم والتطور في هذه الأيام، فما هو السبب يا ترى؟ هل يمكن أن تفشل جميع هذه العقول النيّرة وهذه الأفكار السليمة والنفوس الزكية والمحاولات المستميتة والمستجدات اللطيفة في خلق المجتمع الفاضل السعيد؟ ان ضيق الخناق الذي تفرضه كثرة القوانين المتصلبة

قد أغلق أمام الوجوه أغلب السبل، وأصاب الجميع بالخيبة والإحباط وتجرّع مرارة اليأس والفشل حتى في أعزِّ وأقدس المعتقدات، ودفعهم هذا التعسف الهائل الى خضم محيط التردد واليأس، فباتت أمواج المشاكل لا تترك فرصة لرفع الأنوف واستنشاق نَفَسٍ من هواء الراحة والطمأنينة أو الشعور بالسعادة والهناء. فكلما ارتفعت الإنسانية فوق أمواج مشاكلها واعتقدت بقربها من سطح الرجاء وشاطئ الخلاص، عادت موجة عاتية جديدة لتعيدها الى حيث كانت. فهل حياة الإنسان في حقيقتها بهذا الشكل من التعاسة والمعاناة؟ والى متى سيبقى يكابد كل هذه البلايا والمحن رغم تميّزه بالعقل والنهى؟

فلابد من هدف وغاية وثمر سام لكل هذا الوجود العظيم وهذا النظام البديع وهذا التسلسل التاريخي ولكل ما مرّ ويمر به الإنسان يعادل ما عانته البشرية من الآم ومظالم خلال كل العصور السالفة.

ان مشاكل الحياة العصيبة المتتالية دفعت ببعض الملحدين الى الاستهزاء والتندر بمعتقدات البشر الدينية وإيعاز كل أسباب مشاكلها الى الخالق سبحانه وتعالى، بل وتجرأ البعض منهم على إنكار وجوده. لذلك كان من الضروري البحث عن سبيل متزن جديد يخرج البشرية من كل هذه الفوضى والاضطرابات.

***

يتفق غالبية علماء الاجتماع والمفكرين على ان المُبدع أو المفكّر لا يأتي بشيء جديد، إلا بعد عملية ربط وتوليف بين أفكار ومبادئ قديمة وحديثة. معنى هذا ان كل فكرة جديدة تقوم في أساسها على أفكار سابقة، ولا تنزل على صاحبها من السماء، إنما ترتقي إليه من الأرض التي يعيش عليها.

قد يتوقف القارئ أحياناً للتفكير والتأمل في بعض أفكار هذا الكتاب، وقد يجدها غريبة أو خيالية غير منطقية، وهذا أمر طبيعي فجميع النظريات والأفكار الجيدة كانت قبل الأخذ بها وانتشارها على ذات المقاييس، لكن الغاية النهائية من كل ذلك هو الوصول الى نتيجة طيبة وفائدة خيّرة، إذ على الإنسان الحر أن يفكر بعقله لا بعقل غيره، ويتأمل ببصيرته لا ببصيرة أحد سواه، ويتجنب كل معيار سابق تعوّد عليه، ويتجرد من أية فكرة نشأ أو تربى عليها، ويبعد عن كل أشكال التعصبات، دينية كانت أو قومية ولو الى حين، ويخضعها للتمحيص ليرى الأمور بمنظار جديد وبصيرة نقية، فمن المحتمل ان تختلط عليه الأمور والأفكار إذا راح يقيس ويطابق أفكار الكتاب بما لديه من خزين متوارث أو عادات دارجة.

[وعلى كل حال فإننا ينبغي ان لا نكون متعصبين لمكتشفات القرن العشرين كما تعصب أصحابنا أولئك لمكتشفات القرن التاسع عشر. فالتعصب بجميع أنواعه يسد باب البحث ويغلق الذهن على ناحية

واحدة حيث لا يمكن معها دراسة النواحي الأخرى. ان من المحتمل جدا ان يكتشف العلماء في القرن الحادي والعشرين حقائق علمية تجعلهم يغيرون من آرائهم الحالية بحيث يأخذون بالاستهزاء والسخرية مما نحن اليوم عليه من فلسفة معينة أو نظرة خاصة الى الكون.. إننا على كل حال يجب ان نكون مستعدين للنظر في أي رأي جديد بعين الحياد. ان هذا هو السبيل الذي يوصلنا الى الحقيقة مهما طال بنا السير. أما التعصب أو الغرور بما نملك من معلومات ونألف من مصطلحات فهو أمر لا يؤدي بنا الا الى عنجهية تماثل عنجهية الجهّال والبدائيين][1].

سينقسم القرّاء الكرام عند قراءة هذا الكتاب الى فئات عدة، منهم المؤيد لبعض أو كل أفكاره، ومنهم من يستهجنها جملة وتفصيلاً، ومنهم الذين يتناولونها تناولاً علمياً تحليلياً لا يهمهم مصدر الفكرة أو قائلها ما دامت سليمة وصحيحة تؤدي الى رقي المجتمع ورفاهيته، وهم وإن لم يستطيعوا إقناع غيرهم بصحتها، فعلى الأقل يتناولونها سبيلا أو مبدءاً لهم في حياتهم.

هناك فئة أخرى من القراء تتقبل بعض الأفكار بعقلها وترفضها في سلوكها، وهؤلاء يتعاملون مع الأفكار بعقولهم فيجدونها مطابقة للمنطق وموافقة للعقل السليم، لكنهم وحال ورودهم على محك التطبيق، ينقلبون على أعقابهم وينطقون ويتصرفون بما يخالف معتقداتهم جملة وتفصيلاً. وحقيقة هؤلاء انهم جبلوا على عقائد وأفكار ومبادئ تغلغلت في نفوسهم

وتمكنت من عقولهم الباطنة، بحيث أصبحت جزءاً من شخصياتهم، مثلهم مثل أولئك الذين يوافقون أقوال الفقهاء والناصحين في المساجد والمعابد، وبمجرد خروجهم يعودون الى ديدنهم السابق، وكأنهم يعيشون في عالمين مختلفين أو يتقمصون شخصيتين متباينتين.

وهناك من لهم آراء ومبادئ يعتقدون اعتقاداً جازما انها هي الصواب ولا غيرها، لذلك يرفضون ويحاربون كل ما لا يتناسب معها ويصفونها بالباطل حتى قبل معرفتها أو الاستماع إليها في بعض الأحيان، والقصة التالية تؤيد ذلك :-

[اجتمع بعض رجال الدين من المسلمين في مؤتمر لهم عقدوه في القدس قبل سنوات. وكان قصدهم من هذا الاجتماع ان يتفقوا على عقيدة واحدة فيزيلوا أسباب الشقاق المستحوذ على طوائف المسلمين. فكل من ذهب إليه كان يعتقد انه يستطيع بالبراهين التي سيدلي بها ان يجذب المؤتمرين الى مذهبه وبواسطته يتحد المسلمون. ومعنى هذا ان كل فريق كان مؤمنا بأن الحق بجانبه وان الاتحاد الإسلامي لا يتم الا بإتباع هذا الحق – ان شاء الله. اجتمعوا ثم تفرقوا. وكانت النتيجة ان كل واحد منهم رجع الى قومه يقول لهم: لقد دافعت عن الحق بكل قواي ولكنهم لم يسمعوا قولي، ولو سمعوه لزال الخلاف بينهم وانتصروا على العالم][2].

تدل هذه الواقعة ان كل فرد يعتقد بصحة أفكاره ومعتقداته ولا يقبل حتى بفكرة مناقشتها، بينما يرى الخطأ في رأي الآخرين.

لكن أحد علماء الاجتماع العرب أورد وصفاً جميلا لبعض هذه الفئات، واعتبر وجودها داخل المجتمعات دليل على سلامتها وصحتها، فيقول:-

[كما ان المترفين يودون من صميم قلوبهم ان يكون الناس محافظين لا يعرفون من الآراء الا ما ورثوه عن الآباء والأجداد. فإذا نهض من بينهم ناهض ينحو منحى جديدا في آرائه، قالوا عنه انه عميل للأجانب. وهذه التهمة يصدقها البلهاء بسرعة. وتلصق التهمة بالمجددين، فإذا نجحوا "المجددون" أو استولوا على الحكم زالت التهمة عنهم. أما إذا فشلوا ظلوا متهمين بها جيلا بعد جيل. ان الرأي الجديد هو في العادة رأي غريب لم تألفه النفوس بعد. وما دام هذا الرأي غير خاضع للقيم التقليدية السائدة في المجتمع. فهو كفر أو زندقة. وعندما يعتاد عليه الناس ويصبح مألوفاً وتقليدياً يدخل في سجل الدين ويمسي المخالفون له زنادقة وكفاراً. ان التاريخ يسير على قدمين، كما يسير الفرد. فلابد ان تتحرك إحدى القدمين وتقف الأخرى لكي يتم السير الى الأمام. وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ نجد طائفة من الناس متحفظة أو رجعية وطائفة أخرى مجددة ثائرة تدعو الى التغيير والتبديل. والتطاحن بين هاتين الطائفتين لا يهدأ ما دام المجتمع

متحركاً. وكل طائفة من هاتين الطائفتين المتطاحنتين تنسب الى الأخرى تهمة من التهم الخبيثة. فالمجددون في نظر المحافظين زنادقة وعملاء للأجانب. أما المحافظون فهم في نظر المجددين طغاة وظلمة وآكلون للمال الحرام. والمشكلة ان كل مجدد يصبح عند نجاحه محافظاً. فيثور عليه مجدد من نوع آخر.. وهكذا يسير التاريخ.. ان التاريخ دائب السير، لا يني ولا يفتر. والقدمان في تفاعل مستمر. فكل قدم تتحرك اليوم سوف تقف غداً، حيث يأتي آنذاك طور القدم الأخرى. يمكن تشبيه المجتمع بقدر الماء الذي توضع تحته النار. فالطبقة السفلى من الماء تسخن من جراء الحرارة قبل الطبقة العليا، فترتفع. وتنزل الطبقة العليا بدورها لتسخن فتصعد. وهكذا نجد الماء في غليان وتقلب وحركة مستمرة – يصعد النازل فيها وينزل الصاعد.. ان هذا هو منطق التناقض الحديث. وهو منطق لا يستسيغه – كما أسلفنا – أصحاب المنطق القديم الذين يعتبرون الحقيقة ثابتة لا تقبل التغيير][3].

[وهذان الرأيان نلاحظهما في جميع العصور. فدعاة السلاطين يدعون الى وحدة الجماعة، بينما يدعو المعارضون الى مبادئ العدالة والمساواة. ومما يلفت النظر ان الأنبياء كانوا جميعا من أصحاب الرأي الثاني، ولهذا كانوا أميل الى تفريق الجماعة منهم الى توحيدها.[4].

والى هذا أشار القرآن الكريم في بعض آياته:-

"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[5]، وفي آية أخرى:-

"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ" [6].

قال القرآن ذلك جزاء لقريش حين اتهمت محمداً (النبي) صلى الله عليه وسلم بأنه فرق الجماعة. وهذا الجواب يشبه جواب الإمام علي حين اتهمه معاوية بأنه فرق جماعة المسلمين. ومما يجدر ذكره ان الإنجيل يشير الى مثل هذا الرأي أيضا. فقد روى لنا الإنجيل ان عيسى(ع) كان يقول لتلاميذه: "أتظنون إني جئت لأعطي سلاما على الأرض. كلا أقول لكم. بل انقساما. لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين واثنان على ثلاثة. ينقسم الأب على الابن، والابن على الأب. والأم على البنت، والبنت على الأم. والحماة على كنتها والكنة على حماتها"] [7].

ان المطلوب من كل باحث أو مفكّر، تقديم آرائه وأفكاره بشكل

بسيط واضح مقبول يفهمها القرّاء بسهولة ويسر ويؤدي الغرض المرتجى. وليس تقديم كتاب مزيّن بالكلمات الفصيحة الرنّانة والعبارات المزوّقة المبهرجة والاصطلاحات العلمية المبهمة مما يربك القارئ ويضيع الهدف المطلوب، فالكلمات والحروف هي أقمصة المعاني ولباسها، وعلى الكتّاب والمفكرين اختيار أجمل الحلل وأبسطها لإظهار جواهر المعاني ودرر مقاصدها.

وكما قيل.. اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، فالهدف النهائي والأساس من جميع هذه المحاولات هو التقدم خطوة أو خطوات الى الأمام في سبيل سعادة بني الإنسان. وهذا ما سوف تصل إليه البشرية عاجلاً أم آجلاً، بالتفاهم والتعاون والسلام أو بالحرب والقتال والدماء والدمار.

وأخيراً... لا ندّعي ان كل ما جاء في هذا الكتاب هو خلاصة الأفكار والحل الوحيد للوصول الى سعادة البشرية، فقديما قالوا: **(لا كلٌ ما يُعلم يقال، ولا كل ما يقال حان وقته، ولا كل ما حان وقته حضُرَ أهله)** .

والله من وراء القصد.

المؤلف

سيفي سيفي النعيمي

الهوامش

1 – خوارق اللاشعور، أو أسرار الشخصية الناجحة – الدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية عام 1996 – دار الورّاق للنشر – لندن – الحاشية ص 42.

2 – كتاب "مهزلة العقل البشري" للدكتور علي الوردي، الطبعة الثانية 1994 – دار كوفان – لندن – صفحة 174.

3 – كتاب وعّاظ السلاطين للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية – 1995 – دار كوفان – لندن – صفحة 99.

4 – من المؤكد ان الكاتب يقصد (ان الأنبياء كانوا أميل الى توحيد الجماعة على مبادئ العدالة والمساواة أكثر من توحيدها على أسس أخرى). (المؤلف).

5 – القرآن الكريم – سورة البقرة 213.

6 – القرآن الكريم – سورة البقرة 253.

7 – إنجيل لوقا، الإصحاح 12 الآيات 51–52–53.

(الباب الأول)

الفصل الأول

موازين الإدراك عند البشر

قبل الشروع في قراءة فصول هذا الكتاب، يجب الاتفاق على الطريقة التي يُحتكم إليها عقلياً وفكرياً لمعرفة الخطأ من الصواب والحق من الباطل فيما يقرأ أو يفكّر به أو يُسمع، والتعرّف على الموازين والأدوات التي يستند إليها كل إنسان بمختلف مشاربه وأفكاره في اكتساب أفكاره ومعتقداته، وكيف وبماذا يقيس صحة وخطأ ما يصل إليه ويتناوله. فلا بد بادئ ذي بدء ان يُتفق على تعيين هذا الأساس حتى يُستند في التفكير على أسس سليمة، وهذا ما يسمى في عرف الفلاسفة بـ (موازين الإدراك) ومعناها الوسائل أو الأدوات التي يستعملها الإنسان في الحصول على معلوماته ومعتقداته والحكم عليها، مادية كانت أم معنوية. فإن تم الاتفاق على أسس المناقشة والتفكير واسلوبه، سهل جزءا كبيرا من عملية التفاهم، لأن كل شيء في هذا العالم يستند اما على أساس مادي أو معنوي. لذلك كان الاتفاق في هذا الفصل ضرورياً للدخول الى بقية الفصول.

للبشر أربع طرق فقط أو أربعة موازين للإدراك لا غير في اكتساب معلوماتهم ومعتقداتهم، هي:-

(1) ميزان الحواس.

(2) ميزان العقل.

(3) ميزان النقل. ويعرف أيضا بميزان (الاستدلاليات) وهو ما يؤخذ من الكتب ان كانت وضعية أم سماوية.

(4) ميزان الإلهامات الإنسانية أو ما يسمى بالخواطر القلبية.

هذه هي الوسائل والأدوات الإنسانية الأربع في اكتساب المعلومات، وقد يستعمل بعضها أو كلها، ولا يوجد غيرها مهما بحث الإنسان في سجلات وصفحات التاريخ الإنساني وفي كتب الباحثين والمفكرين، وهي خلاصة ما استنتجه العلماء على مرّ العصور.

لذلك يجب مناقشة هذه الوسائل (الأدوات) والتأكد إن كانت موازيناً صحيحة تامة يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كاملاً في تقويم سلوك الإنسان في أي مجتمع من المجتمعات على اختلاف درجات تقدمها، أم انها معرضة للخطأ والصواب، وهل هي أدوات نسبية تختلف باختلاف قوة الحواس وقوة العقول ومستوى ثقافات الشعوب أم لا؟ وهل يمكن الاكتفاء بواحدة أو اثنين منها أو لابد منها جميعا؟

مثلاً استعمل الفلاسفة القدماء ميزان العقل باعتباره ميزاناً تاماً لا يخطئ مستندين بذلك على القراءة والنقاش والتفكير والتأمل، وسطّروا كل ما فكّروا به واستنتجوه كنتائج صحيحة نهائية لا حياد عنها ومعلومات وأفكار راقية هي غاية ما وصل إليه العقل البشري. لكن بعض علماء الاجتماع في أوربا والعالم اليوم يعيبون على أولئك الفلاسفة تلك الطريقة في التفكير ويقولون بعكسها، وأعلنوا ان ميزان الحس هو المقياس الصحيح الذي لا يخطئ في اكتساب العلوم، بعد اكتشافهم الكثير من الأخطاء في تلك النظريات القديمة. وهذا أمر طبيعي، لأنهم اعتمدوا في قياساتهم على ميزان الحواس الذي لم يركز عليه من قبل، وكان لابد لهذا الميزان من مقاييس جديدة مختلفة لا تتفق مع القياسات السابقة. ومع ذلك، ظهر من العلماء من شكك في ميزان الحس ودقته:

[كان علماء القرن التاسع عشر لا يؤمنون الا بما هو محسوس على اعتبار ان الحس هو المقياس الوحيد الذي يفرق بين الحق والباطل من الأمور. أما علماء هذا القرن فقد بدأوا يشكون من مقياس الحس سيما حين علموا بما وراء الحس من عالم خفي جبار لا يمكن الوصول إليه الا عن طريق المعادلات الرياضية والفرضيات الوهمية](1).

وفي المقابل، بقي معتنقو الديانات السماوية يعتبرون المصدر الحقيقي للعلم والقياس هو ما تذكره الكتب السماوية باعتباره كلام حق

من عند الله سبحانه وتعالى، ولكنهم في العقود الأخيرة، وجدوا أنفسهم أمام نظريات علمية بحتة لا تقبل الخطأ ولا يمكن تفنيدها، مما اضطرهم الى مجاراة الاكتشافات العلمية الحديثة والتسليم بصحتها وتحوير أفكارهم بما يتوافق معها. وكلما اكتشف العلم شيئاً جديداً، سارعوا الى إثبات صحته وتأييده من نصوص كتبهم بعد أن كانوا غافلين عنها!

ورغم وجود الآيات الإلهية الصريحة الدالة على معلومات علمية بحتة في القرآن الكريم، الا ان رجال العلم والدين لم يتجرءوا على التصريح بها لمخالفتها المفاهيم العلمية السائدة في زمانهم.

فعلى سبيل المثال صرح الحكماء السابقون بنظرية خاطئة حينما قالوا بحركة الشمس وسكون الأرض ومنهم بطليموس الروماني الاسكندراني الشهير في علم الكواكب والنجوم والتاريخ في القرن الميلادي الثاني، إذ اختار هذا العالم الشهير قاعدة من القواعد القديمة وأسس عليها نظريته، فاشتهرت هذه النظرية وذاع صيتها بين العالم للسلطة القوية للأمة الرومانية وحكومتها على سائر الأمم آنذاك، وألّف كتاباً في علم الكواكب والنجوم والرياضيات سمّاه (مجسطي)، وفي القرون الوسطى ترجمه الى اللغة العربية العالم الشهير الفارابي. فاشتهر هذا الرأي بين العلماء وأتبعوه وقلدوه دون إمعان نظر ولا تحقيق في كلمات الآيات ومعانيها الدالة بعكس هذا الرأي، كقوله تعالى **(كُلٌّ فِي**

فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(2)، فبهذه الآية الكريمة ثبت ان كافة النجوم في هذا الفضاء الفسيح ومن ضمنها الأرض، تتحرك في مداراتها وتسبح في أفلاكها. إلا ان علماء المسلمين آنذاك، ذهلوا وحاروا في تفسير الآية الأخرى الدالة على حركة الشمس حول مركزها ومحورها، عندما قال تعالى **(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)**(3)، فتاهت عقولهم وتحيرت نفوسهم وعجزت مشاعرهم عن ادراك معانيها، لأنهم أرادوا تطبيقها على قواعد النظرية البطليموسية حسب ما جاء بها، ولما عجزوا عن ذلك، راحوا يؤولونها تأويلات ركيكة، كقول بعضهم: ان (لمستقر لها) كان في الأصل (لا مستقر لها) فحذفت الألف منه، وقول آخرين: ان المستقر لا يكون إلا في يوم القيامة، حيث تقف الشمس عن سيرها وحركتها. مع ان الآية الكريمة تشير بصراحة الى حركة الشمس حول محورها ومركزها.

والحقيقة.. لولا هذا التسلسل العلمي والتدرّج الفكري التاريخي البشري لمختلف شعوب الأرض، ولولا جهود أولئك العلماء الأفاضل بمختلف مشاربهم، لما تجددت الأفكار وظهرت المكتشفات العلمية، فمن خلالهم استطاعت البشرية إدراك مكمن حقيقة الرأي الصحيح وأي القياسات كانت أقرب الى الصواب، ولما تمتعت البشرية بالإنجازات العلمية، فجميعهم ساهم قدر استطاعته في إظهار جانب من وجه الحقيقة وإبراز شكل من أشكالها.

ان الحقيقة والرأي الصواب لا ينبلجان الا من تصادم الأفكار، أي من خلال المناقشة الحرة المثمرة وتبادل الرأي. لذا كان من الضروري مناقشة (موازين الإدراك عند الإنسان) أو ما يسمى أدوات اكتساب المعرفة الإنسانية، والتحقق من إمكانية الاعتماد عليها، وهل كل ما يكتسب عن طريقها هي معلومات صحيحة. ان فهم حقيقة هذه الفكرة بشكل صحيح، سيفتح آفاقاً جديدة للتأمل والتفكير، فمفهوم الحق مفهوم نسبي، وكل إنسان يدركه بطريقة تعتمد على تركيبة شخصيته ومدى تأثره بأفكار مجتمعه، فما تعتقد أنت بصحته، يمكن أن يعتبره صاحبك خطأ، وما يعتقده صاحبك إنصافا، يمكن ان يعتبره آخر ظلماً فادحاً.

الميزان الأول:

إذن.. لنبدأ بمناقشة الميزان الأول، وهو (ميزان الحواس الخمسة)، الذي يشمل:- حاسة البصر (العين)، حاسة السمع (الأذن)، حاسة الشم (الأنف)، حاسة التذوق (اللسان)، حاسة اللمس (اليد ومجموعة الخلايا الحسية المنتشرة في جسم الإنسان).

هذه هي مجموعة الحواس الجسدية المادية التي يستقبل بها الإنسان معلوماته كما هو متفق عليه علمياً، وهو ما يسمى بالميزان الحسي، وهو ما يعتبره بعض فلاسفة أوروبا أكمل وأتمَّ ميزان، ويقولون انه أعظم الموازين ويرفضون كل ما يقاس بغيره. لكنه في حقيقته ناقص غير

كامل، لأنه يخطئ في بعض الأحيان، ولهذا السبب لا يمكن الاعتماد على موازينه وقياساته ونتائجه اعتماداً كلياً، وهذا ما يفتح باب مراجعة جميع النظريات التي استندت في مفاهيمها واستنتاجاتها عليه.

فمثلاً قد يخطئ البصر أحياناً – وهو أعظم قوى الحس – فيرى السراب ماءً، والصور في المرآة حقيقة موجودة، والأجسام الكبيرة البعيدة صغيرة الحجم، والنقطة الجوالة دائرة، والأرض ساكنة، والشمس متحركة، ويرى راكب القطار أو الطائرة الأرض متحركة، الى غير ذلك من الأمور التي تشتبه على البصر. هذا بالإضافة الى ان العين ما هي إلا نافذة صغيرة ضيقة لا تحس إلا بحيز ضيق من مدى الأمواج الكهرطيسية التي تعطي الألوان السبعة المعروفة. وقد يكون الفضاء مشحونا بأضواء هائلة وصور متنوعة وقوى خفية متعددة، ولكن لا يرى منها الا تأثيراتها، مثل الكهرباء والأثير والجاذبية... لأنها خارجة عن نطاق حاسة البصر. هذا بالإضافة الى ان هذه القوة تعتبر ناقصة بدون مشاركة بقية الحواس.

أما حاسة السمع، فهي أداة غير تامة أيضا، لأن دورها يقتصر على استقبال المعلومات ثم نقلها الى العقل لإدراكها وفهمها، وكثيراً ما تلتبس الأصوات على السامع فيعتقد انه سمع فلاناً يتكلم بينما هو غير موجود، وآخر يسمع صوتاً، بينما لا يسمعه من يقف بجانبه، هذا بالإضافة الى ان سليم السمع لا يمكنه الاستغناء بسمعه عن بقية

حواسه.

[مما قرره العلم الحديث، ان لكل حاسة من حواسنا الخمس نطاقا محدودا لا تتعداه عند الإحساس بشيء خارج عنها. خذ حاسة السمع مثلا، فإنك لا تستطيع ان تسمع الصوت الا إذا كانت ذبذبته ضمن حد معين. فإذا زادت الذبذبة على ذلك الحد أو نقصت عنه عجزت الإذن عن سماعها. معنى هذا ان أصواتاً عالية جداً قد تملأ الجو حولنا ونحن لاهون عنها لا ندركها ولا نحس منها شيئاً](4).

[يقول العالم الفيزيائي روبرت دنكان: أن الأمواج الكهرطيسية تنطلق بلا انقطاع من كل مادة في الوجود فتصطدم بما حولها من مواد وتؤثر فيها. معنى هذا ان الإنسان يعيش في هذا الكون وكأنه "أطرش في زفّة" كما تقول العامة، فهو يمشي ساهياً ولا يدري أن الدنيا حوله في صخب شديد. انه مغرور بحواسه واثق بها بينما هي لا تريه من الكون الا قدراً ضئيلاً. ولعل من الخير له أن يكون إحساسه محدوداً بهذا المقدار فلو أدرك الإنسان الهول المحيط به لربما انقلبت الدنيا كلها الى دار للمجانين!](5).

[ان هذا هو الذي حدا بالعلماء الى القول بان حواسنا الخمس ليست سوى منافذ صغيرة يتطلع الإنسان من خلالها الى الكون الهائل. والإنسان بهذا يشبه السجين المحجور في غرفة ضيقة ليس فيها من

النوافذ غير ثقوب صغيرة هنا وهناك. فهو لا يرى من أحداث الكون الا جزءاً محدوداً جداً، وتبقى الأجزاء الأخرى مختفية عنه وراء الجدران](6).

إذن.. ثبت أن حاسة السمع لا يمكن الاعتماد عليها بشكل تام، إضافة الى انها أقل قوة من حاسة البصر، وقديما قالوا (بين الحق والباطل أربع أصابع) وقصدوا بذلك المسافة الفاصلة بين العين والأذن.

من هذا يمكن الحكم على بقية الحواس التي هي أقل قوة من السمع والبصر واثبات إمكانية خطأها، مثل الشم واللمس والتذوق، وهذا متروك للقارئ فهو أمر سهل يسير.

اذن اتضح ان ميزان الحواس هو ميزان غير تام لا يمكن الاعتماد عليه اعتمادا كلياً في اكتساب العلوم والمعارف والتمييز الدقيق بين الأشياء.

لننتقل إذن الى الميزان التالي ونرى هل يمكن الاعتماد عليه.

أما الميزان الثاني: فهو ميزان العقل. وكان يعتبر ميزان الإدراك والفهم المثالي التام لدى الفلاسفة الأوائل أساطين الحكمة، وكانوا يستدلون به ويتشبثون بما يستنتجونه من دلائله وما يفكرون به ويتأملونه من مسائل وأمور فكرية، لأن استدلالاتهم جميعها كانت

عقلية. ومع ذلك كانوا يختلفون في آرائهم ونظرياتهم العقلية، فيغيرون ويبدلون ويتراجعون على الدوام، فكانوا يستدلون على إثبات مسألة ما بالدلائل العقلية لمدة عشرين سنة ويعتقدون بصحتها ويدافعون عنها بكل قوة، وبعدئذ ينفونها ويناقضونها ويستنبطون فكرة أخرى مخالفة لها تماماً، ويستدلون عليها بالدلائل العقلية أيضاً. حتى ان أفلاطون أثبت في البداية، وبالأدلة العقلية سكون الأرض وحركة الشمس، ثم عاد بعد ذلك ليثبت بالدلائل العقلية ذاتها، ان الشمس هي المركز والأرض متحركة، ثم ظهرت واشتهرت بعده نظرية بطليموس التي تقول بعكس ذلك ونسيت نظرية أفلاطون بالكلية.

[يقال ان المقياس الذي نقيس به ثقافة شخص ما هو مبلغ ما يتحمل هذا الشخص من آراء غيره المخالفة لرأيه، فالمثقف الحقيقي يكاد لا يطمئن الى صحة رأيه، ذلك لأن المعيار الذي يزن به صحة الآراء غير ثابت لديه، فهو يتغير من وقت لآخر. وكثيراً ما وجد نفسه مقتنعا برأي معين في يوم من الأيام ثم لا يكاد يمضي عليه الزمن حتى تضعف قناعته بذلك الرأي.. وقد تنقلب أحيانا ضده انقلابا شنيعا. ومن يدرس جمهور المتعلمين في تطور أفكارهم بين حين وآخر يرى عجباً. فطالما رأيناهم يسخرون من فكرة في هذا اليوم ثم يقدسونها غداً. فإذا سألناهم عن سبب هذا الانقلاب المفاجئ قالوا: "انهم كانوا يبحثون عن الحقيقة ثم وجدوها أخيراً". ومن يدرينا فلعلهم يتحولون الى غيرها بعد

زمن طويل أو قصير. هذا ولكنهم في كل مرحلة يمرون بها نراهم مؤمنين إيمانا قاطعا بأنهم قد وصلوا الى الحقيقة النهائية التي لا يمكن التحول عنها أبداً](7).

إذن.. يتبين ان ميزان العقل ليس ميزاناً تاماً، لأن اختلاف الفلاسفة الأوائل وتبديل أفكارهم وعدم ثباتهم على آراء متفقة، هو دليل على نقص ميزان العقل، فلو كان تاماً، لوجب اتفاقهم في الرأي واتحادهم في الفكر وتشابه نظرياتهم وأفكارهم لأنهم يمثلون قمة العقل الإنساني، هذا بالإضافة الى ما جدَّ من أدلة علمية في العقود الأخيرة تؤيد هذا الرأي.

الميزان الثالث: ميزان النقل أو الاستدلال، وهو ما يستشفه عقلاء الناس ومفكريهم من معاني النصوص بعقولهم من الكتب المقدسة والدينية والوضعية وغيرها، فيقولون جاء في التوراة والإنجيل كذا، وكتب العالم والفيلسوف الفلاني كذا وكذا.. فيستندون عليها باعتبارها كلاما لا يتطرق إليه الشك.

وهذا الميزان ليس بتام ولا بكامل أيضاً، لأن الناقل أي (القارئ) يدرك معاني المنقول أي (مجموعة المفاهيم) من الآيات والنصوص بميزان عقله. وبثبوت إمكانية خطأ ميزان العقل، ثبت كذلك عدم إمكانية الاعتماد على الاستنباطات العقلية كمصدر تام لمعاني ومفاهيم الأقوال المنقولة من الاستدلالات، لذا كان من الممكن حصول الخطأ والسهو

في هذا الميزان أيضا، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليه بيقين تام.

وهذا هو ميزان معتنقو الأديان عموما، فهم يتناولون معاني آيات نصوص كتبهم بادراكاتهم العقلية، ومن الوارد أنها لا تمثل حقيقة معانيها، بل بعض اختلافاتهم امتدت الى نصوص الأحكام رغم وضوح نصوصها باعتبارها ضرورة اجتماعية مهمة لتمشية أمور المجتمع، ودليل ذلك كثرة الاختلافات بين آرائهم وكثرة التشعبات والتمذهب فيما بينهم.

يمكن تشبيه العقل بالميزان، وتشبيه المعاني المُدْرَكَة من النصوص بالشيء الموزون، فإذا اختل الميزان، فكيف يمكن معرفة قدر الموزون وثقله بالضبط؟ وبمعنى آخر، إذا كان ميزان العقل غير دقيق ولا يعطي قياسات تامة، فمن المؤكد ان نتائج ما يوزن به من مقاييس فكرية غير دقيق ولا تام أيضاً.

هذا إذا كان القارئ إنسانا محايداً منصفاً يبحث عن الحقيقة ويطلبها في أي وعاء كانت، وإلا فالمتعصب لفكر أو مذهب معين لا يقبل بفكرة جديدة مهما سطعت منها بوارق الحق حتى لو كان مصدرها أفواه الأنبياء الكرام، وهذا ما يشهد به التاريخ وما نجده عند أهل التعصب بكل أشكالهم.

أما سبب تسمية هذا الميزان بـ (الميزان النقلي)، فهو: ان العالم أو

القارئ يدرك ويفهم ما يقرأه من معلومات من خلال النظر والقراءة والفهم، ثم يقوم بتسطيرها وتدوينها على صفحات كتبه، ثم يأتي القرّاء من بعده ليأخذوا ما اعتقده صحيحاً ويسجلوه في عقولهم ومداركهم على انه أمر مسلم به. أي أن القرّاء لا يتلقون تلك الحوادث والحقائق مباشرة، بل يكتسبوها جاهزة كنتائج فكرية توصل إليها العلماء عن طريق حواسهم وأفكارهم، لهذا سميت نقلية. لذا، فمن المحتمل ان يلتقط الكاتب فكرة أو معلومة خاطئة عبر حواسه أو من خلال قياساته الفكرية وهو معتقد تماماً بصحتها، ثم يأتي القارئ ليأخذها كحقيقة مسلم بها، وتصبح مع مرور الوقت فكرة سامية مقدسة لا يتطرق إليها الشك، وهنا تكمن الخطورة، إذ يصبح من الصعب على المحدثين أو المجددين تغيير تلك الأفكار العتيقة وقلعها من جذورها الا ببذل الغالي والثمين.

لقد شغل الميزان النقلي حيزاً كبيراً من كتب الأقدمين والمحدثين، وكان وما يزال واقفاً عقبة كأداء أمام تقدم حرية الفكر والاستنباط، بل وراح البعض يسبغون عليه صفة التقديس ويصمون كل من تجرأ على مناقشته بالكفر والزندقة والخروج عن الأمة والجماعة، وبذلك أصبحوا من الأسباب الأساسية في حرمان الأجيال الحاضرة من التقدم ومواكبة الركب العالمي. بيد ان البشرية تقف حيرى أمام اختلاف الكثير من المفسرين في تفسير النص الواحد، ويتسائلون، ألا يجوز ان يكون ذلك ناتجاً عن تباين نسبة الفهم عند البشر؟!

اذن، يمكن القول أيضاً، ان هذا الميزان يخضع للخطأ والصواب وهو ميزان غير دقيق ويحذو حذو سابقيه.

الميزان الرابع: ميزان الإلهامات الإنسانية، أي ما يراه الناس في منامهم وقيلولاتهم من رؤى يعتقدون أنها إلهامات حقيقية صحيحة ترشدهم الى الطريق السليم، ان كانت في أمور الخير أو الشر، فهذا يرى في منامه إماما أو تقياً يرشده لعمل ما أو يثنيه عن فكرة معينة، وهذا يعتقد اعتقاداً جازماً أن ما رآه هو حق لا ريب فيه، فيقدم أو يتراجع عن نيته عند استيقاظه.

لقد اختلف أتباع الديانات في قبول ورفض مثل هذا الميزان، فمنهم من يؤمن به تماما ومنهم من يقبله أو يرفضه بنسب معينة كل حسب معتقداته. فعلى سبيل المثال ترفض فرقة المعتزلة أمر تقديس الأحلام لأنهم يثقون بالمنطق والعقل الواعي ويعتقدون بأن الله لا يخرج في أوامره ونواهيه عن جادة العقل السليم، فما يأمر به العقل يأمر به الله حتماً، ويقولون ان الإدراك والنوم ضدان لا يجتمعان، وان الأحلام أضغاث وأوهام، وليس من الممكن ان يدرك العقل حقائق الكون أثناء نومه. فعلى قدر الانتباه يكون الإدراك.

أما المتصوفة فيعدون العقل منبع الأوهام والأباطيل، ويرى بعضهم ان النوم يقظة واليقظة نوم، لأن النفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة

بصور المحسوسات وهموم البدن، أما خلال النوم فينجلي عن بصرها الغشاء وتحلق طليقة في سماء المعرفة لا يشغلها شاغل.

بينما يسعى علماء النفس جاهدين للكشف عن دور الأحلام في حياة الفرد ويعتبرها بعضهم إفرازات للعقل الباطن ونتائج للعلاقات الاجتماعية والثقافية، وان المستقبل كفيل بتوضيح معانيها بشكل أفضل.

من خلال ما ورد، يفهم ان ميزان الإلهامات الإنسانية لا يمكن الاعتماد عليه أيضا، رغم ثقة بعض الناس به كل حسب مجتمعه وبيئته وعقيدته، لا فرق بين غني وفقير وعالم وجاهل ولا بين شرقي وغربي، فمن المحتمل ان تكون الرؤيا أضغاث أحلام أو من وساوس النفس الشيطانية أو من الإلهامات الحقيقية. فقد يفعل الإنسان عملا سيئاً يستهجنه العرف ويستنكره المجتمع، بينما يعتقد هو بطهارته، وقد يمتنع آخر عن عمل طاهر مفيد وهو يظن انه منكر من أعمال الشر. لذلك يصعب على الرائي معرفة حقيقة هذه الإلهامات الإنسانية.

* * *

في النهاية، ورغم ثبوت عدم دقة هذه الموازين المختلفة بشكل تام وخطأها في بعض الأحيان، الا ان الإنسان ليس لديه سبيلا غيرها لاكتساب المعرفة والعلوم المختلفة، والعلم التجريبي ساهم بشكل جيد في

مساعدة البشرية على تسلق سفح جبل العلم. وفي المقابل ظلت النظريات والأفكار العقلانية تتجدد مع استمرار نضوج الفكر الإنساني فتظهر أفكار وتختفي أخرى، لكن البشرية مازالت بعيدة عن الكثير من الحقائق التي عجز العقل البشري عن إدراكها، فكان لابد من الاستعانة عند انتهاء كل حقبة تاريخية من عمر البشرية بالأفكار الإلهية التي تصلنا عن طريق رسل الله وأنبيائه الكرام.

اذن، لابد من وجود ميزان تام صحيح تعتمد عليه البشرية في تقويم سلوكها وتصحيح مساراتها، ولم يظهر مثل هذا الميزان التام المعصوم إلا في شرائع الرسل والأنبياء، إذ لا يمكن لمعلم جاهل أن يخرج تلاميذ كاملين، فلابد من كمال المعلم ليتم المطلوب، وهذا ما يسمى **(ميزان الفيض الإلهي)** الذي يسطع على البشرية على شكل شرائع إلهية كل مدة من الزمن ليصحح مسارها وينير أفكارها وعقولها ويضيف مخزونا فكريا جديدا الى تراثها، كما يحصل عندما يعود فصل الربيع ليبعث في الأشجار روحاً جديدة أو عند ظهور الشمس حال إشراقها، فهي تنير جميع المخلوقات دون استثناء وتجدد نشاطهم. وهذا **الميزان الخامس**، هو الذي يصحح مسار العقل الإنساني وحواسه نحو الاتجاه الصحيح ويؤكد أن الإنسان لا يمكنه الاستغناء عن مساعدة الفيض الإلهي في تقويم سلوك المجتمعات . وهذا سر استمراريته . فمن احتجب عنه لاذ بالخسران، ومن أراد الاستنارة بضيائه كان من الفائزين.

لذلك كان من الضروري التفكير بحرية تامة بعيداً عن الجهل والتعصب لمناقشة أفكار هذا الكتاب، فالعقل الإنساني أوسع من هذا العالم ويتسع لكل ما وجد وما سيجد من مفاهيم وأفكار في سبيل الوصول الى فكر جديد ناضج يأخذ بيد الإنسانية جمعاء نحو سبيل الخير والصلاح وتحقيق أمل الرسل والأنبياء. وهذا ما سنتطرق إليه في فصول الكتاب القادمة.

الهوامش

1 – كتاب خوارق اللاشعور للدكتور علي الوردي ص 23 انظر:
Jeans, The Mysterious Universe, P. 93.

2 – سورة الأنبياء 33.

3 – سورة يس 38.

4 – كتاب "الأحلام بين العلم والعقيدة" للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية 1994 – دار كوفان – صفحة 221.

5 – نفس المصدر السابق صفحة 229.

6 – نفس المصدر السابق صفحة 221.

7 – خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية – 1996 – دار الورّاق – لندن – صفحة 46.

الفصل الثاني

الفرق بين الدماغ (المخ)

والعقل

ان انتشار الفكرة القائلة بان عملية التفكير والتأمل تتم داخل جهاز الدماغ (المخ)، رغم عدم ثبات صحتها من قبل أية جهة علمية بشكل قاطع حتى اليوم، باتت بحاجة الى إعادة نظر وتفكير.

فمن الواضح أن هناك اختلافاً كبيراً بين جهاز الدماغ (المخ) المادي وبين حقيقة العقل المعنوي وهذا ما يتفق عليه غالبية علماء الأعصاب والدماغ. فالمخ عبارة عن جهاز مادي حيوي معقد التركيب يتكون من تلافيف وخلايا عصبية يقع داخل جمجمة الإنسان. أما العقل فهو عبارة عن القوة المفكرة المعنوية غير المادية التي تتعامل بها الروح مع المخ ثم مع الجسد لتحركه وتبرز تصرفاته.

وبعبارة أوضح ان المخ أو الدماغ هو جهاز لاسلكي معقد الخلقة إلهي التركيب، يعمل على نقل المعلومات والمشاعر والمحسوسات التي تصله من قبل حواس الجسد المادية الخمسة الى العقل المعنوي الذي يعتبر أقوى قوى الروح الإنسانية ثم يعود ليستلمها كأوامر ليوصلها الى الحواس لتظهر على شكل تصرفات وأفعال. أي أن المخ أو الدماغ

عبارة عن جهاز إرسال واستقبال للمعلومات لا غير.

وسبق أن توصل أحد العلماء المختصين الى هذه النتيجة ووصف المخ الإنساني بجهاز لاسلكي يلتقط أمواجاً مختلفة بأشكال عديدة، لكنه لم يتمكن ولا غيره من التوصل الى سر العلاقة بينه وبين الروح ولا إثبات وجودها، هذا إذا كان يؤمن بوجودها.

[يقول الأستاذ جوزيف سينل، وهو باحث متخصص في علم الأحياء والتطور الحيواني، وأمضى شطراً كبيرا من حياته في دراسة ظاهرة الإحساس الخارق لدى الإنسان والحيوانات. وتوصل بهذه الدراسة الى الاعتقاد، بأن الإنسان يملك في مخه جهازاً خاصاً قادراً على التقاط الأمواج الكهرطيسية الصادرة من مخ آخر كما تلتقط العين أمواج الضوء أو كما يلتقط المذياع الأمواج اللاسلكية الصادرة من محطات الإذاعة][1].

يمكن اعتبار فكرة صناعة جهاز الكومبيوتر أو الحاسوب، فكرة مشابهة تماماً لمفهوم عمل مخ الإنسان المادي وعقله المعنوي، فما يظهر على شاشة الجهاز (المونيتور) من رسوم وسطور وكلمات وحروف هي بمثابة ما ينطق به اللسان وتتصرف به أعضاء الجسم، أما ما لا يظهر على الشاشة إلا بتحريك صورتها، فيشابه بقية الموضوع الذي ما يزال في ذهن المتكلم والذي سيأتي تسلسل الحديث

عنه لاحقاً.

ويمكن اعتبار مجموعة ملفات المعلومات الموجودة في القرص الصلب من الكومبيوتر، بمثابة المعلومات والخبرات التي اكتسبها الإنسان خلال حياته والتي بإمكانه تذكّرها في أي وقت يشاء بمجرد الكبس على زر التذكّر.

لو تفكّر الإنسان في ماهية روحه وعقله وطريقة تركيب دماغه لوجد فيهم من القدرات الإعجازية الإلهية ما يوصله الى العجب والحيرة، ويدرك ان الله سبحانه وتعالى يحيط بالبشرية من كل جانب وفي كل وقت. فالإنسان مخلوق مادي ومخلوق روحاني في وقت واحد، مادي بالجسد، وروحاني بالفكر والروح، أي انه محاط بقدرة الله سبحانه وتعالى من ناحيتين، الأولى محاط بالطبيعة التي تتعامل معها حواس الجسد، والثانية محاط بالعقل والروح والفكر التي تتعامل معها المشاعر والأفكار والإيمان والعقائد... الخ، وما حقيقة المخ أو الدماغ إلا تلك الوصلة الرابطة بين هاتين المجموعتين، فهو يستخلص ما يصله من مؤثرات مادية ومعلومات عن طريق الحواس الجسدية الخمسة، فيستلمها ويترجمها الى إشارات روحانية معنوية لا يفهمها الا العقل أو الروح (كما يفعل جهاز الكومبيوتر عندما نعطيه المعلومات على شكل حروف وأرقام فيغيّرها ويستبدلها الى نقاط وعلامات وإشارات لتخزينها لا يفهمها إلا الجهاز)، وعندما يستلم العقل من المخ هذه الإشارات

الروحانية، يفهمها ويتعامل بها ويدرك معانيها، فيحفظها في داخل القوة الحافظة أو الحاسة الحافظة التي هي إحدى قوى الروح والعقل العديدة، ومن ثم يعيدها على شكل أوامر الى حواس الجسد وأعضائه ليترجمها الى أفعال وتصرفات.

إذن يمكن تشبيه المخ أو الدماغ بالفاصل أو الوصلة أو البرزخ العظيم نظراً لتركيبته المعقدة غاية التعقيد، فهو يفصل بين بحر الطبيعة وسائر موجوداتها اللامتناهية وبين بحر العقل والروح الذي ليس له حدود.

وفي المقابل عندما يريد الإنسان تذكّر أمرٍ ما أو التفكير في موضوع قديم سبق وأن مرَّ عليه فيما مضى ليتخذ قراراً أو تصرفاً بموجبه. فما يحصل بالتحديد في هيكل الإنسان، هو عبارة عن دورة من حركة المعلومات المتصلة المتواصلة بشكل دقيق متناسق يشترك في أدائها وإيجادها تفاعل مجموعة من الوقائع والظروف المادية المحيطة بكيان الإنسان الطبيعي، إذ لابد له من رؤية صورة أو حركة بحاسة البصر أو سماع كلمة أو موضوع بحاسة السمع أو أداء فعل بأعضاء الجسد لتظهر عنده حالة أو إرادة التذكّر، وعندما تصل هذه المؤثرات الحسية المادية الى الدماغ في الرأس عبر حواس الجسد وتصب في داخله، يقوم بترجمتها الى إشارات معينة خاصة ويرسلها الى العقل المعنوي في الروح، فيفهمها العقل بدوره ويدرك معناها ثم يبدأ

في الحركة والعمل للبحث عما سبق وسجل فيه من معلومات تخص الموضوع المطلوب لاسترجاعها، أي أن المخ أو الدماغ يطلب من العقل ملف الموضوع المراد استرجاعه، وهذا بدوره يبدأ في البحث عنها بسرعة كبيرة بين رفوف مكتبته المعنوية، وبعد أن يجدها، يعيدها الى الدماغ على ذات أشكال الإشارات والرموز الروحانية التي سبق وتعامل بها مع المخ، فيترجمها المخ مرة أخرى ويفهمها ثم يأمر الجسد أو أعضائه بتحويلها الى أفعال أو تصرفات مثل الكلام أو الحركات أو يأمر بالكف عن تصرف ما، قد يستحسنه المقابل أو يستهجنه. وكل هذه العملية المعقدة قد تتم في سرعة خارقة في أجزاء من الثانية.

ان هذه الاستنتاجات لا يمكن التوصل إليها لولا توفر كل هذا الكم الهائل من المعلومات والنظريات ووصول العلم الى هذا المستوى الرفيع من التقدم، فالعقل رحمة من الله لمعرفة خالقه وليس أداة للكفر بنعمة موجده.

ان العقل أي (القوة المفكّرة): هو قوة معنوية روحانية غير مادية مرتبطة ارتباطاً معنوياً غير محسوس بجهاز المخ المادي، مثلما ترتبط الروح المعنوية بالجسد المادي وترسل إليه وتستقبل منه المعلومات والأحاسيس والمعقولات من خلال جهاز المخ. والعقل لا يكمن في المخ ولا يوجد في داخله، بل يتعلق به ويرتبط معه، مثلما ترتبط على سبيل المثال محطات الإذاعة والبث التلفزيوني بكامل أبنيتها وأجهزتها

وموظفيها، مع أجهزة الراديو والتلفزيون والأنترنت في كل مكان. والعقل يشمل خمس قوى معنوية نستعملها ولا نراها، هي:-

1 – القـوة المتصـورة (المتخيلـة): وهـي التـي تتصـور الأمـور والأحداث.

2 – القوة المفكّرة: وهي التي تفكر في حقائق الأمور والمسائل وتعقلها.

3 – القـوة المدركـة: وهـي التـي تـدرك حقيقـة الأمـور والأشـياء وتنظمها.

4 – القـوة الحافظـة: وهـي التـي تحفظ وتختـزن كـل مـا يشـاهده ويتخيلـه الإنسـان ويفكـر بـه ويدركـه مـن معلومـات داخـل ثنايـا ملفاتهـا وتنظمها لتقديمها في الوقت المناسب.

5 – القوة المشتركة (الحس المشترك) وهي الواسطة أو هي قوة الاتصال بين حواس الجسد الخمس الظاهرة وبين قوى العقل الباطنة الأربع، فهي واسطة الربط بينهما لنقل المعلومات والاستفسارات واستلام الردود.

فمثلا ترى العين الوردة بقوة البصر، فتنقل صورتها الى قوة الحس المشتركة، وهذه بدورها تنقلها الى القوة المتخيلة فتتصورها وتحدد نوعية المشاهدة بشكلها وأبعادها، ثم توصلها الى القوة المفكّرة لتفكر بها وتصنفها وبعد أن تهتدي الى حقيقتها تسلمها الى القوة المدركة، وعندما

تدرك هذه القوة صورة الشيء المحسوس وتفهم انها وردة، تسلمها الى القوة الحافظة، فتحفظها وتبقى مخزونة في ملفاتها وداخل خزانتها، وبهذا تتم عملية التفكير والإدراك.

وهذه العملية تتم بشكل عكسي بذات التدرج، عندما نحاول التفكير أو تذكّر شيء من الأشياء أو أمرا من الأمور.

ان هذه القوى المعنوية الخمسة، مختصة بالعقل المعنوي فقط وليس بالدماغ المادي، لذلك فهي مرتبطة بالروح عن طريق العقل فقط باعتبار أن الروح والعقل موجودات معنوية. والعقل هو أقوى قوى الروح، لذا فهو وجميع قواه المعنوية بالإضافة الى قوى الروح المعنوية الأخرى ترتبط وتتعلق بالمخ المادي مثلما تتعلق الصور بالمرآة، فهي لا تسكن فيه أو تحل داخله أو تخرج منه، بل تنطبع عليه، لأنها قوى معنوية غير مادية. وبهذا فالمعلومات والأفكار الإنسانية لا ترتبط بالمخ المادي ارتباطاً مادياً حتى يمكن العثور عليها فسلجياً، وهذا ما يوضح عجز علماء الدماغ والأعصاب في العثور على مكان العقل ومقر تخزين المعلومات في الدماغ، ويحارون أكثر في البحث عن مكان الروح في الجسد، ويفسر خطأ جميع استنتاجاتهم. فمنهم من يقول ان العقل في الدماغ أو في المخيخ أو في جزء آخر من أجزاء المخ داخل الجمجمة، ومنهم من يظن أن العقل هو تلك الومضات أو الإشارات الكهروطيسية. بينما يقول آخرون ان الروح تسكن القلب أو الرئة أو

الرأس، ويظن آخرون انها تخرج من الجسد عند الموت كما ينزع القماش البالي الملتف حول حزمة من الشوك أو الأسلاك الشائكة، وآخر يعتقد انها تخرج من إصبع إبهام القدم عند الموت، أو من الأنف أو من الفم وغير ذلك من الرجم بالغيب. ان كل هذه المقولات هي عبارة عن نظريات وافتراضات تفتقر الى الدلائل العلمية والعقلية، لذا نرى تعدد الآراء والأفكار وليس هناك من يجزم بمكانها ولا من يستطيع تفنيدها.

ورب سائل يسأل: عندما نفكر، نشعر بعملية التفكير والتصور تحدث في داخل الرأس، فكيف يفسر ذلك؟ أو ان من يفكر بشيء أو يحاول تذكره، يهرش فروة رأسه بيده. أفلا يكون هذا دليلا على حصول عملية التفكير داخل جهاز المخ في الجمجمة؟ والإجابة على ذلك هي: أن هذا صحيح، لأن مجمل عملية التفكير المعنوية متعلقة تعلقاً كبيراً بجهاز المخ المادي، فالمخ هو الذي يرسل إشاراته التساؤلية الى العقل في الروح، ويستقبل الجواب بسرعة مذهلة يصعب لسرعتها إدراك ومعرفة من هو المفكّر ومن هو المستقبل أو المرسل، وبذلك يبدو وكأن المخ هو الذي يقوم بعملية التفكير. وبما انه لا يعرف حتى اليوم مكاناً للعقل غير المخ (الدماغ)، لذلك يعتقد الكثيرون ان عملية التفكير تتم في داخل المخ، ويخيل لهم ان المخ هو الذي يفكّر. ومن المحتمل ان هذا الافتراض القديم قد ورث من الأجداد ومن الكتب القديمة بسبب

محدودية العلوم والمعارف آنذاك. ومع ذلك، ورغم تطور العلوم في الوقت الحالي، فما زال العلماء المختصون عاجزون عن تحديد موقع العقل والروح، والسبب في ذلك بسيط جداً، لأنهم يبحثون في المكان غير الصحيح. أنهم يبحثون عن مخلوق معنوي بطريقة مادية في مكان مادي.

ان ثبت صحة هذه النظرية وهذه الفكرة علمياً، فمن الوارد جداً حدوث ثورة عظيمة واختلافا جوهريا في عالم الطب عموما وفي علم النفس وعلم الدماغ والأعصاب خصوصا بل وفي جميع العلوم الأخرى المتعلقة بهذا الخصوص، إذ يصبح التعامل مع الدماغ والأعصاب على أنها وسائط ارتباط مادية بين العقل المعنوي والجسد المادي، وبالتالي تسهل عملية معالجة المجانين وفاقدي الذاكرة والمرضى النفسيين جراحياً، وهذا يفسح المجال كبيرا أمام الأمل في عودة العقل والاتزان للمجانين وأمثالهم، وإعادة تعليمهم وتأهيلهم ليكونوا أسوياء كغيرهم، كما يمكن إعادة الذاكرة لمن فقدها بعملية جراحية بسيطة.

ان هذه النظرية، وجدت من خلال تفتح الأذهان والعقول والبصائر في هذا الزمن الذي بعث بشعاع الانفجارات الفكرية على جميع البشر، ويمكن رؤية هذا الفارق الشاسع والبون الواسع ولمسه بين قدرة وقوة وعلوم أجيال اليوم وأجيال الماضي، إذ لم تعد عملية التفكير والتبصر والمقارنة والاستنتاج مقتصرة على فئة معينة من الناس دون غيرها، ولا

على أمة دون سواها، فالكل راح يفكر ويتأمل ويحاول معرفة الخطأ من الصواب، وشمل هذا الإشعاع الفكري العظيم جميع البشر دون استثناء وبنسب متفاوتة كل حسب موقعه من العلم والتقدم ودرجة ارتباطه به، مثله كمثل أشعة الشمس عند سطوعها، فهي تنير كل شيء الا الذي يحتجب عنها بإرادته ويصر على القبوع في ديجور الظلمات ملتفاً بوحدته مبتعدا عن النور والظهور، فمثل تلك العقول المتعصبة ليس لها نصيب من شعاع شمس الروح الجديدة، كما قال تعالى **(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)**[2].

وبالاختصار ان عملية التفكير لا تتم في جهاز الدماغ (المخ)، فالدماغ عبارة عن جهاز لاسلكي دقيق إلهي الصنعة يربط بين ما تستقبله حواس الإنسان المادية من معلومات ومؤثرات ويرسلها الى العقل ثم يعود ليستقبل أوامر العقل ويوصلها الى الجسم وأعضاؤه لتترجم الى أفعال وتصرفات. بينما العقل هو القوة المعنوية المفكرة التي تشمل التصور والتخيل والتفكير والحفظ.

الهوامش

1 – كتاب "الأحلام بين العلم والعقيدة " للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية – 1994 – دار كوفان – لندن – صفحة 159.

2 – سورة الحجر 72.

الفصل الثالث

إثبات وجود الله

أشارت غالبية آيات القرآن الكريم، ومن قبله الإنجيل والتوراة والزبور، وجميع كتب الله التي نزلت على الأرض، الى موضوع وجود الذات الإلهية المقدسة، التي حارت البشرية في معرفة شأنها، وتاقت النفوس لكشف حقيقة كنهها. ومن المعلوم أن كبار الفلاسفة والمفكرين والعلماء، انقسموا منذ قديم الزمان الى قسمين في شأن وجود الذات الإلهية، وبقيا يتجاذبان أطراف البراهين في هذا الخصوص، كل يقدم براهينه وأدلته على صحة رأيه. فالإلهيون من أصحاب الكتاب، يؤمنون من خلال ما جاء في كتبهم وشرائعهم، وما تناقلوه من أقوال رسلهم وأنبيائهم ورجال دينهم، بوجود الله، وأنه هو الخالق لكل ما في هذا الكون من مخلوقات، وهو المهندس الأعظم لكل شؤونه. أما الماديون والوجوديون ومن حذا حذوهم، فهؤلاء ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى ويعترضون على رأي الإلهيين، ويقدمون من جانبهم، مختلف الدلائل المادية على عدم وجوده، ولهم في ذلك آراؤهم وحججهم القوية أيضا. لذلك، بقي هذان الطرفان كلاً في موقعه ثابتاً لا يتزحزح. فلا هؤلاء استطاعوا إثبات وجود الخالق بالمنطق والعقل والدلائل العلمية، ولا أولئك استطاعوا نفي وجوده، بالمنطق والعقل والدلائل العلمية أيضا. وبقي الطرفان منذ القدم وحتى اليوم، دون أن يتمكن أحدهما من إقناع

الطرف الآخر أو زحزحته عن موقفه.

إلا أن تقدم العلم وتوافر العلوم، وظهور المزيد من الأفكار والنظريات، بل وحتى ظهور الاكتشافات والاختراعات والآثار الجيولوجية، واستكشاف الفضاء في القرون الأخيرة، وكذلك من خلال الاستعانة بما ورد في كتب التاريخ، وبالاعتماد على بعض ما جد من مخترعات جديدة عظيمة كانت حتى وقت قريب، مكنونة في عالم الغيب والخيال. كل ذلك، أظهر بعض البوارق العقلية والأنوار المنطقية والدلائل العلمية، مما ساهم بشكل مباشر أو غير مباشر، في حل كثير من المسائل الغامضة على الفكر الإنساني، ومن ضمنها هذه المسألة الدقيقة المستعصية.

ومن خلال كل ذلك، ومن خلال تراكم مجمل ما توصل إليه العقل البشري، سنحاول طرق باب هذه المعضلة القديمة قدم التاريخ، وكشف بعض أسرارها. ويبدو أنه أصبح بالإمكان الآن، خرق بعض تلك الأستار الثقيلة، التي بقيت مسدلة على مر الزمان، للنفوذ الى حقائق هذه المسألة العميقة. بل ان هذا الخرق العظيم، وهذا الفتق المبين، راح يتسع ويكبر ليشمل الكثير من الأستار القديمة، مما مكّن الإنسانية من التمتع بكل هذه المكتشفات الموجودة في هذا القرن الأنور، وتسبب في نزول أمطار الفضل الإلهي، وهطول مياه الرحمة الربانية، بشكل لم يسبق له مثيل. وما هذا الخرق والكشف والنفوذ، إلا بداية لهذا الولوج

العظيم، ونفيرا عاما للشروع بهدم أسوار مدن الخرافات التي بقيت عقول البشر أسيرة معاقلها وسجينة حصونها. ومن الوارد جدا، أن يتبعه حالة من الامتزاج الواسع بين الأفكار البشرية الوضعية وبين العلوم الإلهية العلمية، بطريقة شاملة لم يسبق أن شاهدت البشرية مثلها على مر العصور. مما سيفتح بوابات واسعة للنفوذ الى آفاق علمية عظيمة، ستوصل البشرية الى أبعد نقاط الاكتشافات وتخوم حدود الاختراعات. ومن الوارد أيضا، أن يمسي تمازجا روحانيا وعقليا عظيما، يرفع من شأن العقل البشري الى مستويات راقية ورفيعة جدا. وما ظهور مثل هذه الأفكار الجديدة التي ستغيّر مسار تاريخ البشرية نحو الأحسن، إلا نتيجة لتقدم الفكر الإنساني وتوسع مداركه، وبالتالي لابد أن يصب في إحدى هاتين القناتين، ويساهم في ترجيح فكرة أحد الطرفين على الآخر.

* * *

من البديهيات المعلومة، أنه يستحيل على العقل البشري أن يسرح في عالم الخيال والتصور والتفكير والتأمل، إلا بقوة فكرة معنوية أو بواسطة معلومة حسية. وهذه القوة أو الواسطة، لابد أن تكون على شكل معلومة مكتسبة، إن كانت مادية أم معنوية، مهما كانت بسيطة أو صغيرة. وهذه المعلومة المكتسبة، لا سبيل لاكتسابها، إلا بواسطة الحواس الجسدية، كالعين والأذن وغيرها من بقية حواس الجسد المادية.

وبمعنى آخر، لا يمكن لأي إنسان، مهما أوتي من عقل وحكمة، أن يفكر بأمر من الأمور، ثم يستنتج أو يخترع أو يوجد أو يبدع أمراً أو شيئاً من الأشياء الجديدة المستحدثة، إن كانت مادية أو معنوية، إلا إذا امتلك معلومات أولية حسية مسبقة، يستند ويرتكز عليها في تفكيره أو تصوره، حتى يرتقي الى ما هو أعلى وأفضل منها، ثم يكتشف ما هو خلف أستار الغيب الممكن، أو يبدع في إيجاد واختراع كل ما هو جديد. فمهما حاول الإنسان التفكير والتأمل، وكان خلواً من المعلومات المسبقة، فلن يتوصل الى شيء جديد على الإطلاق.

ومن الجدير بالإشارة إليه، أن عالم الغيب، أي عالم الخفاء، ينقسم الى مستويات عديدة لا عد ولا حصر لها، فهناك عوالم الخيال المختلفة، وهناك عوالم التصور العديدة، وعوالم الاختراعات الكثيرة، وعوالم الاكتشافات، وعوالم الأفكار الجديدة، والنظريات والعلوم وغير ذلك الكثير مما تم التوصل إليه، أو ما يزال كامناً خلف أستار الغيب حتى اليوم. فمثل هذه العوالم الغيبية الخفية، استطاع الإنسان الوصول الى القليل منها، وسيصل الى المزيد غيرها، وسيستمر على هذا المنوال يكتشف في كل يوم شيئاً جديداً، وستزخر حياته مستقبلاً بشتى أنواع الاكتشافات والاختراعات الكامنة في عالم الغيب حتى اليوم.

والإنسان لا يتناول ولا يصل لما هو في عالم الغيب من علوم، إلا ما قدّر وحدد له وما باستطاعته الوصول إليه، عبر حواس جسده

المادية، ومن ثم عبر قوى التفكير والتأمل والتصور والخيال. ودليل ذلك كل ما هو موجود على الأرض من أفكار ونظريات، جاهدت عقول البشر في إيجادها وخلقها وإنزالها من عالم الغيب الى عالم الواقع، وكذلك كل ما هو موجود من اكتشافات واختراعات، لم تكن موجودة أو مشهودة من قبل. وكأن هذه العلوم عبارة عن حلقات لسلسلة طويلة لا تنتهي، كلما تناول الإنسان حلقة منها، سحب معها رأس خيط حلقة أخرى جديدة.

أما القسم الآخر من الغيبيات، فهي الغيبيات المطلقة أو عالم المطلق أو المجرد، التي يعجز العقل الإنساني عن الوصول إليها، مهما طار بأجنحة الخيال، ومهما ساح في فضاء التصور، فهي محجوبة عنه بشكل مطلق، بل وممنوعة ومحرمة عليه. مثل عالم ما بعد الموت، أو عوالم استقرار حقائق أرواح الرسل والأنبياء الكرام، أو، عالم ذات الله سبحانه وتعالى، الغيب المنيع الذي لا تدركه حواس الإنسان وقواه المعنوية، وهذا هو الحرم الممنوع وقدس الأقداس والعرش الأخفى الذي ماتت النفوس حسرة في معرفته، وفاضت أرواح الرسل والأنبياء الكرام حباً للتقرب منه.

نعود لموضوعنا مرة أخرى، أي الى عالم الغيبيات الممكن الذي باستطاعة الإنسان تناوله والدخول فيه وكسب علومه. ونحاول أن نبرهن عجز الإنسان تماما على التفكير والتأمل ومن ثم التطور

والاكتشاف والاختراع، إلا إذا اكتسب مسبقاً معلومة أو مجموعة من العلوم ليتمكن بها من تناول معلومات أخرى.

فعلى سبيل المثال، لو ترك أي إنسان عند ولادته وحيداً منعزلاً في صحراء جرداء أو في غابة كبيرة، مع توفر مستلزمات الحياة الضرورية له، فسوف لن يتعلم شيئاً، مهما كملت قدراته الجسدية، ومهما نمت وتنامت قواه العقلية. وسوف يكبر وينمو كأي حيوان آخر. وسيكون عاجزاً عن النطق أو التفكير، وسيبقى جاهلا تماما عن أية معلومات غريبة بعيدة عن واقعه الذي يعيش فيه إن كانت مادية أم معنوية فكرية.

ولو قدمت معلومات محددة حسب منهج معين، لمجموعة من الطلبة على سبيل المثال، فلن يتمكنوا من النهوض بمستواهم العلمي، مهما تفانوا في استيعاب هذا المنهج، من دون إضافات منهجية أخرى أعلى مستوى منها، إن كانت سمعية أم بصرية، وسيقفون عند حد معين من المستوى العلمي ولن يتمكنوا من تجاوزه أبداً. لأن الإنسان لا يمكنه التفكير أو تأمل أي شيء أو تصوره أو تخيله، إلا إذا حصل على معلومات حسية أو صور أولية عنه. فلا يمكن إيجاد صورة لشيء غير موجود من دون الحصول على نسبة من المعلومات الأولية عنه مهما كانت قليلة.

فلو حاولنا تصور شيء مجهول لا نعرفه، ولم يسبق أن فكر به أو شاهده أو سمع عنه إنسان من قبل، فلا يمكن ذلك مطلقاً، بل ويستحيل التوصل الى أي صورة له. فطالما كانت المعلومات والصور الأولية معدومة، فلا ينتج منه إلا العدم والمجهولية.

ولو طلبنا من شخص، تفسير رؤيا أو حلم من الأحلام. فلابد أن يستعلم قبل كل شيء عن تفاصيل الحلم. ثم يشرع بعد ذلك في التفسير مستنداً على خبراته ومكتسباته العلمية السابقة. إذ لا يمكنه التفسير من دون سماع التفاصيل وربطها بخزينه العلمي. فالمعلومات الأولية مهما كانت صغيرة ودقيقة، فهي مهمة وضرورية لبدء عملية التفسير.

ولو ذكرنا لشخص مجموعة من الحروف المركبة، وهي ناقصة الدلالة والمعنى، وطلبنا منه تبيين معناها، فلن يتمكن من الإجابة بشيء ذي فائدة، طالما لا يمتلك معلومات أولية عن مدلول هذه التركيبة، وسوف يفشل تماما، طالما أن الكلمة لا تدل على معنى، أو على أمر حقيقي.

وعلى سبيل المثال أيضا، لو سألنا شخصا أعمى منذ ولادته، عن معنى كلمة (جبل) أو كلمة (قمر) وهو لم يسمع عنهما من قبل، فسيستحيل عليه تصورهما بأي شكل من الأشكال، إلا إذا قدمت له بعض المعلومات الأولية في وصف حالتيهما وشكليهما وتكوينهما، مثل

الحجم والطول والشكل وغير ذلك. عندها يمكنه تصور بعض الصور عنهما. وبغير ذلك يعجز تماما عن إيجاد صورة لهما في ذهنه.

ولو سألنا شخصاً أعمى عن معنى السيارة، ولم يسبق له أن شاهدها أو سمع بها من قبل. وطلبنا منه وصفها. فسوف يستحيل عليه إعطاء أية صفة عنها، إلا بعد معرفة بعض المعلومات أو تلمسها أو سماع صوتها. وإلا فسيعجز تماما عن إيجاد صورة مقاربة لها في ذهنه.

فمحاولة التفكير والإبداع في أي مجال، لتناول ما هو في عالم الخفاء من علوم محجوبة، يحتاج الى فتحة أو فسحة أو منفذ للولوج منها، من عالم الواقع المادي الى عالم التأمل والخيال. ومن خلال هذا المجال الذي هو عبارة عن المعلومات الحسية أو التصورية المكتسبة، مهما كان ضيقاً، يمكن رؤية ما هو خلف العالم المادي، أي ما في عالم الغيب، واختراع ما لم يكن موجودا من قبل. وفي كثير من الأحيان يكون هذا الإيجاد الجديد، سبباً لنيل المزيد واكتساب الكثير من العلوم الخافية الجديدة.

ويمكن تمثيل الحاجز بين العلوم المتداولة وبين العلوم التي لم تكتشف بعد، بسد عظيم عال، يقف حائلا دون مرور المزيد من مياه العلوم والمعارف الى البشر، فالانسان يحاول بما بين يديه من أدوات العلوم والمعارف، وبقوة تفكيره وتأمله، خرق هذا السد المانع وإحداث

فجوة فيه، ليسمح بمرور المزيد من مياه العلوم الجديدة الخافية عنه خلف هذا السد العظيم. وكلما استطاع توسيع مساحة هذه الفتحة، ازدادت كمية مياه المعارف النافذة، وبذلك تزداد كمية الاكتشافات والاختراعات بين يديه باطراد. بينما تعجز الأدوات الرخوة، أي (المعلومات الخاطئة أو القليلة) عن خرق هذا الحاجز أو إحداث فجوة في هذا السد. لذلك كلما قويت الفكرة المادية الحسية أو العلمية وتدبب نصلها، أمكن توسيع مكان الخرق وزيادة كمية مياه العلوم وبذور المعرفة المارة من عالم الخفاء والغيب الى هذا العالم المادي.

إن عالم الغيب، هو عالم محجوب عن البصر، لا تشاهده العين، ولا تسمعه الأذن، ولا تصله بقية قوى الحواس الجسدية. لكنه يمكن الولوج إليه من خلال قوة الأفكار العلمية.

فعلى سبيل المثال، استطاع الإنسان معرفة كروية الأرض، من خلال النظر الى النجمة القطبية. فقد لاحظ أنه كلما توجه الى الشمال، ارتفع موقع هذا النجم فوق سمت الرأس. وفي المقابل، كلما توجه جنوبا، تدنى مستوى النجم نحو الأسفل. فاستنتج من ذلك كروية الأرض. فلولا هذه التجربة المرئية، ولولا استعمال حاسة البصر وقوة العقل والتفكير، والاستناد الى خزين معلوماته المتوافرة، لما استطاع الإنسان معرفة كروية الأرض. وبذلك يكون قد خرق بمعلومة مادية حسية، حاجب العلوم الغيبية، واستطاع تمرير مياه علومها.

ولولا اختراع جهاز التلسكوب، الذي كان بحد ذاته من علوم الغيب، وتمكن الإنسان من خلال قوة حاسة البصر تخيل إمكانية اختراعه، ثم إيجاده، لما أمكن رؤية نجوم وكواكب ومجرات، بقيت مخفية عن بصر الإنسان لملايين السنين. فاستعمال حاسة البصر والاستعانة بقوة العقل وما خزن فيه من علوم سابقة، مكّن الإنسان من تخيل جهاز التلسكوب، وهذا بدوره أدى الى رؤية ما عجزت العين المجردة عن رؤيته، وما كان في عالم الستر والخفاء.

ولقد بقيت الفواكه عند نضوجها، تتساقط من الأشجار لملايين السنين، إلا أن شخصاً واحدا، استطاع أن يتساءل عن سبب سقوطها الى أسفل وعدم صعودها الى أعلى. ولولا قوة البصر والتفكير والتأمل ووجود هذه المعلومة البصرية البسيطة وغيرها من المعلومات المكتسبة، لما تمكن الإنسان من النفاذ الى عالم الخيال، وتصور وجود قوة الجاذبية. وبهذا يكون قد استند على هذه المعلومة البصرية وغيرها، للنفوذ الى عالم خفي آخر، وتأمل اكتشاف وجود قوة الجاذبية غير المرئية.

ولقد بقيت البشرية تمشي على الأرض لملايين السنين وتشاهد الطيور سابحة في السماء، ولولا قوة البصر ورؤية هذه المناظر الجميلة، لما فكر أول إنسان بمحاكاة الطير. فمن خلال هذه المعلومة البصرية البسيطة، استطاع الإنسان النفوذ الى عالم الخيال، وتأمل

طيرانه في الفضاء. فباستناده على هذه المعلومة الحسية، استطاع النفاذ الى عالم الخيال والتفكير في كيفية تطبيق هذه الفكرة على أرض الواقع ومن ثم دخول مجال الطيران وعالمه.

ولولا استعمال قوة حاسة السمع وسماع الأصوات، لما استطاع البشر النفاذ الى عالم الخيال وإيجاد فن الموسيقى والغناء والأنغام والتمتع بمقطوعاتها. فمن خلال الاستناد الى قوة حاسة السمع، تمكّن الإنسان من اختراع الأنغام واجتذاب الموسيقى.

فكل ما اخترعه واكتشفه ونقله العلماء والمفكرون والمبدعون من عالم الغيب الى عالم الواقع، استند جميعهم دون استثناء على معلومات سمعية أو بصرية أو غيرها بنسب معينة، واستطاعوا من خلالها، نقل تخيلاتهم وتصوراتهم من عالم الخيال والخفاء الى عالم المادة والواقع.

فمن خلال تراكم المعلومات والاختراعات، واستناد بعضها الى بعض في هذه الحياة المادية، تزداد العلوم عند الإنسان وتزداد كمية الاختراعات والاكتشافات، وهذه بدورها ساهمت بشكل أقوى مرة بعد أخرى في توسيع خروقات أستار الغيبيات وسدودها. فهي علاقة قوية متبادلة، كلما ازداد الاهتمام بالعلوم المادية المحسوسة، ازدادت كمية العلوم الهاطلة من عالم الخفاء الى عالم الواقع، وهذه بدورها تزيد من قوة الاهتمام ورغبة المحاولة من جديد، فيزداد الخرق اتساعا.

فالمعلومات عبارة عن سلم طويل لا نهاية له، يتسلقه الإنسان باستمرار. ولقد بقيت البشرية، منذ وجودها على الأرض، تصعد هذا السلم العلمي بخط بياني متصاعد نحو الأعلى بدرجات متفاوتة. ودليل ذلك تاريخ البشرية العلمي.

يستنتج من كل هذا، أن كل ما هو خفي عن تناول قوى حواس الإنسان المادية، لا يمكن الوصول إليه، إلا إذا استند العقل الإنساني على معلومة حسية سابقة. وبغير ذلك، يبقى الإنسان جاهلا الى الأبد.

* * *

هنا يظهر السؤال التالي: إن الله سبحانه وتعالى، غيب منيع لا تدركه الأبصار، أي لا تدركه الحواس الجسدية، ولا حتى قوى العقل والبصيرة، ولا قوى التخيل والتصور، ولم يسبق أن عرفه أو شاهده أو سمعه أو حس به أو لمسه إنسان من قبل. فكيف إذن، ظهرت فكرة وجود الله في عقول البشر؟ ومن ذا الذي فكّر بها وأوجدها أول مرة؟ ومن أين أوجدها، والطريق الى هذا السبيل مسدود، والطلب لهذه المعلومة مردود؟.

فإن كانت العلوم المادية الإنسانية المكتشفة أو المخترعة، أو العلوم المعنوية والنظريات الفكرية البحتة، قد احتاجت الى معلومات أولية مادية حسية للوصول إليها والكشف عنها، فكيف أمكن التوصل الى

معلومة وجود الله سبحانه وتعالى، وهي معلومة غيبية خالصة وفكرة روحانية بحتة لا يمكن الاستناد الى أية معلومة أرضية للتوصل إليها؟.

وبمفهوم آخر، وطريقة أخرى لطرح هذا السؤال. إن جميع ما هو موجود على الأرض من معلومات مادية أو مكتسبة أو محسوسة أو أفكار معنوية أو نظريات علمية وفكرية، لا يمكن أن تدل بشكل قاطع على وجود ذات الله. فكيف استطاع الإنسان إيجاد فكرة وجود الله؟.

وبمعنى آخر أيضاً، ان كل ما استطاع الإنسان كسبه من العلوم الخفية، مثل الاكتشافات والاختراعات، قد احتاج الى الاستعانة بقوى الجسد الحسية ثم الى قوى العقل المعنوية للتوصل إليها. فكيف تمكن من إيجاد فكرة وجود خالق غيبي لهذا الكون، وحواس الجسد المادية الحسية وقواه المعنوية، عاجزة عن الوصول إليها؟ ودليل هذا العجز، هو اختلاف كبار العلماء على تأكيد إثبات أو نفي وجود الله سبحانه وتعالى.

فإن قال أحدهم، ان وجود الإنسان أو الحيوان أو النبات أو السماوات والأرض، أو وجود الكتب السماوية وما تقوله الآيات الإلهية وظهور الرسل والأنبياء، وكل ما يشاهد أو يسمع، وكل ما هو مشهود على الأرض وفي هذا الكون الشاسع، هو دليل على وجود الله سبحانه وتعالى. فنقول: ان كل هذا، لم يكن دليلا كافيا لجميع البشر بمختلف

عقائدهم وأفكارهم. فطالما عجزت هذه الموجودات بمختلف أشكالها وأنواعها عن إقناع فئة كبيرة من العلماء الماديين وشريحة كبيرة من أمم الملحدين، على إثبات وجود الله بشكل قاطع جازم. فهذا يعني أن جميع هذه الأدلة، ليست كافية على إقناع جميع البشر دون استثناء، بوجود الله سبحانه وتعالى. فلو كانت هذه الدلائل المختلفة، كافية للبرهنة على وجود الله، فالمفروض أن ينتفي وجود المعتقدين بفكرة الوجودية أو الطبيعية أو الإلحاد. بل يجب ان لا تظهر فكرة الإلحاد على الأرض على الإطلاق أصلا، ويقتنع جميع البشر بالفطرة، وبدون أقل تردد على وجود الله، مثلما يقتنعون جميعا بوجود الشمس والأرض والقمر والماء والهواء وغير ذلك من مختلف المحسوسات أو المعقولات.

من هنا يظهر سؤال محير آخر، إن كانت قد عجزت جميع عقول البشر في هذا اليوم، مع كل هذا التقدم العلمي والفكري، عن تأكيد أو نفي فكرة وجود الله بالطرق العلمية. فكيف استطاع البشر في قديم الزمان، رغم بساطة مكتسباتهم العلمية والعقلية، إيجاد فكرة وجود الله؟.

وبصيغة أخرى، إذا عجز البشر اليوم مع كل ما هو متوفر من علوم وحكمة ومعارف عن تأكيد أو نفي وجود الخالق بالطرق العقلية والعلمية، فكيف وجدت هذه الفكرة الخارقة في عقول البشر في قديم الزمان؟ ومن أين للقدماء مثل هذه القدرة على التفكير والسياحة في عالم الخيال والولوج الى عالم التصور، ومن ثم إيجادها؟.

من هذا يتضح، أن هناك حلقة مفقودة بين العقل والخيال والتأمل الإنساني من جهة، وبين إيجاد فكرة وجود الله من جهة أخرى، عجز الإنسان على إيجادها طوال فترة وجوده على الأرض بمختلف مراحله العلمية وتباين قدراته العقلية.

ومن هذا يتضح أيضاً، أن أول من أوجد هذه الفكرة على الأرض (أي فكرة وجود الله) لابد وأن يكون قد امتلك قوى وصفات عظيمة تختلف عن صفات البشر العادية. أو بمعنى أصح، امتلك صفات أرقى وأقوى وأشمل من صفات البشر، وقوى عقلية خارقة استطاع التوصل بها الى إيجاد هذه الفكرة. لأن الإنسان العادي عجز ويعجز عن التوصل الى مثل هذه المعلومة، حتى وإن استعان بكل ما بين يديه من معلومات مادية أو معنوية. بل ثبت قطعاً أن كل ما هو متوفر من معلومات بشرية، غير كاف تماما للنفاذ الى عالم هذه الفكرة في أي حقبة زمانية، إن كان في الماضي أم في الحاضر. ولابد أن يكون هذا الشخص الذي أوجد فكرة وجود الله لأول مرة، هو إنسان خارق لقوى الطبيعة. فمن هذا الشخص الخارق المعجزة يا ترى، والفكرة قديمة قدم التاريخ؟.

لو تفحصنا جميع صفحات تاريخ البشرية، لا نجد من نادى بهذه المعلومة أو أكد على وجودها غير الرسل والأنبياء عليهم السلام.

من هذا نخرج بنتيجة مفادها، أن هؤلاء الرسل والأنبياء عليهم السلام، لابد وأنهم ملكوا قوى خارقة غير عادية، ومعلومات أسمى وأرقى من عموم البشر، تمكنوا من خلالها الوصول الى عالم هذه الفكرة، وأنهم لم يستعينوا بما هو متوفر من علوم ومعارف حسية أو معنوية إنسانية أو يستفيدوا منها، والسبب هو: ثبات عدم فائدتها تماماً في هذا المجال حتى للبشر. ثم ومن خلال هذه القوى الخارقة غير العادية التي تمتعوا بها، تمكنوا من إيجاد فكرة وجود الله الخالق وزرعها في عقول البشر العاجزة تماما حتى هذا الوقت عن التحليق في هذا الفضاء الأمنع الأقدس الأسمى. ومما يزيد في عظمة ورفعة مقامات هؤلاء الرسل والأنبياء، ان تواريخ حياتهم، وشهادات من عاشوا في زمانهم، تثبت بشكل قاطع، عدم تقربهم من مجال التعلم وساحات العلم البشرية. وإلا لبادر كل من عاش في زمانهم، الى كشف حقيقة تعلمهم، قبل خصومهم وأعدائهم الذين جاهدوا بمختلف الوسائل للحيلولة دون انتشار أفكارهم ودعواتهم. إذ ليس من المعقول أو من المنطق أن يتركوهم ليدّعوا الأمية وعدم تعلّم القراءة أو الكتابة، دون كشف حقيقتهم أو التشهير بهم. بل وحتى لو وافقنا القائلين بفكرة تعلمهم واكتسابهم العلوم الأرضية جدلاً، فلقد أثبتنا بشكل قاطع، عجز هذه العلوم الإنسانية عن إثبات أو نفي وجود الخالق. وبهذا لم تكن لهذه العلوم البشرية من دور في إيجاد هذه الفكرة، طالما انها لم تنفع البشر أنفسهم حتى هذا اليوم في هذا المجال.

وطالما علمنا وأثبتنا ظهور رجال الله هؤلاء منذ قديم الزمان، وتحقق وجـودهم علـى الأرض بمختلـف الأزمـان، وامـتلاء صـفحات التـاريخ بذكرهم وتواريخهم. يتضح حقيقة المتسبب في إيجاد وخلق وانتشار فكرة وجود الله منذ قدم التاريخ. فوجود هذه الفكرة وايجادها، كان سببه الأوحد والأساس، هم رسل الله وأنبياؤه فقط. لأننا أثبتنا استحالة توصل عقل الإنسان وقواه الحسية الى هذه المعلومة الغيبية.

لذا يثبت قطعاً، ان أصحاب هذه الفكرة المستحيلة الإيجاد بشرياً، هم رجال بقدرات علمية خارقة فوق قدرات البشر. وطالما أكدوا جميعا ودون استثناء، أنهم مرسلون من عند الله القادر المقتدر العظيم، واتفقوا جميعا على ذات المصدر ونفس المرسل، ولم يخرج أحد منهم بدعوى مخالفة لما اتفقوا عليه، رغم تعدد ألسنتهم، وتفاوت فترات الزمان الفاصلة فيما بينهم، واختلاف قوميات أقوامهم. ثبت صحة ذلك دون شك.

من هذا يتضح أيضاً، بالإضافة الى ما سقناه من أدلة علمية وعقلية على وجود الله، وعلى من أوجد هذه الفكرة الخارقة بين البشر. أن رسل الله وأنبياءه، هم مخلوقات روحانية مقدسة، أعلى مرتبة ومستوى وقدرة من جميع البشر، وان هذه الملكات والقدرات التي تميزهم عن البشر لا يمكن الاطلاع على حقيقتها أو مقدارها أو معرفة درجاتها، مهما تسامى البشر في قدراتهم العقلية. فمثلما عجز البشر عن إيجاد أو إثبات فكرة

وجود الله سبحانه وتعالى، فهم عاجزون أيضا وبشكل مطلق عن معرفة مقام وشؤون هذه الوجودات المقدسة. وكل ما يمكن القول حول ذواتهم، أنهم أرواح نزلت من عوالم روحانية أعلى مستوى من عوالم أرواح البشر، لا علم لنا نحن البشر بأماكن تواجدها واستقرارها، كانوا ويكونون الواسطة الإلهية الفريدة والوحيدة لتوصيل أوامر الله وعلومه وشرائعه المتعددة الى خلقه. لأن العلاقة بين الخالق سبحانه وتعالى وبين خلقه، مقطوعة تماما بشتى أنواعها، فهو مقدس منزه عن جميع خلقه، ولا يمكن إيجاد صلة وصل بينه وبين خلقه بأي صورة كانت، إلا من خلال هذه الهياكل المقدسة.

وبهذا تظهر عظمة سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وعظمة ورفعة شأن جميع المرسلين الكرام، وقدسية جميع الأنبياء السابقين، من الذين سمعنا بأسمائهم أم لم نسمع. وان الفكرة الواهمة التي تمسك بها بعض الناس، والقائلة أن الرسل والأنبياء هم بشر عاديون مثلنا يتمتعون بذات الصفات الإنسانية لا أكثر، هي فكرة ضعيفة ركيكة بحاجة شديدة وملحة الى إعادة نظر وتمحيص. لأننا أثبتنا أنهم يمتلكون بالإضافة الى الصفات الإنسانية العادية، صفات أخرى يمكن تسميتها (رسالية) أعلى من مستوى البشر، أنعم الله بها عليهم دون سواهم من مخلوقاته.

إذن، إن أي فكرة وجدت في عقول البشر العاديين مهما كانت ضعيفة أم متينة، عن وجود قوة غيبية عظيمة مسيطرة على هذا الكون تتحكم بشؤونه وموجوداته، هي فكرة لم تخلق أو توجد، إلا إذا أوجدها أو نقلها رجل بمستوى أعلى من مستوى البشر، جاء من عند الله سبحانه وتعالى. أما ما يفترضه العلماء الماديون من فرضيات عديدة حول سبب إيجاد هذه الفكرة، وينسبونها الى خوف الإنسان أو شعوره بالنقص أو الضعف أو الإحساس بالظلم أو الحاجة الى تصور منقذ أو ان الخيال الإنساني هو الذي تفتق عنها أو غير ذلك. فكل هذه الفرضيات وغيرها، قد ثبت بطلانها من خلال بطلان الفكرة الأم، وهي بطلان قدرة العقل البشري على إيجاد وخلق مثل هذه الفكرة.

* * *

يستنتج من كل هذا، وجود علاقة محبة قوية ومتصلة، بين الله سبحانه وتعالى وبين خلقه البشر. فطالما كان الله سبحانه وتعالى غيباً منيعاً لا يدرك بالحواس أو بالعقل، لذلك أوجد طريقة للاتصال بخلقه، وهذه الطريقة هي الشرائع والبرامج الإلهية المتتالية. وطالما ان الصلة بين الخالق والمخلوق منقطعة، كان لابد من إيجاد وسيلة لنقلها الى الخلق، وهذه الوسيلة لابد من امتلاكها لمقومات ومزايا يمكن التفاهم والتعامل بها مع البشر، لذلك كانت فكرة إيجاد الرسل والأنبياء. فكان لابد لهم أن يكلموا الناس بلغاتهم وحسب مستوى عقولهم، لينقلوا لهم ما

أمّنهم عليه مرسلهم. وهذه البرامج الإلهية أو الشرائع السماوية، احتوت على نصائح وتوصيات إلهية استهدفت رقي الإنسانية وتقدمها، وفائدة كل ما يحيط بها من مخلوقات طبيعية. وكلما ازداد تأثير هذه الارشادات السماوية على البشر وازدادت استجابتهم إليها وارتفع صدى مفعولها، كلما ازداد نزول أمطار الغيث الإلهي وهطول مياه الرحمة الربانية.

الفصل الرابع

بداية وجود المخلوقات على الأرض

تعود بداية تكوّن مجموعة الأجرام الكونية الى فترات عميقة جدا في التاريخ يصعب تحديدها حتى ببلايين السنين، ومن المؤكد ان بداية خلق الكون شمل الكرة الأرضية ضمناً، فهذه بداهة، إذ لا فضل للأرض على باقي النجوم والكواكب والأفلاك حتى توجد قبلها. أما فكرة تفضيلها على غيرها لأنها تضم الإنسان والمخلوقات الحيّة، فهذا الادعاء يبقى صحيحاً نسبياً حتى اكتشاف مخلوقات ثانية على كواكب أخرى.

لقد طرحت نظريات كثيرة في كيفية خلق الكون، منها ما هو معقول بعض الشيء، ومنها ما يدخل في باب التصور والخيال، إلا انها جميعاً تخضع لمبدأ الخطأ والصواب، لأن الجميع تكلموا عن حدث وقع قبل زمن لا يعرف مقداره الا الله سبحانه وتعالى، واعتمدوا في أفكارهم ونظرياتهم إما على العلم أو على الدين أو أخذوا من الاثنين معاً، فتاريخ هذا الكون غارق في مجاهل القدم، لا يمكن تصوّر يومه الأول أو التكهن ببداية تاريخه.

خلق الله عز وجل الإنسان وخلق معه ما في الأرض من موجودات ليسخرها للإنسان كي يتمكن بوجودها من البقاء والتقدم، وميّزه بالعقل عن الحيوان والنبات والجماد، لذلك تمكن من الترقي والتحضّر. وبما ان سُنة الله في الخلق سُنة ثابتة، هي سنة التدرج والرقي، كذلك كان شأن الخلق في بداية نشأته، خُلق الإنسان ضعيف الجسد والعقل، واحتاج الى ملايين السنين ليتدرج ويتقوى وينضج ليصل الى ما هو عليه اليوم من علم وعقل. أما ما تذكره الأساطير والقصص القديمة عن قوة بنية الإنسان وضخامته وقوة عضلاته، فهذا أمر حصل في مراحل لاحقة جداً وليس في بداية خلقه، مثلما يحصل النضوج التدريجي في عملية الخلق الفردية الثانية التي تبدأ بالنطفة داخل الرحم وتنتهي الى النمو والكمال، فجميع المخلوقات ولدت من أرحام أمهاتها صغيرة ضعيفة جاهلة ثم نمت وكبرت وتعلمت حتى وصلت الى درجة التكامل والنضوج. ومع ذلك، فلم يكن جسم الإنسان في أي مرحلة من مراحل التاريخ كبير جدا أو عملاقاً كما يظن البعض، بل على العكس من ذلك، كان حجمه مقارباً لما هو عليه اليوم، أو أصغر قليلاً، بسبب خضوعه لعملية النشوء والتطور والارتقاء، لكننا لا ننكر أنه كان قوي الجسم مفتول العضلات في العصور اللاحقة لزمن خلقه ووجوده على الأرض، وذلك لحاجته الماسة للبقاء والتعامل مع بيئته الصعبة وبقية المخلوقات القوية.

بنيت عملية الخلق وهندسها موجدها حسب النظام المداري أو (الدوران)، وهذا ما نلاحظه في جميع المخلوقات، فعلى سبيل المثال، يخضع جسم الإنسان لهذا النظام ويدور في هذا المجال، فيبدأ صغيراً ويكبر ثم يموت ويتحلل لتعود عناصره الأولية الى الأرض، ثم يعود غيره ليولد ويأكل من ذات مواد الأرض، وهكذا.. والمخلوقات بكل أنواعها تبدأ وتنتهي وهي تخضع لنفس هذا النظام البديع، فكوكب الأرض يدور حول الشمس، والكواكب والمجرات الكونية تتحرك بشكل دائري، وحركة المياه على سطح الأرض أو في أعماقها تتبع عملية مدارية. فكل مخلوق في الكون خاضع لهذه العملية الأزلية.

يمكن تسمية عملية التجاذب التي تمت بين ذرات السديم ساعة خلقه ووجوده في الكون، بـ "قوة المحبة" أو "قوة الحب". فبالمحبة تتجاذب الذرات وتتحد الخلايا لتشكل الكائنات، وبالمحبة والتعاون تتجاذب المخلوقات لتشكل المجتمعات، وعند تجاذب ذرات جسم الإنسان وبسبب محبة بعضها لبعض يوجد الجسم الحيّ، وعلى العكس من ذلك عند فقدان المحبة وانتفائها، وهذا ما يطلق عليه بمصطلح الكراهية، تتباعد ذرات الجسم وتتنافر فيحصل الموت والفناء. ولولا المحبة (قوة الجاذبية) لتفرقت النجوم والكواكب وتناثرت أو لتجاذبت واجتمعت بدون تنظيم ولا قانون. ولولا تجاذب وتحابب ذرات ومكونات البيت وأجزائه

لانهدم وسقط، ولولا وجود المحبة لما وجد السلام ولعمَّ القتال والحرب كل حياة البشر، ولولاها ما وجدت الأسرة وما خلقت المجتمعات.

فببساطة ان كل ما موجود على الأرض وفي هذا الكون، تحكمه سر حرارة محبة الله، فكل ما هو معمور ومشهود يدل على التجاذب والمحبة والبقاء والدوام، وكل ما هو مطمور ومنثور يدل على التنافر والكراهية وينتهي الى الفناء، لذلك قال السيد المسيح(ع): (الله محبة)[1]. أي ان الله عز وجل هو سبب التآلف والتجاذب والتواصل واللقاء بين كل ما هو مشهود ومنظور. ومن ناحية ثانية، ينسب كل ما هو سبب التباعد والتناحر والتفرق الى الشيطان، للدلالة على الكراهية وعدم المحبة والى بقية الصفات السيئة التي لا تنسب الى ذات الله.

اذن، لولا محبة الله لمخلوقاته جميعاً وللبشر على الخصوص، لما وجد السديم ولا خلق أصلا، وبالحب والمحبة تجاذبت ذراته واجتمعت على شكل كرات غبارية هائلة كل حسب موقعها ومكانها لتظهر منها الكواكب كبيرها وصغيرها وتتناثر في الفضاء الكوني. وبمرور ملايين السنين ازداد التجمع والتآلف والمحبة (الجاذبية) بين ذرات السديم المتطابقة والمتجانسة في الخاصية والنوعية، فشكلت كل مجموعة متجانسة منها بذرة كوكب أو نجم له تربته الخاصة. وبما ان هذا التجمع كان أقرب في شكله الى الحالة الغبارية منه الى الكتلة الصلبة، فلابد ان كانت حركته الدائرية واسعة جداً، أي ان دورانه وحركته

وحجمه كان هائلاً جداً بالنسبة الى شكله النهائي، فكل كوكب كان في البداية أكبر من حجمه الحالي أو النهائي بآلاف المرات، كما هو الحال بالنسبة الى الماء عندما يكون بخاراً.

وبمرور ملايين السنين بدأت الكواكب تأخذ شكلها الكروي نتيجة حركتها الدائرية وتجاذب ذراتها المتجانسة، فالشموس ونتيجة لنوعية مادتها وقابليتها على الاحتفاظ بالحرارة، بدأت بالتكون والتجمع والإشعاع، وبقية الكواكب بدأت بالبرود واتخاذ هيئات معينة. وهذه العملية لم تتم في مكان واحد محدد، بل ان عملية تجمع الذرات المتشابهة المتآلفة للسديم شكلت مجموعات هائلة من الكواكب نتيجة كبر الكون وضخامته وهذا ما نطلق عليه اسم المجرات، ومن خلال طريقة الإيجاد هذه، يمكن الافتراض ان ما خلق من مخلوقات وموجودات في مجرة معينة يمكن تكراره وحصوله في مجرات أخرى، وبالتالي يمكن القول، إذا لم يوجد مخلوقات ولا بشر على كواكب مجرتنا، فمن المؤكد وجود بشر أو مخلوقات في كواكب بقية المجرات، هذا بالإضافة الى إمكانية تحديد مواقعها على الكواكب التي تخضع لنظام وأبعاد مشابهة لما بين شمسنا وكرتنا الأرضية، فان توافرت نفس الأبعاد الحالية بين شمسنا وأرضنا فيما بين كوكبين آخرين متشابهين في هذا الكون، وجب حصول نفس الظروف الملائمة لإيجاد المخلوقات، لان من لوازم وضروريات وجود الحياة على الأرض هي

قوة أشعة الشمس ودرجة حرارتها، فمن الثابت علمياً ان الشمس لو اقتربت أو ابتعدت عن الأرض بمقدار بسيط، لاحترق أو تجمد كل ما على الأرض وباد وفنا، وما المسافة بين هذين الكوكبين الا بتقدير مقدّر قدير وهندسة مهندس حكيم.

اذن: فوجود مخلوقات أو بشر على سطح كوكب ما في هذا الكون يحمل نفس خصائص الأرض وعناصرها ويبعد نفس المسافة عن الشمس التابع لها، هو احتمال كبير.

باستمرار وجود الحركة والحرارة والبرودة والدوران والتفاعل، تكورت الأرض وتكونت وبدأ سطحها يعزل أجزاءها الصلبة عن أجزائها السائلة نتيجة للدوران المستمر، أي عزل وغربلة المادتين الأساسيتين في تكوين الأرض، وهما المادة الصلبة (الطينية) والمادة السائلة (الماء)، حيث لا توجد مادة ثالثة اسمها غازية!! بل ان كل مادة ارتفعت عن سطح الأرض وقلّت كثافتها وتباعدت جزيئاتها من المواد الخفيفة المشاركة أصلا في تكوين كتلة الأرض، أطلق عليها العلماء اسم الهواء أو الغازات لتمييزها عن بقية المواد الصلبة والسائلة. وهذه تسمية قد تتغير مستقبلاً، لأن السوائل على نوعين، نوع ثقيل ترسب على الأرض وصار جزءاً من تكوينها، فسميّ بالماء، وسائل آخر خفيف ارتفع عنها، لكنه بقي يحيط بها لا يفارقها، فسمي بالهواء. وهذه نظرية نجد لها

تأييداً في القرآن الكريم بقوله تعالى **(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)**[2]، لأن عملية السباحة لا تتم الا في المواد السائلة أو المائعة.

وهذا القول يدخلنا في مجال آخر وفكرة جديدة أخرى، وهو انه لا فراغ في الكون، أو بمعنى آخر انه لا يوجد هناك خلاء كوني! لأن الكواكب تسبح في الفضاء، إلا أن بعض علماء الفلك يقولون ان هذا الفضاء خال من كل شيء، لذلك سمّوه فضاءً، ومن المحتمل ان تطور العلم في المستقبل سوف يكشف ان ما يحيط بغلاف الكرة الأرضية ويتخلل هذا الكون، ليس بفضاء خال، بل هو نوع آخر خفيف جداً من أنواع المواد المائعة (السائلة)، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة السالفة. اما الدليل العلمي على صحة هذه الفكرة، فهو انتقال الإشارات اللاسلكية وغيرها بين أهل الأرض ورواد الفضاء رغم طول المسافات الشاسعة التي تفصل بينهما، فلو كان الفضاء خاليا تماما كما يقال، لانقطعت هذه الاتصالات، لأن الخلاء أو الفضاء هو عدم بحت، والعدم هو فناء صرف، والفناء والعدم لا يمكن التعامل معهما أو بهما ولا يخلق أو يوجد منهما شيء.

من خلال الحرارة والبرودة والحركة والدوران وتكوّن الطين والماء، تفاعلت وتمازجت العديد من الذرات والعناصر المادية المختلفة الموجودة داخل هذا الخليط الطيني، فدبّت بعض أشكال الحياة البدائية البسيطة الجديدة، ونتيجة التآلف والتقارب والاتحاد والمحبة راحت تتكون

أسس بذور وخلايا المخلوقات المختلفة من نباتية وحيوانية (ومن ضمنها الإنسان)، إنها عملية انتقالية مرحلية طويلة الأمد، وهذا ما حصل للأرض كذلك خلال فترة من فترات مراحل تكوينها، فآنذاك وفي عمق التاريخ وقبل بلايين السنين، ظهرت الحياة على الأرض وفي مختلف أنحائها.

ان عملية الخلق لجميع المخلوقات بمختلف أشكالها وأنواعها تمت في كل أنحاء المعمورة ولم تكن في مكان واحد معين بحد ذاته، باعتبار أن مكونات تربة الأرض في جميع أنحاءها آنذاك كان تحمل ذات الاستعداد لتكون المخلوقات وظهورها. فكان النبات هو أول مظهر من مظاهر الحياة، بينما بقيت بذرة الحيوان والإنسان كامنة في رحم تربة الأرض لملايين السنين فيما بعد، وعندما اخضرت الأرض وانتشرت النباتات ظهرت الحيوانات بأشكال وأحجام مختلفة، بينما بقيت بذرة الإنسان كامنة داخل تربة الأرض لفترة طويلة جداً لا يعلم بمدتها إلا خالق هذا الكون، باعتبار ان الإنسان يمثل ثمرة الوجود والخلق، ولابد لهذه الثمرة من وقت أطول للنضوج والتكامل. في النهاية.. وبالتدريج.. ظهر الإنسان بقوة جسدية وعقلية ضعيفة في كل مكان من الأرض أفراداً وجماعات، مثل ذلك، مثل نمو الشجرة، فالسديم ومكوناته كان بمثابة التربة ومكوناتها التي تغذي الشجرة وتمدها بمستلزمات الحياة،

والنباتات كانت بمثابة الجذر والجذع، والحيوانات بمثابة الأغصان والأفنان، أما الإنسان فكان هو ثمرتها اللذيذة.

أما كيف تم انتقال التراب والعناصر من مواد ميتة لا حياة فيها الى مواد حيّة وخلايا تنبض بالحياة في المركبات؟ وبمعنى آخر، كيف دبت الحياة والروح في مكونات ذرات السديم وظهرت المخلوقات؟

فيمكن القول، ان هذا الوجود وهذا الخلق ينقسم منذ بداية خلقه الى نوعين مختلفين يكمل أحدهما الآخر، خلق مادي، وخلق روحاني، الأول لا يعرف إلا باستعمال الحواس الجسدية، والثاني معنوي لا يعرف إلا من خلال استعمال العقل. فالسديم وما ظهر منه من موجودات وأجسام يمثل الجزء المادي، بينما بقي الجزء الروحاني مخفيا عن الحواس لا يمكن التعامل معه إلا بالعقل، كما يحدث عندما يتم اختراع شيء جديد أو اكتشاف أمر خفي نتيجة حسابات عقلية محددة بعد أن كان بعيدا عن الأنظار. وعندما تجمعت وتكورت ذرات السديم المادية وظهرت منه الكواكب، بقي الخلق الروحاني يحيط بهذه الكواكب نتيجة وجود قوة المحبة (الجاذبية) بينهما.

وكما قلنا، ان ظهور المخلوقات كان نتيجة تمازج واتحاد وتآلف ذرات تربة الأرض بمختلف عناصرها المعدنية بمقادير معينة دقيقة جداً، ساعدها في ذلك وجود الماء والحرارة. لأن مجرد اتحاد مجموعة

مـن ذرات التربـة والعناصـر المعدنيـة بكميـات ومقـادير معينـة تحـت ظروف جوية خاصة، يكون مغناطيساً يجتذب الروح إليها على الفور، فتدب فيها الحياة والحركة، وهذا ما يفسر عملية استنساخ المخلوقات التي ظهرت في الفترة الأخيرة، فكل ما فعله العلماء المحترمون هو أخذ مجموعة جاهزة من الخلايا الحية بكميات محسوبة بدقة نتيجة دراساتهم واطلاعـاتهم المسـبقة لأجسـاد المخلوقـات. وبمجـرد أن تجمعـت هـذه النسب بشكل صحيح، أصبح كيانها عبارة عن مغناطيس لجذب روح مـن الأرواح المنتشـرة فـي الجـو حـول الأرض، فظهـر مخلـوق مـن المخلوقات حسب تركيبة وكمية ونسبة الخلايا المتحدة.

واستنادا الى هذا، يمكن التنبؤ بقدرة العلماء المختصين على إعادة إيجـاد بعـض الحيوانـات والطيـور المنقرضـة مـن خـلال معرفـة نسـبة مكوناتها الكيمائية والجسدية، بل ويمكنهم من خلال توافر الخبرة في هـذا المجـال إيجـاد مخلوقـات عاشـت وانقرضـت واختفـت آثارهـا منـذ ملايين السنين.

اذن، كان النبات أول مظاهر الحياة على الأرض. وبمرور ملايين السنين، تطورت الحياة وظهرت الحيوانات بأشكالها المختلفة بعد ظهور النباتـات. وهكـذا وعلـى مـرّ القـرون والعصـور بـدأت هـذه المخلوقـات البسيطة تأخذ أشكالا جديدة مختلفة الأحجام كل حسب استعداده وبداية تكوينه وخاصية خلاياه وتأثير الطبيعة الجغرافية والمناخ عليه.

من المحتمل ان سطح الأرض كان في البداية هشاً رقيقاً يشبه رغوة الصابون، وكانت جميع الكائنات تعيش في داخله، فكما يبدأ الإنسان الحياة داخل رحم الأم دون حاجة مباشرة الى الهواء أو الماء والغذاء، وكما هو الحال في أجنّة الحيوانات، كذلك بدأت المخلوقات الأرضية في التكوّن داخل رحم الأرض، أي داخل تربتها الهشة أو تحت سطح قشرتها، فلابد أن درجة حرارة سطح الأرض كانت خلال مرحلة التطور ملائمة للخلق والتكوين، وبمرور الزمن بدأ التطور في الخلق واتخذ كل مخلوق شكلا ونوعا وهندسة معينة خاصة به، الا انهم جميعا كانوا يعيشون تحت سطح الأرض لمناسبة مناخه مع حاجتهم الجسمانية ويخضعون لنفس قانون الإيجاد الإلهي.

وهذا لا يعني بالضرورة ان الإنسان خلق ووجد بعد خلق وظهور النباتات والحيوانات واكتمال وجودها، بل من الممكن جداً أن بذرته الإنسانية كانت موجودة في رحم الأرض منذ البداية ولم تتخذ شكلها الواضح المميز إلا فيما بعد، لكنها استغرقت وقتا أطول من غيرها لتظهر بشكلها النهائي.

يمكن الافتراض ان جميع المخلوقات في بداية التكوين كانت من الزواحف، لوجودها تحت سطح الأرض، ومن المحتمل ان أجهزة تنفسها كانت بسيطة أو مهملة بسبب قلّة الهواء، مثلهم مثل الأجنّة في الأرحام، فهم لا يحتاجون الى الهواء مباشرة، رغم وجود الرئة لديهم.

وبمرور الزمن، تهيأ لكل مخلوق حاجته من الغذاء النباتي أو الحيواني نتيجة ما يمكن تسميته (التعاون من أجل البقاء) وراح ينمو ويتطور ويأخذ شكله النهائي بينما تتقوى التربة وتشتد.

لا يمكننا اليوم حصر جميع أنواع الحيوانات وأعداد المخلوقات التي عاشت تحت أو على سطح الأرض أو في المياه في قديم الزمان، فذلك التاريخ دفن منذ ملايين السنين وليس من سبيل للوصول إليه، فحتى علم الجيولوجيا يقف عاجزاً عند حد معين، فعوامل التفسخ والتفتت لابد وعملت عملها على المدفونات أو المتحجرات كلما طال الزمن، وعلم الآثار يقتصر في بحثه وتحليله على ما يعثر عليه وما يتواجد وما بقي له أثر، وبما أن عمر مركبات أجسام المخلوقات لها قدرة معينة محدودة على الصمود في وجه التحلل، لذلك فان علم الآثار محدد أيضاً بحدود لا يمكن تجاوزها، وبالتالي لا يمكن لعلماء الآثار مهما تعمقوا في دراسة عمر الأرض وبحثوا في عمر مخلوقاتها القديمة، تحديد تاريخ بداية وجود المخلوقات الأولى، فللتفسخ والانحلال عمر نسبي معين يجبرهم على الوقوف عند زمن معين لا يمكن تجاوزه.

أما عن كيفية وجود الإنسان (غاية الخلق وثمرة الوجود) وكيف وجد، فمن المؤكد انه منذ القدم ومنذ بدأت الكائنات في التكون داخل الماء أو الطين، كانت بذرة الإنسان موجودة فيما بين هذه الكائنات، ولنفترض انها كانت على هيئة شبيه بالحيوان أو على شكل سحلية أو

سمكة أو غيرها، لكنها وفي جميع الأحوال كانت جوهر أصل المخلوق الإنساني المميز عن غيره، يعني ان هذا الكائن كان بذرة أو خلية إنسان ولم تكن خلية حيوان، سابحاً كان أم زاحفاً أم ماشياً أو في أي حالة من الحالات التي كان يسلكها في طريقة معيشته، فهو إنسان، يختزن في جسده وكيانه صفات الإنسان ومميزاته الكاملة.

لو نظرنا الى تكوين الجنين في الرحم في أيامه الأولى، نراه على شكل خلية غريبة لا تشبه الإنسان الكامل بأي شكل من الأشكال، لكنه مع مرور الوقت يتدرج في التغيير من شكل الى آخر، حتى يتكامل داخل الرحم، فيخرج طفلاً، وحتى عند ولادته، تكون أعضاء جسده على نسب معينة من الأحجام والأطوال تختلف عن المقاسات الطبيعية للإنسان الكامل، ومع ذلك يتدرج في النمو فيما بعد حتى يصل الى شكله الطبيعي.

اذن.. فلا خلاف هناك مع من يدعي ان شكل الإنسان كان أقرب الى القرد أو الى السلحفاة أو له ذيل أو ذنب، فهذا لا يغني الموضوع شيئاً، فمن المحتمل أن يكون ذلك صحيحا، ولكن هذا المخلوق يبقى انساناً تطور وتلاءم مع بيئته بطريقة أسرع من غيره لحيازته على قوة العقل والروح الإنساني التي امتاز بها منذ بداية خلقه، وهذا ما ساعده على تجنب العديد من المخاطر التي اندثرت على أثرها الكثير من المخلوقات غير العاقلة.

وهكذا، أوجد هذا المخلوق المميز لنفسه مكانا بين المخلوقات رغم الاختلاف الكبير بينه وبينها في الصفات والتكوين، فتكيّف جسمه وشكله حسب ما اقتضته ظروف الحياة. المهم انه كان يمتاز بفطرته الإنسانية عن بقية الحيوانات لوجود قوة العقل لديه مهما كانت بسيطة وبدائية، وصحيح ان بعض الحيوانات تمتلك قوى جسمانية أفضل من الإنسان، مثل سرعة الحركة وحدة السمع والبصر وحاسة الشم وغيرها، الا ان الإنسان كان مع مرّ العصور يتطور ويجد باستمرار الحلول المناسبة لتعويض هذا النقص وعدم التكامل والوقوف أمام المخاطر وإيجاد سبل التخلص منها مستعيناً بقوة العقل، لأن الروح العقلاني الإنساني مخلوق فريد خاص بالانسان فقط وليس هناك من الكائنات من يشترك معه في هذا النوع من الروح.

كما ان من الصفات الملازمة للروح الإنسانية، هو قدرتها على التفكير ومن ثم محاولة السمو والترفع عن عالم الماديات من خلال الاكتشاف والاختراع، وهذا الرأي بالإضافة الى مجموعة من الآراء الأخرى، يحل اللغز والإشكال الذي حيّر الفلاسفة والعلماء في كيفية ظهور الحضارات البشرية المتشابهة في أماكن مختلفة وأزمان متقاربة على الأرض دون وجود دلائل تشير الى اتصالات مباشرة فيما بين شعوبها.

وهكـذا وبعـد مـرور ملايـين السـنين، تـم للإنسـان تكامـل فطرتـه الجسمانية والإنسانية، ووقف على أعتاب مرحلة جديدة تعتبر قمة ما تصل إليه فطرته، فما سبقها كانت مراحل أولية بدائية من مراحل خلقه، حيث لم تعد مقومات الفطرة بحد ذاتها كافية لسد حاجاته المتزايدة للقدرات والعلوم الاكتسابية. هنا كان الله الخالق الواقف على شؤون خلقه، مستعداً للأخذ بيد مخلوقه المفضل لنقله النقلة النوعية الجديدة. ففي هذه المرحلة اللاحقة كان لابد من إرسال معلمين إلهيين بمناهج بدائية بسيطة تتناسب مع تطوره، ليتعلم الإنسان شيئاً جديداً يسمو به بشكل أفضل ليخرجه من مرحلة التعلم الفطري ولو بشكل بسيط يتوافق مع تطوره الفكري لإعداده ونقله الى مرحلة التعلم الاكتسابي، أي المرحلة التي تمتاز بوجود المعلم والتلميذ، وبهذا بدأت مرحلة بدء إرسال الأنبياء والمعلمين بدورات جديدة بسيطة لم يعهدها البشر من قبل، ومن المحتمل أن هذه المرحلة التعليمية البسيطة امتدت لعشرات الآلاف من السنين، حيث كان التعليم فيها محدودا يقتصر على تعليم الأفراد أو العوائل أو التجمعات الإنسانية الصغيرة، وبعدما تمت هذه المرحلة الانتقالية بنجاح، انتقلت البشرية الى مرحلة التعليم الاكتسابي الجماعية بشكل أكبر، فراحت رسل الله وأنبيائه تأتي بشرائع موسعة لتضم تحت جناحيها مجموعات متعددة من شعوب البشر، فكان أولهم هو النبي آدم عليه السلام. وهذان الموضوعان، احتياج الإنسان الى معلم أعلى منه

مقاماً ليعلمه، ووجود بشر قبل ظهور النبي آدم(ع)، سنأتي عليه لاحقا في فصول أخرى.

من المناسب هنا، توضيح هذه الفكرة بشكل آخر. ان ما يقصد بالفطرة الأولية التي جُبل عليها الإنسان وخُلق هي بذاتها ما نجدها عند كل مخلوق من صفات وحركات غير ارادية قبل ان يتعلمها من والديه. فمثلاً عند خروج الصوص من البيضة، فهو لا يحتاج الى معلم حتى يتعلم نقر قشرة البيضة وكسرها للخروج الى هذا العالم، ثم البدء بالتقاط الحب من الأرض ونبش تربتها وشرب الماء، وانما يحس بهذا غريزياً، كما ان الحصان يولد وهو مجبول على الجري منذ أول يوم دون أن يتعلم ذلك. هذا ما يسمى بالفطرة، أي ما يفطر عليه الخلق من تصرفات.

وكذلك بالنسبة للإنسان، فبمجرد ولادته يبدأ في البكاء والرضاعة دون تعليم معلم. لذلك ونتيجة لما مر به البشر عبر ملايين السنين، لابد ان تطورت فطرة الإنسان وتحسنت، إذ لا يمكن سلخ تأثير عملية التطور حتى عن الفطرة، فالتطور موجود منذ الأزل ولابد له من تأثير عليها ولو نسبياً. وعندما اكتمل نمو الفطرة وانتهت مرحلتها البدائية، استعد الإنسان لدخول المرحلة التالية لاستقبال المربي الأول والمعلم الدائم بدوراتهم البسيطة الجديدة، ونعني بهم الأنبياء، للأخذ بيده نحو المرحلة التالية المتطورة من عملية التعلم الاكتسابي.

ان أكثر ما ورد عن بداية خلق الإنسان من أقلام الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين لا يخرج عن نطاق مصدرين اثنين، اما من الكتب المقدسة ومن ضمنها (التوراة والإنجيل والقرآن) أو من العلوم الجيولوجية، هذا بالإضافة الى بعض الأفكار الجديدة التي تأخذ من الاثنين معاً. فمن حيث التقديرات الدينية، يعتبر التوراة أول الكتب السماوية المدونة التي أشارت الى ذكر عمر الإنسان على الأرض، أي النشأة الأولى، حيث ورد في سفر التكوين تسلسل أسماء أولاد سيدنا آدم(ع) حتى ولادة سيدنا موسى(ع)، ومنها استقي عمر الإنسان التقريبي على الأرض وحصر ذلك بين ستة الى سبعة آلاف سنة. لكن الجيولوجيين وعلماء الآثار وجدوا ان عمر الإنسان على سطح الأرض يزيد على ملايين السنين – ولا ندري هل سيكتشفون في المستقبل آثارا جديدة تزيد على هذا الزمن أم لا – ولمّا كان هذا الاكتشاف علمياً بحتاً لا يتطرق إليه الشك، لم يجد عقلاء الدين بداً من التراجع أمامه، فراحوا يوافقون على مجهولية عمر الإنسان على الأرض وعدم إمكانية تقديره، رغم تأكيداتهم السابقة، فحجتهم كانت تقديرية مستمدة من النصوص، الا انها في الوقت الحالي أصبحت معلومات غير دقيقة تنظر إليها الاكتشافات العلمية بنظرات الشك والريبة، مما دفع بهم الى تبديل الفكرة القديمة بواحدة جديدة تتوافق في سياقها مع العلم.

[وقد أحدث قيام علم الجيولوجيا انقلابا في الفكر التاريخي والفكر العلمي كله، فقد قرأ علماء مثل روبرت هوك صفحات جديدة من التاريخ عن أحجار طبقات الأرض، وأثبتوا ان ما يقوله العهد القديم في نصه اللاتيني من أن عمر البشرية سبعة آلاف سنة مجرد وهم، وكذلك ما يقوله نصها الإغريقي، من أن عمر الأرض ستة آلاف سنة فحسب، فعمر الأرض أطول من ذلك بكثير جدا. وقد كانت إطالة عمر التاريخ الى هذا الحد الذي لم يكن يخطر ببال أحد ذات أثر مباشر في التفكير العلمي كله. فقد بدا بوضوح ان لغة الصخور أصدق من لغة أهل الفكر المسيحي. وعلى أساس من هذا استطاع الناس أن يفهموا كيف تكونت هذه الأرض، وكيف تم بناؤها وتطور حيوانها وخاصة الإنسان لا بضربة عصا سحرية، بل بعملية تطور طبيعي طويل تتفق مع التفكير العلمي المنطقي][3].

في الحقيقة لابد من الوقوف في صف العلم التجريبي ونتائجه الدقيقة، باعتبارها حقائق علمية مجردة لا علاقة لها بالدين، وبما ان التقدير الديني السابق كان مستمدا من النصوص الاستدلالية وخاضع لتفاسير رجال الدين وأقوالهم وآرائهم ولميزان الإدراك النقلي المستند على ميزان العقل الذي أثبتنا إمكانية خطأه. إذن فالتقدير العلمي لعمر الإنسان على الأرض، أقرب الى الصواب والحقيقة من أقوال رجال الدين.

من هذا يمكن القول ان عمر وجود البشرية على الأرض غير معروف ومجهول ومطمور في عمق التاريخ لاختلاف موازين القياسات، رغم ان أرنولد توينبي عالم التاريخ والحضارات المشهور، يقول: (إن أقدم أثر لوجود الإنسان عثر عليه يرجع الى ثلاثمائة ألف سنة، ولكن أكمل الهياكل العظمية الكاملة التي وجدت ترجع الى تسعة وأربعين ألف سنة). ومهما اكتشف علماء الآثار من دلائل تشير الى قدم عمر الإنسان، فلابد لهذه الآثار من حد وزمن تاريخي معين تعجز عن تجاوزه، فحتى لو اكتشف علماء الجيولوجيا أبعد الأزمنة لتاريخ وجود الإنسان والمخلوقات على الأرض، فلابد وان يقفوا مكتوفي الأيدي أمام عوامل التفسخ والاندثار والتآكل لمعرفة ما قبل ذلك التاريخ.

اذن، من المحتمل أن يكون الإنسان قد وجد على ظهر الأرض منذ الأزل ومنذ قدم التاريخ ومنذ أن شاءت المشيئة الإلهية بخلق البشر والكون، فليس هناك من يستطيع نفي هذا الرأي أو إثباته، لا بالطرق العلمية ولا بغيرها. وكل ما كتب بهذا الخصوص قابل للخطأ والصواب ومجرد نظريات. ومن الأفضل ان لا يعتبر هذا الموضوع سبباً في خلق نوع من أنواع الاختلاف بين المهتمين والباحثين أو بين المتعصبين من رجال الدين أو بين أتباعهم، وليترك كل فرد حسب رأيه واعتقاده، فإذا خلق الإنسان قبل سبعة آلاف سنة أو مائة ألف أو مليون سنة أو

أكثر، فهذا موضوع يترك للبحوث العلمية، وكلما يثبته العلم من جديد، فهو عبارة عن جزء أو مرحلة من مراحل الحقيقة المطمورة.

الهوامش

1 – الإنجيل – رسالة يوحنا الأولى الإصحاح 4 – آية 8. (لأن الله محبة).

2 – سورة الأنبياء 33.

3 – كتاب "الحضارة" دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها – الطبعة الثانية – للدكتور حسين مؤنس – سلسلة عالم المعرفة 237 صفحة 197.

(الباب الثاني)

الفصل الخامس

دور التربية في المجتمعات

ان هذا الموضوع من المواضيع التي لها تأثير حيوي على حياة الشعوب، إذ لا يمكن وجود رقي أو حضارة حقيقية لأمة ما، إلا بالتربية الفاضلة والأخلاق الحميدة والعلم، والتاريخ خير دليل على ذلك، فما سَمت أمة من الأمم ولا قامت حضارة من الحضارات، إلا بالأخلاق والتربية والعلم. فعلى سبيل المثال، قامت الحضارة الإسلامية وتأسست على تربية النفوس بدين الإسلام حينما أصبحت بعض عواصم الدول العربية والإسلامية قبلة أهل العلم والمعرفة في العالم ومحط أنظارهم وغصت مدارسها وجامعاتها بطلاب العلم من شتى بقاع المعمورة مثل بغداد ودمشق والقاهرة واستنبول والأندلس. وكذلك قامت الحضارة المسيحية على أسس من التربية وتعليم النفوس في كثير من بقاع الأرض. وتلك الحضارة اليهودية التي فاقت كل الحضارات القديمة قبلها، بحيث شدَّ بعض كبار فلاسفة اليونان رحالهم الى فلسطين لدراسة علم اللاهوت على يد علماءها وأحبارها. ثم لننظر الى بعض الحضارات الأخرى مثل الحضارة الفارسية التي تولدت من معتقدات الديانة الزرادشتية المعتمدة على تربية الإنسان وتعليمه، وقبلها الحضارة

الهندية والصينية وحضارات أمم شرق آسيا التي تولدت من تربية تعاليم كرشنا وبوذا وكونفوشيوس، وكيف خلقت حضارات ما زالت شواهدها شامخة حتى اليوم.

ان هذه الأدلة التاريخية تشير الى أهمية دور التربية الدينية وعلومها في المجتمعات – رغم ما تخللها جميعاً من انتكاسات شابت بعض حقبها التاريخية – إلا انه لا يمكن نكران تحقيقها لغاياتها المرجوة ولو لفترات معينة. ورب من يعترض على هذه المعتقدات الأخيرة (ديانات شرق آسيا وجنوبها) ويعتبرها مجرد أفكار راقية أو نظريات إنسانية وينسبها الى فلاسفة أو مصلحين، ويستدل على ذلك بعدم ورود ذكرها في القرآن الكريم أو على لسان أقوال المصطفى المختار. ومن يدري.. فحتى القرآن الكريم لا ينفي ذلك، بل يمكن استنتاج بعض التأييد لهذا الرأي من مفهوم الآية القرآنية **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)**[1]، بل وعلى العكس، يمكن اعتبار هذا النص مؤيدا لهذه الفكرة ومثبتاً لها وفيه شيء من التقدير والثناء الإلهي لجهود أولئك الرسل والأنبياء وانجازاتهم لما ساهموا به من تهيئة لأذهان وأرواح الجنس البشري لاستقبال كل ما هو جديد لاحقاً من شرائع الله.

ولا نريد الجزم في الأمر، ولكن من المحتمل ان تكون هذه ديانات سماوية قديمة، طالما اعتمدت في أسس مبادئها على أمور روحانية،

أدت الى نفس النتائج التي أثمرتها الديانات الثلاث الأخيرة المعروفة، وما جهل أمة العرب في ذاك الزمان السحيق بأصل هذه الحضارات ومؤسسيها إلا نتيجة لبعد المسافة وانعدام سبل الاتصال والمواصلات واختلاف اللغات واللهجات. أما تردّي أحوال أتباعها وعدم استساغة بعض تعاليمها في هذا الزمان، فيمكن إدراكه من المثال التالي:-

ان تعاليم الديانات مثل ماء عين صافٍ نقي، فعندما ينضح هذا الماء يكون نقياً خالصاً يمكن لأي كائن ان يشرب ويرتوي منه بدون تحفظ، إلا انه عند وفاة المؤسس وتقادم الزمان ومرور الدهور، يبدأ أتباع الديانات (كل الديانات) بالمشاركة في التفسير والتحوير والاستنباط والقياس والاجتهاد، فتبدأ الشرائع بحمل شيء من هذا وأخذ شيء من ذاك، ومع مرور الوقت والسنين يتغير لون ذلك الماء الصافي النقي ورائحته ومذاقه فيرى الناس الاختلاف الشاسع بين أصول الدين في زمن ظهوره وبين طقوسه في الأزمان اللاحقة، ويشاهدون الاختلاف الواسع بين تصرفات وأعراف المؤمنين وعاداتهم وطقوسهم في السابق وفي اللاحق. لكن الإنسان المنصف يمكنه إدراك حقيقة الموضوع ومعرفة تأثير الزمان والتطور على المجتمعات، وبالتالي لا يمكن نسبة تصرفات الأجيال الأخيرة الى حقيقة الدين الحق.

فالدين يخلق التربية والأخلاق، وهذه تولد الحضارة والعلم والمعرفة

وترفع شأن الأمم. والدين معاملة، والمعاملة هي ما يسود الناس من علاقات إيجابية وعرف وتقاليد تنبع من التعاليم الإلهية الموجودة في نصوص أحكام الكتب المقدسة الإلهية، فكل الديانات تدعو الى الخير المحض والصدق والعلاقات الاجتماعية الحميدة والشرف وعزة الإنسان ورفعته وتحث على المثل السامية والأخلاق الطيبة والتحلي بالكمالات والمزايا الحسنة، بحيث لا نجد ديناً إلهيا يدعو الى ما يخالف هذه المفاهيم الإنسانية. ان حقيقة مفهوم الخير، هو المثل الإنسانية الجيدة وفيها يكمن سر تقدم البشرية، أما ما يسود بعض المجتمعات المتدينة اليوم من نقيض لهذه المفاهيم، فمرده الى قدم عهد تلك الديانات والتأثيرات الاجتماعية السلبية التي دخلت الى أخلاق المجتمعات فسحبتها رويداً رويداً نحو مسار غير مقدر لها. والمثال السابق أوضح الموضوع.

ان دور التربية في المجتمعات، يقود الى التساؤل التالي: من هو الأفضل، الإنسان المتعلم الشرير قليل الأخلاق. أم الجاهل الأمي الشريف؟ والجواب الذي يتفق عليه الجميع هو: ان الإنسان الجاهل الأمي المؤدب الخلوق، أفضل بكثير من الإنسان الأول. لماذا؟ لأن الإنسان المؤدب الجاهل ان لم ينفع نفسه والآخرين فهو لا يضرهم وإن أضرهم فضرره محدود. أما الإنسان العالم الشرير، فلا يمنعه مانع من تفضيل نفسه على غيره، ولا يردعه رادع عن ارتكاب ما يمكنه من

أعمال مضرة بغيره ومجتمعه في سبيل مصلحته ونفسه مستغلاً في ذلك علمه وذكائه. فمن هذا الأخير، يتوقع صدور الشر بكل أشكاله وأحجامه، وما وُجِد واختُرع من آلات دمار ووسائل هلاك ومخدرات ورذائل، إلا من هذا النوع، بل ان عامة الناس والسواد الأعظم منهم كانوا أول المتضررين وأول الأهداف المستهدفة لشرور الصنف الأول.

[إذن ففيما يتصل بالمقياس الحضاري نجد ان المعيار الذي يقاس به هذا المستوى هو مقدار ما يتمتع به الإنسان مما ذكرنا، من أمان واطمئنان وكفاية وتعاون وتفاهم ومحبة واحترام متبادل بين الناس للشخص وحريته. ولا دخل هنا لما نسميه تقدما أو تأخرا ولا دخل فيه لمستوى علمي، فقد يكون الأمي البسيط أقرب الى مفهوم الحضارة من المتعلم بل المتبحر إذا كان الأول محتفظا بمستواه المعنوي وكرامته الإنسانية متمسكا بالفضائل خاليا – ما أمكن – من الأحقاد والمطامع، وإذا كان الثاني قد انتقل من يده ميزان القيم واضطرب مقياسه الخلقي والمعنوي. وإذا أردنا مقارنة الحضارات مقارنة صحيحة ونسبية، فإننا نزنها بقدر ما تحقق له من العناصر التي ذكرناها أو تحرمه منها أو من بعضها. أما عن قياس الحضارات على أساس ما لدى أهلها من أدوات الحضارة المادية أو الفنية أو الآلات وما وصلوا إليه من مستوى عال في العلوم والفنون. فإن المخترعات والمبتكرات والكماليات كثيرا ما تكون أعباء على الإنسان وقيودا عليه تحد من حريته وتحرمه من

العيش السعيد][2].

اذن، يمكن القول ان الجيل الجاهل الملتزم بمبادئ الأخلاق، هو أفضل ألف مرة من جيل متعلم شرير، فلو أمكن بالتربية الحسنة المنبعثة من التعاليم الإلهية، خلق أمة مؤدبة متعلمة مثقفة، فهذا هو الخير بعينه، ولا أمل لنهوض المجتمعات إلا بسلوك هذا النهج.

لو جئنا بمائة طفل صغير في دور الجهالة، وعهدنا بهم الى مدرسين ومعلمين ومربين غاية في الأخلاق والأدب، واستمرت فترة تربيتهم سنوات عديدة حتى كبروا وأصبحوا رجالا، فكم يتوقع ان تكون نسبة الصالحين بينهم؟ من الطبيعي ان تكون نسبتهم أكبر بكثير من نسبة غير الصالحين. ولنفترض حسب رأي البعض (ولو إننا لا نوافقهم هذا الرأي) انه لابد من وجود نسبة من الطالحين بين الموجودين، لاعتقادهم بوجود بذرة الشر بين الناس، فمع ذلك، ستكون نسبتهم حتما أقل بكثير من نسبة الصالحين. ولو جئنا في نفس الوقت بعدد مماثل من الأطفال الصغار، وعهدنا بتربيتهم الى مجموعة من الأشرار لتربيتهم وتعليمهم، فمن المؤكد أن تكون نسبة الأشرار أكبر بكثير من نسبة الجيدين. ولنقبل مرة أخرى بقول بعض علماء النفس والتربية بظهور نسبة من الجيدين بين مجموعة الفاسدين، لنفس السبب السابق. ولا نناقش هذه الفرضية الآن، بل سنفرد لها فصلا كاملاً عن حقيقة الشر وسره وكيفية الانتهاء منه لاحقاً.

فلو افترضنا ان المجموعتين هي عبارة عن مجتمعين أو شعبين مختلفين، عندها ستكون هنالك أمتان، واحدة يغلب عليها طابع الخير بنسبة كبيرة، والأخرى يغلب عليها طابع الشر بنسبة مماثلة. ولو افترضنا ان أفراد هذين الشعبين كبروا وتزوجوا وأنجبوا، فمن المنطقي ان يكون أبناء المجتمع الأول ميّال الى الخير، وأولاد المجتمع الثاني ميال الى الشر. وباستمرار تعاقب الأجيال، ستسود نسبة الخير والأعمال الطيبة بدرجة كبيرة بين الشعب الأول ومن الوارد جداً ان تنعدم نسبة الشر بينهم. وعلى العكس، تسود نسبة الشر والمفاسد بين الشعب الثاني، ومن الوارد جداً ان تنعدم نسبة الخير بينهم. فالعمل الطيب في المجتمع الأول يصبح عرفاً وتقليداً وعادة، كما يصبح العمل القبيح عرفاً وعادة في المجتمع الثاني. ولقد أثبتت دراسات العلوم التربوية والنفسية أن الأخلاق والتصرفات بشكليها المختلفين، ان كانت حسنة أو سيئة، تنتقل بين الناس عن طريق العدوى، أي سارية تنتقل من شخص الى آخر، كما يحصل عادة عند معاشرة شخص لمجموعة من الأشرار، فالضرورة تقضي بمجاراة سلوكهم وتصرفاتهم.

يتضح من المثال السابق، إمكانية الحصول على شعب صالح طيب راقٍ، بتعميق التربية الفاضلة والأخلاق الحميدة، وفي المقابل الحصول على شعب شرير بترك التربية الحسنة.

لكن الموضوع ليس بهذه البساطة، فالمشكلة الحقيقية المعقدة تكمن

في ندرة وجود المربي الحقيقي، فمن أين لنا بهؤلاء المربين الجيدين لتربية الأجيال. ان غالبية ما يوجد اليوم في المدارس والمعاهد والجامعات هم مدرسو علم وثقافة وليسو مربي أخلاق وفضائل وسلوك جيد، بل أصبح المربي الفاضل يُعارض وتحارب أفكاره وتنتقد، ليس من قبل الطالب والتلميذ فحسب، بل حتى من ذوي الطلاب وبعض زملائه المدرسين. ونتيجة لهذه الموجة من الإهمال وعدم الاهتمام، سادت الفوضى بين النشئ الجديد، وراح الكل يتذمر من الجيل الحالي، فقوة تيار الفساد تزداد يوما بعد يوم، والكذب الذي يعتبر (أساس كل الشرور)[3] منتشر بين الغالبية وربما أصبح هو القاعدة والصدق هو الاستثناء، لدرجة ان وصل الى المناهج التعليمية، فأعدت بطريقة مدروسة بدقة ليستفاد منها في خلق أجيال جاهلة بسيطة يسهل قيادتها وإلهاؤها بالألعاب والبرامج الرياضية وبرامج اللهو والموسيقى والغناء، وهذا ما يسمى بعملية تسطيح الثقافة.

ان الإنسان ميال بطبعه الى الكسل والخمول والراحة، فان وجدها، فرح واستبشر وترك العمل والجد جانباً. لذلك وجب على المسؤولين إنهاض الهمم وتسليط الضوء على أهمية العمل وتنظيم وإدارة حياة الشعوب والاهتمام بالشباب وملأ أوقات فراغهم بالاهتمامات المفيدة، وما كل هذه الفوضى والاضطرابات وسوء السلوك وهدر زهرة أعمار الشباب وكثرة الجنح والجرائم والاعتداءات والميل نحو الخمول والكسل

والمخدرات ووسائل اللهو، الا لعدم قدرة الحكومات على برمجة أوقات الشباب بشكل مفيد، أو خوفها من يقظتهم وإدراكهم حالتهم الاجتماعية والفكرية المزرية، وبالتالي الانتباه الى وضعهم المأساوي وتبلور هذا السخط الى حالة من اليقظة والانتباه وانتقاله الى ردود أفعال مضادة تؤدي الى زعزعة كراسي الحكم والنظام. لذلك، فهذا الجهل المنتشر بين الناس، لم يأت من فراغ ولا نتيجة للصدفة، بل هو حالة مدروسة بعناية ودقة، صرف علماء الشر في تدبيره جلَّ أوقاتهم وأموالهم واستطاعوا برمجة شعوبهم وقيادتها نحو التخلف. فلو كان المجتمع ذا تربية حسنة، لصعب على المفسدين ترويج بضاعتهم وتحسين أحوالهم المادية على حساب بسطاء الناس ولما تسلطوا على رقابهم، ولما عجز المصلحون الحقيقيون عن تحسين أحوال الناس. وكما قيل:

أرى ألف بان لا يقوم بهادم فكيف ببان خلفه ألف هادم

أما من يقول ان الأنبياء عاشوا حالات أصعب مما يعيشه هؤلاء المصلحون، ومع ذلك استطاعوا نشر أفكارهم ومبادئهم ودفعوا الشعوب الى مراحل حضارية راقية، فذلك لأنهم كانوا مؤيدين بقوى إلهية خاصة بهم، سنأتي على شرحها في الفصول اللاحقة.

اذن ما العمل؟ وكيف يمكن خلق أمة أفضل من الأمم السابقة؟ لقد سألنا الكثيرين هذا السؤال، وكانت إجاباتهم متعددة، فمنهم من اتهمنا بالجنون أو المثالية، ومنهم من سخر منا ومن السؤال، وهناك من

أعجزه السؤال والجواب وأسقط في يده، أو رمى بالمسؤولية على رجال الدولة أو رجال الدين أو من اتهم الأحزاب ورجالها، ومنهم من اتهم الاستعمار والصهيونية!

هناك رأي جديد يختلف قليلا، فالموضوع ليس سهلا ولا يمكن حلّه من قبل رجال العلم والثقافة والأدب لوحدهم، فهو أكبر من ذلك، ولقد سمعنا إجابات كثيرة متشابهة تقول ان هذا هو المستحيل بعينه، فشعوب الأرض وصلت الى درجة من التردي يستحيل معها الإصلاح بل ولا يمكن ان تُجدي معها حتى المحاولة، كما طالب بعضهم بالرضوخ والقبول بالأمر الواقع وسؤال الله الموت على هذه الحالة المزرية، قبل ان يأتي الغد الذي هو أسوأ بكثير.

ونتساءل لماذا كل هذا التشاؤم بين الناس، ومن المسؤول عن هذه الحالة؟ والى متى تبقى البشرية تخوض في العذاب والتعب والحيرة، كما قال تعالى **(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)**[4]. لقد أصبح المواطن يستيقظ من نومه وهدفه الأول والأخير، البحث عن خبز كفاف لأولاده، وصرنا نسمع أحداث لم نسمع بها من قبل، أب يقتل أولاده خشية إملاق، أم تبيع بناتها وتدفعهن للرذيلة خوفا من الفاقة، زوجة تبيع ملابسها الداخلية لتطعم أطفالها، أب بكامل صحته يطرق الأبواب ليسأل عن خبز حاف لأولاده الجياع، أم تتمنى مقتل ولدها في الحرب لتستلم ثمن جسده من الحكومة، أب يجلس على

باب بيته ليستلم من الداخلين ثمن شرف بناته، نساء يعرضن كل ما لديهن بغية رغيف خبز إضافي.

لو افترضنا أن جهوداً مخلصة قامت على تربية شعب بطرق إلهية جديدة واسلوب مبتكر ومناهج تربوية علمية حديثة، وصار هذا الشعب متعلماً مؤدباً يخاف الله ويحترم القانون ويرضى بتطبيقه على جميع أفراده ويخشى يوم العاقبة والحساب. ولو افترضنا قيام حكومات منتخبة بشكل ديمقراطي حر على سن وإجراء القوانين العادلة بين الرعية بالتساوي وشرعت بتحسين أمور التربية والتعليم وتوفير المربين الجيدين وتوفير كامل احتياجاتهم وضرورياتهم باعتبارهم أس أساس الإصلاح. فماذا سيحصل؟ بهذه الطريقة وخلال عمر جيل واحد يخرج للمجتمع نشؤ جيد وجيل جديد، ومن ثم يتوالى تتابع الأجيال الجيدة لتسد ثغرات الاحتياجات في الوطن والدولة، وعلى هذا المنوال تتحسن أمور كل الأمة ويأخذ الخير والصلاح بنشر جناحيه على الجميع، ولن يصل الى سدة الحكم ويتولى السلطة الا رجال يخشون الله ويخافون على رعيتهم وينتبهون لكل صغيرة وكبيرة تمس مصالح مجتمعاتهم. من هذه البداية يمكن التسلسل، اذ سيسهل على الحكام اختيار معاونيهم من خيرة الناس وأفضلهم ويضعون نصب أعينهم راية العدل التي تظلل تحتها مبدأي الثواب والعقاب الدنيوي. هذا بالإضافة الى ما هو أهم من ذلك، وهو مخافة قلوب وضمائر الحكام وأتباعهم من العقاب الأخروي. ومن

هنا يحصل عكس ما يدور الآن بالضبط، إذ تتحسن رؤوس الوزارات والدوائر الحكومية ومدراؤها ومسؤولوهم والمصالح والمهن والحرف والتجارة والصناعة والدراسة وبالتالي يبدأ العمل الصالح يجري في عروق المجتمع وشرايينه بشكله الطبيعي، وسينتخب رجال البرلمان والتشريع والقضاة من خيرة الناس وأفضلهم، وهؤلاء يبدأون بنشر الخير كلٌ من موقعه، ويخاف صغار الموظفين والمرؤوسين من العقاب ويأملون بالثواب والمكافأة ويسود العدل والخير والتعامل الحسن بين عمال وموظفي الحكومات، وبهذا تكبر دائرة الخير. وعندما يرى الناس ان سرادق العدل ينشر ظلاله فوق رايات الثواب والعقاب، يبدأون في الامتثال للقانون والسير بهداه، إذ لا سبيل لهم في ارتكاب المعاصي طالما يظللهم الخير الوافر بخيمته ويجلس الرجل المناسب في المكان المناسب، فتتحسن المناهج التعليمية والزراعة والري وتصلح الصناعة والتجارة وغيرها من الامور الضرورية لحياة الشعب... وهكذا ينتشر الإصلاح والصلاح.

فاذا سارت الأمة على هذا الترتيب، ينقلب حالها الى الأفضل، ويكونوا مرآة معنى الآية الكريمة **(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)**[5]، وهذا هو السبيل الأوعر القاسي الطويل وهو ما يسمى بجهاد النفس وهو أقوى وأشد من جهاد السيف. فبالهمم والنوايا الحسنة والصبر الجميل والأمل بالأفضل تتحسن أحوال الأمة، ورحلة الألف

ميل تبدأ بخطوة. ومن المؤكد ان الله القدير يمنح بركته لهذه الخطوات الطيبة ويؤيدها ويرسل ملائكة تأييده لتساند هذه النوايا الخيّرة.

ان الوقت ضيق وحرج وعلى الجميع الاستعجال في الشروع بالإصلاحات التي هي السبيل الأمثل لرفع شأن الأمم، طالما وجدت على الأرض نفوس مؤمنة خيّرة تخشى الله سبحانه وتعالى وتسعى لرقي المجتمع. لكن الخوف كل الخوف إذا انفضت هذه الفئة الصالحة والعصبة الطيبة وانتقلت الى جوار الله وخلا المجتمع منها، عندها سينقطع حبل أمل الإصلاح ونلحق بقوم عاد وثمود!

ان معين الخير الذي لا ينضب موجود بين أيدينا، وهو آيات الله وأحكامه ومهما تفتق العقل البشري عن أفكار ومبادئ خيّرة، فلن يجود بأفضل مما هو موجود في الكتب السماوية، فالله عالم بما يتفق مع كل النفوس والأفكار من صغير وكبير وعالم وجاهل، إلا ان المشكلة تكمن في طريقة العودة، وهذه هي العلّة التي لابد من التغلب عليها.

من كل هذا يتضح ان التربية الفاضلة والأخلاق الحميدة تحتاج الى جهد جهيد وعمل متواصل ونوايا سليمة لنشرها بين الناس لخلق مجتمع فاضل جيد، وبغير هذا ستتردى الأمور وتسوء الأحوال وتنتشر الفوضى، وساعتها لن ينفع الندم.

الهوامش

1 – سورة غافر 78.

2 – كتاب الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها – الطبعة الثانية – للدكتور حسين مؤنس – سلسلة عالم المعرفة 237 – صفحة 59.

3 – يعتبر الكذب أساس كل الشرور، لأنه الستار الكثيف الذي يختبئ وراءه كل من يقدم على فعل مخالف للقانون أو مناف للأخلاق أو العرف والتقاليد، فمن المؤكد أن غالبية من يرتكبون الجرائم أو الجنايات أو الجنح يعتمدون في تنفيذها أساساً على السرية والخفاء، فإن حصل ما لم يكن في الحسبان وقبض عليهم أو حامت حولهم الشبهات أو دارت عليهم دوائر الشكوك، التجأوا الى الكذب والخداع والتزوير للنجاة بأنفسهم من العدالة والعقاب. وبذلك يعتبر الكذب من أهم الأسس التي يعتمد عليه المجرمون والجناة في ارتكابهم أفعالهم، فلا يوجد جاني يود إلقاء القبض عليه ودخول السجن بمحض إرادته، فالكل يعتمد في أول الأمر على التستر وراء الكذب. فالمجرم اما عاقل أو مجنون، فإن كان مجنوناً فعقابه معروف، أما إذا كان عاقلاً فلابد انه يسعى وراء الحياة الدنيا وملذاتها، وهو لا يود بأي حال من الأحوال خسارة مقصده وهدفه الدنيوي من وراء جريمته، وبالتالي لا بد له أن يعتمد على الاختباء وراء ستار الكذب للتمتع بالحياة والنجاة من العقاب. (الكاتب).

4 – سورة الحج 2.

5 – سورة الرعد 11.

الفصل السادس

أثر الدين في المجتمعات

ليس هناك عاقل منصف ينكر دور الديانات الإلهية في تطور المجتمعات، فالأديان السماوية لها دورها التاريخي الواضح في كل مراحل تطور البشرية، الا ان قدم الزمان واندثار الآثار يمنع الوصول بدقة الى كثير من حقائق الديانات المندثرة وأقوال أنبيائها في الأزمنة الغابرة ودورها في توجيه البشرية عندما لم تكن القراءة والكتابة قد اخترعت بعد.

أما خلال السبعة آلاف سنة الماضية، وعلى الخصوص بعد ظهور الكتابة، فيمكن ملاحظة دور رجال الدين البارز في قيادة الشعوب وتوجيه الحكام، وما كان لذلك من أثر كبير في زرع مفهوم خشية الله والعقاب الأخروي في قلوب الناس وبالتالي إحجامهم عن أعمال الشر، رغم اتشاح فترات طويلة من تلك الحقبة بالفردية والتسلط المخالفة لمفاهيم الدين.

أما اليوم، فراح دور الدين ورجاله ينحسر بين الناس بعدما أخذ العلم زمام المبادرة في جميع نواحي الحياة، وربما توهم البعض ونسب تقصير بعض رجال الدين الى الدين نفسه، لكن الحقيقة هي ان شدة تيار تطور المجتمعات وتقدم العلوم والثقافات وتوسع المدارك الإنسانية،

هذا بالإضافة الى إصرار بعض رجال الدين المتنفذين على التمسك بظاهر النصوص والتشبث بمفاهيم خرافية تناقض العقل والعلم ومخالفتهم لكل ما هو جديد ومحاولتهم تهميش نصوص الأحكام وتخفيفها تماشياً مع الواقع المتردي، هو الذي همَّش دورهم وأوجد هذا التباين والاختلاف، فأشتبه على الناس الأمر وظنوا بإمكانية إحلال العلم والعقل مكان الدين ورجاله.

لكننا إذا علمنا ان الإنسان مهما امتلك من القدرات العقلية، فهو عاجز عن التعلّم بدون معلم أو مربٍ، ولا بدون وسائل تعليم وتدريس وثقافة، ولابد من وجود إنسان آخر أكثر علماً ورقياً منه لتعليمه وتسيير عملية التربية والتعليم وإدامتها بشكل صحيح. فمن الضروري وجود الأعلى ليتعلّم الأدنى، كالأستاذ والطالب والضابط والجندي والكبير والصغير. وطالما لابد لسلسلة المتعلمين ان تنتهي بالمعلم، وطالما ان المعلم سبق له وتعلم من معلم آخر. اذن كان لابد لهذه السلسلة أن تنتهي بمن لم يسبق له التعلّم على يد معلم، خاصة بعد ثبوت فشل فكرة التعلم الذاتي أو من خلال تكرار التجربة التي يقول بها بعض علماء الاجتماع، حيث ان أساس علوم وثقافة البشر جميعاً بدون استثناء هي علوم اكتسابية، بمعنى أن الإنسان لابد له من الاستعانة بطلب العلم والاكتساب من شخص أعلم منه ليتعلم، إذ لا يمكن التعلم بغير هذه الطريقة.

وخير دليل على ذلك، ما وجد عليه سكان استراليا وقبائل أواسط أفريقيا الأصليين في القرون الأخيرة من تخلف كبير يعود بهم الى القرون الأولى لوجود البشرية، فلو كان للإنسان القدرة على الاكتشاف والاختراع والعلم والتعلم بنفسه، لما بقي هؤلاء على هذه الحالة المتخلفة، ولتعلموا بالتكرار والتجربة، ولأوجدوا لهم حضارات بسيطة أو على أقل تقدير ما يدل على تطور تفكيرهم. فإذا كانت مجموعات كثيرة من القبائل في أماكن مختلفة وأزمنة متباينة قد عجزت خلال آلاف السنين عن اللحاق بركب الأمم المتقدمة، بما بالنا بالفرد الواحد؟ ألا يدل ذلك بدلالة قاطعة على عجز الإنسان في تعليم نفسه. أما إذا نسب ذلك الى قلة العقل أو الغباء، فالحال الحاضر لهذه الأمم يناقض هذا القول، حيث نبغ الكثير منهم في مختلف العلوم وظهر منهم العلماء والمفكرين، وما كل ذلك إلا بسبب وجود المعلم والتعليم. أما إذا قيل أن ظروف معيشتهم لم تسمح لهم بالتطور، فالبلدان المتطورة الآن كانت تعيش فيما سبق بظروف مشابهة.

إذن، فوجود معلم أول أعلى شأناً من الإنسان العادي هو ضرورة حتمية لتقدم البشرية، طالما ثبت استحالة التعلم الذاتي للإنسان، وهذا ما يفسر ضرورة ظهور الرسل والأنبياء كمعلمين أساسيين للبشرية، ويؤكد ان حقيقتهم وجوهرهم يختلف عن حقائق أرواح البشر، وإلا لحملوا ذات صفات البشر العادية واحتاجوا الى معلّمين ليعلّموهم مثل

غيرهم.

من هذا يتضح ان رسل الله وأنبياءه هم كائنات روحانية تملك علوماً ذاتيـة مـن غيـر عـالم البشـر، إلا أنهـم يظهـرون علـى النـاس بأجسـام بشرية. لذلك نراهم يملكون من صفات العلم اللدني الإلهي[1] ما يغنيهم عـن المعلمـين وعمليـة الـتعلم، فعلمهـم علـم غيبـي مـن عنـد الله العـالم الحكيم، وهذا يفسر حقيقة ادعائهم الأمية وعدم تعلمهم على يد غيرهم. ورغم ذلك لا يمكن لعاقل أن يعقل أنهم وبكل ما أوتوا من ذكاء وفطنة وعبقريـة ومـا تميـزوا بـه مـن قـوى غيبيـة قـد بقـوا الـى آخـر حيـاتهم لا يعرفون القراءة والكتابة، فلابد وأن أجادوها في النهاية أو في وقت من الأوقات. وأبسط مثال على ذلك، ما ينتشر اليوم من مدارس لمحو الأمية بين الكبار، فخلال بضعة شهور أو سنين يتعلم هؤلاء القراءة والكتابـة، فكيـف بنـا برسـل الله وأنبيائـه الـذين يملكـون كـل تلـك القـوى الخارقة. أما ما ينطقون به في مواضع شتى بأنهم بشر عاديين مثل غيرهم، فذلك لعدم قدرة عقول البشر آنذاك على استساغة وتقبّل مثل هذه الفكرة أولا، ولإبعاد الخوف والرهبة عنهم ثانيا، وللاهتمام بالهدف الأساس وهو نشر الدين وتربية الناس وتعليمهم ثالثاً...

ان دور الرسل والأنبياء كان دوراً جوهرياً وصميمياً وتاريخياً في تعليم البشر، ولكن كلٌ حسب دوره ومنهجه، وديانـاتهم هي جداول مياه علومهم وحكمتهم التي تدرجت في رفع مستوى البشرية ورقيها، فمنهم

من علّم الناس مبادئ الدين والسلوك الجيد وبعض التصرفات البسيطة السامية شفاهة، كما حصل في العهود الموغلة في قدم التاريخ حين لم تكن القراءة والكتابة مخترعة بعد، حيث نلاحظ لبعض المجتمعات البدائية معتقدات وطقوس وأفكار ترتفع في تأثيرها الى مصاف الطقوس الدينية، فعلى سبيل المثال، نجد عند بعض القبائل الهمجية في أواسط أفريقيا وأمريكا الجنوبية وبعض جزر المحيطات القاصية عرفٌ أو تقليد يقضي بعدم قتل الحيوانات الا عند الحاجة للطعام، وهذا شيء مستحب ومعقول، فهي تقلل من رغبة الاعتداء والظلم والقتل لدى البشر وتبعدهم عن سفك الدماء وتفسح مجالاً لتكاثر الحيوانات وبالتالي استمرار موارد الغذاء كما تحافظ على الأنواع والأجناس من الانقراض، وتمثل نوعاً من أنواع الرحمة والرفق بالمخلوقات. كذلك تنتشر بين بعضهم فكرة عدم الزواج من الأقارب، وهي فكرة يحث عليها العلم الحديث لما لها من تأثير جيد في تحسين النسل وسلامة الجسد والنوع الإنساني، هذا بالإضافة الى فكرة الإيمان بالأرواح والمقدسات والقوى الغيبية (الطوطم والتابو) التي ساعدت كثيراً في تحسين السلوك العام للمجتمعات البدائية القديمة من خلال امتناعهم عن ارتكاب المعاصي خوفاً من العقاب الأخروي. إن مثل هذه العادات والطقوس السامية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون من بنات أفكار تلك الأقوام البدائية الجاهلة، ولا بد انها وصلتهم من مصدر أعلى منهم شأناً.

ومن الرسل من علَّم الناس أمور دينهم ودنياهم تدويناً بعد اختراع الكتابة، وبذلك تركوا للبشرية كتباً ما زالت تزخر بجواهر الحكمة ولئالئ المعرفة. وبهذا التسلسل البطيء الذي استغرق آلاف السنين تطورت البشرية الى هذه الدرجة التي نشاهدها اليوم، ولا فضل لأي إنسان على البشرية مهما علا مقامه وارتفعت درجة علمه واطلاعه في الأمور الدينية والعلمية والفكرية، إلا من خلال فضل الرسل والأنبياء والمعلمون أصحاب الفضل الأول. من هنا جاء لقب السيد المسيح بـ (المعلم).

ان ما يلاحظ من اهتمام كبير في تعاليم جميع الكتب السماوية بموضوعي التربية والتعليم والتأكيد على أهميتهما، لهو دليل قاطع على جهل الإنسان وحاجته الى المعلم، فبدون التربية والتعليم لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً، وبدون العلم لن يرتقي الى أي شأن مهما حاول، بل لكان أكثر انحطاطا من الحيوان في معاملاته وادراكاته وتصرفاته، فالفضل كل الفضل يعود الى الرسل والأنبياء المقدسين وتعاليمهم، الذين يأتون في كل زمان ومكان، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا)**[2] ليعلّموا الناس ويثقفوهم دون توقع كلمة شكر منهم، كما قال تعالى **(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا)**[3]، فالمقصود من الطعام الإلهي هو الآيات والسور الربانية للعقول والقلوب والبصائر والضمائر، وليس هذا الطعام المادي الذي يدخل البطون، كما ظن الكثيرون من أصحاب الكتاب، فلا المشويات ولا المطبوخات

ولا الخضروات ولا الفواكه ولا ما شابهها تنزل من السماء. بل المقصود هو الغذاء الروحاني والعلم الإلهي الذي لا يفسد مع مر الزمان. هذا هو ما ينزل من السماء وليس غيره. ومع ذلك، كان الرسل يعذبون ويطردون وينفون، وفي بعض الاحيان يقتلون ويصلبون، ولم يسمع منهم طوال حياتهم غير الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى. ورغم ذلك، يسمع من بعض المتحذلقين إنكارهم على هذه الهياكل المقدسة دورهم الجوهري في تربية وتعليم البشر، ونراهم لجهلهم الكبير ونظرتهم السطحية بحقيقة الرسل والأنبياء يقولون عنهم انهم لا يختلفون في مواصفاتهم البشرية عن بقية الناس في الأكل والشرب والمرض والموت، سوى ان الله سبحانه وتعالى أوحى إليهم برسالات ينقلونها الى البشرية!

إن شخصاً جاهلاً لا يمكنه تعليم شخص جاهل مثله؟ فما بالك بشخص جاهل يعلّم شخصاً متعلماً أو مجموعة من العلماء أو أمة من الأمم ويخرج للبشرية حضارة إنسانية جديدة، مثلما فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. هذا هو المستحيل، لكنها حقيقة عمل الرسل والأنبياء. ان العلم الإلهي اللدني (الذاتي) والقدرة والقوة الإلهية المساندة للرسل أولي العزم وغيرهم من الأنبياء لا يمكن للمراقب ان يراها ويحسها الا إذا تمتع ببعد النظر والبصيرة الحيّة والحس الروحاني المميز. فسيدنا موسى(ع) كان في غاية الضعف الظاهري ولم يكن معه الا أخوه هارون أمام فرعون وجبروته، وفي تلك الحالة لا يمكن

لأي خبير عسكري أو عالم اجتماع ان يتصور انتصار موسى على فرعون! لكن هذا ما حصل في النهاية.

أما سيدنا عيسى(ع) فكان وحيداً فريداً الا من بضعة رجال ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، يمتهنون الرعي وصيد الأسماك والنجارة، فوقفت هذه العصبة الضعيفة أمام ملة اليهود بكل حضارتها وعلمائها وتاريخها ولم يتصور أحد من الناس آنذاك انتصار أمر هذه الثلة القليلة العدد وانتشار دينهم. لكن هذا ما حصل في النهاية، مما حيّر عقول ذوي الألباب ولم يجد المفكرون والفلاسفة تفسيراً يتوافق مع العقل والمنطق لانتشار أمر المسيح(ع) أمام تلك المقاومة، وراحوا ينسبونه الى شتى الأسباب غير المنطقية، ولقد بقي أتباعه يعتنقون المسيحية بسرية تامة لمدة زادت عن ثلاثة قرون حتى زمن إيمان قيصر روما في بداية القرن الرابع الميلادي، إلا ان الديانة المسيحية ذاعت وانتشرت وانتصرت في النهاية رغم كل أشكال المعاندة والاضطهاد والقتل التي تعرّض لها المسيحيون.

أما سيدنا المصطفى محمد(ص)، فالجميع يعلم ما كان عليه من ضعف ظاهري، فلقد كان يتيماً وحيداً فقيراً بين قوم أجلاف لا يتعاملون إلا بالسيوف والرماح، وكم حاربه وعانده قومه من أصحاب السطوة والقوة ومن رؤساء القبائل والشعراء ورجال العلم وعلى رأسهم أبو الحكم (أبو جهل)، إلا انه انتصر في النهاية وعمّت دعوته أرجاء الأرض.

ويخطئ من ينسب انتشار أمره الى مساندة قومه وأهله واتباعه، فهذه المساندة حصلت لاحقا بعد انتشار أمره بين الناس، لكن البداية التي امتدت الى ثلاثة عشر سنة وشملت دعوته السرية ثم العلنية في مكة، فلقد كان قومه وأهله وأصحابه من ألد أعدائها ولم يتركوا فرصة إلا وأظهروا له عدائهم وقاوموه ولم يبخلوا بطريقة إلا وواجهوا بها أتباعه حتى وصل الأمر الى التعذيب والقتل. في النهاية استطاع نشر دين الإسلام وزرع بذرته في أرض قلوب الرجال وسقايتها بمياه الحكمة والتدبير.

هذا هو التأييد الإلهي وهذا هو العلم اللدني وهذه هي الثقة بالنصر والتأييد الرباني، فلا يمكن لأحد من البشر العاديين مهما أوتي من علم وحكمة، تصوّر انتصار وانتشار أفكار هؤلاء الرسل في أيام دعوتهم وسنينها الأولى، إلا أن العلم اللدني الذي كانوا يتمتعون به هو الذي أنطق السيد المسيح(ع) بين اليهود أثناء محاكمته قبل صلبه *[وأقول لكم أيضا إنكم منذ الآن سوف ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة..]*[4]، فهل صدَّقَ من سمعه وهو يحمل صليبه على ظهره بين أيدي أعدائه يلطمونه ويستهزؤون به، ان أمره سينتشر ويعم الأرض وتخضع له تيجان الملوك والأباطرة فيما بعد؟! ان تلك الحالة التي كان عليها لا يمكن أن تشير بأي شكل من الأشكال الى صحة قوله. فكم من داعية ذهب واختفى مع أفكاره ولم يتبق له أثر، وكم من فيلسوف لم

يتبعه الا قلّة معدودة اختفوا مع مرور الزمان؟ ان التاريخ مليء بالأسماء الشهيرة وقصص أصحاب النظريات والأفكار، فلماذا اختفوا واندثر ذكرهم، بينما علت وبقيت أسماء ودعوات الرسل والأنبياء؟ لا شك انه بسبب الدعم والتأييد والعلم الإلهي ليس إلا.

في الحقيقة.. كان باستطاعة النبي عيسى(ع) التغلب على أعدائه وإيقافهم عند حدهم بما حباه الله سبحانه وتعالى من قوة إلهية، لكنه فعل ما هو دليل الرحمة والشفقة بقتلته، وبدلا من ردود الفعل المتوقعة من كل إنسان عادي، كان السيد المسيح يسبّح بحمد ربه ويستغفره ويطلب منه الرحمة بهؤلاء المجرمين ويصفهم بجهالة الأطفال وعدم إدراك ما يفعلون، ويقول إنهم لو علموا بحقيقته ما فعلوا به ما فعلوه، بل لسجدوا لربهم شاكرين ظهوره بينهم.

عندما يدعي الرسل انهم أميون، فهم يقولون الحقيقة وهو أمر حق، أما لو كان غير ذلك، لكان أول المكذبين للرسول محمد(ص)، أهله وأصحابه وأقرانه وأهل بلدته، لأنهم مطّلعون على كل مراحل حياته منذ ولادته بينهم، فإن تعلّم أو درس على يد شخص ما، سيكذبونه وينكرون دينه ويوردون الأدلة على ذلك، بل انه سيحجم عن مثل هذا الادعاء الصعب ويبتعد عنه على أقل تقدير، خاصة وهو على ذلك المقدار من الذكاء والعبقرية والفطنة، فلماذا يسمح الرسول محمد(ص) لثغرة بسيطة مثل هذه ان تكذّبه وتكذب دعوته العظيمة؟ وكان من الأحرى به

الاعتراف ببساطة انه تعلم أو تثقف على يد مدرس أو معلم، وبذلك ينشر أفكاره بسهولة أكثر ويتجنب كل تلك المشاكل والمصاعب والمعاناة. ثم لماذا يسمح له معلّمه أو مدرّسه بهذا الادعاء وهو يعلم بكذبه؟ وكان من الأجدر به ادعاء النبوة لنفسه بدلاً من تلميذه! ان ادعاء الرسل الكرام بأميتهم، حق لا ريب فيه، وكل ما يظهر منهم من ضعف وبساطة وتواضع وتفان، ليس مرده الى ضعف فيهم، بل لأنهم يملكون صفات إلهية حقيقية منَّ الله سبحانه وتعالى بها عليهم ليترفعوا بها عن مجارات البشر في أفكارهم وتصرفاتهم، فمثلاً: الله قوي، والرسل أقوياء، وبقوتهم تمكنوا من التغلب على معانديهم وثبّتوا دينهم رغماً عنهم. والله رحيم، والرسل رحماء بجميع الناس **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)**[5]، والله صبور، ورسله أكثر الناس صبراً، والله غفور، ورسل الله من أكثر خلقه غفراناً لغيرهم، والله جميل، ورسله أجمل خلقه، والله لطيف، ورسله ألطف من كل البشر، والله غالب، ورسله غلبوا كل من على الأرض ورسخوا دينهم وانتصروا... وهكذا على عكس ما يعتقد به بعض البسطاء الذين شهد القرآن الكريم على غفلتهم بقوله تعالى **(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)**[6] وكذلك **(وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)**[7]، فالرسل والأنبياء أقوياء قادرون، لكنهم جاءوا لتعليم البشر ورفع مستواهم وليس لعقابهم والتحاجج معهم والنزول الى مستواهم، لذلك التبس على بعض الناس ما

شاهدوه من ضعف الرسل والأنبياء الظاهري وظنوه حقيقة. أما ما يشاهد ويقرأ من كلمات العتاب والتنبيه الإلهي الموجه للرسل والأنبياء في الكتب السماوية، فما ذلك إلا نوعاً من أنواع الرحمة الإلهية بالعباد لتخفيف قوة النقد اللاذع المباشر اليهم.

لنضرب على ذلك مثلا مشابهاً للمثل الذي ورد في الإنجيل: فلو أراد صاحب قرية أو مصنع ان يأمر مجموعة من عماله بتنفيذ عمل محدد دون الذهاب إليهم مباشرة، وانتدب بدلاً عنه شخص آخر غيره، فهل يرسل إليهم شخصاً ضعيفاً جاهلاً متردداً، أم يرسل شخصاً مقتدراً مناسباً لهذه المهمة؟ من المنطقي ان يختار صاحب القرية أو المصنع، شخصاً قوياً ذكياً مع قوة كافية، ليستطيع إخضاع العبيد أو العمال إذا هم تنكّروا له أو حاولوا الاعتداء عليه أو مجادلته بالحجج. اذن، فمن الطبيعي ان يكون رسل الله وأنبياءه في غاية القوة والمنعة حتى يتمكنوا من إتمام إبلاغ رسالاتهم الى مثل هؤلاء البشر الطغاة المتكبرين. وان ما يرى من ضعفهم ورحمتهم وتجردهم وتواضعهم تجاه البشر، ما هو الا ذلك الأدب الرفيع الذي لا يملكه سواهم، كما قال الرسول محمد(ص): **(أدّبني ربي فأحسن تأديبي)**، فهم معلمون حقيقيون، وظهورهم بمثل تلك الأحوال التي تثير الشكوك والريبة في نفوس الضعفاء من الناس، ما هو الا نوع من أنواع الامتحانات الإلهية والدروس المفيدة للبشر ليتعلموا التواضع ونكران الذات والمحبة والرحمة

فيما بينهم، وإلا فان الله قادر – كما شهد التاريخ والكتب المقدسة – ان يأمر رسله بتغيير ما يشاؤون في الأرض عن طريق فعل المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة، لما يتمتعون به من قوة وقدرة وجبروت الهي، لأن صفاتهم من صفات الله وقوتهم من قوته وسلطتهم من سلطانه وملكهم من ملكه، وهم سفراءه في أرضه، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)**[8] وكذلك **(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)**[9]. لكن الله سبحانه وتعالى يقابل جرائم الناس بعفوه ومغفرته، وظلمهم برحمته، وطفولتهم بحكمته، وكفرهم بفضله، ليوصلهم الى ما قدَّر لهم من نضوج فكري وسعادة إنسانية وسلام شامل على الأرض.

أما الأسباب الأساسية التي يظهر بها الرسل والأنبياء بهذا الضعف وذلك العجز الظاهري، فهو لامتحان العباد وتمييز المؤمن من الكافر وأصحاب البصيرة من أصحاب البصر. وإلا فالله قادر ان يرسل موسى(ع) بلسان فصيح سليم، ويحفظه من ارتكاب جريمة قتل لامه عليها الجميع واعرضوا عنه وعن دينه بسببها. ومقتدر على بعث عيسى(ع) من أب معروف بالحسب والنسب وإخراجه من أفضل البيوت وأشرفها وليس من قرية الناصرة المشهورة بالرذيلة والفساد آنذاك. والله قادر على اجتباء محمداً(ص) من بين مشايخ العرب الأغنياء ذوي المكانة الاجتماعية ويجعل له العديد من الأشقاء والأصدقاء ويمد بعمر

والديه وأعمامه وأخواله وأجداده ليكونوا عوناً له في نشر دعوته! هذا بالإضافة الى قدرة الله على تغيير قلوب كل البشر وتقليبها بكلمة واحدة منه ونشر أمره بكل سهولة ويسر وإخضاع الجميع لأمره وعلى رأسهم الملوك والأباطرة، دون تعريض رسله وأنبيائه الى كل ألوان العذاب **(إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)**[10].

قد يتساءل البعض ويقول: ان كان تأثير الرسل والأنبياء ودياناتهم لها الفضل الأول والأخير في تعليم البشر ونقلهم الى هذا المستوى العلمي الذي نراه ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين، فلماذا تتردى أخلاق الأمم العظيمة وتنتكس أعلامها، بعد ان تعلو ويرتفع شأنها؟ ولماذا تظهر حضارات وتختفي أخرى؟ أليس من المفروض استمرار هذا الرقي صاعداً في خطه البياني؟

لو نظرنا الى التاريخ وتفحصنا صفحاته، لوجدنا البشرية تمر بمراحل من الانتكاسات الحضارية بين فترة وأخرى، وهذه الانتكاسات تنقسم الى قسمين: الأولى مرحلية تتأرجح بين العلو والدنو، فمرة تنهض بإيمانها وعلمائها ومفكريها وفلاسفتها، فيرتفع شأنها ويعلو اسمها بين الأمم، ومرة تتدنى وينحط شأنها بسبب الابتعاد عن حقيقة مفاهيم الدين، أو العمل بما لم يحكم به الله. أما المرحلة الثانية، فهي نهائية، وتحدث عند نهاية عمر الديانات، كما أشار الى ذلك قوله تعالى **(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)**[11]

وكذلك **(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)**[12]، وهذا التردي والانحطاط وهذا الفشل والجهل والضعف، لا يعقبه نهوض ولا ينفع معه تجديد، إلا بالانتقال الى الإيمان بدين جديد، ويحصل في فترات طويلة الأمد نسبيا، وعلاماتها وزمان ابتدائها هي فترات ظهور الرسل في الأرض ونزول الشرائع السماوية الجديدة. فبمجرد ظهور رسول جديد بشريعة وأوامر إلهية جديدة، يسحب الله بساط التأييد والظفر وكل أسباب فخر المؤمنين من الملة السابقة، بمجرد كفرها بالرسول الجديد، ويعطيه الى ملة جديدة يخلقها بنفخة من قدرته ويؤيدها بتأييداته الغيبية، فتنتصر وتعلو بالايمان والعلم والمعرفة، وتخرج من عالم المجهولية والجهل والشراسة الى عالم المعرفة والحضارات، رغم خلو تاريخها من أي خزين علمي أو ديني أو ثقافي، كما حصل مع اليهود أيام الفراعنة عندما كانوا عبيدا لهم يعملون تحت سياط رجالهم يسومونهم شتى أنواع الأذى والعذاب. وكما حصل مع المسيحيين وكانوا منبوذين ومحاربين من كل أبناء قومهم بل ومن جميع ملل العالم لأكثر من ثلاث قرون، الا ان الله نصرهم في النهاية وساد وارتفع اسم المسيح(ع) ودينه. وكما حدث مع العرب وكانوا قبائل متناحرة مشتتة في صحارى الجزيرة العربية لا يعرف لهم اسم ولا حضارة، فاتحدوا وتكاتفوا وأسسوا حضارة ظللت بجناحيها شرق الأرض وغربها.

من هذا يفهم دور الرسل والديانات في تربية وتعليم البشر كل حسب

زمانه ومكانه، وما نراه من صفات ومزايا لرسول تختلف عن غيره من الرسل، ما هو الا بسبب ظهورهم بين مجتمعات متباينة التطور مختلفة الأعراق والتقاليد والعادات، وهذا ما دفعهم لتبني مثل هذه المواقف أو الاتصاف بهذه الصفات الضعيفة ظاهرياً تماشيا مع حالة المجتمع، وهم قادرون على عمل كل ما قام به غيرهم من الرسل من أعمال ومعجزات خارقة للعادة، لأنهم جميعا جاءوا من مصدر واحد ومن رب واحد ويحملون نفس القوة والقدرة الإلهية، وبإمكانهم عمل أي شيء بكل سهولة ويسر، كما قال رب العزة **(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)**[13]، وما يرى منهم من حالات مختلفة تشتبه على البشر، ما هي الا اقتضاء للوقت والزمان والمكان لا غير ذلك، كما قال تعالى **(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)**[14]، مثلهم مثل معلمو المدرسة، فمعلم الصف الأول يمكنه تعليم الصف الثاني والثالث ويمكنه إظهار علمه لطلابه الأطفال بطريقة يعجزون عن فهمها، لكن الذي يمنعه عن ذلك هو محبته لتلاميذه وطلابه ورفقه بهم ونظرته المستقبلية لخيرهم وصلاحهم وعلمه المسبق بأنهم أطفال جهلة صغار لا يفقهون من أعمالهم شيئا. ولأنه يحمل عقلاً ومفاهيما أكبر منهم، لذلك نراه يرفق بهم ويسامحهم ويحنو عليهم ويتكلم بمستواهم بهدف إنشاء جيل جديد ورجال ناضجين تحتاج الأمة لهم مستقبلا.

من الواجب على كل فرد ان ينتبه لما يتقوّل به ويردده بحق تلك

الرجالات المقدسة (الرسل والأنبياء) ودياناتهم وتعاليمهم ويبحث بنفسه عن ما ينجيه في اليوم الآخر، ففي يوم القيامة لن يجد الإنسان لنفسه ناصراً ولا معيناً، حيث وصف الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم الرهيب **(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)**[15] وكذلك **(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)**[16] فلن يحاسب الله يومها أحداً بجريرة غيره **(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)**[17] فكل نفس لها حسابها الخاص بها، كما قال تعالى **(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)**[18] وعلى الجميع الحذر من الأفكار الهدّامة ومخافة غضب الله، لأن البشر قادرين بمختلف درجاتهم الفكرية والعقلية على تمييز الخير من الشر والحق من الباطل والايمان من الضلالة، لذلك يحذرهم سبحانه وتعالى من الاعتماد على غيرهم في فهم أحقية أديانه وشرائعه، فلو لم يكن الجميع قادراً على التمييز، لكان هذا التحذير الإلهي نوعاً من أنواع الظلم! وحاشا لله من هذا وتعالى عنه علواً كبيراً، إذ بهذا ستكون لجميع البشر حجة على الله في كفرهم، وسيدعي ويحتج الغالبية بقلة عقولهم وعدم استطاعتهم تمييز الحق من الباطل، لذلك قال تعالى **(رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)**[19].

اذن لنبحث ونقرأ ونستمع ونجرد القلوب من متعلقات الكلمات الرنانة الجوفاء التي يتقوّل بها من لا حق لهم بقولها ويتاجرون بلهو الحديث، فيضلون العباد ويضلوا أنفسهم، فهم مثل نجمة الصباح الكاذبة، تظهر قبل الفجر براقة لامعة، فيعتقد قادة القوافل انها نجمة الصباح الحقيقية ويقودون قوافلهم حسب اتجاهها، وبعد ساعة يكتشفون انهم ضلوا الطريق وتاهوا في غياهب الصحارى، فيهلكون وتهلك القافلة معهم. لذا وجب الحذر من أصحاب الألسنة المعسولة، لأن الله وهبنا من العقل والتفكير والبصيرة ما يمكن به تمييز الحق عن الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر، وكما قال السيد المسيح(ع): *[من ثمارهم تعرفونهم]*[20]، أي يمكنكم معرفة أصحاب الإيمان من المدعين، من فحوى كلامهم.

خلاصة القول: ان دور الرسل والأنبياء وتعاليمهم كان ضروريا لتطور البشرية والأخذ بيدها نحو التقدم حتى ولو تفرقت وتباعدت أماكن وأزمنة ظهورهم، فدورهم كان واحداً ومهمتهم واحدة وهدفهم واحد، وهو مساعدة البشر على التقدم والتطور العلمي والروحاني، كما قال تعالى **(وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)**[21]. أما ما يشاهد اليوم من حالة تردي البشرية، فما ذلك إلا بسبب ابتعادهم عن حقيقة تعاليم الرسل والأنبياء واتباعهم أهوائهم ورغباتهم.

الهوامش

1 – العلم اللدني: هو العلم الذاتي غير المكتسب، أي الذي ينبع من ذات مظاهر الرسل والأنبياء، وهو خاص بهم، فهم وحدهم الذين لا يحتاجون الى معلم ليعلمهم، لأن علمهم من علم الله سبحانه وتعالى.

2 – سورة الحج 34 .

3 – القرآن الكريم سورة الإنسان 9 .

4 – إنجيل متى – إصحاح 26 – آية 64 .

5 – سورة الأنبياء 107 .

6 – سورة الفرقان 7 .

7 – سورة الفرقان 20 .

8 – سورة النساء 14 .

9 – سورة النساء 80 .

10 – سورة مريم 35 .

11 – سورة يونس آية 49 .

12 – سورة الرعد آية 38 .

13 – سورة البقرة 285 .

14 – سورة البقرة آية 253 .

15 – سورة عبس 34،35 .

16 – سورة الحج 2 .

17 – سورة الأنعام 164 .

18 – سورة الإسراء 13 .

19 – سورة النساء 165.

20 – إنجيل متى – إصحاح 7 آية 16 .
21 – سورة القمر الآية 50.

الفصل السابع

ما سبب ظهور الرسل

ونزول الأديان

سبق وتناولنا بعض النقاط عن ضرورة وجود الرسل والأنبياء كمعلمين وواضعي فلسفات متعددة الملامح لتربية الناس، وأثبتنا عدم قدرة البشر على التعلّم بدون معلم. وفي هذا الفصل، سنتناول بعض نقاط هذا الموضوع بشكل أوسع.

ان الله سبحانه وتعالى هو المرسل والباعث لجميع الرسل والأنبياء، ولابد ان الهدف من إرسالهم هو الخير البحت ونشر الأخلاق والفضائل الإنسانية بين بني البشر، لأن الله خير محض ورحمة صرفة، لذلك لا يمكن أن يظهر منه إلا الخير المطلق، إلا إننا لم نرّ من اعتناق البشر لهذه الأديان (الا في فترات محددة) سوى سوء الاستعمال والمنازعات والتشتت وظهور الفرق المتعددة والمذاهب المختلفة التي ملأت صفحات التاريخ بالحروب والدماء، الى درجة ان بعض العلمانيين أو الملحدين راحوا يتبجحون متسائلين، ولهم بعض الحق في ذلك: هل ما يدور في العالم اليوم من مآسي وحروب وفتن ومصائب ومجاعات وإرهاب وقتل وتعصبات دينية ومذهبية، يرضي الله ورسله وهو العادل الرحيم؟

يمكن تمثيل البشرية بمجموعها، بالإنسان الفرد عندما يولد وينمو ليصبح كاملا، فمنذ القدم ولحد هذا اليوم كانت البشرية تتدرج في مراحل الطفولة والمراهقة ولم تصل الى سن البلوغ والنضج بعد (بدليل ان الإنسان ما زال يتقدم في مدارج العلوم والحضارة ولم يصل الى قمة البلوغ بعد)، لذلك كان من الطبيعي على هذا الطفل وصبي الإنسانية، ان يتمرد على القوانين مثلما يفعل الولد الصغير، إما نتيجة لعدم إدراكه لمغزاها، أو بسبب غريزة التمرد والمعارضة الناتجة عن النفس الأمارة، لأن الإنسان يحمل صفتين متناقضتين تمام التناقض، الأولى تسحبه الى الهوى والملذات والعالم المادي، فيتشبه بالصفات الحيوانية كما نراها واضحة لدى الهمج الرعاع من الناس، والأخرى ترفعه الى العالم الإنساني فيتصف بالمثل والأخلاق والقيم والمزايا الرحمانية[1] كما تتجلى في تصرفات الناضجين من أهل الدين والأدب والعلم. لذلك، عندما يكون الرسول المعلم بين البشر أو قريبا منهم، يحاول أتباعه الالتزام بالنظام والشريعة بقدر ما تعلموه منه بسبب تأثير وجوده الشخصي الفعّال بينهم باعتباره شمس الحقيقة المحيية للأرواح ومصدر التشريع، وحالما يبتعد عنهم ويرحل من بينهم، تدب بينهم الاختلافات وتزداد الآراء وتتعدد وجهات النظر وتكثر الاجتهادات، فيتشعب الدين وتظهر المذاهب والفرق والأفكار، فكلٌ يقول برأي مخالف للآخر، وكل يفتي برأي جديد، لكن الصورة الواضحة الإجمالية للجميع هي صورة الارتباك والفوضى عدا فترات محدودة قصيرة؛ الا ان الله برحمته

ومغفرته يحب أبناءه وعبيده ويحنو عليهم ويغفر لهم ذنوبهم، ويعتبرهم رغم كثرة شقاوتهم وعدم التزامهم بقواعد دروسه وشرائعه وأنظمته من الناجحين في الدورة السابقة، لأنهم لا يدركون ما يفعلون لجهلهم، بدليل معاندة وتعذيب وقتل أنبياءه ورسله، ومع ذلك ينقلهم الى الفصل التالي ويبعث لهم منهجاً جديداً ورسالة جديدة ورسول جديد ويغفر لهم عدم انتباههم وكثرة غيابهم ومشاكساتهم.

ان ما حدث سابقا، مثله كمثل العلاقة بين مدير المدرسة وطلابه، فهناك اتفاق ضمني ومبدئي بين الاثنين، فواجب المدير (الذي يدركه جيداً)، يقتضي تهيئة المدرسين وإيجاد الفصول والمناهج المتسلسلة ومراقبة عملية التدريس وغير ذلك لضمان أفضل النتائج لمستوى طلابه. أما واجب الطلاب (رغم عدم إدراكهم له بشكل واضح) فهو الجد والمثابرة والتعلم والنجاح. لكن للمدير حافز خفي يدركه جيداً، يدفعه لهذه العملية المتعبة الطويلة المرهقة، ألا وهو محبته لطلابه وتفانيه في خدمتهم وتعليمهم وتثقيفهم والأمل بخلق جيل مثقف واع، فهو يهتم بالجميع دون استثناء لتحقيق هدفه النهائي في إنجاح وتفوق أكبر عدد من طلاب مدرسته، وان أكبر آماله وأعظمها، مشاهدتهم وهم ناضجون مثقفون متعلمون يشغلون أماكن مميزة ووظائف حساسة في المجتمع. عندها يفتخر المدير بنتائج أعماله ويشعر بالزهو والفخر والارتياح لنضوج ثمرة تعب سنين حياته الطويلة ومذاقها اللطيف. كذلك

يرسل الله سبحانه وتعالى الرسل والأنبياء ويهيئ لهم الشرائع والمناهج لتعليم البشر لنقلهم من مرحلة الى مرحلة أعلى ومن درس الى درس آخر حتى يصلوا الى الغاية النهائية، وهي إيجاد بشر صالحين مدركين يتصفون بالصفات الإنسانية المثلى.

ان الدورات الرسالية الإلهية متتالية لا أول لها ولا آخر، لأن الدين والرسل هم مظاهر رحمة الله، ورحمة الله لا تنقطع، وكل دورة لها مجموعة من الرسل، وكل رسول يعلم ويربي أمة خاصة به ويرتقي بأخلاقهم ويحاول مساعدتهم ويحبهم أشد الحب، فمنهم من وصف أمته بـ (شعب الله المختار) مثل موسى(ع)، ومنهم من وصفهم بـ (أحباء الله) كما سمى المسيح(ع) أتباعه، وكذلك (خير أمة أخرجت للناس) كما شرّف القرآن الكريم أمة الإسلام بهذا اللقب الرفيع. فما هذا التفضيل وهذه المحبة الا لتشجيع الأمم على الدراسة والتقدم والعمل بأوامر الله ومحاولة النجاح في يوم الامتحان النهائي الذي عرف وسميّ في جميع الكتب السماوية بيوم القيامة والساعة والحاقة والطامة والواقعة واليوم الآخر وغيرها، عندما تجتمع كل أمم أصحاب الكتاب وغيرها في يوم واحد لا ريب فيه لتواجه امتحان واحد محدد. ان عمليات الامتحان والنجاح والرسوب في هذه المرحلة النهائية (يوم القيامة) تشمل كل الأمم بكل مدارسها (أديانها) وبكل مناهجها (شرائعها) وبكل طلابها (عبادها). إذ سيكون شكل الامتحان النهائي في (يوم القيامة) مشابها

للامتحان العام النهائي الذي يدخله جميع طلاب مدارس الدولة في كل سنة، وإلا فستبطل وستنتهي قيمة ومغزى التحصيل في الديانات السابقة إذا لم يكن هناك نتيجة لهذا السعي، فالغاية النهائية من إرسال كل الرسل والشرائع هو تعليم البشر وتربيتهم والوصول الى موسم جني ثمرة هذا التسلسل، وهو الإنسان المؤمن الناضج الكامل المتعلم المثقف، وإحلال السلام العام بين البشر.

ان التكهنات والتوقعات فيما يخص يوم القيامة وحالة البشر في ذلك اليوم تحتاج الى وقفة صحيحة ونظرة جديدة لغرض فهم معنى يوم القيامة، ولا نجانب الصواب إذا قلنا ان غالبية الناس لا يدركون ذلك وينكرون حقيقة الموقف الذي سيواجهونه بدليل قوله تعالى في الآيات التالية **(يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)**[2] وكذلك **(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)**[3]، وأيضاً **(إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)**[4]. اذن لابد من وجود معانٍ خفيّة غير ما هو متناقل عن الأسلاف وما ينتشر بين الناس لمفهوم اليوم الآخر ويوم الحساب المذكور في آيات الكتب السماوية، إذ من غير المعقول أن يكون يوم القيامة حسب المواصفات المادية المنتشرة بين الناس.

ذكر السيد المسيح(ع) مثالا بهذا الخصوص، قال: *[اسمعوا مثلا آخر. كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلّمه الى كرّامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل*

عبيده الى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين. ففعلوا بهم كذلك. فأخيرا أرسل اليهم ابنه قائلا يهابون ابني. وأما الكرّامون فلما رأوا الإبن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث. هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين. قالوا له. أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم الى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاته][5].

ان المقصود بالإنسان رب البيت في القصة السابقة، هو (الله) سبحانه وتعالى، ومن الكرم هو (الشريعة) ومن الكرّامين الذين تركهم عليها ليزرعوها هم (مؤمنون الديانات السابقة)، وفي وقت الإثمار أي (نهاية عمر الرسالة)، أرسل لهم عبيده، أي (رسلاً وأنبياء آخرين) ليأخذوا من الزراع أي من المؤمنون السابقون ثمن المحصول، أي ثمن (العبادة والعمل الصالح) ويسلموه الى صاحب الكرم (الله) سبحانه وتعالى. لكن الكرّامين (المؤمنين السابقين) كانوا أشراراً وقتلوا عمال صاحب الكرم، أي (الأنبياء وأتباعهم الجدد) وامتنعوا عن تسليم محصول أيمانهم لهم، أي (كفروا بالرسالة الجديدة)، فسكت صاحب الكرم (الله) عن فعلتهم وتغاضى عنها وتركهم على حالهم. وفي الموسم القادم، أي في (الرسالة التالية) أرسل لهم عبيداً آخرين، أي (رسلاً ومؤمنين جدد آخرين) ففعل المزارعون، أي أصحاب الدين القديم

بالعمال الجدد مثل سابقيهم، ومرة أخرى سكت عنهم الله (صاحب الكرم والشريعة). وتوالت هذه الأحداث، حتى أرسل لهم (ابنه الروحي) أي السيد المسيح(ع) نفسه، ولكن هؤلاء المزارعون الأشرار أصحاب الشريعة السابقة، قتلوا الابن أيضا واغتصبوا المحصول، أي شوهوا تعاليم شريعته وكفروا بها وفعلوا بأوامره (شريعته) كيفما شاءوا. في النهاية لم يجد صاحب الكرم (الله) بُداً من الذهاب اليهم بنفسه لإبادتهم وتشتيت شملهم وقتل كل من اعتدى على عمّاله (مؤمنيه) وقتل ولده ورفض تنفيذ أوامره (شريعته). فيخلص الكرم (حقيقة الدين الإلهي) منهم ويشرف عليها بنفسه ليعم الخير والسلام الأرض.

قد يقول أحد القراء ان هذه القصة من الإنجيل، أو من كتب النصارى، وهذه كتب محرّفة لا يؤخذ بنصوصها ككلام إلهي، فكيف يأتي الله الى الأرض، فهذا أمر غير معقول؟! ولاختصار هذا المطلب، نورد عدة دلائل من آيات القرآن الكريم تشير الى نفس المعنى والمضمون:

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)[6] و **(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)**[7] و **(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)**[8] و **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)**[9] و **(لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)**[10] و **(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)**[11] و

(أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ)[12]. ان هذه الآيات وغيرها تؤيد المطلب السابق وتوافق ما جاء في الإنجيل.

والدليل الثاني، لو حاول شخص ما تحريف نص أي كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى، فهل يستطيع ذلك؟ في الحقيقة سيصعب عليه بل ويستحيل فعل ذلك، لأن الكتب السماوية ليست نسخاً فريدة موجودة في مكان معين، حتى يتمكن من يشاء تنفيذ هذه الفعلة وتحريف الكتاب.

أما ما نراه من اختلافات ظاهرية في الأناجيل الأربعة على سبيل المثال، فما مرد ذلك إلا لأنها كتبت على لسان السيد المسيح(ع) عندما كان يكلم أتباعه، ومن الوارد أنه كلَّم أحدهم بغياب آخر، ثم أعاد الحكاية للغائب عند حضوره بغياب الأول، وعندما كتبا ما سمعاه فيما بعد، جاء الاختلاف في التعبير وليس في المضمون. هذا بالإضافة الى أن المسلمين يقيسون متانة نصوص أي كتاب سماوي بكتاب القرآن الذي نزل بطريقة أخرى وظروف جديدة. لذلك فما نراه ونطلق عليها كلمة "تحريف"، ما هو الا بسبب قدم تاريخ بعض الكتب وتعدد تراجمها الكثيرة.

لكن أخطر أنواع التحريف، هو تحريف المعاني وليس الكلمات، كما قال تعالى **(مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)**[13] و

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)[14] وهذا النوع من التحريف منتشر بين كثير من رجال الدين في مختلف الديانات! فهم يفسرون ويؤولون معاني آيات كتبهم كيفما أرادوا لتتفق مع قدراتهم العقلية غافلين عن مفاهيمها الحقيقية، كما قال تعالى **(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)(6 لقمان).**

والدليل الآخر: ان من يؤمن بهذه الكتب السماوية، يقدسها ويحترمها ويكن لها غاية التبجيل والتعظيم، وإلا لما آمن بها وخضع لها، وفي هذه الحالة لا يمكن ان تسوّل له نفسه التلاعب بمحتوياتها. وحتى لو فرض ووجد من يحاول التلاعب بهذه الكتب المقدسة بدافع المصلحة والنفعية، فلا يمكن أن يكون بمعزل عن غيره ليقوم بفعلته.

والأهم من كل هذا: ان كل كتاب من هذه الكتب المقدسة يحتوي على قوة إلهية مكنونة فيه تمنع المؤمنين وحتى الكافرين من العبث والتلاعب بمحتوياتها، ودليل ذلك استمرارية وجودها.

فلقد ورد في القرآن الكريم **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[15]، ومعنى كلمة الذكر في اللغة العربية كلام الله بشكل عام، الا انه اختص بها القرآن الكريم في هذه الآية، وهذا يعني ان الله يتعهد بنفسه المحافظة على كلمات الذكر من التحريف والتبديل.

ولقد جاء في كتاب الإنجيل ما يؤيد هذا القول:- *[لأني أشهد لكل من يسمع أقوال نبوة هذا الكتاب إن كان أحد يزيد على هذا يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة ومن المدينة المقدسة ومن المكتوب في هذا الكتاب]*[16].

وكذلك جاء في التوراة في سفر دانيال آية تدل على نفس المعنى *[اما أنت يا دانيال فأخف الكلام واختم السفر الى وقت النهاية . كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد]*[17] *وكذلك [فقال اذهب يا دانيال لأن الكلمات مخفية ومختومة الى وقت النهاية]*[18].

وورد في الإنجيل أيضا آية تشير الى نفس المضمون، ففي الرسالة الثانية لبطرس الرسول *[عالمين هذا أولا ان كل نبوءة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس]*[19].

فمجموعة هذه الآيات تؤكد على وجود تلك القوة الإلهية المكنونة داخل الكتب السماوية التي تمنع عملية التحريف. صحيح ان الله سبحانه وتعالى ذكر المحرفين في القرآن الكريم وقصد بهم ملة اليهود، لكن هذا التحريف له شكلان كما ذكرنا، الأول تحريف الكلمات أي تغيير النصوص وقد ثبت استحالة ذلك، والثاني تحريف المعاني، وهذا

هو الممكن والمتداول بين اتباع جميع الديانات في كل زمان ومكان وهو الأشد خطورة، أي ان بعض الجهلة المدعين لا يحتاجون الى تغيير كلمات الكتب الإلهية أو زيادة أحرفها أو حذفها لتضليل الناس، بل يكفيهم تفسير الآيات بطرق تتناسب مع مشتهياتهم النفسية وما يتفق معه مصالحهم لتضليل العباد. وما نشر فكرة استحالة فهم الآيات الإلهية بين الناس ووضع شرط دراسة عشرات الكتب والمؤلفات والعلوم والحصول على العديد من الشهادات العلمية العالية، إلا لاحتكار هذه الحرفة وقصرها عليهم لتسهيل مهمتهم في كسب متاع الدنيا، ولم يدركوا انهم بهذا العمل الفظيع يخالفون أمر الله سبحانه وتعالى الذي أنزل الشرائع لجميع الناس، ووعد بمحاسبة جميع البشر فرادى كل لذاته، كما قال تعالى **(وكل ألزمناه طائره في عنقه)** وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)**(94 الأنعام).

وتأييدا لما سبق وسقناه، ورد في القرآن الكريم **(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)**[20] وهذه الآية الكريمة تدل ان التحريف لا يقتصر على تغيير أشكال الكلمات وحروفها فقط، بل تغيير معانيها أيضا، فهي توضح ان بعض علماء الدين يفهمون كلام الله سبحانه وتعالى، لكنهم يحرّفون معاني الآيات –

بقصد أو بدون قصد – ودليل ذلك اختلاف فرق ومذاهب كل دين في تفسير الآيات رغم توافق وتشابه النصوص.

ان الدورة الرسالية التي يعيش البشر أواخر زمانها هذه الأيام، هي التي ابتدأت بآدم عليه السلام وانتهت بالخاتم محمد المصطفى (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وان كل ما عمله هؤلاء الأنبياء والرسل الأصفياء، إنما كان بمحض المحبة والعفو الإلهي، حيث أن جميع أمم الأرض، مؤمنها وكافرها، عالمها وجاهلها، كبيرها وصغيرها، دخلوا يوماً عصيباً لم تر الإنسانية شبهه من قبل، فالكل وقع تحت نوع من أنواع العذاب، ان كانوا أفراداً أو أمماً أو جماعات، ومن يعدد أشكال وأنواع بلايا ومصائب البشر في هذا الزمان لن يحصيها. وكما يعلم الجميع، ما للامتحان النهائي من خوف ورهبة وعلامات مميزة، فهو من مزايا يوم القيامة، وإذا افترضنا انه يوم طويل نسبياً وليس عبارة عن يوم واحد حسب توقيتنا وحساباتنا (أربعة وعشرون ساعة)، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بخصوص قياس اليوم الإلهي **(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)**[21] و **(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)**[22]، و**(تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)**[23]، يستدل من هذا، ان معنى اليوم قد يكون طويلا، وقد يدوم سنيناً أو قروناً عديدة؟! أي ان مدة الاضطراب والامتحان والخوف

والحروب والفتن، قد تكون طويلة الأمد! وما يدرينا فلعل ما عاشته الإنسانية في القرن العشرين وما ستعيشه في الواحد والعشرين، ما هو الا يوم عذاب الله الطويل، وان ما يشاهد في مختلف بقاع الأرض من محن وبلايا، ما هو الا صورة من صور عذاب يوم القيامة، بسبب ابتعاد البشرية عن الأخلاق والصفات الإنسانية والشرائع الربانية رغم كثرتها، وبالتالي فهي واقعة في يوم الامتحان الكبير الأكبر الذي وعد الله سبحانه وتعالى بدخوله في اليوم الآخر ولا تشعر بذلك، كما قال تعالى **(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)**(21 النحل). فهل ستتعظ البشرية وتنتبه وتصحو وتفتح عيونها وبصيرتها لترى وتدرك انها تعيش ساعة الامتحان النهائي؟

وهنا يتطابق وصف الآية القرآنية الكريمة لهذا اليوم الرهيب عندما تصف حالة البشر في يوم القيامة الذي يتوافق بصفاته وعلامته مع هذه الأيام **(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)**[24]. ومن الملفت للنظر، إننا لو ناقشنا نسبة كبيرة من أفراد المجتمع من ذوي الاحساسات الروحانية والإيمانية عن أسباب حالة التردي التي يعيشها الناس في هذه الأيام، لسمعنا من غالبيتهم إجابات متشابهة: إننا نعيش في آخر الأيام وعلامات يوم القيامة الصغرى ظهرت بتمامها ووضحت للجميع، وما ننتظره هي العلامات الكبرى حتى تقوم الساعة!

ليست الغاية من كتابة هذه السطور، إخافة الناس ونشر مشاعر الرعب بينهم، بل التذكير والانتباه من هذا اليوم الرهيب، ونبذ التعصبات القديمة البالية والحذر من المتقولين المتحذلقين ممن يدّعون العلم والمعرفة بالدين ويفسرون كلام الله على أهوائهم وما جبلوا عليه وسمعوه من أسلافهم دون تفكير وتمحيص، فمن الوارد جداً انهم يفسرون ويؤولون ويجيبون بأجوبة خاطئة، فيحذو الناس حذوهم ويلاقوا نفس مصيرهم، لذا كان من الضروري الاعتماد على النفس، أي الالتزام بمفهوم بالآية المباركة **(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)**[25]. فالله سبحانه وتعالى أعدّ للبشر حياة أخرى أعلى مقاما من حياة الدنيا، سينعمون بها في حالة نجاحهم وفلاحهم بعدما يفهمون حقيقة أديانهم حق الفهم، وان مستقبلاً سعيداً ينتظرهم بعد اجتياز يوم الامتحان الإلهي، كما شهدت وبشرت به آيات القرآن الكريم **(وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)**[26] و **(لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)**[27] و **(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)**[28]، فهل سيعي البشر مسؤولياتهم؟

ان علامات الساعة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة كثيرة، بل وحتى في بقية الكتب السماوية، فمنها على سبيل المثال: ان المال يكثر ويزداد. ولم يحدث في تاريخ البشرية ان كثر المال على الأرض

كما هو في الحال الحاضر. ومن علاماتها طيران الحديد والمعادن وتكلمها واقتراب البعيد. وها نحن نرى تحقق هذه العلامات في وجود الطائرات والمراكب الفضائية وأجهزة المذياع والتلفاز والهاتف والأقمار الصناعية. ومن العلامات تفجّر البحار **(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)**[29]، وها هي القنوات المائية تفتح وتشقق لتلتقي البحار والمحيطات مع بعضها البعض، ومن علاماتها **(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)**[30]، وها هم العرب وسائر الملل قد تركوا استعمال الجمال والبغال والخيول والحمير واتخذوا وسائل نقل آلية سريعة بدلاً عنها، ومن علاماتها **(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)**[31]، وها هي الحيوانات الضارية المفترسة تحشر في حدائق الحيوان للتفرج والتمتع بمنظرها. ومن علامات الساعة خروج المرأة من بيتها ومشاركتها الرجل عمله ومهامه، وها هي تطالب بحقوقها وتحتل مكانتها بين الرجال بين مختلف شعوب الأرض، ومن العلامات **(القابض على دينه كالقابض على قطعة من الجمر)** وها نحن نرى مقدار مشاق ومعاناة المتمسك بدينه ومبادئه ومقدساته في هذه الأيام، وما هي حالته ووضعه بين أقرانه وكيف تجبره الظروف من مختلف الاتجاهات على سلوك سبيل الباطل، ولا نريد التعمق في الموضوع أكثر من هذا، درءاً للخلاف.

كل هذه العلامات وغيرها الكثير، تعتبر من علامات يوم القيامة، الا ان البعض يسميها (العلامات الصغرى)، ويقول بوجوب حدوث

العلامات الكبرى للوصول الى النهاية، مثل خروج الدابة التي تكلم البشر وطلوع الشمس من مغربها وسقوط النجوم على الأرض وتفتت الجبال وقيام الأموات من قبورهم وانفطار السماء وانشقاقها وغير ذلك من العلامات الخارقة للطبيعة ومقاييس العقل. وهنا لنا وقفة، ولنسمح لأنفسنا بمناقشة الفكرة، رغم رفض العديد من رجال الدين من جميع الديانات والمذاهب دخول غيرهم في نقاشات دينية أو فقهية وقصر الموضوع على أنفسهم دون سواهم ووضعهم شروطاً صعبة بل مستحيلة على من يود الخوض فيها، مما أدى الى تردد غالبية أتباع الديانات من مناقشتها خوفاً على أنفسهم من اقتراف ذنب عظيم بمجرد انحراف النقاش عن مساره الصحيح. وهذا ما حدا بالكثيرين الى تجنب الكلام في أمور الدين والاعتذار بقولهم: هذا ليس من اختصاصنا ولا نفهم فيه، انه من اختصاص رجال الدين. فيبتعدون ليغلقوا الموضوع تماماً، رغم ان الله سبحانه وتعالى أمر بكتابه الكريم جميع الخلق بتفهم دينهم ومناقشته والتفكّر والتعقل في كلماته، وألزم كل واحد تبعة عمله وأفعاله **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)**[32] و **(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**[33] و **(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا)**[34] و **(ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)**[35] و **(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)**[36] و **(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)**[37] و **(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)**[38] و **(إِنَّ**

السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)[39] **(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)**[40] و **(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)**[41].

إذن هناك فئتان من الناس، واحدة تقول بعدم جواز تدخل أي مؤمن في التفاسير والمفاهيم الدينية الا إذا حاز أعلى الشهادات في اللغة والفقه والتفسير والترتيل والتبيين وعلم الاجتهاد والنحو والصرف والفلسفة والاجتماع وعلوم كثيرة أخرى. وفئة ثانية تقول بعدم إمكانية الدخول في مجال فهم الآيات الإلهية الا بسؤال رجال الدين واتباع تفاسيرهم. من هذا يفهم ان الرأيين متفقان على ضرورة ابتعاد الناس عن مناقشة أمور دينهم. لهذا فالرأيان يحتاجان الى نقاش وتأمل بدليل الآيات آنفة الذكر التي يحث فيها الله سبحانه وتعالى عباده ويأمرهم جميعاً بدون استثناء على التفكّر والتمعن في الآيات وفهمها بأنفسهم، وإلا فكيف سيحاسب الله سبحانه وتعالى الخلق فرداً فرداً ان هم تركوا أهم أوامر الدين وهو التبحر والتفكّر في تعاليمه وآياته؟ وهل سيقتصر حسابه على رجال الدين فقط؟ هذا ما نرى جوابه في الآية الكريمة التالية **(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ)**(38 الأعراف). وإن في ذلك لوقفة تأمل.

يبدو من الضروري مناقشة ما استنتجه علماء الدين من الكتب

السماوية حول مفهوم يوم القيامة، باعتبارها المصدر الرئيسي وحجر الأساس في المفاهيم الدينية، وهل كانت استنباطاتهم موفقة في الإجابة على جميع التساؤلات؟

ان أول الكتب السماوية (على سبيل الأسبقية لا التفضيل) هو (التوراة)، لكن هناك مشكلة دقيقة ستبرز أمامنا عند استقرائه، فالتوراة مثله كمثل غيره من الكتب السماوية، أسراره مختومة ورموزه صعبة، ولا يمكن لأي بشر مهما عظم شأنه فك رموزه وفهم معانيه وبخاصة الإشارات والكلمات التي تحتمل أكثر من تفسير، بل ان بعضهم ونتيجة لهذا الإشكال تمادوا في التقليل من قيمته حتى وصفوه كتابا موضوعاً. وإذا اعتبرنا ان المتكلم هو الله سبحانه وتعالى، وان الخطاب موجه الى البشر بعقولهم البسيطة آنذاك، بدليل ان إنسان اليوم أكثر إدراكا وفهماً من سابقيه الذين عاشوا قبل مئات أو آلاف السنين. فيدرك من ذلك ان الله العالم الخبير يكلم الناس في ذلك الزمان على قدر عقولهم وهو عالم ان كتبه ستبقى عصوراً عديدة لتقرأها الأجيال القادمة بما تمتاز به من عقول متفتحة في زمن الاكتشافات والاختراعات، وانهم سيدخلون عصر التكنولوجيا وسيزدادون في العلم الذي لن تقف مراحل تقدمه عند حد من الحدود، وفي النهاية، لابد وان تُحل رموز هذه الكتب ويُفك ختمها بقدرة الله وإرادته ويفهمها الجميع، كما ورد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك **(هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ**

جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)[42] و **(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)**[43]. فمن معنى هاتين الآيتين ومن خلال ما ذكرناه وما سنأتي على ذكره من آيات التوراة والإنجيل، يدرك أن تأويل أو تفسير القرآن الكريم أو بقية الكتب السماوية سوف يأتي في مستقبل الزمان، وتكشف أسرارها وتظهر معانيها الخفية ويتنعم الخلق بمذاق أثمارها الإلهية، لذلك قال الله سبحانه وتعالى **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[44].

ان الكتب السماوية تنقسم في مجملها الى قسمين، الأول: الآيات المحكمات، والثاني: الآيات المتشابهات، كما قال تعالى **(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ..)**[45]، فالمحكمات أي القوانين والأحكام، هي آيات واضحة الدلالة تتفق على مفاهيمها غالبية المذاهب، أما المتشابهات فهي التي تحمل أكثر من وجه للتفسير والتأويل وبالتالي يختلف العباد حول مفاهيمها، لذلك سميّ القرآن الكريم (حمّال ذو وجوه)[46] يعني ان المفسرين يمكنهم إيجاد تفاسير متعددة لهذه الآيات، كل حسب مذهبه وأفكاره وقوته الذهنية. من هنا جاء وجه الاختلاف بين أتباع المذاهب من الديانات المختلفة، فرغم إشارة الآيات المحكمات المتينة الواضحة بعدم إمكانية تفسير الآيات المتشابهات، الا انهم لم يمتنعوا، وراح كلاً منهم يدلي بدلوه ويفسر ما يريد ابتغاء الخير وإظهار الحقيقة وخدمة خلق الله، أو ابتغاء التظاهر ومحاكاة الآخرين وتقليدهم، ومنهم من أجل

المصلحة والفائدة الشخصية، ودليل ذلك ما جاء في القرآن الكريم **(وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ . مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)**[47] وأيضاً **(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)**[48] وكذلك **(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)**[49].

ولإثبات عدم إمكانية الاعتماد بشكل جازم على ما توصل إليه المفسرون بمختلف أفكارهم ومعتقداتهم ومذاهبهم في تفسير الآيات المتشابهات، نورد الأمثلة التالية. منها على سبيل المثال، ما جاء في التوراة في سفر دانيال الإصحاح 12 الآية 4 النص التالي: *[اما أنت يا دانيال فاخف الكلام واختم السر الى وقت النهاية. كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد. فقال اذهب يا دانيال لأن الكلمات مخفية ومختومة الى وقت النهاية].*

ان هذا النص يدل بشكل واضح، ان ما جاء في كتاب التوراة، لا يمكن لأيّ كائن بشري سبر غور معاني كلماته او تفسير آياته المتشابهة، وهذا بالطبع لا يشمل الآيات المحكمات التي لا يختلف أصحاب الديانات الثلاث كثيراً على تفسيرها (اليهودية والمسيحية والإسلام) من التي وردت في كتبهم، لاقتصارها على المعاملات والقوانين الاجتماعية مثل أحكام الزواج والطلاق والميراث والبيع والشراء والقتل والسرقة وغيرها. أما الآيات المتشابهات التي اختصت بالغيبيات

والمستقبل ويوم القيامة واليوم الآخر والجنة والنار والحساب والعقاب والثواب والقصص والحِكم والأمثال، فهذه التي لا يمكن لأي بشر الخوض بها.

أما في الإنجيل فهناك آية مشابهة لما جاء في التوراة، توضح ان الآيات مختومة الى يوم الآخر ولا يمكن تفسيرها أو فهمها، ففي الرسالة الثانية لبطرس يقول السيد المسيح: *[عالمين هذا أولا ان كل نبوءة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس]*. وهذا يعني ان آيات الإنجيل المتشابهات أيضا، لا يمكن فهمها أو تفسيرها من قبل البشر.

أما في القرآن الكريم، فجاءت الآية التالية لتدل على ذات المفهوم **(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)**[50]. أي أن تأويل آيات الكتاب المتشابهة، لا يعلمها الا الله وحده، أما الراسخون في العلم فيدركون انهم لا يستطيعون تفسيرها، فيقولون آمنا بها كما أنزلت، فلا نخوض في تأويلها أو تفسيرها. أي انهم يجهلون تأويلها، وهذا لا يزعزع ايمانهم بحكمة الله سبحانه وتعالى في حصر سر تأويلها به.

من هذا نستنتج، أن الكتب السماوية الثلاث قد اتفقت على عدم إمكانية تأويل آياتها المتشابهة الا في نهاية الزمان، كما وعد سبحانه

وتعالى بقوله **(هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)**[51] وكذلك **(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)**[52]. وبهذا يمكن القول ان ما يوجد من تفاسير كتبها المفسرون أو العلماء العظام على مختلف مشاربهم بخصوص الآيات المتشابهات، هي نوع من أنواع الاجتهاد الذي لا يمكن التأكد من صحته والجزم به تماما، كما قال تعالى **(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..)**[53].

اذن لزم مناقشة بعض علامات يوم القيامة الكبرى التي يتوقع البعض حدوثها، مستندين على كتاب الله كميزان حق لا ريب فيه، فإن اتفقت هذه العلامات مع معانيه أخذنا بها، وإذا اختلفت وتباينت فلنتركها الى أن يشاء الله أمراً كان مفعولا.

أولها علامة خروج دابة تخاطب البشر وتتكلم معهم، وهي منصوصة في القرآن الكريم **(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ)**[54]. وهذه الآية يفسرها القرآن الكريم بنفسه في آيات أخرى، فيقول **(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ)**[55] و **(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)**[56]، و**(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ)**[57] و **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ)**[58]، فهذه الآيات المنزلات توضح ان معنى الدابة التي ينتظرها

بعض الناس ما هو الا إنسان مثل غيره من البشر، إذ لا يعقل ان يقول الله سبحانه وتعالى ان شر الدواب الذين لا يعقلون، وهو العالم ان الدواب لا تعقل ولا تفهم. أو يقول ان شر الدواب الذين كفروا، وهو العالم ان الدواب لا تعقل حتى تكفر، أو يقول لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة، حيث ليس من العدل الإلهي ان يكفر الناس ويظلِموا أنفسهم وغيرهم، ثم ينتقم من الحيوانات جزاء كفر البشر! وهو الذي يقول بعدم أخذ مخلوق بجريرة غيره **(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)**[59] و **(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)**[60].

اذن يتضح ان معنى الدابة من هذه الآيات، هو خروج إنسان لا غير، وهذه سنة الله في إرسال الرسل **(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)**[61] و **(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)**[62].

ان قليلا من التأمل في الأهمية التي يسبغها الله على هذا الإنسان الذي سيخرج في يوم النهاية، بينما ملايين من البشر تولد وتموت كل يوم، يوضح ان هذا الإنسان لابد وانه سيفعل شيئاً كبيراً لا يقدر عليه غيره، أو يقوم بعمل لا يستطيع عليه سواه. وهنا يجب التفكير في ماهية هذا العمل الكبير وعظمته. ومرة أخرى يترك للقارئ الكريم التفكير في هذا الموضوع! فنحن لا نريد التصريح بهذه المهمة العظيمة مباشرة، واللبيب من الإشارة يفهم.

كذلك هو الحال بشأن علامة طلوع الشمس من مغربها، ولنأت بالجواب من القرآن الكريم أيضا حيث يقول الله سبحانه وتعالى ان الشمس ثابتة لا تتحرك **(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)**[63]، وكذلك يقول سبحانه وتعالى باستحالة اختلاف حركتها أو تبديل مواعيدها **(لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ)**[64]. اذن، لماذا ينتظر البعض طلوع الشمس من مغربها في يوم القيامة؟ وهل يعلم القائل بهذا المفهوم الظاهري للآية الكريمة، ان حدوث مثل هذه العملية، هي في حقيقتها تخريب لنظام الكون؟ فهل يعاقب الكون بكل ملايينه وبلايينه من المجرات والكواكب والمخلوقات بسبب كفر أهل الأرض؟ وما علاقة دوران الشمس بالكفر والايمان؟ وما علاقة سقوط النجوم على الأرض بيوم القيامة؟ وكيف ستسقط هذه النجوم وتلك الشموس على الأرض، والكل يعلم ان حجم الأرض بالنسبة لبقية الكواكب لا يساوى شيئا يذكر، وان هذا السقوط مثله كمثل سقوط العديد من الجبال العملاقة على حبة قمح أو حبة حمص! اذن ما معنى هذا السقوط؟ وأين الحكمة منه؟ كما ان معنى كلمة السقوط هو سقوط الشيء من أعلى الى أسفل بفعل جاذبية الأرض، لكن هذه الجاذبية تنعدم بمجرد الخروج من المجال الأرضي ولا يعود لها تأثير في الاتجاهات ولا يكون هنالك شيء اسمه فوق أو تحت. ثم ان موضوع السقوط يعني ان الأرض هي القاعدة بالنسبة للكون، فهل هذا صحيح؟ بعد ان ثبت علمياً ان الكون لا بداية ولا نهاية له، وان الأرض

جرم صغير جداً يسبح مثل غيره في هذا الفضاء اللامتناهي ولا يمكن معرفة موقعها بالنسبة للكون بالتحديد، خاصة بعد اكتشاف علماء الفلك ان المجرات الكونية تسبح بشكل دائري وليس هناك شيء اسمه قاعدة للكون.

ان المعجزات التي ينتظر وقوعها كثير من الناس في يوم القيامة حسب زعمهم، لا تمت بصلة واضحة الى مجيء ذلك اليوم العظيم، فكما ورد في القرآن الكريم عن علامات مجيئه، كذلك وردت آيات تدل على مجيء ذات اليوم بدون سابق إنذار وبدون إدراك أو انتباه أحد، وبدون ان تكون هناك مقدمات أو علامات صغرى أو كبرى لمعرفة ماذا سيحصل، فالله سبحانه وتعالى يقول **(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا)**[65] و **(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)**[66] و **(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)**[67] و **(ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً)**[68] و **(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)**[69] و **(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ)**[70] و **(وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)**[71] و **(فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)**[72] و **(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)**[73] و **(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ العَذَابُ**

بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)[74] و **(هَلْ يَنظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)**[75]، هذا وغيره الكثير من الآيات الإلهية الدالة على ان مجيء يوم القيامة سيكون بغتة ومفاجئاً لا تحذير ولا تنبيه فيه. فلماذا نتمسك إذن بتلك المعاني ونترك هذه؟ هذا بالإضافة الى وجود آية قرآنية أخرى تدخل كل الطمأنينة والسلام والهدوء والأمل في قلب كل مؤمن وتزيد ثقته وإيمانه برحمة الله الواسعة وعفوه ولطفه بجميع خلقه، قال تعالى **(فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ)**[76].

لقد طلب المشركون من الرسول محمد(ص) عمل بعض المعجزات المادية الخارقة لاثبات صحة دعوته. فكانت هذه الطلبات التعجيزية بالنسبة لهم، والمقدور عليها من الرسول الكريم، بعيدة العلاقة جداً بين ما يهدف إليه في دعوته وما يريده المشركون، مثلهم كمثل الذي يطلب من شخص يدعي انه رسام يمكنه رسم أجمل اللوحات، اختراع مولد كهربائي لإثبات مدعاته. أو آخر يقول أنه موسيقي باستطاعته عزف بديع الألحان، فيطلب منه وضع خطط عسكرية. فلا علاقة لهذه الادعاءآت بتلك الطلبات. لذلك نزلت الآية الكريمة التي تدل على ان الله يرفض طلب المشركين في إظهار معجزة من الرسول الكريم ويأمره بالترفع عن تحدياتهم، حينما قال سبحانه وتعالى **(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ**

صَادِقِينَ)[77]، ومفهوم هذه الآية يدل على ان تحدي الكفار للرسول الكريم محمد(ص) كان مرفوضاً لا يؤخذ به. فدعوة الرسول الكريم هي لهداية الناس الى الصراط الحق، وهؤلاء المغفلون يطلبون منه المعجزات المادية لاثبات أحقية دعوته.

لكن ما حصل فيما بعد، أثبت أحقية دعوة الإسلام التي جاء بها محمد(ص)، عندما هدى أمماً كثيرة كانت تعيش في منتهى الوحشية والذلة والتخلف الى الدين الحق والصراط السوي وتمكن من نشر الفضائل والأخلاق بينهم وأصلح وهذّب قبائل كانت أقرب الى الحيوانات المتوحشة في تصرفاتها منها الى الإنسان **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)**[78]. فمثلما كانت هذه المطالب غير منطقية وغير معقولة ولا توجد بينها وبين صحة الرسالة الإسلامية نسبة ولا صلة، كذلك لا توجد صلة بين يوم الحساب ومفهومه الحقيقي، وبين سقوط النجوم والكواكب على الأرض وطلوع الشمس من مغربها. فما هي الا رموز إلهية لا يدرك كنهها الا هو.

أما عن قيام الأموات من القبور في يوم القيامة – فلقد جاء شرحه في فصل آخر – ونأتي عليه الآن باختصار. ان للموت معاني شتى، منه ما يعرف بالموت الجسدي، وهذا المفهوم يكاد يكون الوحيد الشائع بين الناس، الا ان هناك معاني أخرى كثيرة للموت، منها: موت الضمير الإنساني، فالإنسان بدون ضمير يعتبر ميتاً لا خير فيه،

وهناك موت العقل والفكر، وموت التأمل والتفكير، ومن كان بلا عقل ولا فكر ولا يفقه من حياته سوى الأكل والشرب وجني الأموال، فموته أفضل من حياته ولا فائدة منه لنفسه ولبني جنسه. وكذلك موت الرحمة والشفقة والإحسان في القلوب، وهذا ما يفرق الإنسان عن الحيوان والوحوش الكاسرة. وموت الايمان والتقوى، وهذا هو أساس الموت، كما قال تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**(24 الأنفال)، فالبشر بدون إيمان كأنهم خشب مسندة أو حديد أو حجارة، حيث تنفصل علاقة الإنسان بالرحمن ويصبح مجرد حيوان لا رجاء منه، لأن الايمان هو أساس كل الفضائل الإنسانية، فبه تتهذب النفوس وتسمو الأرواح ويصبح الإنسان مصدر الكمالات الرحمانية والخير لعموم البشر، ودليل ذلك نزول الآية المباركة بعد إيمان حمزة عم الرسول(ص)، قال تعالى **(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[79]، فكان نزول هذه الآية سبب تهكم وسخرية المشركين على الرسول الكريم وتساؤلهم: متى مات حمزة ومتى أحياه الله؟ بينما المقصود من الموت هنا هو الموت الإيماني، فحمزة كان ميتاً بالكفر رغم وجوده بين الناس، ثم حيا حياة جديدة بعد الإيمان. وهناك آية قرآنية أخرى تدل على نفس المعنى، قال تعالى **(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ**

جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)[80]، فلو أخذت هذه الآية بمعناها الظاهري لاستحال تطابقها مع الواقع، إذ لا يمكن لأي إنسان إحياء إنسان آخر، أما إذا كان مفهوم الإحياء مفهوما روحانيا، أي هداية إنسان غير مؤمن الى الايمان بالله وتوحيده، فهنا ينطبق المعنى ويتم.

وورد في الإنجيل مثال مشابه، عندما طلب أحد تلاميذ السيد المسيح(ع) الذهاب لدفن والده، فقال له: *[اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم]*[81]، وصريح هذا القول غريب عجيب، فكيف يدفن الأموات موتاهم؟ لكن المقصود هو: دع موتى الايمان يدفنون موتى الأجساد. وهذا الموت أعظم من الموت الجسماني. وهذا يذكرنا بالقصة المشهورة، عندما حضر رجلان الى الامام عليّ وطلبا منه كتابة وثيقة بيع وشراء بيت بينهما. فأمر بالكتابة وقال: اشترى ميت من ميت بيتاً..

اذن، فاحتمال ان يكون الموت في يوم القيامة هو أحد هذه الأشكال، فيسود الناس موت الكفر والابتعاد عن الدين والعمل بالأهواء النفسية والرغبات الشريرة والظلم والقسوة والتكالب على المال وملذات الحياة وانتشار القتل والحروب وسفك الدماء، وليس بالضرورة الموت جسدياً. كما لا يقتصر معنى القبور على المعروف منها، بل من الممكن ان تكون قبور الغفلة وقبور الكفر ولحود الإعراض والاعتراض على ما أنزله الله، وهذا النوع من القبور واللحود أشد وأقسى من القبور

واللحود التي يدفن فيها أموات الأجساد.

أما علامات يوم القيامة في الديانة المسيحية فتختلف عن غيرها من الديانات، وهي مجيء السيد المسيح من السماء ومعه جنود من الملائكة بأعداد لا تعد ولا تحصى بكامل القوة والسلطان يعجز عن مقاومتها بني البشر، ليحارب الأشرار وينتصر عليهم وينشر السلام في الأرض. فهل يعقل هذا؟ جيش من الملائكة والسيد المسيح(ع) بنفسه يأتي من السماء؟ ولماذا يأتي من السماء؟ وقد سبق ان جاء من رحم أمه مريم؟ يقول المسيحيون في جواب هذا السؤال انه يأتي ليقتل المجرمين الفسقة وينشر العدل والسلام بين البشر وينتقم لنفسه منهم! فان كان هذا صحيحاً، فلماذا لم يفعل ذلك يوم مجيئه الأول؟ ولماذا اختفى وغاب عن الأرض كل هذه الدهور؟ ولماذا ترك البشرية أكثر من عشرين قرناً يعانون من كل أشكال الظلم والتعسف والذل والهوان؟ وماذا جنى البشر من حياتهم بعد فراقه؟ أما كان من الأفضل ان يأتي في أول الأمر بجنود من السماء ويخلص العالم من الشرور بدلا من تسليم نفسه للقتلة وترك البشر يعانون من شرور الظالمين؟! ثم ما هو العمل الطيب الذي سيعمله من يعيش من الناس في زمان عودته ليستحقوا الإنقاذ من الفساد والظلم؟ وما هو ذنب الأجيال التي ولّت وماتت وفنيت وقضت كل حياتها تعاني من الظلم والفساد والعبودية؟ وبماذا يمتاز هؤلاء عن أولئك وكلهم بشر من خلق الله؟ ان لكلمات الله

وأمثاله التي يضربها للناس معاني كثيرة ومفاهيم خفية لا يدركها الا أولو الألباب **(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)**[82].

ان ما جاء من علامات مختلفة عن يوم القيامة في مختلف الكتب، وضعية كانت أم سماوية، إنما هي إشارات ذات معانٍ لا يعلم تأويلها الا الله. لذلك وجب توسيع العقول والمدارك لفهم المعاني الخفية في الكتب الإلهية وعدم الاعتماد على الآخرين في مثل هذا الأمر الحيوي الهام المقدس، حتى يفهم كل فرد واجبه وما مطلوب منه. وهذا لا يتم الا بتنقية الروح وتصفية القلب والعقل وتنزيه العين واللسان عن العوالق الدنيوية، والتشديد على أهمية المجاهدة الروحية لاستمرار ترقي أرواح المؤمنين من حالة الى حالة أفضل. ولقد وصف الرسول محمد(ص) جهاد النفس بأنه أكبر من جهاد السيف والقتال، وذلك عندما رجع من إحدى الغزوات وقال **(رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر)**[83] وعندما سأله الصحابة عن معنى الجهاد الأكبر، قال **(انه جهاد النفس)**، فهذا الجهاد هو أقوى أنواع الجهاد، إذ يمكن لرجل التغلب على رجل آخر، ومن الممكن لرجل ان يغزو مدينة أو دولة أو مجموعة دول ويفتحها، لكنه يعجز تماما من التغلب على نفسه مهما حاول ذلك، ويجد ان رغباته النفسية وطموحاته الدنيوية وحب النفس والحسد والنفس الأمارة والأفكار الشيطانية الخبيثة مسيطرة عليه دائما وتتغلب في كثير

من المناسبات على مقاومته وإرادته، فتقوده حيثما تشاء ولا يتمكن مهما علا شأنه ورقى مقامه من التغلب على نفسه الا بالايمان والتقوى الخالصة والعبادة الحقة والتمسك بالمبادئ الحقيقية المنصوص عليها في الكتب السماوية.

ان الهواجس النفسية والرغبات الدنيوية والمتطلبات والدوافع والأفكار الشيطانية تهاجم بعض البشر وهم في أشد حالات التقوى والإيمان والتضرع والتعبد لله وفي كل مكان ومن جميع الجهات، حتى وهم واقفين بين يدي الله في المساجد أو في أي دار للعبادة، فجنود هموم الحياة وجيوش المشاكل اليومية تهاجم الفكر من كل ناحية ولا يمكن صدها، وهكذا يجد الجميع أنفسهم واقعين تحت تأثير هذه الهموم. فكثيرا ما يفتخر الإنسان بتمسكه بدينه وتعاليمه وبانتسابه إليه، لكن هذا الإدعاء لدى البعض ما هو إلا مجرد كلام وألفاظ ودعاء ونداء، ولو نظروا الى الحقيقة مجردة لوجدوا أنفسهم سائرين على خطى الأمم السابقة تماما، كما تفضل الرسول الكريم **(لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)**[84]. فالجميع يدّعي التقوى والإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى، لكن لو وضعت هذه الادعاءات على محك الايمان، وقاس كل إنسان حقيقة موقفه وموقعه ودرجة إيمانه بالله وكتابه، لاتضحت كثير من التناقضات والتباينات بين أيمانهم وتصرفاتهم، لأن الايمان له علامات

واضحة ثابتة لا تلتبس على الله سبحانه وتعالى، فهو العليم الخبير ولا يمكن ان يترك الناس أن يقولوا آمنا ولا يفتنون، أي لا يمتحنون **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)**[85]، فمن علامات الايمان بالله والكتاب والسنة والشريعة قبل كل شيء العمل بما انزل في الأوامر الإلهية، فلا يمكن فصل الايمان بالله ورسوله عن العمل بما أنزل من أوامر في الكتاب، أي لا يمكن الإدعاء بالدين والايمان ثم العمل بما يخالفهما. والعكس صحيح، فلا يمكن العمل بما أنزل من أوامر إلهيه في الكتاب من دون الايمان بالله ورسوله، أي لا يمكن القول أنني إنسان صالح لا أرتكب المعاصي ولا أوذي الآخرين، لذلك فلا حاجة لي للايمان بدين سماوي. فهذان الأمران شرطان متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر بأي شكل من الأشكال، معرفة دين الله والعمل بما أمر به.

من هذا يفهم معنى الآية المباركة التي تقول **(قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)**[86]، ففي هذه الآية يظهر سبحانه وتعالى الفرق بين المسلم والمؤمن، فالأول يدعي الانتماء الى الدين بالاسم ولا يفهم حقيقته، والثاني مؤمن يعمل بأوامره ونواهيه. ومن خلال هذا المحك الإلهي والميزان الرباني، يمكن للإنسان معرفة نفسه إن كان مسلما أم مؤمنا، بقياس حقيقة أعماله اليومية. فمثلا وقبل كل شيء لنأخذ مثال الكذب الذي هو أساس كل

الشرور، فهل نستطيع تجنب الكذب طوال يومنا؟ وهل فكّرنا يوما كم نقترف من الأكاذيب كل يوم؟ وهل يمكن منع النفس عن هذا الشر؟ أو الامتناع عن الخداع والتدليس والغش والاعتداء على حقوق الناس؟ هل يستطيع شخص وضع رأسه على مخدة فراشه في نهاية يومه ومحاسبة نفسه والخروج بنتيجة يرضى بها عن أعماله؟ وهل يمكنه الاطمئنان إذا مات في ليلته، من لقاء ربه بوجه أبيض وقلب منوّر ويد عفيفة؟

ان الادعاء بالإيمان سهل يسير، لكن المشكلة تكمن في التطبيق. فلو حاسب كل إنسان نفسه وأدرك ان الله سبحانه وتعالى مطّلع على أعماله وناظر اليها وانه سيقف بين يديه كما تبشر به كل الكتب السماوية، وآمن ان هذه الدنيا ما هي الا حياة فانية زائلة، لأدرك حقيقة موقفه ولصلحت أموره. هنا يكمن الفرق بين الادعاء بالإيمان والعمل به، وهنا يكمن الامتحان! فهل سيدرك الإنسان يوما ما، موقفه الحقيقي من عبوديته لله سبحانه وتعالى؟ ان النفس أمارة بالسوء وهي قوية الى أقصى حدود القوة وتتبع الإنسان الى قبره وتغريه حتى آخر نفس من حياته، وليس هناك من دواء ناجع لها يوقفها ويلجمها، الا العمل بما فرضه الله عليه، وليس الادعاء بالإيمان والدين فقط. هذا هو الفرق الحقيقي بين مدعي الايمان والمؤمن. فهل فكّرنا من أية فئة نحن؟ هنا نحتاج الى وقفة تأمل وتفكير.

لذلك وجب الانتباه لأمور ديننا بشكل أفضل، لأن الله سبحانه

وتعالى أعد لعباده الصالحين المؤمنين جنات ونعيم، ولن يتمكن المؤمن من الوصول الى هذا المقام وهذا الشأن الا بمجاهدة النفس والهوى، كما قال تعالى **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)**[87].

الهوامش

1 – انظر فصل عوالم الروح (الجزء الثاني).
2 – سورة النحل 83/16.
3 – سورة الروم 8/30.
4 – سورة الفرقان 44/25.
5 – إنجيل متى الإصحاح 21 الآيات من 33–42.
6 – سورة البقرة 210/2.
7 – سورة الفجر 22/89.
8 – سورة البقرة 223/2.
9 – سورة البقرة 46/2.
10 – سورة الأنعام 154/6.
11 – سورة الروم 8/30.
12 – سورة فصلت 54/41.
13 – سورة النساء 46/4.
14 – سورة المائدة 13/5.
15 – سورة الحجر 9/15.
16 – رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح الأخير (22) الآيات 18،19.
17 – توراة – دانيال – الإصحاح 12، الآية 4.
18 – توراة – نفس الإصحاح السابق الآية 9.
19 – الإنجيل – الإصحاح الأول الآية 20 و 21 رسالة بطرس الرسول الثانية.
20 – سورة البقرة 75/2.
21 – سورة الحج 47/22.

22 – سورة السجدة 5/32.
23 – سورة المعارج 4/70.
24 – سورة الحج 2/22.
25 – سورة الإسراء 13/17.
26 – سورة البقرة 25/2.
27 – سورة آل عمران 15/3.
28 – سورة النساء 13/4.
29 – سورة الانفطار 3/82.
30 – سورة التكوير 4/81.
31 – سورة التكوير 5/81.
32 – سورة الزمر 9/30.
33 – سورة البقرة 282/2.
34 – سورة آل عمران 30/3.
35 – سورة آل عمران 161/3.
36 – سورة الأنعام 132/6.
37 – سورة إبراهيم 51/14.
38 – سورة النحل 111/16.
39 – سورة طه 15/20.
40 – سورة ق 21/50.
41 – سورة الطارق 4/86.
42 – سورة الأعراف 53/7.
43 – سورة القيامة 19/75.
44 – سورة الحجر 9/15.

45 – سورة آل عمران 7/3.
46 – كتاب نهج البلاغة الجزء الثالث رقم الوصية 77 محمد عبده المصري.
47 – سورة الروم 32/31.
48 – سورة الأنعام 159/6.
49 – سورة الأنعام 65/6.
50 – سورة آل عمران 7/3.
51 – سورة الأعراف 53/7.
52 – سورة القيامة 19/75.
53 – سورة يونس 39/10.
54 – سورة النمل 82/27.
55 – سورة الأنفال 22/8.
56 – سورة الأنفال 55/8.
57 – سورة النحل 61/16.
58 – سورة فاطر 45/35.
59 – سورة الإسراء 13/17.
60 – سورة الأنعام 164/6.
61 – سورة الأحزاب 62/33.
62 – سورة فاطر 43/35.
63 – سورة يس 38/36.
64 – سورة يس 40/36.
65 – سورة الأنعام 31/6.
66 – سورة الأنعام 44/6.
67 – سورة الأعراف 95/7.

68 – سورة الأعراف 187/7.

69 – سورة يوسف 107/12.

70 – سورة الأنبياء 40/21.

71 – سورة الحج 55/22.

72 – سورة الشعراء 202/26.

73 – سورة العنكبوت 53/29.

74 – سورة الزمر 55/39.

75 – سورة الزخرف 66/43.

76 – سورة الرحمن 39/55.

77 – سورة آل عمران 183/3.

78 – سورة الأنبياء 107/21.

79 – سورة الأنعام 122/6.

80 – سورة المائدة آية 32.

81 – إنجيل متى إصحاح 8 آية 22.

82 – سورة الزمر 27/39.

83 – كتاب الكافي، المجلد الخامس، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، صفحة 3.

84 – صحيح البخاري المجلد الرابع ص 144 ج 8 ص 151. انظر: ابن العربي، العواصم من القواصم، صفحة 61.

85 – سورة العنكبوت 2/29.

86 – سورة الحجرات 14/49.

87 – سورة العنكبوت 69/29.

الفصل الثامن

لماذا تتعدد الأديان

وما سبب الاختلاف بين أتباعها

غايــة هـذا البحـث هـو الاستقصــاء عـن أسـباب تخلـف بعـض المجتمعات عن غيرها، ومحاولة معالجة هذا التخلف بكل الوسائل مهما كانـت جريئـة وشـديدة ومـؤثرة وخارجـة عـن الـنمط المـألوف فـي البحـث والتقصي، فليست الغاية هي تشخيص العلّة فقط، لأن عملية التشخيص هي من الأمور السهلة الممكنة، لكن المشكلة تكمن في وصف وتعيين العلاج ومقداره ونوعه، هذا هو المهم، فالبشرية بحاجة الى من يداوي عللها ويبرئ أمراضها ويمنحها الصحة والعافية من أوبئتها الاجتماعية وآفاتها الفكرية والسياسية ليخرجها من قبور الأوهام والتخلف وينهضها من لحود السبات والغفلة. فالغاية هي الوصول الى علاج مفيد ودواء ناجع تتناوله مجتمعات البشر حسب إرشادات طبيب حاذق مهما كان مرّاً وقاسياً للحصول على نتيجة إيجابية تفي بالمطلوب للخروج من هذه الهاوية، وربما أدت الى الخروج بفكر جديد يقارب في تأثيره السليم ما فعلـه الـدين الإسـلامي الحنيـف بعـرب الجاهليـة، لمواكبـة ركـب شـعوب العالم المتقدم. وكل ما يرجى من القارئ اللبيب، نبذ التعصبات جانباً، فالتعصب بعينه هو جرثومة المرض دينياً كان أو مذهبياً أو فكرياً أو

وطنياً، لتصويب بعض الأفكار والمعتقدات دون انحياز الى فئة دون أخرى.

تسود العالم اليوم موجة شديدة تدعو الى الابتعاد عن الدين والتقرب من المادية، ويتفاخر بذلك بعض أنصاف المثقفين وينسبون الى الديانات وأفكارها السبب الأساس في تخلف الشعوب واختلافهم وتجدد المنازعات والحروب التي حصلت وما زالت تحصل بين الأمم.

لكن هذا الرأي يحتاج الى وقفة تأمل، رغم امتلاكه شيء من الحقيقة، لأن كثير من أتباع الديانات الجاهلين بحقيقة سماحة دياناتهم، كانوا أنفسهم سبب المآسي والحروب بما حملوه من مفاهيم دينية خاطئة. فالديانات السماوية دعوة صادقة للمحبة والاتفاق والسلام وساهمت بشكل كبير ومباشر في نقل الشعوب نقلات حضارية كبيرة. ومن المؤكد ان سبب تعددها كان نتيجة ضرورية وحتمية لتطور المجتمعات ورقي الشعوب، فالبشرية في حالة تطور وتقدم مستمر ولابد من تغير وتجدد القوانين الشرعية لكل دين حسب مقتضيات الزمان والمكان والمجتمع، مثل أحكام الطلاق والمواريث والقصاص والتعبد والطقوس والصلاة وغير ذلك، أما جوهر وحقيقة الديانات فتبقى ثابتة على حالها دون تغيير، فكلها تدعو الى الخير والعمل الصالح والمحبة والصدق والصفاء والقناعة والشرف والاتحاد والسلام، ولو كان الغرض الحقيقي من تعاقب الديانات وتسلسلها هو عبادة الله فقط، لكان من

الأفضل استمرار اعتناق البشرية بتمامها لدين سيدنا إبراهيم(ع) حتى هذا اليوم ولا ضرورة لتعدد الديانات ونزول الرسل والأنبياء. ولكن بما ان صفة التطور والتقدم والرقي والتفتح الفكري هي من الصفات الملازمة لطبيعة الإنسان لذلك كان التجديد والتغيير في الشرائع ضرورياً ومستمراً.

لنضرب مثلاً على سبب تعدد الأديان: لو كان لرجل، ولد راشد يسكن بعيداً عنه يقوم بعمل معين نيابة عن والده، وكتب الوالد رسالة لولده بخط يده وختمها ووقعها وأرسلها بيد صديق موثوق به عندهما. فمن المؤكد ان الابن سوف يلتزم بأوامر الرسالة ولن يجد بُداً من تنفيذ ما جاء فيها، هذا إذا كان الابن محباً ومطيعاً لوالده. ولنفترض أن جاء الابن صديق آخر بعد فترة يحمل رسالة أخرى تحمل نفس توقيع الوالد وختمه وبخط يده، إلا انها تحمل بعض الأوامر الجديدة التي تختلف في الظاهر عن أوامر الرسالة السابقة! فما يتوقع ان يفعل الابن؟ هل يترك الرسالة الثانية لأنها تختلف في بعض أوامرها عن الأولى؟ أم يعمل بها ويوقف العمل بأوامر الرسالة الأولى؟ وهل يتردد في التنفيذ ويقول ان والدي متذبذب لا يستقر على رأي وانه حيرني فيما يريد وشتت أفكاري، أم يشرع في التنفيذ دون مناقشة أو تردد؟ من المؤكد إنْ كان الابن واثقاً من حكمة أبيه ورجاحة عقله وقدرته وحسن تصرفه، فإنه سيقول في نفسه ان والدي أعلم مني بمستجدات الأمور وهو أعرف بما يريد

وبطريقة التصرف، وهو صاحب المال والعمل، وما أنا الا عامل لديه ومستخدم عنده ومن واجبي تنفيذ ما يريد، لأن الرسالة الأخيرة هي بخط يده وبتوقيعه وختمه ويحملها صديق عزيز ثقة لا يرقى إليه الشك.

ان الله العليم الخبير هو أقدر من البشر وأعلم من عبيده على فهم احتياجاتهم ومصلحتهم، كما انه أكثر رحمة بهم من أنفسهم، فعندما يبعث رسولاً الى قوم يختارهم، فما عليهم ان كانوا يؤمنون بعلم الله وحكمته، سوى الطاعة والتنفيذ، وإلا سيكونون مستحقين لعذابه وسخطه إذا قالوا ان الرسالة الجديدة تخالف الرسالة القديمة في بعض نصوصها وأحكامها ومفاهيمها وتقضي بأوامر لم نسمع بها من قبل، ونحن ننتظر شخصاً معينا بذاته ليجدد ديننا ولا ينسخه، أو ننتظر نفس رسولنا السابق ليأتي حاملا أوامر جديدة وليس هذا الرجل الغريب المجهول الذي لا نعرفه، أو ان هذا قاتل أو غير معروف الأب أو يتيم فقير.

لذا وجب عدم الاعتراض على تتابع وتوالي الشرائع السماوية مهما كانت متباينة في الظاهر ومهما اختلفت هيئات الرسل ومهما تباعدت مواطن ظهورها فـ **(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)**[1]، لأن المرسل هو الله الحكيم الخالق الجبار وما البشر الا عباده المأمورين بالتنفيذ، دون التفوه بكلمة: لِمَ أو بِمَ، فهذا هو شأنهم ومقامهم الحقيقي، انه مقام العبودية لله الحق، بل ان التنفيذ والطاعة هو أساس وجودهم وحقيقته، ألم يأخذ الله عهده منهم في قوله تعالى **(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ**

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)[2]. فكيف يحق لأحد منهم اعتراض أو الصد والإنكار؟

ان البشر مثل طلاب مدرسة، فبالرغم من دراستهم جميعاً في مدرسة واحدة وخضوعهم لنظام واحد ومدير واحد ومنهاج واحد، الا ان مناهج الدراسة وكتبها تختلف باختلاف مستوياتهم، فمنهج الصف الأول غير منهج الصف الثاني، والثالث غير الرابع وهكذا، فلا قدرة ولا قابلية للتلميذ وهو في مرحلة معينة على ترك مستواه الدراسي والانتقال الى مستوى آخر أعلى منه، وما عليه إلا الاجتهاد في دراسته وقراءة منهاجه والمواظبة على الدوام حتى يحقق نجاحه. فإن خالف جزءاً من النظام تعرض للمساءلة، واذا تمادى فمن المحتمل أن يفصل من المدرسة.

عندما يبعث الله الرسل بشرائع وكتب جديدة، فغاية ذلك هو تعليم البشر وتثقيفهم وتطويرهم بتعاليم تتناسب مع مراحل تغير الزمن واختلافه وتجدد متطلبات الحالة الاجتماعية، وليدركوا ان مرحلة رسولية ورسالية قد انتهت وحلّت محلها مرحلة جديدة ورسالة جديدة، وما عليهم سوى الاستبشار بهذا الخير، فهذا دليل النجاح في المرحلة السابقة وليس دليل الفشل والرسوب. ولو أدرك البشر كم هي العنايات الرحمانية والروحانية والعلمية التي تحل عليهم عند قبولهم ديانة جديدة، لما تأخروا لحظة واحدة في قبول رسالات الله. فالاختلاف الظاهري الذي

يشاهد في بعض أحكام الديانات مثل الصوم والصلاة والزواج والطلاق والمواريث والعبادات والقبلة ومكان الحج والطقوس الدينية وطرق نشر الدين وتبليغه والتعامل بين أفراد المجتمع وحدود القصاص وغير ذلك، ما هو الا بسبب قصور عقول البشر عن ادراك ضرورة التغيير وحتمية تجدد القوانين الاجتماعية واختباراً لايمانهم وطاعتهم، فالإنسان مخلوق متطور ليس فقط خلال مراحل تاريخه الطويل بل حتى خلال سنين حياته الفردية، فما يوافق عليه اليوم يرفضه غداً، وما يعقله في صغره يستنكره في كبره. فالله واحد ورسله متفقة، كما قال سبحانه وتعالى **(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)**[3] ومنهجهم واحد لا تباين ولا اختلاف فيه، كما قال تعالى **(وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)**[4] ولا سبيل أمام عباد الله سوى الطاعة والموافقة على الانتقال الى الفصل الجديد ودرس الدين الجديد. أما ما يبدو من اختلافات وفروق بين أتباع الديانات والمذاهب، فذلك بسبب تعنتهم وجهلهم وتعصبهم لدينهم ورسولهم وليس مرده الى تباين حقائق الأديان أو أسسها.

أما من يعتقد ان انتشار الديانات وإيمان الصحابة وأوائل المؤمنين بها قد جاء عن طريق الإقناع والمنطق والمناقشة واستعمال العقل، فتاريخ الأديان وأحداثها الواقعية تخالف هذا المفهوم وتقول بغيره تماما، فالديانات جميعها لم تعتمد في فجر ظهورها على مبدأ العقل والإقناع فقط، فالاسرائيليون كانوا أمة عبيد وأقنان أسرى وأذلاء وعمال سخرة

لدى فرعون وقومه، ولم يؤمن بدين سيدنا موسى(ع) إلا عدد قليل من السحرة، بينما اعترض عليه غالبيتهم. كذلك لم يكن أوائل المؤمنين بعيسى(ع) من علماء اليهود وأكابرهم حتى يمكن القول ان الدين المسيحي اعتمد في بداية انتشاره على مبدأ العقل والمعقول والمنطق والمحاججة، فقد كان من بين الحواريون من يمتهن النجارة والرعي وصيد السمك والزراعة، وهؤلاء كانوا من طبقات المجتمع الدنيا، فبطرس(ع) وهو من اعتمد عليه المسيح في نشر دعوته ومثّله بصخرة دينه، كان صياد سمك لا يعرف حتى أسماء أيام الأسبوع، وعندما كان يخرج من بيته الى البحر لممارسة عمله، كان يأخذ معه سبعة أرغفة من الخبز، ليأكل كل يوم رغيف، وعندما يتبقى معه رغيفا واحدا، يعلم انه يوم سبت وعليه ترك العمل والعودة الى قريته. أما أكابر علماء اليهود وقضاتهم مثل حنان وقيافا فكانوا أول المعترضين على السيد المسيح(ع) ودعوته وهم الذين وافقوا على حكم قتله لاعتقادهم بأنه مدع كذاب. أما عن أوائل المؤمنين بالرسول المصطفى محمد(ص)، فكان غالبيتهم من العبيد الضعفاء ورعاة الإبل وكذلك من غير الأعراب من لا يجيدون اللغة العربية أو فهم فصاحة القرآن بشكل تام مثل بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم، فأين موقع العقل والاقناع من هؤلاء الصحابة العظام. وفي المقابل كان أول المخالفين للدعوة الاسلامية أبا الحكم أكبر حكماء العرب آنذاك مما جعل سيدنا محمد(ص) يطلق عليه لقب أبو جهل لشدة اعتراضه وكفره.

ان جميع أتباع وصحابة الرسل الأوائل على العموم كانوا من الأميين والجهلة والعبيد، وهذا ليس عيباً فيهم بل شرفاً لهم، لأن ايمانهم اعتمد في الأساس على طهارة قلوبهم وصفاء نواياهم، لذلك كان للكلمة الإلهية آثاراً خلاقة على أرواحهم الطاهرة وقلوبهم السليمة، كما قال تعالى **(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)**(88،89 الشعراء)، وكذلك قوله الكريم **(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)**(83،84 الصافات)، لذا فازوا أولئك الأخيار بخلعة الايمان قبل غيرهم من العلماء والحكماء وكانوا مصداقا للآية المباركة **(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ)**[5].

ان الكلمة الإلهية لها تأثيرات وقوى خاصة مؤثرة على الأرواح فتقلّب قلوب الرجال، قوة لا تمتلكها غيرها من الكلمات، هذا بالإضافة الى قوة شخصية الرسل الروحية المستمدة من الوحي الإلهي وروح القدس والنفحات الإلهية، وهذا ما يفسر قدرتهم على تغيير العقائد التي عجز عنها غيرهم من الدعاة المدعين. إضافة الى كل ذلك، ان لله طرقا خاصة في نشر أديانه، فهو لا يعتمد على كبار القوم وعلمائهم أو على الملوك والرؤساء، لأن هذه الطريقة تبطل الغاية الحقيقية من ظهور أي دين جديد، ألا وهي الفصل بين المؤمنين والكافرين، لأن ديدن الناس أن يكونوا على دين ملوكهم، وإلا لكان الله قادراً على تبديل

أيمان قلوب الملوك والأباطرة والرؤساء، وبالتالي أيمان شعوبهم من بعدهم.

يمكن ببساطة تشبيه فجر الديانات الإلهية بيوم القيامة ويوم الحشر والطامة والساعة والحاقة، ففي يوم القيامة يفصل المؤمن عن الكافر ويجازى كل منهما حسب فعله، وكذلك في فجر ظهور الديانات يحصل نفس الهدف وذات الغاية فالذين يؤمنون بالرسول الجديد يذهبون الى الجنة ومن يكفر به يذهب الى النار.

عندما جاءت رسالة سيدنا موسى(ع)، كانت رسالة كاملة تامة ضمن زمانها لا نقص فيها آنذاك بشهادة القرآن الكريم **(قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ..)**[6]، وكذلك **(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)**[7]، فالمنهج الإلهي لا يمكن ان يكون ناقصاً (حاشا لله) وما ظهور السيد المسيح(ع) بعد ذلك إلا إعلانا بانتهاء أمة اليهود من دراسة المنهج السابق (شريعة التوراة) وتحقق الهدف والغاية من الديانة اليهودية وازوف وقت الانتقال. ولكن باعتراضهم عليه وتكذيبه وإصرارهم على بقائهم في فصلهم ودينهم السابق، استحقوا عذاب الله وسخطه، فكان لهم ذلك الجزاء الذي شهد التاريخ على ما حل بهم على يد جيوش ملك بابل وقيصر الرومان وغيرهم من سبي وقتل وأسر وتشتيت وتدمير مدينتهم المقدسة أورشليم،

وبهذا الاعتراض خسر اليهود مكانتهم الروحية وباءوا بفشل عظيم.

كذلك ما حصل للنصارى بعد ظهور سيدنا محمد(ص)، فهو تكرار لما حدث سابقا، إذ كان المسيحيون أحباب الله سبحانه وتعالى (أحباء الله) في تلك الدورة، حيث انتقلت اليهم الرحمة والبركة والعناية الإلهية واصبحوا هم المختارون وطلاب المرحلة الجديدة ومحط العناية والبركة الإلهية رغم كل ما عانوه من عذاب واضطهاد، حتى زمن بعثة الرسول محمد(ص)، وفي لحظة الظهور تلك، أي ظهور دعوة الإسلام، انتهى منهج الإنجيل السابق ولزم على أتباعه الانتقال الى المرحلة الجديدة والايمان بها وبرسولها، لكنهم عاندوا مثل سابقيهم في قبول رسالته (الا قلة منهم) وفشلوا في ادراك الحكمة الإلهية من التغيير والتجديد ورفضوا الانصياع الى أوامر خالقهم، فكانوا مصداق معنى الآية الكريمة **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)**[8] مما أدى الى اختيار الله قوما غيرهم وتفضيلهم عليهم، فوقع الاختيار على ملة العرب واصبحوا فيما بعد **(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)**[9].

ان عملية تتابع الأديان هي ضرورة حضارية إنسانية ورحمة مستمرة من الله لا تنقطع تنزل من السماء **(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)**[10] وعناية قصوى بالبشر، فالرزق الإلهي يأتي من السماء على يد رسل الله، وما هذا الرزق الا الكتب السماوية والشرائع الإلهية والأوامر والنواهي الغيبية، وليس كما يعتقد البعض بأن الرزق الذي في

السماء هو المطر الذي ينزل على الارض ويخرج الزرع، ولا كما يصوره المسيحيون بخصوص العشاء الرباني الأخير الذي يدّعون انه نزل من السماء ويرسمونه في لوحاتهم حيث السيد المسيح(ع) يجلس مع تلامذته الحواريين تتوسطهم مائدة غذائية ممتدة عامرة بأشهى المأكولات! فالسماء ليست مجرد عدة أميال تعلو رؤوسنا كما اعتقد السلف، بل هي محيطة بكرة الأرض من جميع الاتجاهات. ان أفضل رزق ينزل من السماء على البشر هو الآيات الإلهية والهدى الرباني، و(خير الزاد هو التقوى)، هذا هو الرزق الذي في السماء وما توعدون، أما الرزق المادي مثل الأكل والشرب والمال وغيره فيأتي من الأرض ومن عمل الإنسان.

ان تكرار نزول الشرائع السماوية هو شكل من أشكال الرحمة والعناية والألطاف الإلهية المستمرة ولا يمكن ان تكون سببا لاختلاف البشر، لأن الله مصدر كل خير، وما هذه البلايا والمحن المنهمرة، الا بسبب عناد البشر وإصرارهم على النكران والكفر، وبسبب هذا الكفر يختلف أصحاب الديانات الجديدة مع أصحاب الديانات القديمة وأصحاب المذاهب والفرق، فيحصل القتال والخراب وحرق المدن وترميل النساء وتحليل الدماء وغير ذلك من المصائب التي يشهد عليها التاريخ.

هنا يبرز السؤال المحير: أي الأديان أو المذاهب هي الحق؟ وكيف

نتأكد ان هذا الدين هو الحق والأخير من عند الله، رغم ادعاء جميع اتباع الديانات والمذاهب الموجودة أن دينهم أو مذهبهم هو الحق ولا دين أو مذهب بعده؟

ان جواب هذا السؤال لائح واضح في الكتب المقدسة. ولنبدأ أولا بالآيات التي يمكن بها تمييز الحق عن الباطل. حيث جاء في الإنجيل: *[احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الرديّة فتصنع أثماراً رديّة. لا تقدر شجرة جيدة ان تصنع أثماراً رديّة ولا شجرة رديّة ان تصنع أثماراً جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار. فإذاً من أثمارهم تعرفونهم.]*[11].

ان المقصود من الشجرة هنا فهو الإنسان، ومن الشجرة الرديّة مدّعي النبوة، ومن الشجرة الجيدة هو النبي الصادق. والمعنى هو ان رسل الله الحق يمكن معرفتهم وتمييزهم من كلامهم وأفعالهم وتصرفاتهم ومبادئهم الراقية السامية، بينما لا يستطيع غيرهم مجاراتهم في ذلك مهما فعلوا، وفي النهاية يفشلون ويتسببون في خراب المجتمعات ودمارها.

وجاء في القرآن الكريم: **(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ**

النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ)[12]، ومن معاني هذه الآية ان من يدعي كذباً وبهتاناً انه رسول من عند الله سبحانه وتعالى وان قوله قول الله، لا يمكن لادعائه البقاء والدوام، فلابد وان ينكشف أمره وينمحي أثره. أما الديانة الإلهية الحقيقية فتبقى وتستمر ويعلو شأنها.

ان رسل الله الحق يشهدون ويؤيد بعضهم بعضاً رغم اختلاف أماكن ظهورهم وتباعد أزمنتها واختلاف لغاتهم، فمثلا ورد في الإنجيل: *[إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً. الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حقٌ]*[13]، وليس المقصود من الآخر في هذه الآية الا النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فلم يظهر شخص بعد سيدنا عيسى(ع) ادعى الرسالة والنبوة من عند الله وشهد بصدق دعوة المسيح(ع)، إلا سيدنا محمد(ص). كذلك ورد في الإنجيل في حق تصديق موسى(ع) ما يلي: [*لا تظنوا اني أشكوكم الى الأب. يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم. لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي]*[14].

ومن الأدلة الأخرى على تصديق كل رسول حق لمن جاء قبله من الرسل والأنبياء، ورد في القرآن الكريم في ذكر سيدنا موسى(ع) وتصديق دعوته. فقد جاء ذكره 136 مرة، وجاء ذكر سيدنا عيسى

وتصديق دعوته 25 مرة. فلا شهادة أعظم من شهادة رسول من الله لرسول آخر وإقراره بصدق دعوته، فهو أفضل شاهد وخير الشهود، **(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)**[15].

قد يهلل بعض من يقرأ هذه الآيات ويفرح بها، فهي تعطيه دفعاً في أحقية معتقده. لكنه قد يتجهم عند الدخول في الجزء الثاني من هذا الموضوع، وهو ختم الرسالات وعدم نزول أمر جديد بعدها. فكل أتباع الديانات المختلفة يقولون بقول واحد، هو ان رسالتهم هي آخر الرسالات وليس هناك رسول بعد رسولهم وهذا سبب بقاء أمم أصحاب الكتاب على أديانهم.

لو تفحصنا الكتب السماوية لوجدنا مثل هذه الآيات قليلة جداً، ان كانت في التوراة أو الإنجيل أو القرآن رغم عظم قوة تأثيرها ونتائجها الخطيرة. لكنها أوقعت كثير من المفسرين في منزلق الاشتباه وضلوا وأضلوا غيرهم، إما غفلة منهم أو جهلاً أو حفاظاً على مركزهم ومقامهم الاجتماعي أو غير ذلك من الأسباب العديدة.

فعلى سبيل المثال ورد في التوراة بخصوص ختم النبوة بعد سيدنا موسى(ع) في سفر التثنية *[اني أرفع الى السماء يدي وأقول حيّ أنا الى الأبد]*[16]، وكذلك ورد في التوراة آيات أخرى تقضي بتحليل الطلاق وعدم نسخ السبت، فمعاني هذه الآيات الظاهرية هي التي حالت دون

تصديق اليهود للسيد المسيح(ع) وأوجب الاعتداء عليه ونكران أحقيته وعدم الايمان به وبرسالته. لأن أول عمل قام به المسيح(ع) هو دعوته الى دين جديد ورسالة جديدة ونسخ السبت وتحريم الطلاق. فهل كان تصرف السيد المسيح دليل على صحة فهم اليهود لكتابهم؟

كذلك جاء في الإنجيل على لسان السيد المسيح(ع) بخصوص موضوع الختم: *[ان السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول أبداً]*[17]، و *[أنا الألف والياء، الأول والآخر، البداية والنهاية]*[18]، وهاتان الإشارتان أصبحتا حجابا غليظاً ودخاناً مبيناً وغيوما كثيفة أمام بصائر المسيحيين عندما أشرقت شمس رسول الهدى محمد(ص) وبشّر الناس برسالته السمحاء. وبمثل هذه الآيات المتشابهات منع الكثيرون من الايمان به وبرسالته. فهل كانت كلمات الإنجيل (الواضحة) هذه تعني عدم أحقية دعوة سيدنا محمد(ص)؟ أستغفر الله. اذن لابد ان تكون لهذه الآيات معان لا يفهمها البشر، ولابد انها كانت امتحاناً صعباً لأتباع السيد المسيح(ع).

ومن الملفت للنظر تكرار نفس الامتحان مرة أخرى في القران الكريم في آية وحيدة غير مكررة **(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)**[19]، وهنا نسأل الله تجنب هذا الامتحان الخطير الصعب وعدم الوقوع في نفس المطب وتلطفه ببصائرنا وعقولنا، إذا حصل شيء ما!

لقد كفرت أمم عديدة برسلهم نتيجة هذا الامتحان الإلهي المتكرر، فالنمرود وقومه كفروا برسالة إبراهيم(ع) ورموه في النار وأخرجوه من ارض العراق مطروداً منفياً، وقوم صالح قاوموه وحاربوه وعقروا ناقته، وأقوام عاد وثمود ولوط اصبحوا عبرة لبقية الأمم عندما غضب الله سبحانه وتعالى عليهم ومحا أثرهم، وقوم هود نزل عليهم العقاب السماوي، وقوم نوح غرقوا في الفيضان، وقوم فرعون غرقوا في البحر، وملة اليهود دخلت مدينة الكفر والإلحاد ليس بقتلهم أو محاولة صلبهم للسيد المسيح(ع) فقط، بل لأنهم كانوا يكررون قتل أنبيائهم واحدا تلو الآخر، لذلك لقّبهم السيد المسيح بـ (قتلة الأنبياء)، فقد جاء في الإنجيل آية في وصفهم: *[ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون*[20] *المراؤون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافا ودعارة. أيها الفريسي الأعمى نق أولا داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضا نقيا. ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم ايضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثما. ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين. وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم انكم أبناء قتلة الأنبياء. فإملأوا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم. لذلك*

ها أنا أرسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة. يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين...][21].

اذن، وجب على الجميع دون استثناء، الانتباه والبحث والتفتيش لعل هناك ما هو خافٍ عن البصر والبصيرة، لأن ما يحصل اليوم للبشرية بمختلف معتقداتها من عذاب ومعاناة وتكالب البلايا والمصائب والخسران والتخلف، ما هو الا دليل الابتعاد عن التعاليم الإلهية الحقيقية وترك ما أنزل الله سبحانه وتعالى. وبعض علماء التاريخ والأديان والحضارات يدركون المعاني الخفية لمصائب وبلايا اليوم، فليس من الحكمة الإلهية والرحمة الربانية وقوع كل هذه البلايا والنزاعات والحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية والفقر والعوز على البشر بدون سبب. ان الله سبحانه وتعالى أرحم الراحمين ولا يقبل لعباده الظلم والاعتساف، فكيف يتفق تفسير هذا مع ذاك؟

اذن لابد من وقفة منصفة للانتباه من هذه الغفلة والقيام من هذا السبات للخروج من قبور النفس ولحود الهوى. فالله واحد وشرائعه واحدة ورسله واحدة، وليس من الكفر اتباع أوامر جديدة ان كان هناك شيء جديد!! بل الخزي والعار في العناد والمخالفة. ولنا في قول الرسول محمد(ص) تحذير شديد بهذا الخصوص، فعن أبي سعيد الخدري (رضى): **(لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو**

دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قالوا: اليهود والنصارى؟ فقال: ومن؟). "متفق عليه".

لقد حان الوقت بعد ان تفتحت عقول البشرية وتنورت أبصارهم بالعلم والمعرفة أن يدركوا ان ما يحصل للعالم من مشاكل وبلايا وحروب هو عقاب من عند الله سبحانه وتعالى. فهل يتعظ البشر وينزعوا عنهم قميص التعصب الأعمى؟

الهوامش

1 – سورة الأنعام 124 .

2 – سورة الأعراف 172 .

3 – سورة البقرة 285 .

4 – سورة القمر 50 .

5 – سورة القصص 5 .

6 – سورة الأنعام 91 .

7 – سورة الأنعام 154 .

8 – سورة العنكبوت 2.

9 – سورة آل عمران 110 .

10 – سورة الذاريات 22 .

11 – إنجيل متى الإصحاح 7 الآيات 15 الى 20 .

12 – سورة الرعد 17 .

13 – إنجيل يوحنا الإصحاح 5 الآية 31 .

14 – إنجيل يوحنا الإصحاح 5 الآيات 45–47 .

15 – سورة الفتح 8 .

16 – التوراة سفر التثنية الإصحاح 32 الآية 40 .

17 – إنجيل متى الإصحاح 24 الآية رقم 35 .

18 – الرؤيا – الإصحاح 22 الآية 13 .

19 – سورة الأحزاب 40 .

20 – الفريسيون: طائفة من اليهود تنظمت في عهد المكابيين للدفاع عن الشريعة وصفاء الايمان. لكنهم تعلقوا، مع الزمن، بالحرف دون الروح، لهذا لامهم

المسيح بشدة على ريائهم وكبريائهم، فكانوا في طليعة مقاوميه. (المنجد ص 527).

21 – إنجيل متى، الإصحاح الثالث والعشرون الآيات 29–37 .

(الباب الثالث)

الفصل التاسع

الجبر والاختيار

يُخلق الإنسان وهو خاضع لهذين المفهومين، فهو من ناحية مسيّر ومن الأخرى مخيّر. مثلا مخيّر في أعمال الخير وأفعال الشر، كالعدل والظلم، والإنصاف والاعتساف، والرحمة والاعتداء، فبإمكانه ان يظلم أو يعدل أو يتبع الخير أو الشر. وهو مجبر في حالات أخرى مثل الولادة والموت والنوم واليقظة والصحة والتعرض للأمراض وانحطاط القوى الإنسانية عند الكبر وحالات الربح والخسارة، ومثل هذه الأمور لا تخضع لإرادة الإنسان وهو غير مسؤول عنها، فلا إرادة له في مجيئه الى هذا العالم، وبعد حياة قد تطول أو تقصر يموت وتنتهي حياته، وينام الإنسان وهو مجبر ولا يستطيع الامتناع عن النوم مهما حاول، ويجوع فيأكل وهو مجبر، ويتمنى الصحة ويحافظ عليها ولكنه يصاب بشتى الأمراض وهو كاره لها، ويتدرج منذ ولادته بالصحة والقوة والنشاط حتى يبلغ أشده، ثم يبدأ بالضعف وانحطاط القوى فتوهن وتضعف عظامه وعضلاته وهو لا يستطيع لها رداً، ويحاول كل جهده العمل والربح وجني المال، ولكنه قد يخسر كل شيء وتتردى حالته المادية ويفقد ما جناه خلال حياته وهو يتحسر. وشخص آخر يولد في مجتمع

راق متقدم ويتمتع بذكاء جيد وبصيرة منورة، بينما يولد غيره بليداً عاجزاً عن تدبير أموره في مجتمع فقير متخلف.

ومن الأعمال الاختيارية على سبيل المثال، يستطيع الإنسان ان يكون صالحاً أو سيئاً، محباً للعدل أو ظالماً، يحب الخير لجميع الناس أو شريراً يكره بني جنسه ويتعمد أذيتهم، وهذا يعتمد على نوعية التربية والمجتمع. فإن صلح المجتمع انتشرت فيه الأعمال الطيبة وأثّر ذلك في أعمال الناس وأفعالهم المختارة، فيزداد الخير والسلام بينهم، والعكس صحيح. فهناك من تدفعه الحاجة الى سلوك سبيل الشر أو السرقة لسد حاجته، بينما يمتنع غيره عن فعل ذلك لامتلاكه الوازع الذاتي المنبعث من مخافة الله وحسن التربية. وشخص يمتنع عن دفع دين بذمته ويتملص ويراوغ، ولا يجد دائنه سبيلا الا اللجوء الى القضاء لاسترداد ماله، وغيره لا يستطيع النوم ولا يهدأ له بال حتى يعيد للناس أموالهم، وآخر يسرع لمد يد المساعدة بكل طيبة نفس، وآخر يرى ويمتنع ويمضي في سبيله وكأنه لم يشاهد أو يسمع شيئا، كل ذلك يدخل في باب الاختيار، وللإنسان إرادة فيه.

يتذمر بعض الناس من الفقر الذي يلازمهم طوال حياتهم، ومن غنى غيرهم دون بذل عناء، فأين الجبر من هذا وأين الاختيار؟ يخضع هذا الموضوع لمفهومي الجبر والاختيار في آن واحد، ودليل ذلك نجاح بعض الناس من مختلف الطبقات وبدرجات ذكاء متباينة في أعمالهم

وحصولهم على الثروة والمال، بينما يفشل غيرهم رغم جهودهم لتحقيق ذلك، لأن فرص العمل والنجاح لا تخضع لقانون محدد، ولا يمكن ان تكون مطلقة أو متساوية تماماً لتكفي كل البشر وتتوزع عليهم بالتساوي والعدل، فهذا يعتمد على ذكاء الفرد والفرص المتاحة وطرق استغلالها وتوقيتها والحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العامة للسكان، فالبلد الغني والمنظم اجتماعياً تكثر فيه فرص العمل وبالتالي فرص النجاح، والبلد الفقير تقل فيه فرص العمل فتقل نسبة النجاح وتزداد نسبة الفشل، وثقافة وتعليم الناس تسهم في زيادة عدد الفرص، وحدة الذكاء وكمية التنافس لها تأثير واضح في النتائج. كل هذه الأمور والمؤثرات تسهم في غنى الناس وفقرهم. ولكن يبقى لموضوع الجبر تأثير فعّال في النتائج. فهناك من يحاول الإثراء بكل جهده وتخدمه الظروف في التقرب من هدفه في العديد من المناسبات، لكنه يفشل في كل مرة، مما يدفعه الى نسبة ذلك الى الحظ السيئ أو الظروف التعسة. ورغم صحة ذلك في بعض الحالات، الا ان للخالق دوراً كبيراً وحكمة لا نفهمها. فقد يولد إنسان في عائلة ثرية وينعم بثرائه طوال حياته ولا يعرف ما هي الحاجة مطلقاً، وتراه يبذر أمواله ذات اليمين وذات الشمال، الا انه يبقى غنياً طوال حياته. وآخر يولد في عائلة فقيرة لا تجد الخبز الحاف لها، ويعيش ويموت على هذه الحال، رغم محاولاته المستميتة في الخروج من هذه الحلقة الخانقة ورغم تمتعه بالذكاء والصحة والتعليم وغيرها من الظروف المساعدة. وهناك بشر

يعيشون بين الحالتين، فلا يطلعون ولا ينزلون. وهذه الحالات تقع في باب الجبر والتقدير الإلهي، وهنا يجب التسليم بقضاء الله وقدره وعدم الاعتراض على حكمته، إذ لابد للخالق من غاية أو حكمة يعتملها في هؤلاء، ومن يدري، فلعل توفر المال في أيديهم سيدفعهم الى الإساءة لأنفسهم أو لغيرهم بحيث يتمنون ساعتها الفقر بدلا من الغناء خلاصاً من المصائب وطلباً لراحة البال.

ومثال آخر يوضح قضاء الله وقدره، هو المرض الوراثي أو العاهات المستديمة، فرغم بذل بعض الحكومات جلَّ اهتمامها في تحسين الصحة العامة لمواطنيها وتثقيفهم وزيادة عدد الأطباء والمهتمين بالصحة العامة وتوفير كافة وسائل العناية الصحية والمستشفيات، وهذا ما يساهم في تقليل الاصابة بالأمراض بشكل عام، الا ان هناك مرضى مصابين بأمراض مستعصية لا يمكن نسبتها الا الى تقدير العليم الخبير، مثل ولادة إنسان مصاب بالعمى أو الصمم أو بدون أطراف أو بمرض وراثي. وهنا لا نجد تفسيراً لذلك سوى الإذعان للقدر المحتوم. الا ان هذه الظاهرة يمكن تقليلها والتحكم بنسبتها مع تقدم العلم والاهتمام بالصحة العامة وانتشار الثقافة وزيادة فرص العمل وتحسن الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع.

ان الإنسان مثله كمثل سفينة شراعية تسير في عباب بحر الحياة المتلاطم، فبدون مدد الرياح الإلهية وتأثير قوتها لا يمكنها الابحار أو

الحركة، فتبقى ساكنة في مكانها. اما إذا هبت عليها رياح القوة فإنها تتحرك وتسير في طريق الحياة، لكن مقودها ودفتها هي التي تقرر الاتجاه، فان وجهها الربّان نحو شمال الشر، سارت وتقدمت، وان وجهها نحو يمين الخير وَيُمْنه، همّت ومضت.

ان الإنسان يأتي الى هذا العالم مجبراً بدون إرادته ويخرج منه بدون إرادته، لكنه يستطيع توجيه دفة حياته إما نحو أعمال الخير أو نحو أفعال الشر. وهذا قرار متروك بين يديه.

ومثال آخر: لو عيّن ملك أو رئيس جمهورية عادل، حاكماً له على مدينة ما، فإن سلك هذا الحاكم سبيل الخير والصلاح والأعمال الطيبة المرضية، كان ذلك مستحسناً ومستحباً لدى رئيسه، ولو سلك سبيل الظلم والقسوة والاعتداء والأعمال الشريرة، كان هذا سبب غضب الملك عليه. فالحاكم يمكنه سلوك أحد السبيلين وهذا في مقدوره، طالما انه يستمد قوته من قوة مليكه أو رئيسه. لكنه إذا ما عُزل من منصبه، فقد القدرة والقوة على التصرف، ويقف عاجزاً كما تقف السفينة وسط البحر عند انقطاع مدد الرياح عنها.

ان البشر يدخلون هذا العالم ويخرجون منه مجبرين، الا انهم مسؤولون عن أعمالهم وأفعالهم كل حسب ما كسبت يداه، وهذا العالم الفاني ما هو الا مرحلة من مراحل حياة الإنسان الروحانية، وانه سينتقل

الى حياة أخرى أفضل منها، والله يضع الإنسان في وضع وحالة وحياة معينة بكل إشكالياتها ومحاسنها، ويقول له أرني ماذا ستفعل بهذا الوضع وكيف ستتصرف؟

هناك تأثيرات أخرى لها دور فعال حيوي في حياة الفرد، فما يسود المجتمع من عرف وتقاليد وأحكام وظروف سياسية واقتصادية وعلمية ودينية لها أثر كبير على سلوك الإنسان، فقد يحاول شخص التوجه نحو الخير الا ان ظروف المجتمع المحيطة به تجبره في كل مرة على تغيير مسلكه الى سبيل آخر؛ وشخص كلما حاول سلوك سبيل الشر يجد في طريقه من يمنعه ويرشده ويقوّمه الى سبيل الخير، والأمثلة كثيرة.

ان درجة تطور المجتمع لها تأثير فعال وكبير في سلوك الأفراد، لذلك كان من الضروري اهتمام رجال الاختصاص والسياسة بتربية الأجيال والمجتمعات وتحسين الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسعي لإحلال السلام بين البشر وتقليل مصاريف التسلح والحرب والسعي الجدي الى نزع الأسلحة النووية، والاهتمام بوضع قوانين اقتصادية واجتماعية مناسبة صحيحة للحصول على نتائج جيدة مفيدة تخدم الجنس البشري وترفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي لتقليل الفوارق الاجتماعية، فالمساواة بين الناس تماماً غاية لا تدرك وهدف مستحيل، ولابد من وجود الفوارق بين الناس، لأنهم خلقوا بقوى وقدرات مختلفة

وطبـائع متباينــة، فمثلمــا يحتــاج الجـيش الــى قـواد وضـباط وجنـود ومستخدمين ليؤدي هذا الجيش دوره بشكل سليم، ومثلما يحتاج المصنع الـى مـدير ومهندسـين وعمـال مهـرة ومسـتخدمين لـدوران عجلـة انتاجـه بانتظـام، كـذلك لابـد للمجتمـع من تفاوت بين درجـات النـاس وطبقاتهم لإدامة بقاء تطوره بشكل صحيح.

والخلاصة ان الإنسان مجبر في بعض الحالات ومخير في حـالات أخـرى، لكـن المهـم فـي كـل هـذا هـو التصـرفات والسـلوك الإنسـاني والعلاقات الاجتماعية التي تدخل تحت باب الاختيار، ومن الضروري معرفة كيفية التمييز بين الحالتين لخلق مجتمع متطور تسوده العدالة الاجتماعية والسلام وعدم نسبة كل ما يفعله الناس الى موضوع الجبرية أو نسبة أفعال الشر الى وسوسة الشيطان.

الفصل العاشر

القضاء والقدر

تعتبر هذه المسألة من أمهات المسائل الفلسفية المعقدة التي كان لها أكبر الأثر في تقرير مصير كثير من البشر أفراداً كانوا أو مجتمعات. وبقيت تختلف درجة الايمان والاعتقاد بها بين الناس كل حسب دينه ومعتقداته وثقافته ومجتمعه. فهناك من يؤمن بها أشد الايمان وينسب كلما أصابه ويصيبه الى الله أو الى القضاء والقدر، وهناك من يعتقد بها لكنه لا يعرف كيف يقيس مستجداتها ونتائجها، فتختلط عليه الأمور ويحار ولا يجد طريقاً ثابتاً يسلكه، ويبقى يفكر هل هي من عند الله، أم هي من أعمال الإنسان نفسه؟ أم هي من انعكاسات تأثيرات المجتمع عليه؟

والحقيقة أن هذا الموضوع كثيراً ما ناقشه الناس ولم يتوصلوا الى حل نهائي متفق عليه له، فكل واحد يعطي رأياً مختلفا، مما دفع البعض اللجوء الى (الاستخارة) في الكتب الإلهية لعجزه ونفاد حيلته، والتجأ آخرون للمنجمين والعرافين طلباً لمعرفة بعض الحقائق ومستقبل الأمور، وذهب غيرهم الى قراءة الكف والفنجان أو استحضار الأرواح وغيرها من الاستدلالات غير المجدية لاستكشاف المستقبل ودرء أقداره.

فهل يمكن فلسفة هذا الموضوع بطريقة علمية جديدة تقنع أكبر عدد من الأطراف؟ وهل يمكن بعد تاريخ الإنسانية الطويل الوقوف على حقيقة هذه المعضلة.

ان أصل معنى كلمة القضاء هو الأمر المفروغ منه، أي ضرورة الاقتناع بعدم المحاولة لتغيير نتائج الأمور، فهي نهائية وحكم مقضي به. أما كلمة القدر فهي ما مقدّر للإنسان في الغيب المجهول، وهو يعني أيضاً ان لا يد للإنسان في إيجاده أو تغييره. والكلمتان توضحان عجز الإنسان عن التدخل في بدء وانتهاء هذين الأمرين، وان لهما معنى واحد متقارب.

القضاء المحتوم والقضاء المشروط:

ينقسم القضاء أو القدر الى قسمين أو حالتين، الأول القضاء المحتوم، والثاني القضاء المشروط. فالقضاء المحتوم هو الذي لابد منه ولا تغيير ولا تبديل له ولا فرار منه، كولادة الإنسان في هذه الدنيا، وكالنمو والكبر والعجز والنوم والموت، وكذلك المرض والخسارة بنسب متفاوتة وتحت ظروف قاهرة. فقضاء الإنسان المحتوم أن يولد في هذه الدنيا، إن كان ذكراً أم أنثى وهو أمر لا يد له في حدوثه ولا يمكنه منعه، ثم ينمو ويكبر في العمر حتى يصير انسانا كاملا، ويأتيه النعاس وتشتد رغبته في النوم والراحة ويعجز عن البقاء يقظاً، ويمتد به

العمـر ويمضـي وفـي نهايـة المطـاف لابـد وان يعجـز وتضـعف قـواه الجسدية ثم يموت ويفنى جسده مهما طال به الزمن.

ومهما توخى الإنسان وأخذ حذره من الاصابة بمرض من الأمراض، إلا أنه لابد وأن يمرض خلال سنين عمره، وخاصة عندما يكون صغيراً في أول سنين حياته أو عندما يضعف جسده ويكبر في نهاية عمره، فيشمله العجز ولا يعد يقوى أو يستطيع مقاومة الأمراض أو الوقاية من الاصابة بها، فأجواء الأرض وتربتها لا يمكن أن تتنقى وتخلو من وجود الجراثيم والبكتريا والميكروبات بشكل تام، ولابد من تجمع القمامة والفضلات وتكوّن القاذورات وظهور المخلفات، فمهما اهتمت ربة البيت بتنظيف منزلها واستعانت بغيرها، فلابد من ظهور القمامة التي تفسد تماما مع مرور الوقت في أماكن تجميعها وتصبح منبعاً لتكاثر الجراثيم ومكانا لتولد الميكروبات؛ ومهما اعتنى الإنسان بملابسه ومظهره، فلابد وان تتسخ وتتراكم عليها الأوساخ وتحمل نسبة من الجراثيم؛ ومهما اعتنى الشخص بنظافة غذائه واستعمل وسائل التنظيف والمعقمات، فلابد وان تجد الميكروبات أو الجراثيم سبيلا الى معدته. كما لا يمكن أن يستعد جسد الإنسان تماما ويتهيأ لمقاومة مختلف أنواع الميكروبات والجراثيم والبكتريا، ولابد أن تمر عليه مرحلة أو فترة تضعف فيها قوة جسده أو تتخلخل مركباته الكيمياوية وتتفاوت نسبها الطبيعية فتفسح المجال للاصابة بنوع من الأمراض، خاصة عند صغر سنه وفي

طفولته أو في أرذل العمر في سنين عجزه وكبره.

كما وان الإنسان مهما تحاشى الخسارة في أعماله وتجارته، فلابد وأن تمر به ظروف قاهرة ويخسر بعض أو كل أمواله، كما يحدث عندما تنزل صاعقة من السماء فتحرق جميع محاصيله الزراعية أو تهطل أمطارا غزيرة فتتلفها، أو يحدث فيضان عارم فيتلف جميع مخازنه؛ فمثل هذه الأمور أو ما شابهها، يعجز الإنسان عن تلافيها أو الوقاية من آثارها التخريبية أو التدميرية. وقد يقول قائل إن مثل هذه الحوادث الطبيعية تعتبر من القضاء المشروط الذي يمكن تلافيه، فلو التجأ الزارع الى شركات التأمين وأمن على محاصيله الزراعية والتاجر على مخازنه التجارية، لكان بالامكان تخلصهما من الخسارة. لكن الحقيقة أنهما سيخسران لا محالة حتى ولو فعلا ذلك، حيث انهما لن يتمكنا من استعادة كامل ما فقداه من وقت وجهد ولا يستطيعا إعادة الزمان الى الوراء، وستبقى هناك خسائر أخرى غير منظورة مثل المصاريف الجانبية والنثريات والجهود المبذولة، وعليهما إذا أرادا الربح مرة ثانية، تكرار المحاولة وخسارة ذات الوقت والجهد وربما أكثر، ومن يدري فقد تكون تلك آخر محاولة لهما أو آخر عملية تجارية في حياتهما ووضعا فيها كامل مدخراتهما وقيمة ممتلكاتهما.

أما إذا قلنا أن شركات التأمين ستتكفل بتعويض خسارتهما، وبذلك لن تكون هناك خسارة. ففي هذه الحالة أيضا، لا يمكن القول بانعدام

حالة الخسارة ولا وجود لخاسر، بل ان كل ما حصل هو أن الخسارة انتقلت منهما الى شركات التأمين. فالخاسر والخسارة موجودان ولو بنسبة معينة إن كان مع التاجر أو مع كل أو بعض عماله وموظفيه من الذين خسروا بعض أو كل فرص عملهم أو مع شركات التأمين التي تعتمد في عملها وربحها على إجمالي عدد زبائنها وليس فقط على حسن ترتيب بنود شروطها وخبرتها في إحكام إغلاق سبل الخسارة أمامها.

فهذا النوع من القضاء المحتوم، يخضع لقوانينه وأحكامه كل ما هو مخلوق ومشهود ومنظور في هذا العالم.

أما القضاء المشروط فهو حالة ثانية من أنواع القضاء ينفع معه الحذر والوقاية والتخطيط والتدبير والتفكير والاستعداد، ومن أمثلته ما يقع من الحوادث الطارئة لكل فرد، مثل القتل أو السرقة أو الإصابة في معركة أو أي حادث عرضي. فالاحتراز والاحتياط مع الأقدار المشروطة أمر مثمر ومفيد وله نتائج طيبة، فلو انتبه الإنسان لنفسه وحافظ عليها وابتعد عن الحوادث القاتلة وأسبابها، لطال عمره وعاش كامل سنين حياته حتى يأتيه قدره المحتوم. مثله مثل الشمعة، فإذا وضعتها في مكان مناسب يحفظها من الرياح وأيدي العابثين، تبقى مشتعلة حتى ينتهي فتيلها، أما إذا هبّت عليها ريح أو عبث بها عابث، فستنطفئ حتما حتى ولو كان فتيلها ما زال سالماً. أو كمصباح زيتي،

فإن وضع في مكان مناسب بعيداً عن متناول الأطفال والرياح بقي مضيئاً حتى ينتهي زيته ويطفأ. وعلى العكس من ذلك، إذا وضعت هذه الأشياء في مكان غير مناسب وتعرضت الى طارئ، فسوف تنطفئ شعلتها ويذهب نورها. فالحكمة والخبرة والتروي والتفكير تؤتي ثمارها مع القضاء المشروط.

ومن الأمور الخطيرة التي تخضع لمفهوم القضاء المشروط، هما القتال والحروب، فالاحتراز واليقظة في مواجهة العدو واستعمال السلاح الجيد الحديث وطرق الوقاية السليمة ودرجة الذكاء وقوة الجسد والتدريب الجيد واختباء الجنود في الخنادق وتبني قادة جيدين لإدارة المعركة من ذوي الخبرة والدراية ووضع الخطط العسكرية المحكمة، كل هذه الأمور وغيرها تقلل من نسبة الإصابات والموت بين الجنود، لأن موضوع الحرب والقتال من الأمور الخاضعة لمبدأ القضاء المشروط، صحيح ان بعض الجنود يصاب ويموت رغم حذره واختبائه، لكن هذه الحالات هي نسبية وتخضع لشدة المعارك وسيرها. فعندما يضطر الجنود للهجوم على أعداءهم، لابد لهم ان يكشفوا أجسادهم وصدورهم، مما يؤدي الى سقوط العديد منهم بين قتيل وجريح، ومع ذلك نرى بينهم من يبقى على قيد الحياة ويتقدم وسط زخات الرصاص ليصل الى خنادق العدو ويحتلها. وعندها تنقلب القياسات بالنسبة للمتخندقين الذين كانوا في مأمن من الموت والقتل، فيخضعون بدورهم لنفس القياسات

والشروط. وعند انتهاء المعركة ينسب الناجون نجاتهم الى قدرة الله وحمايته لهم، وان من مات وقتل من زملائهم كان أجله محتوماً وكان لابد من موته في تلك الساعة حتى ولو لم يمت برصاص العدو فسيموت بطريقة ثانية. وهذا اعتقاد خاطئ ساهم في إبادة وإفناء أجيالاً لا حصر لها من الشباب والرجال على مدى التاريخ بدعوى ان ساعة الموت (المشروط) لا راد لها، وأحد الأدلة البسيطة على ذلك، ان نسبة عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى أكثر من عددهم في الحرب العالمية الثانية، وما مرد ذلك إلا لتطور الخطط الحربية وتحسين سبل التدريب، رغم تطور الأسلحة وزيادة قدرتها المدمرة.

ولقد استغل كثير من القادة والمسؤولين هذا الاعتقاد الخاطئ بين الأمم التي تعتقد بهذا المفهوم القديم وتعتبره نوعا من المعتقدات المسلم بها، للتحكم بمقدرات الشعوب من الذين لا حول لهم ولا قوة للزج بالرجال البسطاء الى ساحات الوغى للمحافظة على مناصب رؤسائهم تحت شعارات زائفة وأغراض شخصية بحتة أو لإيمانهم بنفس هذا المعتقد الخاطئ.

من المستحيل علينا أن نحصي أعداد الجنود المساكين الذين ضحوا بحياتهم وسحقتهم الحروب على مر التاريخ نتيجة أيمانهم واعتقادهم الخاطئ ان الموت قتلاً يخضع لمبدأ القضاء المحتوم، وفي الحقيقة هو مبدأ يخضع لمقاييس القضاء المشروط، وكم كان ممكنا التعامل معه

والابتعاد عنه وبقاء تلك الآلاف المؤلفة من الشباب والرجال على قيد الحياة، ولنتصور كم كان سيتغير وجه الأرض الى الأفضل لو عاشت تلك الملايين في نعيم وسلام، ولم يقتلوا ويبادوا بدافع التعصب والأحقاد والأفكار الخاطئة التي اكتسبوها في الكليات العسكرية ومدارس تعليم فنون القتال والحرب، وما هو مقدار غفلة الإنسان وجهله وعدم تبصره نتيجة إيمانه بمثل هذه الأفكار المغلوطة، وكم كان دور رجال الفكر والفلسفة قاصراً وعاجزاً عن تنوير أفكار المجتمعات على مدى التاريخ.

ان موت البشر وخراب البيوت والديار بسبب الحروب، هو نوع من أنواع الموت المشروط، وذلك لامكانية تفاديه وإيقافه والاحتراز منه، فإن لم يُشعل أوار الحروب وآتونها أصلاً، وتمسك الساسة والقادة بسبل المحبة والسلام وأهدافها ودافعوا عنها، لعاش أولئك الشباب والرجال وتزوجوا وكوّنوا أسراً ولظهر منهم الأطباء والمهندسون والعلماء واستفادت منهم البشرية في مسيرة تقدمها، بل ولتغير وجه الأرض الى الأفضل آلاف المرات.

ومن أنواع الموت المشروط الممكن تفاديه أو الإقلال منه على سبيل المثال لا الحصر، موضوع الموت غرقاً: فلو سقط شخصا في نهر عميق سريع الجريان، فاحتمال موته قائم بنسبة كبيرة، أما إذا كان يجيد فن السباحة والعوم، فنسبة موته ستقل، لاحتمال سباحته وخروجه من الماء سالما. ودليل ذلك قلة عدد نسبة الغرقى في المسابح

الخاصة.

وشخص يتخطى شارعا مزدحما بالسيارات المنطلقة بسرعة كبيرة دون انتباه معتمدا على انه لن يموت الا إذا حانت منيته وجاء أجله. ففي مثل هذه الحالة تكون نسبة إصابته أو موته كبيرة. أما إذا استعمل عقله وبصره وحدد زمن قطعه الشارع بطريقة سليمة وساعده رجل المرور في اجتياز الطريق، فمن المؤكد ان نسبة نجاته ستكون أكبر. ولقد أثبتت التجارب صحة هذا القول وفائدته، لذلك اهتمت دوائر المرور بتحسين الطرق وتوسيعها ووضع إشارات المرور وتدريب رجالها للمحافظة على نظام السير.

ومثال آخر، طبيب أو ممرض يعمل في مستشفى أو مصح للأمراض السارية ويسرف في الاعتماد على فكرة عدم إصابته بالمرض إلا إذا حانت ساعته. فمثل هؤلاء يكونون معرضين بنسبة كبيرة للعدوى، بينما تقل أو تنعدم نسبة إصابة من تقيد منهم بنظام الوقاية أو التطعيم.

سئل أحد الفلاسفة عن إمكانية تغيير زمن الموت المشروط وتأجيل موعده، السؤال التالي: كيف يبعد الايمان بالله والدعاء والصلاة، القدر المشروط الذي لابد من وقوعه؟

أجاب الفيلسوف: كان هناك رجل حطّاب، يخرج من بيته كل يوم

ليجمع الحطب ويبيعه ليشتري بثمنه قوتاً لأهله. وكان هناك صخرة كبيرة معلقة على جانب الطريق، مقدر لها أن تسقط عليه فتقتله. لكن الرجل كان دائم الدعاء والصلاة لله، ومن أثر دعائه الخالص، كان يسقط عليه في كل يوم قطعة حجر صغيرة من هذه الصخرة، فلا تؤذيه. واستمر الحال على هذا المنوال لمدة عشرين عاما، والصخرة تتساقط على شكل قطع صغيرة بينما الحطّاب مستمر في الدعاء والمناجاة، الى أن سقطت الصخرة بأكملها عليه ولم تقتله.

فهذا المثال، يوضح أهمية قوة الأيمان وفاعلية الدعاء وسبب تمسك الناس به، فهو يقلل من شدة وقوع البلاء ويبعد الأقدار الشديدة المشروطة ويخفف وطأتها.

وعلى نفس القياس، كان هناك شاب مقدر له الاصابة بمرض فتاك والموت بسببه. لكن كثرة دعاء والديه ومناجاتهم لله وسؤاله المحافظة عليه ويقينهم من ضرورة الاستعانة بما كان يصفه حذق الأطباء من أدوية ناجعة، كانت تؤتي أوكلها وتؤدي الى إصابة الشاب بين الحين والآخر بمرض يقعده في بيته عدة أيام ثم يشفى منه، مما أدى في النهاية الى اكتساب جسده مناعة جيدة وتحصنه ضد الأمراض، وعندما أصيب في آخر الأمر بذلك المرض الفتاك المقدر له الإصابة به، استطاع جسده مقاومته والشفاء منه.

هناك فكرة خاطئة منتشرة بين بعض المجتمعات تقول: أن قضاء المرأة وقدرها، حتّم عليها أن تكون مخلوقاً ضعيفاً لا يجاري الرجل قدراته. وهذا مفهوم غير صحيح يمكن تقويمه، لأنه نوع من أنواع القضاء المشروط، فهو يعتمد على مستوى تعليمها ونوعية ثقافتها ومقدار الحرية المتاحة لها ودرجة إيمانها وإيمان مجتمعها بحقيقة قدراتها. كل هذه الأسباب وغيرها تزيد وتقلل من نسبة بروز نساء مقتدرات داخل المجتمع، وهي نتيجة مشروطة غير محتومة ولا علاقة لها بحجم المخ أو قوة وضعف الجسد، أو كما يعتقد البعض ان الله خلقها بنصف عقل وان هذا شيء مقدّر لها من الله الخالق[1]. فلو حصلت المرأة على حقوقها كاملة وأخذت فرصتها الحقيقية وأدرك الرجل إمكانية مشاركتها البناءة في تطور المجتمع وأنها لا تقل عنه مستوى في قدراتها العقلية وأتيحت لها فرص الدراسة والتعليم الجيد، لتغير وجه الأرض نحو الأحسن بمقدار الضعفين، ومن المؤكد ان عملية البناء والتطور ستكون أفضل بكثير بمشاركة الجنسين. فالمجتمع – أي مجتمع – كالطائر لا يحلق في سماء التقدم والعلم ولا يعلو في فضاء المبادئ الجيدة والأخلاق الحميدة إلا بجناحين، جناح الرجل وجناح المرأة. وهيكل جسد الإنسانية، لا يمشي سوياً، إلا إذا استعمل قدميه معاً، الرجل والمرأة.

بهذه الأمثلة والعديد غيرها، يمكن التفكير والتأمل في مفهوم موضوع

القضاء والقدر المشروط أو المحتم، والخروج بنتائج ومفاهيم تناسب كل حادثة على حدة، وتمييز ومعرفة ما هو محتوم أو مشروط منها، وهل يمكن السعي والاجتهاد والمثابرة في تحسين تأثير وقوع المشروط منه على تقدم المجتمعات والأفراد؟

نعم، هناك قضاء محتوم لا يمكن النجاة منه، ولابد لكل مخلوق من نهاية مهما حافظ على حياته. وهناك قضاء مشروط، يرتبط بما يستجد ويحدث من أمور قد تقصّر وتقلل من عمر الإنسان وتقطع عليه السبيل في الوصول الى نهايته المحتومة قبل موعدها، وهذه ما يجب الاهتمام به والحذر منه وتوعية المجتمع تجاهه.

والخلاصة: ان الحذر والوقاية والانتباه واليقظة والذكاء والدراسة والخبرة والعناية بالنفس والصحة وغيرها تساعد كثيرا على تجنب الإنسان الموت الطارئ أو الإصابات التي تحدث له نتيجة الإهمال والغفلة وعدم الخبرة والسذاجة، وهذا ما يسمى بالموت المشروط. فكل هذه الأمور لها مفعولها الواضح ودورها الأكيد في المحافظة على الإنسان والإبقاء على حياته، وأفضل دليل على ذلك، معنى الآية الكريمة **(وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)**[2]. لكن هذه العوامل بأجمعها لن تمنع الموت المحتوم من الوصول في نهاية المطاف، كما قال تعالى **(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)**[3].

ان فكرة هذا الفصل بمجملها تحتاج الى إعادة تفكير وتنظير وبحث مستفيض، ومن المحتمل الخروج بأفكار جديدة تساهم في خدمة الإنسانية وتطورها ورقيها للمحافظة على الجنس البشري ووقايته من شرور القدر المشروط. صحيح ان الله سبحانه وتعالى ذكر ساعة القدر في الكتب المقدسة، لكن – وكما لاحظنا وسنلاحظ في مواضيع هذا الكتاب – ان كلام الله عميق المعاني، ودليل ذلك قوله تعالى **(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)**[4].

لذا كان من الممكن إيجاد مفهوم جديد لا يمس حقيقة مفهوم القدر وقدسيته، بل يبدل بعض المفاهيم القديمة المضرة ويصحح ما يتناقل بين الناس من أخطاء شائعة ساهمت كثيرا وبشكل مباشر في إخفاء وإبادة ملل وقبائل وعوائل عن سطح الأرض، ولولا اعتقاد الناس بفكرة القضاء والقدر بشكل بسيط ساذج، وقبولهم بفكرة حتمية ساعة موتهم أو قتلهم، لتغيّر وجه الأرض بشكل أفضل تماما ولعم الخير وترسخت فكرة السلام وضرورة المحافظة عليه بين الناس.

الحواشي

1 – انظر موضوع عالم الأرواح (الجزء الثاني) .

2 – البقرة 195/2 .

3 – النساء 78/4 .

4 – آل عمران 7/3 .

الفصل الحادي عشر

الحسـد

ينتشر مفهوم الحسد بين الناس بشكل مبالغ فيه الى درجة أثرت في سلوكيات كثير من الشعوب والأفراد، فبمجرد ان يلمح أحدهم شخصاً ينظر إليه ويتمعن به، اعتقد على الفور انه يحسده، فيسارع لترديد بعض الآيات أو الكلمات أو أداء بعض الأفعال البسيطة معتقداً بفاعليتها في درء تأثير الحسد عليه أو على عائلته، أو أداء بعض الطقوس التي تعتقد بعض مجتمعات العالم المتخلفة بمساعدتها وفاعليتها في طرد تأثير الحسد أو إبطال مفعوله. وان سألت أحدهم عن سبب اعتقاده بالحسد، قال انه مذكور في الكتب السماوية ويجزم بشدة على قوة تأثيره.

ان الاعتراض ليس على وجود مفهوم الحسد بحد ذاته، فهو حالة موجودة بين الناس يتعاملون بها باعتبارها مجموعة أحاسيس وأفعال، وردودها تتأثر سلباً وإيجاباً بدرجة التربية والتعليم والأخلاق، فكلما تحسنت أخلاق ومفاهيم الإنسان وتوسعت مداركه، اضمحلت حالة الحسد لديه وقل الاعتقاد بها. لكن الاعتراض ضد ما يصدر من تصرفات وردود أفعال يسلكها الناس لدرء تأثير الحسد. والسؤال هو: لماذا تخاف الناس الحسد، بينما تمارسه غالبيتهم بشكل أو بآخر؟

في فصل قادم، سنثبت أن مبدأ الخير وفكرته هو أساس إيجاد هذا الكون بجميع مخلوقاته، أما فكرة الشر ومبدأه، فهو وهم صرف وخيال بحت وأمر غير موجود، وفي حقيقته هو عدم وجود الخير[1]. واستنادا الى هذا المفهوم الجديد، يمكن تسخير كل شئ في هذه الدنيا لخير ومصلحة الإنسان حتى الحسد. أما إذا استعمل الحسد في المنافسات الإيجابية الخيّرة بين الناس لاتضحت حسناته للجميع.

فعلى سبيل المثال: ان التحاسد يؤدي الى التنافس الإيجابي بين الطلاب والى رفع مستواهم الدراسي وبالتالي الى خير المجتمع ورقيه. والتحاسد الإيجابي بين المصانع والشركات يؤدي الى وفرة المنتجات وجودة نوعيتها وراحة ورفاهية المواطن وانخفاض أسعارها. والتحاسد الإيجابي بين الشعوب يؤدي الى مزيد من الاختراعات والاكتشافات والتقدم لفائدة البشرية عموماً.

ان الحسد عبارة عن مفهوم سلبي يعتقد الناس بتأثيره المادي عليهم، أي أنه في حقيقته عبارة عن فكرة معنوية لا يمكن التعامل معها مادياً، فهو ليس حاجة ملموسة نراها أو نسمعها، بل هو اعتقاد فكري معنوي يكمن في عقل الإنسان أو في مجموعة مشاعره، يترجم الناس مفاهيمه المعنوية الى تأثيرات مادية ملموسة.

فمن يعتقد بالحسد، لا يشاهد خروج جسم مادي من كيان الحاسد

ليدخل في جسد المحسود. يعني لو رمى إنسان إنساناً آخر بحجر، فالحجر ينطلق من يده ليصيب الآخر، ولو أطلقت النار على شخص، فالرصاصة تنطلق لتصيب هدفها. فمثل هذه الأمور العينية هي عملية انتقال مادية للأشياء تخرج من مكان وتدخل في مكان آخر.

أما بالنسبة للأفكار والمعتقدات فلا يكون الأمر كذلك، فلا شيء يخرج من هذا ليدخل في ذاك. لكن الحقيقة تكمن في المفهوم المعنوي للحسد، عندما يعتقد الحاسد انه يستطيع التأثير على رزق أحدهم أو على صحته أو غير ذلك من بقية الأمور، فهو يحمل فكرة في رأسه ورغبة في قلبه، وليس في رأس وقلب المحسود، وهذه الرغبة مثل باقي الأفكار تؤثر في شخص وجسد حاملها الحاسد قبل التأثير في نفس المحسود. فالحاسد هو الذي يبدأ في التفكير والتدبير والسهر والانزعاج، والإصابة بالأرق والحيرة من نجاح وتفوق صاحبه، وهذا الانشغال الفكري يؤثر في جسده سلباً قبل غيره، فاذا كبرت وتضخمت هذه الهواجس، أثرت على صحته وسلوكه وعمله بمقدار معين يتناسب مع درجة حسده، فيبدأ التأثير المادي والجسدي السلبي عليه نتيجة هذه الأفكار.

فإن لم ينتبه الشخص المحسود لكل هذه التفاعلات العاملة في شخص حاسده، لا يصيبه منها شيء ولا يحصل له أذى، ودليل ذلك، أنه لو ظن خطئاً أن هذه النظرات إنما هي مجرد نظرات اعجاب

وتقدير، وهنا نراه يتأثر بها ايجاباً فيزداد اندفاعاً وسعياً لتحقيق أهدافه بشكل أفضل.

أما إذا كان المحسود يعتقد بها ويؤمن بتأثيرها، فبمجرد انتباهه الى نظرات الحاسد أو الى إشاراته أو كلماته، عندها تبدأ تأثيراتها السلبية بالظهور عليه، فإذا كان تاجرا، نسب ما يصيبه من خسائر الى تأثير الحسد، وإذا كان مريضاً فعل الشيء ذاته ونسب علته الى تأثير الحسد عليه، وإذا رسب في الامتحان ردت والدته ذلك الى حسد قريناتها وجيرانها. ونتيجة لهذا المفهوم، راح الناس يستعينون بمفهوم الحسد درءاً وإبعاداً للعيون، فيتظاهرون بسوء الحال ويتذمرون وهم على خير ما يرام.

إن الحياة مليئة بنتائج الربح والخسارة، ومن يعتقد بوجود الحسد وتأثيره بين الناس، ينسب كل ما يصيبه من خسائر الى حاسده، خاصة إذا علم بوجود أحدهم فعليا. بينما ينسب نجاحه ويقصر تفوقه الى قدراته الذاتية. وهنا نتساءل: لماذا ينسب المحسود نتائج فشله الى الحاسد، بينما يقلل من تأثيراته عليه في حالة نجاحه؟ فإن آمن الإنسان بقدرة الله وقوته وتقديره في توزيع الأرزاق على الناس، فكيف يرتضي الاعتقاد بتأثير الحاسد عليه؟ أليس في ذلك نوعاً من أنواع الاعتراض على مشيئة الله سبحانه وتعالى؟ وكيف يشرك مع قدرة الله قدرة إنسان ضعيف، ويقول: كان لهذا الحاسد تأثير فعال على نتائج أعمالي

وحياتي الفاشلة. أليس في هذا نوع من أنواع الشرك بقدرة الله عندما يخلط قدرات مخلوق بسيط مع قدرة الخالق العظيم؟

ان كل هذه الاعتقادات هي التي تؤثر في عقل المحسود ونفسيته بعد معرفته بوجود من يترصده ويحسده، وما كل ذلك إلا بسبب ما ينتشر بين الناس من مفاهيم خاطئة.

لقد أثبت الطب الحديث تأثير الغضب والحسرة والحسد وحب النفس والكراهية على أجساد الناس وصحتهم، لأنها مفاهيم غير إنسانية لا تتناسب مع طبيعة الإنسان الخيّرة التي خلقه الله عليها، لذلك تؤثر سلباً على صحة الحاسدين وعقولهم وتصرفاتهم.

يمكن تعريف الحسد: أنه عبارة عن أفكار سيئة ورذائل غير إنسانية، تتولد وتتفاعل وتتضخم داخل عقل وقلب الحاسد بمجرد ابتعاده عن الخير والعمل الصالح والقناعة والايمان والطمأنينة. وهذه الأفكار ليس لها تأثير مادي على الآخرين، بل تؤثر بالدرجة الأولى على الحاسد وعلى تصرفاته وأفعاله قبل غيره. ودليل صحة ذلك قلة نسبة الحاسدين بين المؤمنين والصالحين من الناس وابتعادهم عنه لإدراكهم انه ليس من الفضائل الإنسانية. وفي المقابل نجد زيادة نسبة الحسّاد بين الجهلة وغير المتعلمين وعدم قدرتهم في الابتعاد عن مفهومه والاعتقاد به.

ومن الأدلة العديدة على قوة وفاعلية تأثير المشاعر المعنوية على نتائج أعمال البشر بشكليها السلبي والإيجابي، مشاعر الحب والمحبة بين شخصين، فشعور الإنسان بالمحبة يدفعه للتصرف برقة ولطافة، فتترجم هذه المشاعر اللطيفة الى تصرفات لائقة وسلوكيات جميلة تجاه المحبوب، لذا نراه دائم الابتسامة حلو المعشر متفائل يحب الخير للعموم. وهذه المشاعر الرقيقة تؤثر إيجابا في المحبوب وتنتقل تأثيراتها إليه، فيستجيب اليها ويبادلها صاحبه. وهنا لا نرى انتقال مادة ملموسة من الحبيب الى حبيبه، بل هي عبارة عن مشاعر معنوية جميلة تخالف في حالتها مشاعر الكراهية والحسد.

هذا بالاضافة الى قوة تأثير كلمات الاستحسان والتشجيع على كل إنسان، ومع أنها مجرد كلمات معنوية فقط، لكننا نلاحظ بوضوح نتائجها الجيدة على الأبناء والطلاب والمخترعين والعمال والمنتجين وغيرهم.

اذن، فالايمان الحقيقي والتربية السليمة للبشر ونشر الثقافة المثمرة والاهتمام بالتعليم وفهم أمور الدين بشكل صحيح وتحسين المستوى الاجتماعي والصحي والاقتصادي للمجتمع، كل ذلك وغيره، له دور هام وأثر فعال في توضيح حقائق هذه المعتقدات ونقل البشرية نقلة نوعية جيدة لخلق مجتمع أفضل. فعدم الاهتمام بنظرات الناس وما يدور في أذهانهم من حسد او غيرة والإيقان التام ان هذه المشاعر السلبية غير

مجدية ولا مؤثرة إذا تجاهلها الناس، والسعي الحثيث للاهتمام بالعمل ورقي المجتمع والاعتماد على الله والرضاء بقضائه، هو أنجع علاج وأفضل دواء لترك الحاسد يغلي غيظاً في مشاعره.

الحواشي

1 – انظر موضوع الخير والشر .

الفصل الثاني عشر

ما هو الخير وما هو الشر

ان بيان حقيقة هذه المسألة دقيق جداً، رغم أن غالبية المفكرين قد اتفقوا منذ قديم الزمان على تمييز هذين المفهومين من خلال قياس نتائج أعمال الإنسان وتصرفاته، وقالوا أن ما يؤدي الى صالح العموم والفرد هو خير، وما يضر بهم فهو شر، وان الخير والشر مخلوقان صنوان في هذه الحياة، والإنسان يخلق وهو يملك في ذاته قوتا الخير والشر، وعندما يترجم هذين المفهومين الى أفعال وتصرفات، يحكم على سلوكه، فيثاب ويكرم إذا سلك سبيل الأول، ويجازى ويعاقب إذا سلك طريق الثاني.

لكن هذا الموضوع له مفهوم جديد قد يساهم في تغيير بعض المفاهيم القديمة وما بني على أساسها، ومن المحتمل ان ينقل البشرية نقلة نوعية جديدة.

ان الكائنات الموجودة تقسم الى قسمين: قسم جسماني وقسم روحاني، أي حسي (مادي)، وعقلي (معنوي). وهذا يعني ان قسماً من الكائنات حسي، يدرك بالحواس الخمس الظاهرة، كالكائنات المشهودة التي تراها العين. والآخر معقول يدرك بواسطة القرائن، أي المعنوي،

وهذا لا وجود له في الخارج بل يدرك بالعقل. فالروح على سبيل المثال مخلوق معنوي لا وجود له بين الموجودات المادية، والعقل ذات معنوي لا يقاس بالمحسوسات المادية، وكذلك مبادئ الأخلاق والصفات الإنسانية هي حقائق معنوية محسوسة يستدل عليها من آثارها، فنحن لا نرى الخوف بل نرى علاماته، وكذلك لا نرى المحبة بل نستدل عليها من آثارها، وهكذا بالنسبة لبقية هذه الصفات مثل العفة والشرف والتقديس والأمانة وغيرها..

وقصارى القول ان الحقائق المعنوية، كصفات الإنسان وكمالاته الممدوحة، كلها خير صرف، أما عدمها فهو ما اتفق على تسميته بمفهوم الشر. فالكراهية صفة لعدم وجود المحبة، والغضب صفة لعدم وجود الحلم، والتعصب صفة لعدم وجود الثقافة، والسرقة وصف لعدم وجود الأمانة، والجهل نعت لعدم وجود العلم، والضلالة صفة لعدم وجود الهداية، والنسيان صفة لعدم وجود التذكر، والبلاهة صفة لعدم وجود الدراية؛ فكل هذه الصفات غير الممدوحة تشير الى حالة من العدم الصرف ليس لها وجود، وما هي إلا مسميات تطلق عند انتفاء الصفات الحميدة. أي أن الصفات الخيّرة موجودة ومخلوقة، أما الصفات السيئة الشريرة فهي عدم غير موجودة ولا مخلوقة.

وكذلك هو الحال مع الحقائق المحسوسة، فجميعها خير محض ايضاً، أما عدمها فقد اتفق على تسميتها بكلمة الشر، يعني عندما لا

يوجد البصر نسميه عمى، وعندما لا يوجد السمع نطلق عليه صفة الصمم، وعندما لا يوجد الغنى نقول فقر، وعند فقدان الصحة نقول مرض، وعند انتهاء الحياة نسميه موت، وعدم وجود القوة نقول ضعف.. الخ؛ فجميع هذه النواقص هي عدم ليس له وجود، وللدلالة عليها أو عند الإشارة اليها، جاءت تسميتها بهذه المسميات.

ولكن قد يجول بالخاطر شبهة وهي ان للعقرب والأفعى سماً، وهذا أمر وجودي محسوس، فهل هذا خير أم شر؟ نعم، العقرب والأفعى شر، لكن بالنسبة لنا، أما بالنسبة الى نفس كل منهما، فهما ليسا شراً، بل ان السم هو سلاحهما الذي يحافظ به كل منهما على نفسه، ولكن لما كانت عناصر ذلك السم ومركبات مواده الكيماوية غير متوافقة مع عناصر أجسادنا، يعني هناك تضادد وعدم اتفاق بين عناصر أجسادنا وعناصر مركباته، فمن أجل هذا، كان العقرب والأفعى بالنسبة للإنسان شراً، ولكنهما في الحقيقة خير بالنسبة لهما.

وخلاصة القول انه من الممكن ان يكون شيء بالنسبة الى شيء آخر شراً، ولكنه في حد ذاته خير.

من خلال هذا المفهوم، أي عدم وجود الشر في الوجود، يمكن قلب كثير من المفاهيم القديمة الخاطئة، فالقتل وهو عمل شرير في ظاهره، يمكن استعماله لتحقيق صفتي العدل والرحمة الخيرتين للمجني عليه

وللمجتمع عند إنزال القصاص بالفاعل، فينقلب مفهوم الشر للقتل الى خير. كما يمكن استعمال صفة الظلم الشريرة في إحقاق الحق وكبح جماح الظالم، فينقلب شر الظلم الى صفة العدل الخيّر عند حبس الأشرار. ويمكن استعمال صفة الكذب الشريرة أيضا – وهو أقوى قوة شريرة وأساس جميع الشرور بين الناس – في إصلاح علاقة وثيقة بين صديقين والتقريب بينهما من جديد من خلال الكذب على كل منهما بالقول أن صاحبك يمدحك ويثني عليك في كل مكان أينما جلس. أو يمكن استعمال الكذب في المحافظة على أسرة مهددة بالتشتت حينما تشك الزوجة بسلوك زوجها، إذا تقدم أصدقاء الزوج بالشهادة على حسن سلوكه ووفائه لها. كما أن إفهام الطبيب لمريضه بتحسن صحته رغم تدهورها، يبعث الأمل في نفس المريض ويحسن صحته. وكذب المعلم على تلميذه الكسول وتصوير قدراته الخارقة وذكائه العالي، يساعد في بذل التلميذ جهداً مضاعفاً.

وكذلك الحال بالنسبة لعملية السرقة، فتعريف السرقة الحقيقي، هو أخذ مال الغير بدون حق ودون عمله ورضاه؛ فإذا ردت السلطات هذا الحق الى صاحبه بالقوة ودون رضا السارق أو دون علمه إن كان مسافراً أو غير موجود، فهو عمل ممدوح.

ومن عقوبات جريمة السرقة، السجن، ناهيك عن قطع اليد إذا كانت السرقة مكررة وتضر بالمجتمع ضرارا فادحا، فالسجن بحد ذاته حالة

غير إنسانية، لكنه عقاب لابد منه لزجر السارق وتربيته كي لا يكرر فعلته مرة أخرى، هنا يتحول السجن والعقاب الى عمل ممدوح، وعملية قطع يد السارق في الماضي كانت ضرورية ودواء ناجعا، نظرا لظروف المجتمع آنذاك بين قبائل العرب وعدم وجود مؤسسات السجون ومدارس التربية والإصلاح، بل ان عملية السرقة السيئة كانت تعتبر من المفاخر بين كثير من القبائل، فكان لابد من عقاب شديد لوقف هذا الشر المستفحل.

كذلك إذا أخذنا عملية الهدم، فهي عملية غير مستحبة وتصرّف مرفوض يحاسب عليه القانون إذا حصل نتيجة اعتداء أو انتقام، الا انه عند هدم بناء قديم متهاو لاقامة بناء جديد، هي عملية جيدة ممدوحة.

وهكذا يمكن الاستفادة من جميع مزايا الإنسان وصفاته في مجال الخير حتى ولو بدت في صورتها الظاهرية سيئة. وقس على ذلك.

وقد يعترض أحدهم ويقول إننا نرى علامات الشر لدى صغار الأطفال، ومن أشكالها مظاهر الاعتداء والاستحواذ وغيرها، أفلا يدل هذا على ان الخير والشر يخلقان مع الإنسان؟

ان صفات الإنسان تنقسم الى ثلاثة أقسام، الأولى فطرية تخلق معه وهي خير بتمامها، فليس من المعقول أن يخلق الله فينا صفات شريرة ثم يعود ليحاسبنا عليها، مثلما نرى صفة الأنانية ظاهرة لدى الطفل

الرضيع عندما يبعد طفلا آخر عن ثدي أمه؛ وفي هذه الحالة تشترك الحيوانات مع الإنسان في الصفات الفطرية، إذ تولد معها ولا تتعلمها، مثل الجري عند الحصان والتحليق عند الطيور والسباحة عند الأسماك.

أما القسم الثاني، فهو موروث يأخذها الطفل من طباع الأهل والأجداد إن كانت قوية أو ضعيفة، جيدة أم سيئة، كما في حالات الذكاء والبلادة وقوة الجسم وضعفه.

والقسم الثالث، هو الصفات المكتسبة، وهذه يستحصلها الإنسان عن طريق التربية والتجربة والتعليم، وتعتمد على حالة البيت والمجتمع معاً، كما في حالة الكذب عند الأطفال؛ وفي غالبية الأحيان، يعود سبب هذه الحالة الى جو البيت العام وطريقة تعامل الكبار مع الطفل وردود أفعالهم تجاه تصرفاته، مما يضطره الى الكذب رهبة أو خوفا أو ابتعادا عن عدل يظنه ظلماً. ويعتبر تأثير هذا القسم على سلوك الإنسان، هو الأساس في ظهور شخصيته النهائية.

لقد اهتم علم النفس بهذه الظاهرة وفسّرها على انها مكتسبات أخلاقية من المحيط الاجتماعي والبيئة حتى ولو لم نشعر بها، لأن الطفل يبدأ التعلم وهو في بطن أمه، فإن كانت الأم على سبيل المثال، تطغي عليها الصفات الروحانية، ولد الطفل وفيه ميل نحو هذه الحالة، وإذا كانت تكثر من الإصغاء الى نوع معين من الموسيقى، يولد طفلها

وهو ميال لذلك النوع، وإن كانت تميل الى العزلة والهدوء يولد طفلها وهو ميال الى نفس الأجواء. لذلك ينصح بعض الأطباء النساء الحوامل بالابتعاد عن الانفعالات النفسية والمنغصات ونوبات الغضب لما لها من تأثير سيئ على تركيبات جسدها الكيماوية الذي يؤثر بدوره على سلوك الجنين.. وقس على ذلك في كثير من الأمثلة.

وقد يظن البعض ان الطفل الصغير يتصرف ذاتياً دون تقليد أحد أو التعلم من غيره، والحقيقة انه يتعلم من محيطه، ودليل ذلك الفرق بين هدوء تصرفات أطفال العوائل الجيدة بينما نجد العكس تماما في المجتمعات المتخلفة.

اذن ثبت من كل هذه الأمثلة وغيرها، ان لا شر في الوجود، وكل ما خلق الله خير في خير، فالشر يرجع الى العدم، والعدم أمر غير موجود. فالظلمة هي عدم النور، واذا لم يكن هناك نور فهي الظلمة، والنور أمر وجودي، لكن الظلمة أمر عدمي، وهي حالة انعدام النور. وبهذا تكون جميع الشرور راجعة الى العدم. فالخير موجود والشر عدم.

لقد بقيت هذه المسألة تحيّر عقول المفكرين والفلاسفة منذ قديم الزمان، وحارت الألباب في تفسير معقول متفق عليه يتناسب مع مجريات الأفكار والحياة العملية، فمنهم من يقول (وهذه هي الفكرة المنتشرة والمسيطرة اليوم) ان الخير والشر يخلقان مع ولادة الإنسان،

وان الله هو خالق الخير والشر وموجدهما معاً في هذا العالم، وهناك من يعتقد انهما وجدا منذ الأزل، منذ أن خلق الله آدم ومنذ ان قتل قابيل (قاين) أخاه هابيل، وهناك من يظن ان صفتا الخير والشر وليدتا البيئة والمجتمع وآخرون ينسبونهما الى البيت والوالدين.

ثم جاء العالم النفساني فرويد ليؤيد هذه الأفكار ويقول ان الإنسان ليس خيراً محضاً أو شراً محضاً. انما هو خيِر وشر في آن واحد، ولم يخلق الله انساناً خالصاً من نزعات الخير أو الشر فيه، وهو حائر يندفع في هذه الناحية تارة وفي تلك الناحية تارة أخرى، والصراع النفسي آخذ بخناقه في كل حين.

لقد صنّف هذا العالم شخصية الإنسان الى ثلاثة أصناف: الأنا، الأنا السفلى والأنا العليا.

ومع الاحترام الشديد لرأيه؛ إلا أنه أخطأ في هذا الاستنتاج؛ فحقيقة الإنسان واحدة، إلا أنها تبدو للناظر وكأنها اثنان أو ثلاثة:

1 – العقل، وهو أقوى قوى الروح ويعتبر جزء منها، لهذا لا يمكن فصله عنها.

2 – الروح التي يطلق عليها مجازاً في بعض الأحيان بالنفس. فالروح والنفس، وجهان لحقيقة واحدة؛ فعندما يتوجه الإنسان الى

الصفات الحميدة يصبح روحانيا، فيشبّه بالملاك؛ وعندما يتصف بالصفات السيئة يصبح شريرا، فيشبّه بالشيطان؛ وفي الحالتين يفكر الإنسان بقوة عقله التابعة للروح أو النفس في آن واحد.

ومن صفات الروح الملازمة لها، أي التي لا تنفك عنها .كما هو الحال عند النار، فمن صفاتها اللازمة هي الإحراق؛ وكذلك بالنسبة للشمس، فمن صفات الشمس اللازمة هو الإشراق . أما بالنسبة للروح فمن صفاتها الملازمة هو الرقي والسمو والعلو ورفعة الشأن والتسامي، وهذه الصفات الروحانية ترفع مقام الإنسان الى مصاف الملائكة إذا التزم بها.

أما الثانية أي النفس، فمن صفاتها الميل الى موافقة الجسد في رغباته وميوله؛ فإذا وجد إنسان يتذبذب بين أعمال الخير وأفعال الشر، فما دلالة ذلك إلا عدم كمال أخلاقه ونقص تربيته.

وطالما كان الجسد مخلوق مادي، لذلك نرى الجاهل يتقرب الى كل ما يوافق حسه المادي، وبما أن هذا الحس نابع من حواسه المادية، لذلك نراه يتقرب الى تنفيذ كل ما ترغب به حواسه، فيميل الى الراحة والشبع، لأنهما يحققان مطالب الحواس، وهذا التحقيق يبرز بأجلى صوره عبر الثروة والغنى، لذلك يسعى لتحقيقه إذا كان بدون أخلاق أو تربية أو دين يردعه، ليرضي حواسه المادية الجسدية، وبهذا يتدنى الى

مرتبة أقل من مرتبة الإنسان السوي، أي الى مرتبة الأشرار والمجرمين. أما إذا كان ملتزما بمبادئ الأخلاق والدين، فنراه يبتعد عن هذه التصرفات.

ومن الأمثلة التي نلاحظها على وجود العقل والروح أو النفس، عندما يجلس الإنسان بمفرده يخاطب نفسه ويتكلم معها، فنراه يفكر في شيء، بينما هناك من يناقشه في ذلك ويصحح أفكاره أو يخطئها، فالعقل هو الذي يفكّر ويستنتج، بينما تناقش الروح أو النفس أفكار العقل وآرائه، فإذا كانت مبادئ الإنسان وأخلاقه جيدة، صححت الروح تفكيره وسلكت به طريق الخير؛ أما إذا كانت سيئة، فعند ذاك تسمى نفساً، فتوافقه على أفكاره الرديئة وتدفعه للاقتناع بها وتنفيذها عبر حواس جسده.

ان ما يهمنا من هذه الفكرة، هو ما يترتب عليها من سلوك الأفراد والجماعات، والخطورة تكمن في الاعتقاد بأن الشر هو صفة لازمة للنفس وشيء موجود وكيان مخلوق لا يمكن الفكاك عنه، ومن هذا الاعتقاد نتجت أمور غاية في الخطورة، نأتي على بعض منها:

مثلا، ونتيجة للفكرة المنتشرة بين الناس في وجود الخير والشر معاً منذ خلق الإنسان على الأرض، ظهرت فكرة وجوب رد المعتدي بالقوة والعنف وضرورة الانتقام ورد الصاع صاعين وتجنب العفو والمغفرة،

وكذلك ظهرت فكرة ضرورة وجود المدرسة والسجن معاً جنباً الى جنب، كحلّين ضروريين وملازمين لمتطلبات المجتمع. ان الايمان بوجود هذين النقيضين داخل النفس الإنسانية، هو الذي أدى الى اعتقاد البعض بضرورة إنشاء المدرسة للتربية والتعليم، وفي المقابل ضرورة وجود السجن للعقاب والجزاء لمن تظهر عليه علامات التمرد والاجرام. بل الأكثر من ذلك راح المفكرون يفسرون اندلاع الحروب والمنازعات بين البشر كنتيجة طبيعية لوجود صفتا الخير والشر المغروستان في شخصية الإنسان، وفسرت عمليات القتل والتدمير والاعتداء على انها جزء لا يتجزأ من الحياة الإنسانية باعتباره شيء مفروغ منه. بل تمادى بعض المفكرين الاجتماعيين الى الادعاء بأن الحروب والقتل والدمار ووجود الشر هو من ضروريات وأسس تقدم البشرية؟!

يقول أحد علماء الاجتماع، ان التنافس والتناحر والتباين بين أفراد المجتمع وطبقاته تؤدي الى الحركة الاجتماعية التي تدفع بالمجتمع الى الأمام. ولا نريد القول أنه قصد ذلك حرفياً، بل نترك له مجالاً للتملص والتراجع عن حرفية مقصده؛ فمن المؤكد انه قصد بهذا، التنافس والتباين الفكري الإيجابي الخيّر الشريف الذي يؤدي الى هذه النتائج، وليس الحروب والمنازعات والقتال التي هي من صفات الحيوان وشأنه.

لنضرب مثلا على هذا المفهوم الجديد، سبق ان ضربنا مثلا شبيها له في مكان آخر، ونرى هل بالإمكان تغيير الفكرة المنتشرة بين علماء الاجتماع، أو إيجاد بديل أحسن منها؟

لو ان عائلة جيدة التربية مثقفة متدينة لها عشرة أولاد بذلت جهدا كبيرا في تربيتهم وتعليمهم أصول الدين ومخافة الله وحب العلم والخير ومساعدة الناس، فمن الطبيعي ان نسبة الصالحين ستكون أكبر من الطالحين عند نضوجهم. ولو افترضنا عائلة أخرى كان الوالدان فيها سيئين ولصّين فاسدين ولهما من الأولاد نفس العدد السابق، وببلوغ الأولاد مرحلة النضوج، فمن المؤكد ان نسبة الجيدين ستكون أقل من نسبة الطالحين. وعلى هذا الأساس تقاس المجتمعات عموما؛ فلو كانت نسبة العوائل الجيدة أكثر من نسبة العوائل السيئة، فمن المؤكد ان المجتمع سيكون جيدا، والعكس صحيح.

لا يمكن الجزم الآن ان نتائج الأمثلة السابقة صحيحة مائة بالمائة، لكنها لتقريب الفكرة، لأن هناك من يقول بخروج أبناء سيئين من عوائل جيدة في بعض الأحيان، والعكس وارد ايضا. وما مرد ذلك إلا لعدم تطبيق التربية والتعليم بشكل جيد في المجتمع لعدم وجود مناهج تربوية صحيحة، ولانتشار موروثات الأفكار السيئة داخل المجتمعات في الوقت الحاضر، مما يؤثر حتما على ظهور نسبة سيئة من الأبناء

حتى في أرقى وأفضل الأنساب، فتأثير المجتمع كبير في تربية الأجيال.

المهم في هذا الموضوع ان صفتا الخير والشر صفتان يكتسبهما الإنسان بعد الولادة من البيت أو المجتمع، والسبب: ان الإنسان مخلوق روحاني في جسد مادي من صنع الله. وبما ان الله خير مطلق، لذا لا يمكن صدور سوء منه (معاذ الله).

ان التربية هي صفات مكتسبة، فمن تربى على شيء شب وشاب عليه، فالطفل مثل عجينة يشكلها الصانع كيفما يشاء، يعني كيفما يغذي الوالدان أبناءهم من تعليمات، ينشأ الأولاد عليها، وهذه حقيقة لا جدال فيها اتفق عليها الجميع. فلو أحسن المجتمع تربية أجيالهم بمناهج ومبادئ حسنة جيدة، لوجدنا بالضرورة جيلاً جيداً، وهذا الجيل يأخذ بالتحسن يوما بعد يوم، فبازدياد نسبة الجيدين بعملية مطردة، ترجح نسبة الصالحين في المجتمع، وبالتالي، وحتى لو افترضنا جدلا، وجود نسبة ضئيلة من الطالحين، فستنحسر هذه النسبة في دائرة ضيقة محدودة لا يمكنها التأثير على المجتمع بشكل واضح، وبمرور الأجيال وتعاقبها، تأخذ نسبة الأشرار في الاضمحلال حتى تنتهي، بينما تزداد في المقابل نسبة الصالحين.

يمكن تشبيه الإنسانية جمعاء بالإنسان الفرد، فكما يمر الفرد في مراحل الولادة والطفولة والصبا والمراهقة والشباب والرجولة والشيخوخة وأرذل العمر. كذلك مرت الإنسانية منذ خلقها بمراحل الولادة والطفولة والصبا والمراهقة، لكنها اليوم تدخل مرحلة النضوج والرجولة بدليل الفرق الشاسع بين حالة البشر المتقدمة في هذه الأيام وبين ما كان عليه قبل قرن أو اكثر، ففي المرحلة الحالية يمكن للأفراد الاعتماد على النفس، كما يمكنهم فهم الحق من الباطل والصالح من الطالح والصحيح من الخطأ وغير ذلك من الأمور التي يحتاج فيها الإنسان لاستعمال عقله للتمييز.

ورب سائل يسأل: كيف نثبت ان الإنسان دخل في مرحلة النضوج الفكري؟ والجواب: لننظر الى تاريخ البشرية، فمنذ حوالي القرن وما قبله كانت نسبة التعليم والتربية قليلة ومنحسرة الانتشار، ونسبة الجهل والأمية كانت كبيرة حتى بين المجتمعات الغربية، وهذه النسبة تزداد وتتسع كلما توغلنا في التاريخ قدماً حتى نصل الى العهد الذي لم يوجد فيه من يعرف القراءة والكتابة إطلاقا.

اذن بمرور الوقت وتقدمه وتدرج الإنسان في مراحل تطوره، وبظهور الحاجة الى الكتابة وظهور معلمين أو أنبياء علموا الناس هذا الاختراع الفريد (الكتابة)، ثبت ان القراءة والتعليم والثقافة لها دور إيجابي في تطور الإنسان مع مرور الزمن وزيادة نسبة التقدم، وهذا لا يختلف عليه

اثنان، ومن المؤكد ان نسبة المتعلمين قد بدأت بواحد وصارت أثنين ثم زادت وكبرت حتى وصلت الى هذا اليوم الذي فهم فيه الإنسان الحاجة الماسة للتربية والتعليم، فأسس المدارس والمعاهد والكليات، واهتم بالتعليم والتثقيف بل وشرع قوانين إلزامية التعليم في الدول المتقدمة. هذا بالإضافة الى أن البشرية راحت تطالب بأهداف ومبادئ لم يسبق لها معرفتها من قبل ولم تخطر لها على بال، مثل حقوق الإنسان وحريات الفكر والتعبير والكتابة والقراءة والمعتقد، وتطالب بحقوق المرأة والطفل والأجنّة والعامل والفلاح وضرورة المحافظة على البيئة في جميع أنحاء الأرض ونبذ العنف والقتال والابتعاد عن الحروب وضرورة الاهتمام بتحسين الحالة الاقتصادية للفرد وتوفير العناية الصحية والتعليمية للجميع، والمحافظة على مصادر المياه؛ كل ذلك يؤكد ان الإنسانية دخلت مرحلة جديدة من النضوج الفكري والروحاني لم تفكر بها ولم يسبق لها دخولها من قبل.

لكن الحالة في السابق كانت كالتالي: بما انه لم يكن في المقدور نشر الكتابة والقراءة على ما هي عليه اليوم لأسباب تقنية واقتصادية وجغرافية، كان لابد من ظهور أعداد قليلة من المتعلمين مهما قل عددهم لقيادة الناس نحو المستقبل، فجاءت الحاجة لتخرج أولئك الذين اعتمدت المجتمعات عليهم في قيادتها خلال تلك العصور الغابرة، مثل السحرة والعرافين وغيرهم، ثم تطور الوضع وبرزت الحاجة الى رجال

الـدين، وعلـى أكتـاف هـؤلاء وضـع وزر تعلـيم النـاس وقيـادتهم نحـو المستقبل، وبتقدم الزمـان وتطـوره زادت نسـبة رجـال الـدين وزادت نسـبة المتعلمين؛ حتى جاء يومنا هذا الذي أصبح فيه التعليم والثقافة مسألة ضرورية لابد منها، ففتحت المدارس وشيدت المعاهد وتأسست الكليات وظهر من ينادي بمبدأ التعليم الإجباري، وبهذا وجدت الحكومات نفسها مضطرة للسعي في هذا المجال ومنافسة غيرها من الأمم.

اذن من هذا التسلسل التاريخي نفهم ان الناس في مجاهل التاريخ كانوا بحاجة الى من يقودهم ويعلمهم ويرشدهم وينير لهم طريقهم، وكان هذا أمراً حتمياً وضرورياً، وكانت كل أمة لاحقة أكثر علماً وأكثر عددا فـي رجـال الـدين مـن الأمـة السـابقة؛ حتـى جـاء هـذا اليـوم الـذي بـدأ الإنسـان يعتمـد فيـه علـى نفسـه فـي التعليم والثقافـة والتـدين، وبهـذا قلّـت نسـبة الحاجـة الـى رجـال الـدين الـذين كـانوا العصـب الرئيسـي فـي ذلـك الزمـان، وقـد قـاموا بـدورهم آنـذاك خيـر قيـام (جـزاهم الله خيـر الجـزاء)، فدورهم كان واضحا مشهودا وضروريا في المجتمع عندما كان التعليم مفقودا والجهل مستشرياً، اما اليوم فلم تبق حجة لأحد ليتعذر بها ويبتعد عن تعاليم دينه ويرمي بكامل المسؤولية على أكتاف رجال الدين، فالكل مـتعلم ويمكنـه قـراءة كتابـه السـماوي بنفسـه والتفقـه فيـه ومعرفـة واجبـه وفروضـه وتمييـز الحـلال مـن الحـرام والحـق مـن الباطـل ومـا عليـه مـن واجبات وما له من حقوق.

ان العجز في تحقيق العدالة الاجتماعية وخلق المجتمع الجيد الفاضل سابقا، ليس دليلا على استحالة تحقيقه في هذا اليوم. فعدم وجود الاختراعات بكل أشكالها وأنواعها في السابق على سبيل المثال، لم يكن دليلا على عدم إمكانية وجودها في هذا اليوم، وانتشار الأمية والجهل في السابق لم يكن دليلا على عدم إمكانية نشر العلم والتعليم والثقافة، وعدم وجود التقنيات الحديثة والصناعات المتطورة في السابق لم يكن دليلا على استحالة إيجادها الآن. ومن كان يتصور في الماضي وحتى وقت قريب ان الإنسان يمكنه الانطلاق في الفضاء بمركبات فضائية والمشي بأقدامه على تربة الأفلاك؟ ومن كان يتصور ان الإنسان سيتمكن في لحظات من معرفة ما سيحدث ويستجد من أخبار البشر في أنحاء الأرض عبر وسائل الاتصال والأقمار الاصطناعية؟ لقد كان ذلك ضربا من ضروب المستحيل والخيال، لكنه كان مخفيا في عالم الغيب واصبح مع تقدم العلم حقيقة واقعة.

فعندما نفكر بإيجاد مدينة فاضلة ومجتمع فاضل بعد ان نضجت العقول وتوسعت المدارك، ونفهم ان الشر عدم غير موجود، وما ظهوره بين الناس إلا نتيجة لسوء التربية وانحسار القيم الأخلاقية، يمكن التنبؤ بثقة ان ما هو صعب ومستحيل اليوم يمكن تحقيقه وايجاده غدا. واذا تيقن العلماء من فكرة عدم وجود الشر، وان الخير هو الأصل وهو الوجود الحقيقي، وعند فقدانه يسمى عدمه شراً، يمكن قلب مفاهيم

متداولة كثيرة غاية في الأهمية بين شعوب العالم ومجتمعاته، وبهذا ترتفع وتسمو فكرة التربية والتعليم وتصبح هدفاً بين الناس وبين المسؤولين والمفكرين، فإن تمسكوا بهذا المفهوم الجديد وهذا الهدف السامي، اختفى وزال ما هو موجود من الشرور بين شعوب الأرض.

ولنتصور عالماً بشرياً على الأرض يسبح في الخير ويخلو من الشرور والآثام والاجرام والحروب، والجميع فيه أفرادا وحكومات يساعد بعضهم بعضاً ويتعاضدون لإيجاد قوانين متينة تحمي حقوق جميع الناس وتضمن سعادتهم. عندها ستنمحي الدوافع لبناء السجون والمعتقلات والمعسكرات وتنتفي الحاجة الى التدريب العسكري والاستعدادات للحرب وتختفي عمليات التجسس والاعتداءات الفردية والجماعية والتشاحن والتباغض بين الناس وتقل نسبة الضرائب وتتحسن الحالة الاقتصادية والأمنية وتقل مصروفات السلاح الرهيبة الباهظة الأثمان، ويعم الأمن والأمان بين البشر.

عندها تصل البشرية الى مقام **(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)**[1] ويتبدل وجه الأرض ويعم الرخاء ويتحقق مفهوم **(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)**[2]، فيتعايش الناس وتزول الاختلافات فيما بينهم ويعيش خروفهم مع ذئبهم وثعبانهم مع صبيهم وبقرتهم مع أسدهم. وهذا هو هدف كل الرسل والأنبياء ومن جاء بعدهم من رجال الدين والعلماء والمفكرين ودعاة الإنسانية ومحبي السلام العالمي.

إن هذا الهدف السامي العزيز، أي إرساء دعائم السلام العالمي بين البشر بمختلف قبائلها وشعوبها، لابد وأن يتحقق في يوم من الأيام القادمة مهما كان بعيدا، فهو مرحلة ما بعد الحرية والديمقراطية، فطالما فكر فيه الإنسان وتصوره فسيتحقق، فلم يسبق أن فكر الإنسان بفكرة جديدة أو هدف من الأهداف، إلا وحققه في النهاية، وكما قلنا إن الفكرة تبدأ من الفرد ثم تنتشر الى الجماعة.

فلنغير وجه الأرض ونلبسها حلة جديدة تليق بانسان اليوم وتتناسب مع قدراته وقده اللطيف. ويا حبذا لو ان شمس هذه الفكرة الرحمانية العظيمة تعود لتشرق من شرقها الأصيل من أفق العقول المنيرة التي طالما سطعت بأفكارها النيّرة وآرائها السديدة، حتى يعود سهم بوصلة الأخلاق والتربية والعلم والمعرفة الى سابق اتجاهه وموقعه.

الحواشي

1 – سورة التين الآية 4.

2 – سورة إبراهيم الآية 48.

الفصل الثالث عشر

الشيطان وحقيقته!

ورد في لسان العرب صفحة 237 في معنى الشيطان: *{إن أصل الكلمة من شطن: الشَّطنُ: الحبل، وقيل: الحبل الطويل الشديدُ الفتل يستقى به وتشد به الخيل، والجمع أشطان. ووصف أعرابي فرساً لا يحفى فقال: كأنه شيطان في أشطان. وشطنته أشطنه إذا شددته بالشطن. وفي حديث البراء: وعنده فرس مربوطة بشطنين؛ الشطن: الحبل، وقيل: وهو الطويل منه، وإنما شده بشطنين لقوته وشدته. ويقال للفرس العزيز النفس: إنه لينزو بين شطنين؛ يضرب مثلاً للإنسان الأشر القويّ، وذلك أن الفرس إذا استعصى على صاحبه شده بحبلين من جانبين، يقال: فرس مشطون. وبئر شطون: ملتوية عوجاء. وحرب شطون: عسرة شديدة. وبئر شطون: بعيدة القعر في جرابها عوج. ورمح شطون: طويل أعوج. وشطن عنه: بعد. وأشطنه: أبعده. وفي الحديث: كل هوى شاطن في النار؛ الشاطنُ: البعيد عن الحق، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره كل ذي هوى، وقد روي كذلك. وشطنت الدار تشطنُ شطوناً: بعدت. ونية شطون: البعيد. ونوى شطون: بعيدة شاقة. والشطن: مصدر شطنه يشطنه شطناً خالفه عن وجهه ونيته. والشيطان: حيّةٌ له عرف. والشاطن: الخبيث.*

والشيطان: فيعال من شطن إذا بعد فيمن جعل النون أصلا، وقولهم الشياطين دليل على ذلك. والشيطان: معروف، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان. وتشيطن الرجل وشيطن إذا صار كالشيطان وفعل فعله. وقيل: الشيطان فَعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق. وتشيطن الرجل: فَعل فِعل الشيطان. قال الزجاج: وجهه أن الشيء اذا استقبح شُبّه بالشياطين فيقال كأنه وجه شيطان وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يُرى، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رُؤي لرَؤي في أقبح صورة؛ ومثله قول امرئ القيس: أيقتلني، والمشرفي مضاجعي؛ ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟ ولم تُر الغول ولا أنيابها، ولكنهم بالغوا في تمثيل ما يستقبح من المذكر بالشيطان وفيما يستقبح من المؤنث بالتشبيه له بالغول، وقيل: كأنه رؤوس الشياطين كأنه رؤوس حيّات، فإن العرب تسمي بعض الحيّات شيطاناً، وقيل: هو حيّة له عرفٌ قبيح المنظر؛ وأنشد لرجل يذم امرأة له: عنجرد تحلف حين أحلف؛ كمثل شيطان الحماط أعرفُ. قال: وقد تسمى الحيّة الدقيقة الخفيفة شيطاناً وجانّاً على التشبيه. وفي الحديث: إن الشمس تطلع بين قرني شيطان؛ قال الحربي: هذا مثلٌ، يقول حينئذ يتحرك الشيطان ويتسلط فيكون كالمعين لها، قال: وكذلك قوله ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم إنما هو مثل أي يتسلط عليه فيوسوس له، لا أنه يدخل في جوفه، والشيطان نونه أصلية؛ قال أمية يصف سليمان بن داود

عليهما السلام: أيما شاطنٍ عصاه عكاه؛ ثم يُلقى في السجن والأغلال. قال ابن بري: ومثله قول الآخر: أكلَّ يومٍ لك شاطنان؛ على إزاء البئر ملهزان؟ ويقال أيضا: إنها زائدة، فإن جعلته فيعالا من قولهم تشيطن الرجل صرفته، وإن جعلته من شيطَ لم تصرفه لأنه فعلان؛ وفي النهاية: إن جعلت نون الشيطان أصلية كان من الشطنِ البعد أي بعد عن الخير أو من الحبل الطويل كأنه طال في الشر، وإن جعلتها زائدة كان من شاط يشيط إذا هلك، أو من استشاط غضباً إذا احتد في غضبه والتهب. وفي الحديث: الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركبٌ؛ يعني أن الانفراد والذهاب في الارض على سبيل الوحدة من فعل الشيطان أو شيء يحمله عليه الشيطان، وكذلك الراكبان، وهو حثٌّ على اجتماع الرفقة في السفر.} ا.هـ.

كان لابد من معرفة أصل كلمة الشيطان للدخول في هذا البحث، حيث أن كثير من الناس يعتقدون بوجود هذا المخلوق الخارق المرعب، ويؤمنون بتأثيره الفعال الكبير في إغواء البشرية على ارتكاب أعمال الرذيلة والشر، وراح علماء الدين والفقهاء ينسبون كل أسباب الشرور في الأرض إليه، واتخذوا منه شمّاعة لتعليق كل أسباب الجرائم والأعمال السيئة عليه، وما يزيد هذا الاعتقاد ترسيخاً، ورود ذكر هذا المخلوق في الكتب السماوية. وبالمناسبة، سنأتي على ذكر الشيطان مرة أخرى عندما نتطرق الى قصة آدم وحواء في فصل آخر.

لقد أثبتنا في الفصل السابق عدم وجود الشر وإمكانية إزالة فكرة وجوده الوهمية من عقول البشر من خلال تربية الناس وتعليمهم سبل الخير وحسن المعاملة والتحلي بالأخلاق الفاضلة. فبالبديهة والمقارنة يمكننا القول انه لا وجود لموجدها (الشيطان)، أو على الأقل لا وجود لتأثيره على البشر، فهناك الكثير من الناس من لا يعتقدون بوجود الشيطان ومع ذلك يعيشون حياة طبيعية لا تشوبها شائبة. فطالما ان مفهوم الشر هو عدم بحت وخيال واه ووهم صرف، اذن فوجود الشيطان موجد الشر هو عدم صرف أيضا.

لنناقش هذا الموضوع نقاشاً علمياً ودينياً عسى ولعل أن نخرج بشيء جديد يساهم في تنوير العقول والقلوب حتى نرجع النتائج الى أسبابها الحقيقية. فكما يحتمل ان للآيات والقصص الإلهية معانٍ خفية عديدة، فكذلك يحتمل ان يكون لهذا الموضوع مفهوم جديد!

قبل كل شيء، لا يمكن ان يعقل ان الله سبحانه وتعالى، وهو الحق والخير كله، وخلقه كله خير في خير، قد خلق مخلوقاً شريراً بحتاً بهذا الشكل الخطير؟! وكيف يمكن الاعتقاد انه خلق مخلوقاً يوسوس في صدور أعز مخلوقاته (الإنسان) ويدفعهم لارتكاب الشرور، ثم يعود ليحاسبهم ويقتص منهم ويعذبهم أشد العذاب؟! إننا بهذا الاعتقاد الخاطئ، نعطي هذا المخلوق الشرير قوى خارقة رهيبة تستطيع تخريب معظم النفوس المؤمنة الطاهرة والقلوب النقية، وندعم رأي القائلين

الـواهم: أن الشـيطان هـو المنتصـر علـى إرادة الله، بـدليل كثـرة انتشـار الشرور في الأرض؟

نعوذ بالله من هذا الظن الخاطئ، ومن هذا التفكير الساذج! كيف يجوز لمخلوق مصنوع من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، مثل الشيطان، ان يفعل كل هذا التدمير والتخريب بمخلوقاته الأخرى؟! والله الرحمن الرحيم الجبار المنتقم اللطيف الحكيم، يقف متفرجاً على نتائج أعماله ولا يمـد يـد العـون والمسـاعدة لخلقـه وعبـاده ويتـركهم لتـدبير أمـورهم بأنفسهم وهم على الدرجة الضعيفة من العقل والإرادة؟ ان هذا المنطق هو غاية في عدم المعقولية ويخالف جميع أشكال المنطق السليم. فهل مـن العـدل والإنصـاف الإلهـي أن يخلـق الله سـبحانه وتعـالى خصـمين متباينين تماماً في القوى والقدرات الذاتية ويتركهما ليتواجها على الدوام، أحدهما ضـعيف جداً والآخر جبار مرعب؟ إن مثل هذا المنطق بعيد جداً عن مقام الحضرة الإلهية الرحمانية المقدسة.

من هذا يمكن احتمال وجود تفاسير أخرى أدق لمعنى هذا المخلوق الشرير توضـح أمره وتبينـه بصـورة تقبـل بهـا العقول والقلـوب والأرواح السليمة المؤمنة.

فلو افترضنا ان كلمة (الشيطان) هو اسم من أسماء البشر القدماء أو رمز لشخصية شريرة قديمة تركت في زمانها أكبر الأثر في نفوس

الناس كعلامة فارقة في تاريخ الشر والإجرام، ثم راحوا يضربون بها المثل في ارتكاب الشرور، فأصبحت جزءاً من التاريخ وعرفاً من الأعراف وشيئاً من التراث، وسيبقى الناس يرددون هذا الاسم وينسبون إليه أسباب شرورهم حتى يكتشفوا زيف هذا المعتقد عندما أن تتطور عقولهم وتنضج أفكارهم. ولا عجب في ذلك، فالقدماء اتخذوا لهم أسماء غريبة كثيرة اختفت أو تطورت ألفاظها فيما بعد ولم تعد تستعمل في هذه الأيام، وليس ببعيد عنا بعض أسماء فراعنة مصر، مثل: أخناتون، مينا، خوفو، خفرع، منقرع، أمنوحتب، حتسبشوت، كليوباترا..الخ؛ وكذلك ما كان يستعمل من غريب أسماء السومريين والآشوريين في العراق القديم مثل نبوخنصر، سنحاريب، آشوربانيبال، عشتار، جلجامش، أنكيدو.. وغيرها الكثير؛ إضافة الى عادات وأعراف ومسميات ولغات تبدلت وتطورت كثيرا بل واختفت ولم تعد تستعمل مع مرور الزمن، مثل اللغة المسمارية والسنسكريتية والارامية والسريانية والكلدانية والانباطية والأنبارية والحميرية.. الخ.

إذن علينا أن لا نستغرب أن يكون أسم الشيطان الذي ورد في القرآن الكريم وغيره من الكتب السماوية، واحداً من هذه الأسماء التي ظهرت في قديم الزمان واتصفت بصفات القوة والجبروت والظلم والخبث وغيرها من الصفات الشريرة المنبوذة، ثم تداولها الناس عبر الزمن، فتحول اسم هذا الكائن الى رمز مطلق للشر والشرور، كما هو الحال

مع أسماء شخصيات مماثلة مثل: النمرود وفرعون وأبو جهل وهولاكو جنكيزخان.. وغيرهم ممن يزخر التاريخ المعاصر بذكر جرائمهم.

إذن لو افترضنا أن كلمة (الشيطان) هو اسم من الأسماء القديمة لرجل شرير عادي بجسد وروح مثل بقية البشر، ظهر في زمن سيدنا آدم(ع)، وناصبه ودعوته العداء ووقف في وجهه وراح يؤلب الناس عليه ويصدهم عن الايمان بدعوته، شجعه في ذلك تردي حالة المجتمعات البدائية القديمة المجبولة على العنف واستعمال القوة والعناد والتعصب والجهل آنذاك، فاستفحل أمر هذا الرجل الشرير وترك أثره في التاريخ كأول رمز للكفر قام بمواجهة أول رسول، فراح يضرب به مثلاً.

ومع مرور الوقت وانقضاء العهود بقيت ذكرى هذا الاسم وأصبحت كلمة (الشيطان) مرادفة لمعنى الكفر والاعتراض والشر والرذيلة لدى أهل ذلك الزمان وأحفادهم. وبما ان الكتابة لم تكن قد اخترعت بعد، لم يسجل التاريخ للأجيال التالية الكثير عن تلك الشخصية الشريرة لتتعرف على حقيقته، ولا عن ديانة وتعاليم وكتب أولئك الرسل القدماء الذين ظهروا قبل اختراع الكتابة، الا ما ذكره الرسل اللاحقون في كتبهم السماوية وأحاديثهم، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)**[1]؛ فبقي اسم ذلك الكافر (الشيطان) رمزاً لأول من كفر بكتاب الله وكلمة

رسوله. وعندما ظهر سيدنا محمد(ص) وجد ان هذا الرمز القبيح ما زال يستعمل بين العرب مثل غيره من المسميات القديمة، فأعاد استعمال هذا المصطلح ونسب إليه جميع الشرور.

ومع مرور الوقت وتغير الأفكار استعمل هذا الاسم في كثير من الأدوار المختلفة الخاطئة وأعطي صفات وقدرات أكثر بكثير من حقيقته، ساعد في ذلك كثرة تفشي الجهل والتخلف بين قبائل العرب وغيرها، حتى وصل الحال الى اعتباره مخلوقاً حياً موجوداً في كل مكان يحارب الله ورسوله والمؤمنين في كل زمان، وأعطي دوراً لا يستحقه، وبهذا وجد هذا المصطلح طريقه الى الأذهان لينسب إليه كثير من الأخطاء التي أثرت وتؤثر بشكل كبير على سلوك الناس ومعتقداتهم، مثلما أمسى الاعتقاد بقوى الجن الخفية والعفاريت وأعمالها الخارقة والحسد وقوة تأثيرها على الناس وكذلك غيرها من المسميات التي قتلت روح التحدي والتفكير والإبداع عند الإنسان، فنسبت اليها الكثير من الأحداث الاجتماعية التي كانت بأمس الحاجة الى حلول علمية وفكرية مجدية وليس الى أوهام أدت الى التكاسل والخمول والانعزال، وأصبح الناس يلبسون ملابس العجز والخذلان والخنوع في مواجهة العديد من المستجدات والتحديات العصرية الضرورية ويرتضون بواقع الحال والمسكنة والذلّة لاعتقادهم ان هذه الوقائع مفروضة عليهم ومستحيلة الحل، بل ودفعت بالمفكرين والعلماء والفلاسفة الى التقوقع

والعجز والتردد في محاولة فهم هذه الأمور على حقيقتها، مخافة ردود فعل العامة والغوغاء تجاههم، وامتنعوا حتى عن محاولة مواجهتها، باعتبارها نوعاً من أنواع القدر اليقين المحتوم الذي لا بد من وقوعه ولا ينفع معه أي حلول مهما كان نوعها.

وهناك احتمال آخر لمعنى شخصية الشيطان، فلو قلنا ان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من "جسد مادي" و "روح غير مرئية"، وهذه الروح لها خاصية عجيبة، يطلق عليها بعض الناس لتعريفها اسم "الضمير" أو "الوجدان" أو كما كان يسميها القدماء "الصوت الإلهي في الإنسان". فلو اتصلت هذه الروح الإنسانية بالله ورسله وكلماته وآياته وعملت الأعمال الخيرة الصالحة يساعدها في ذلك نقاء المجتمع ودرجة تقدمه، ارتفعت وسمت بصاحبها الى مصاف الملائكة الأخيار، ولو بعدت عن الله وأوامره ورسله وأنبيائه وعملت ما يشتهيه الجسد المادي من رغبات حيوانية وأعمال شريرة، نسبت الشيطان.

من خلال هذا، يمكن فهم معنى من معاني شخصية الشيطان. فلو قلنا أن الروح والنفس الإنسانية هما وجهان لعملة واحدة، وعندما تنجذب الى الله والدين والأخلاق والروحانيات والأعمال الطيبة، تصبح روحاً رحمانية، فتوصف مثل ملاك؛ أما إذا ابتعدت عن الله واتجهت لمخالفة أوامره وسننه وكتبه، في هذه الحالة تنجذب الى الأعمال السيئة الرديئة

الشريرة، فتوصف مثل شيطان. أي ان الإنسان باستطاعته ان يكون ملاكاً بأعماله، أو شيطاناً بأفعاله، والخيار متروك له.

وبعبارة أكثر صراحة، يمكن القول ان حقيقة الشيطان هي نفس الإنسان المبتعد عن الله الذي يفعل ما يشاء ويحلو له من أفعال شريرة سيئة.

من هذا يمكن معرفة جواب السؤال العويص المحير، كيف يكون الشيطان موجوداً في كل مكان ومع كل إنسان في وقت واحد؟ وكيف يتمكن من إغواء آلاف الناس في لحظة واحدة؟ فهو لا ينقسم ولا يتعدد ولا يتكاثر، ليتوزع ويستوعب كل هذه الأعداد من البشر، انه مع المسلمين ومع النصارى واليهود ومع غيرهم يغوي من يشاء، وفي جميع القارات وفي كل جزيرة وعلى كل جبل وفي كل واد.

اذن، ألا يمكن ان يكون هذا الشيطان هو (النفس الأمارة بالسوء) الموجودة داخل كل إنسان، وهي التي تغويه وتقوده الى أفعال السوء والرذيلة، فنطلق عليها مجازاً اسم (الشيطان)؟ لأن النفس الأمارة تحمل بالضبط كل الصفات المنسوبة الى الشيطان، فهي لا تحتاج الى الانتقال والتنقل مع أفراد البشر ومصاحبتهم أينما حلّوا ورحلوا، لأنها حالة خاصة موجودة داخل كل واحد منهم، وبهذا يمكن تعليل استطاعة

(الشيطان) أي شيطان النفس الإنسانية الأمارة بالسوء، إغواء كل فرد من الناس في وقت واحد.

هذا هو الشيطان الذي يلاحق البشر ويكون مع كل واحد منهم في كل زمان ومكان، يصحو وينام معهم، يعيش ويخرج ويدخل معهم، يفكّر ويخطط معهم، ويبعد بهم عمن يشاء ويقربهم الى من يشاء، انه النفس الإنسانية الأمارة بالسوء، انه (شيطان النفس).

وبالرغم من كل ما ينسب الى الشيطان من قدرات خارقة وقوى عجيبة، وبالرغم من اعتقاد غالبية المجتمعات به على مختلف المستويات، نستطيع القول ان الشيطان هو حالة تمثل ضعف روح الإنسان وتقهقر إيمانه بالله وقدرته القاهرة، وهو نوع من الميول والتوجه نحو أفعال الشر والرذيلة يمكن التغلب عليها من خلال التمسك بالله وبتعاليمه وأوامره وبالتربية السليمة والأخلاق الحميدة. أي يمكن وبشيء من الإصرار والثقة بالنفس وفهم الدين بشكل صحيح، إضعاف هذه الحالة الوهمية وتحجيمها وتصغيرها الى أبعد الحدود، فلا يصبح لها تأثير واضح على الإنسان، كما هو الحال عند أتقياء المؤمنين. أما إذا بعد الإنسان عن الله وتعاليمه وأحكامه وقلَّ مستوى الايمان لديه وزادت نسبة جهله واعتقاده بالقصص الخرافية وحكايات الأوهام، كبر وتضخم حجم هذه الحالة (الشيطان) وأصبح لها دور كبير عليه.

من هذا يمكن فهم أهمية التمسك بالله وأوامره ونواهيه، فهو الدواء الناجع الوحيد الذي يسجن هذا المارد العفريت (الشيطان) ويقيده في قمقمه بسلاسل العلم وحبال الأيمان الصحيح. والعجيب ان هذا الشيطان (النفس الأمارة بالسوء) لا يموت إلا بموت الإنسان، ويحيا معه طوال حياته، فهو مثل النار، كلما زاد حطب أوهامها، كلما كبرت وتسعّرت حتى تلتهم الأخضر واليابس من أعمال الناس وأفكارهم السليمة، ولا يحجمها ويحدها ويصغرها، إلا أكسير التمسك بأوامر الله والعلوم الصحيحة المنورة. وعندما تبدأ هذه النفس الأمارة بالضعف والاضمحلال، تصغر الى أقل من القليل، ولا يكون لها تأثير واضح على من ينكرها ولا يتعقد بوجودها؛ لكنها مع ذلك، تبقى جذوة نار خفية تحت رماد النفس، وبذرة سوء في صخرة النفس الإنسانية، وحالما تضعف النفوس في مواجهة فكرة ما أو عمل معين أو موقف محدد أو حالة مستعصية، يصب عليها وقود القوة وينزل عليها زيت الحياة، فتعود خلال لحظات الى سابق قوتها لتلتهب وتصبح ناراً هائلة مستعرة داخل القلوب والعقول، فتخرج مثل مارد جبار يغوي صاحبه الى أعمال السوء بكل الوسائل.

ان صعوبة فهم هذا الموضوع فيما مضى، مهد للاعتقاد بما هو منتشر الآن من مفاهيم خاطئة حول ماهية الشيطان. ولقد ورد في التاريخ الإسلامي مثل مقارب يوضح الفكرة بصورة أخرى. فلقد ورد ذكر

رجل غامض مشهور يدعى عبد الله بن سبأ، يهودي من أهل اليمن، أمه حبشية، نسب إليه المؤرخون كثيراً من أسباب الفتن والأحداث الغريبة التي غيرت مجرى تاريخ صدر الإسلام، حتى ان بعضهم اعتقد ان الشيطان كان متجسدا بشخص هذا الرجل. الا ان بعض المؤرخين مثل الدكتور طه حسين والدكتور علي الوردي، يعتقدون ان هذه الشخصية هي محض خيال في عقول الناس، لأنهم اعتادوا على نسبة الأحداث الغامضة الى شخصية مجهولة قوية كما يحصل مع شخصية الشيطان. فهذان العالمان لا يؤمنان بوجود مثل هذه الشخصية العجيبة الغريبة في التاريخ الإسلامي.

يقول الدكتور علي الوردي:- *[ان الأعمال العظيمة التي تنسب الى عبد الله بن سبأ لا يمكن ان يقوم بها الا عبقري أو ساحر أو منّوم مغناطيسي من طراز فذ. فهو لا بد ان يكون ذا عيون مغناطيسية تكسر الصخور أو ذا قوة نفسية خارقة تجعل الناس أمامه كالغنم يتأثرون بأقواله من حيث لا يشعرون. ومن المدهش ان نجد المذاهب الإسلامية على اختلاف أنواعها تؤمن بحكاية ابن سبأ وتبني عليها كثيرا من آرائها. ولست أجد في التاريخ حكاية وهمية تروج وتبقى على توالي الدهور مثل هذه الحكاية السخيفة. ولعل هذه الحكاية قد لاءمت أغراض جميع المذاهب فتمسكوا بها وأخذوا يستندون عليها في كل وجه]*[2].

[ان عبد الله بن سبأ موجود في كل زمان ومكان. فكل حركة جديدة يكمن وراءها ابن سبأ. فإن هي نجحت اختفى اسم ابن سبأ من تاريخها وأصبحت حركة فضلى. أما إذا فشلت فالبلاء نازل على رأس ابن سبأ.. وانهالت الصفعات عليه من كل جانب. ان ابن سبأ لا يهدأ على كل حال. فهو دائب ينتهز الفرص في كل سبيل. وما دام الظلم موجوداً فان كل إنسان يُحتمل ان يكون سبئياً – والعياذ بالله][3].

في ختام هذا الموضوع، يمكن استخلاص نتيجة جديدة، قد يكون فيها بعض الصحة والدلالة، وهي ان الشيطان كان إنسانا عاش في قديم الزمان، وكان ذا وجود حقيقي، وكان رمزا للشر والأعمال الشريرة، ثم مات وانتهى جسدياً، بينما بقي اسمه رمزاً لأعمال الشر.

كما يمكن أن يكون معنى الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس أيضا، هو شيطان النفس الإنسانية الأمارة بالسوء الموجودة لدى كل البشر، وان كل ما ينسب إليه من أعمال شريرة وجرائم وآثام وسرقات وقتل وتصرفات بغيضة، مردها الى نقص الايمان والتربية أولا، والتعليم ثانيا، وسوء الحالة الاقتصادية والحاجة الشديدة التي تدفع بالناس الى الاستهانة بالعقوبات القانونية الجزائية ثالثا. فلو انتبه رجال الدولة والسياسة وعلماء الاختصاص الى أهمية دور التربية والتعليم وأهمية تحسين الحالة الاقتصادية للمجتمع، فسوف يتحسن الحال الى درجات لا نحلم بها في الوقت الحاضر، ويتقلص كثيرا دور مارد (الشيطان)

داخل جميع المجتمعات ومن المحتمل ان ينتهي تماما.

الحواشي

1 – سورة غافر 78 .

2 – كتاب وعّاض السلاطين للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية – 1995 – دار كوفان – لندن – صفحة 111 .

3 – نفس المصدر السابق ص 115 .

الفصل الرابع عشر

الجن والعفاريت

ينقلنا فصل الشيطان السابق الى موضوع شبيه مقارب له، وهو موضوع الجن الذي يؤمن بوجوده ويصدقه غالبية معتنقي الديانات وكثير من المثقفين والمتعلمين على مختلف درجاتهم وطبقاتهم.

وقبل كل شيء، نود معرفة ما قاله كبار علماء اللغة العربية في معنى كلمة الجن، وما هو أصلها، وهل تتفق مع كل ما يروى عن هذه المخلوقات الغريبة. فلقد ورد في كتاب لسان العرب صفحة 92 عن معنى كلمة الجن: *لجَنَّ الشيء يجنّه جنّاً: ستره. وكل شيء سُتر عنك فقد جُنَّ عنك. وجنَّه الليل يجنّه جنّا وجنوناً وجنّ عليه يجنُّ، بالضم، جنوناً وأجنه: ستره؛ وفي الحديث جَنَّ عليه الليل أي ستره، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه. وجنّ الليل وجنونه وجنانه: شدة ظلمته وادلهمامه، وقيل: اختلاط ظلامه لأن ذلك كله ساتر؛ ويروى: لولا جنون الليل أي ما ستر من ظلمته. واستجنَّ فلان إذا استتر بشيء. وجن الميت جنّاً: ستره. والجنن، بالفتح: هو القبر لستره الميت. وهو الكفن. وأجنه: كفنه. جننته في القبر وأجننته أي واريته، وقد أجنه إذا قبره؛ وأجنَّ عنه واستجنَّ: استتر. وسمي القلب جنانا لأن الصدر أجنه؛ جنَّ عينٍ أي ما جنَّ عن*

العين فلم تره؛ والجنين: الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه، وجمعه أجنّة وأجنن، باظهار التضعيف، وقد جنَّ الجنين في الرحم يجنُّ جنّاً وأجنته الحامل.} ا.هـ.

من خلال ما سبق، يتضح أن من معاني كلمة الجن، هو كل ما كان خفياً ولا تشاهده العين، مثل: الجنين، القلب، الليل، المدفون، وكل ما هو مستور. وبهذا يمكن التوصل الى مصدر هذه الكلمة وشيء من معناها ومن أين بدأت.

إن سألت شخصاً ما: من أين جاءك الاعتقاد بوجود الجن، وهل رأيته وتثق بوجوده؟ فسيجيبك: انه مذكور في كتبنا المقدسة، وان فلانا رآه وتكلم معه وهو رجل ثقة لا يكذب؛ وعندما نسأل فلانا عن الموضوع، يقسم أغلظ الايمان انه شاهده في الظلام وكان يتقافز هنا وهناك، ويجزم أنه لا يمكن ان يكون إلا جنياً أو عفريتاً لسرعة ظهوره واختفائه. هذا إذا كان الرجل ساذجاً؛ أما إذا كان نصاباً مدعيّاً فسوف يسرح بأفكارك حتى تملّه وتتركه لحال سبيله.

أما بالنسبة لورود اسم الجن في الكتب المقدسة، فهذا أمر صحيح وكلام حق لا ريب فيه والكل يعلم بذلك ويؤمن به، ولكن وكما ثبت ان من معاني الشيطان هو النفس الإنسانية الأمارة بالسوء، وكما ثبت ان الشر هو عدم وجود الخير، كذلك يمكن القول ان مفهوم الجن يخضع

لتفسيرين أو احتمالين، فإما ان يكون له وجوداً معنوياً أو وجوداً مادياً، فاذا كان معنويا، فلابد انه موجود في عالم الغيبيات أو عالم الأرواح وليس في عالمنا المادي الذي نحياه ونعيش فيه، يعني انه موجود في عالم آخر، عالم يخضع لمقاييس غير مادية. وبما ان لله تعالى عوالم لا أول ولا آخر لها، وان الله سبحانه وتعالى غيب بحت لا يمكن التفكر به أو تخيله أو معرفة أي شيء عنه، بل كل ما يعرفه العباد عنه هو بعض صفاته التي تتجلى على مخلوقاته ولا غير، لذا يمكن الاستنتاج من هذه العقيدة انه لا يمكن معرفة عدد مخلوقاته ايضا، ولا يمكن معرفة عدد عوالمه التي خلقها، وكل ما يعرف منها لحد الآن هو أربعة عوالم فقط، هي: عالم الأصلاب في ظهور الرجال، وعالم الأرحام في بطون الأمهات، والعالم المادي الذي يحياه الإنسان الآن في هذه الدنيا، وأخيرا عالم الآخرة الذي ننتقل إليه بعد الممات، وحتى هذا العالم الأخروي (العالم الثاني) لا يعتقد بوجوده جميع الناس! لكن السؤال هو: هل هذه هي فقط جميع الكائنات المخلوقة التي خلقها الله ولا يوجد سواها؟ والجواب: بالطبع لا. لأنه إذا عرفت جميع مخلوقات الله عرفت قدراته، واذا عرفت قدراته حددت قوته، وهذا هو المستحيل والكفر الصريح.

أما بخصوص وجود الجن مادياً، فليس لدينا أي دليل مادي غير ما يتناقله الناس من حكايات وروايات تنقصها الدلائل العلمية الملموسة،

مثل الادعاء برؤية جنيّ أو عفريت، ومن الوارد جداً ان يكون ناقل هذا الإدعاء شخص قد اشتبه عليه الأمر وظن انه رأى مخلوقا غريبا فأخافه وأرعبه واعتقده جنّي، أو من المحتمل ان يكون الرجل مصابا بنوع من أنواع الأمراض العقلية بدرجة من درجاتها المتعددة، وما أكثرها في هذا الزمان، فاليوم وبعد ان تطور العلم وأخذت الأمور تقاس بالأجهزة المعقدة الحديثة، تمكن علماء النفس والطب من معرفة وتحديد أنواع كثيرة من الأمراض العقلية والنفسية التي لم يسمع بها من قبل، كما وثبت أن للأمور المعنوية التي يعتقد بها بعض الناس ومن بينها الاعتقاد بالجن والعفاريت، تأثيرات مادية تظهر على شكل أمراض أو حالات هلوسة وتهيؤات تفرز تصرفات ومواقف ذات توجهات سلبية مرضية تنعكس على تصرفات المصاب الشخصية، فعلى سبيل المثال، هناك أمراض نفسية عديدة لم يتمكن الطب منها بشكل تام حتى الآن مثل انفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) والجنون والملاخوليا والتخلف العقلي والقصور الذهني وغيرها من الأمراض التي تصيب الدماغ، والتي لا تظهر أعراضها بوضوح على الشخص المصاب لتكشف مرضه العقلي أو النفسي، مما يجعل الناس يظنون انه رجل سوي سليم لا عيب في سلوكه، بينما هو خاضع لتهيؤات لا يشعر بها غيره ويعتقد اعتقادا جازما انه يرى حقائق لا شائبة عليها.

ان الاعتماد على أقوال شخص يدعي رؤيته لمخلوقات غريبة في ظلمة الليل أو في الأماكن الخالية أو الخربة أو في المقابر هو موضوع يخضع للتأمل والتفكير، فغالبية من يرى هذه المخلوقات هم من بسطاء الناس والجهلة وأنصاف المتعلمين، ولم نسمع بعالم وقور أو مثقف معروف أو رجل دين تقي، ادعى مثل هذا الادعاء الركيك. فإذا سلمنا بوجود هذه المخلوقات جدلاً، فهي لا تخضع للمقاييس المادية حتى يمكن رؤيتها بالعين المجردة أو الشعور بها ببقية الحواس، لأنها مخلوقات غيبية تخضع لقوانين أخرى خاصة بعوالمها.

أما ما يفعله بعض الدجالين من سحر وشعوذة ومن حركات وتلفظ بكلمات غريبة غير مفهومة واستعانتهم بأنواع الأنوار الملونة وأضوية الشموع ونشر الروائح والعطور والبخور والحركات السخيفة الممجوجة، فما هو الا لإضفاء نوع من الجو الخيالي المناسب للسيطرة على ذهن الضحية طالب العون المسكين، خاصة وانه بمراجعته لمثل هؤلاء الدجالين، يكون قد هيأ نفسه وعقله مسبقاً للايمان بما يقولونه ويفعلونه واعتقد بوجود هذه الأمور وما يوحيه إليه المشعوذ بحركاته وكلماته، وعندما يدعي المشعوذ بوجود جني يجب إخراجه من رأسه أو من جسمه، أو ان هناك من سخّر جنياً لإيذائه ومعاقبته، فهو يصدق ذلك على الفور، فإذا شفي من مرضه لسبب ما، زاد اعتقاده بهذه الخرافات، اما إذا استفحل مرضه، زاد ايمانه بوجود جني قوي يرفض الطاعة

والخروج، وبالتالي يتمكن المشعوذ من ابتزازه كيفما يشاء. ان للإيحاء النفسي والتنويم المغناطيسي وجهل المريض وسذاجته وخبرة وذكاء المشعوذ دورا كبيرا في نشر وتصديق مثل هذه القصص الخرافية.

ونعود لنتسائل، ألا يمكن أن تكون كل هذه التهيؤات نابعة من موروثات جاهلية قديمة قدر لها البقاء والاستمرار في عقول الناس أكثر من غيرها من الموروثات؟ فنحن نصف في بعض الأحيان شخصا بأنه جني لسرعته أو لأدائه بعض الأمور بدقة متناهية أو بسبب نشاطه غير العادي، فنقول ان هذا الرجل مثل جنّي. ومن الطريف أن نتذكر أن أهل اليمن ما زالوا حتى اليوم يستعملون هذه الصفة فيما بينهم ويتنادون بها؛ لذا فهي لم تأت من فراغ، حيث تدعم استمرارية بقائها قوتين مؤثرتين، هما التراث والدين، وقد سبق وقرأنا ما فعله الجن مع سيدنا سليمان(ع) في قصته مع ملكة سبأ، وبما إننا نؤمن بما جاء في الذكر الحكيم، لذا فقد يكون لهذه القصة وغيرها دوراً كبيراً في استمرارية الاعتقاد بهذه الأمور، والتسليم بوجود مثل هذه المخلوقات الغيبية.

لكن وبما ان للقصص المذكورة في الكتب السماوية معاني كثيرة لا يمكن سبر غورها . كما سنأتي على ذلك في فصول قادمة . لذلك فمن الوارد ان يكون لمعنى الجن مفهوما آخر بقي مخفياً عن عقول الناس بانتظار ان تترقى عقولهم ويكتشفون ذلك بأنفسهم.

لـذلك لـو افترضـنا ان جـان سـيدنا سـليمان(ع) مـا هـم الا رجـال عاديين، وانهم كانوا ينفذون ما يأمرهم به سيدهم بمنتهى السرعة والدقة، ونتيجة لذلك أطلقت عليهم صفة الجان. لو نظرنا الى الموضوع من هذه الناحية لسهل وازداد وضوحاً. اما ما ذكر من قصر مدة التنفيذ ووصفها بلمح البصر، فهو من قبيل المبالغة اللغوية، فكثيرا ما نصف عمل أو حالة ما بمثل هذه التعابير. فلو ذهب زيد وعاد بسرعة، لقلنا انه سريع مثل البرق، فهل كانت سرعته كذلك؟ ولو أردنا وصف صحة عمر، قلنا ان صحته مثل صحة الحصان، فهل هذا الوصف دقيق؟ ولو وصفنا أخلاق شخص، قلنا انه مثل الملاك، فهل هو ملاك؟ وكذلك حماسة علاّن مثل النار؛ وصبر سمير مثل أيوب، ونظر سهى مثل زرقاء اليمامة، ووليد طويل اللسان، وعين فلان وقحة أو مالحة أو يده طويلة.. وغير ذلك من الأوصاف الاستعارية العديدة التي نستعملها مجازا.

إن النظر الى الآيات الكريمة بمنظار جديد، قد يفتح أمامنا أبواب أخرى لمعنى من معاني كلمة الجن. فقد ورد في سورة النمل الآيات 38،39،40، قوله تعالى (قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ..).

فقد سبق وذكرنا ان لسيدنا محمد(ص) مقام عظيم عند رب العالمين، فهو سيد المرسلين والمصطفى المختار والمرتضى المجتبى وحبيب الله وغير ذلك من الأوصاف الحميدة التي لا تعد ولا تحصى. ونتسائل: كيف يتفق ان تكون لسيدنا سليمان(ع) كل هذه القوى الخارقة ليتمتع بها وينشر بها دينه، بينما يحرم منها سيدنا محمد(ص) ويترك في مواجهة الأعداء ويتعرض لكل أنواع الأذى والمهانة، إذا لم يكن لكل هذا معنى آخر؟

فإذا علمنا ان من معاني عرش الملكة، هو ما كانت تستند عليه في حكمها من أسس أحكام شريعتها القديمة وأعمدة علوم دينها السابق؛ وان جميع البشر والأقوام في قديم الزمان، كان لهم ديناً إلهياً، ومن الوارد أن يكون لقوم هذه الملكة دين سماوي قديم، وان ما نراه اليوم من تغيير لحقائق الأديان القديمة عائد الى قدم العهد ومرور الزمان الذي أثر على مفاهيمها الدينية بالتدريج فغير حقائقها وأظهر البدع والخرافات فيها.

ولو تذكرنا أن أفراد حاشية الملك سليمان، لابد وأن يكونوا من العلماء والفقهاء والفضلاء وأولوا السطوة؛ فلقد ورد في لسان العرب ما يؤيد ذلك في معنى كلمة الملأ: (والملأ: الرؤساء، سموا بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليه. وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع الى قولهم).

لذلك لو قلنا ان من معاني (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ) أي قال رجل من أشد أتباع سيدنا سليمان(ع) نشاطاً وحركة وإيماناً وعلماً وإطلاعاً بعقائد الناس ومذاهبهم (أَنَا آتِيكَ بِهِ) أي أنا أبلغك وأشرح لك سرّ معتقدها الذي تستند عليه في دينها والذي يعتبر العمود الأساس في حكمها وشريعتها وجوهرة معتقد قومها. فنستنتج أن هذه الملكة كانت من ذوات الاطلاع والتبحر في شؤون دينها، وإلا لما استطاعت حكم قومها، (قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) أي سأشرح لك ذلك بكلمات مختصرة وبسرعة كبيرة، وسأنهي مقالتي وتوضيحاتي قبل موعد انفضاض مجلسك هذا (وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) أي فأنا على سابق علم ومعرفة بدينهم وحقيقة شريعتهم، وسأكون أميناً في التبيين والتوضيح وأشرح مكامن الضعف والقوة دون زيادة أو نقصان.

(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ) نلاحظ هنا أن الكلام عن علم الكتاب، ومن الوارد أن يكون المعنى، علم كتاب شريعة الملكة وقومها. أي قال مؤمن آخر من الذين عرفوا السر الإلهي في تسلسل الأديان والحقيقة الربانية في سبب توالي الرسل والرسالات، ومن المطلعين على أسرار كتاب هؤلاء القوم، ومن المحتمل أنه كان من المؤمنين بدين الملكة من قبل ثم تحول للايمان بدين سليمان (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) أي أنا أستطيع ايجاز الموضوع بكلمتين اثنين: (أنهم مشركون).

ان كل هذه المسميات ما جائتنا من فراغ، بل هي كنايات وصلتنا من الأجداد والأسلاف، ونحن ما زلنا نستعملها في تخاطبنا، ولقد ورد في القرآن الكريم في سورة الإسراء آية رقم 89 ما يؤيد ذلك، في قوله تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا).

ودليل آخر حول مفهوم الجن: فلو كان هذا المخلوق الغريب موجوداً وجودا ماديا محسوسا كغيره من الأشياء ويمكن إخضاعه والتعامل معه كما يدعي البعض، فلماذا لا يسخرونه لخدمتهم، ولماذا لا يستفيدون منه قبل غيرهم؟ مثلا ان يدلهم على كنز مدفون أو ثروة مفقودة، أو يستعملون هذه القوة لخدمة أنفسهم بدلا من سلوك سبيل الضحك على البسطاء وسلب أموالهم وممتلكاتهم بل وحتى سلب شرفهم في بعض الاحيان! وان كان لهذه المخلوقات دور حقيقي، فلماذا لا يبتكر هؤلاء الأدعياء آلة علمية جديدة تساعد في تقدم العلم والمجتمع أو ابتداع دواء يشفي ما ينتشر بين الناس من أمراض مستعصية؟ بل لو كان لديهم حقيقة مثل هذه الإمكانيات وهذه القدرات وتقديم مثل هذه المساعدات، لسبقت شعوبهم بقية الأمم الأخرى بأشواط كبيرة في شتى المجالات العلمية والروحانية والفكرية، واستطاعوا اختراع أجهزة علمية دقيقة واكتشاف أسرار الطبيعة والكون، ولوفدت عليهم الأمم من كل حدب وصوب طلبا للمساعدة واكتساب العلوم.

إن النظر الى هذا الموضوع بشكل أكبر وأوسع، يمكن أن يعطي منظوراً أشمل يفصح عن بعض الحقيقة بصورة أجلى، فلو كان الأيمان بهذه المخلوقات الغيبية له تأثير فعال كما ينتشر بين البعض، لما بقيت قبائل أواسط أفريقيا والهنود الحمر وقبائل استراليا وشعوب أمريكا الجنوبية الى زمن قريب في نهاية قعر جدول التقدم الإنساني، فهم كانوا وما يزالون يؤمنون بوجود هذه المخلوقات مثل غيرهم بل وبصورة أشد وأقوى.

لا نريد القول ان هذا الكائن (الجن) هو وهم وخيال، ولكن يمكن القول انه مخلوق من عالم آخر غير عالم البشر لا يمكن الاتصال أو التواصل معه بالطرق المادية بأي شكل من الأشكال أو بأي طريقة من الطرق، لأنهم خلقوا من طينة أخرى غير طينة البشر.

(الباب الرابع)

الفصل الخامس عشر

نظرة على بعض القصص القرآنية

من بين أعقد الأمور التي أُشكل فهمها على أصحاب الديانات ومن بينهم المسلمون على مر الدهور وفسحت مجال الجدال والنزاع والتفرقة والتكفير واستباحة الدماء التي لم تغلق أبوابها حتى اليوم، موضوع تفسير الآيات الإلهية المتشابهة، أي الآيات التي تحتمل أكثر من تفسير أو معنى، فرغم وجود المجلدات والكتب والمراجع الكثيرة التي امتلأت بها المكتبات، فما زال يظهر المزيد منها، والعجيب ان كل من أدلى بدلوه في هذا المجال، ختم حديثه بعبارة (والله أعلم)، وهذه تعني ان المفسر غير متأكد من رأيه وأنه أضاف تفسيرا جديدا الى ما وجد من تفاسير، ولم يزد في عطائه المتتبعين والباحثين وطالبي الحقيقة سوى رأي فوق رأي؛ والغريب ان هذه التفاسير لم تقف عند حد معين، بل تعدتها لتدخل مجالات الحياة المختلفة حتى أصبحت من أعقد أسباب الاختلاف حتى بين أصحاب المذهب الواحد، وحار الناس بمن يقتدون ومن يتبعون، فالكل يدعون الايمان والإدراك وانهم أصحاب الطريق الصحيح والمُثل العليا، أما غيرهم فعلى باطل. ولو سألت أحد

المتحذلقين عن مذهبه؟ لأجاب ابتعادا عن الإحراج وسداً لباب النقاش: كتاب الله وسنة رسوله. والحقيقة ان هذا الجواب تختلط فيه سياسة مبهمة، لأن الجميع يعتقد بكتاب الله وسنة رسوله ويؤمن بهما، ولو كان هذا هو الحل، فمن أين ظهر كل هذه الاختلاف والتكفير بين أهل الملل والمذاهب والعقائد المختلفة؟ وفي الحديث الشريف المتفق عليه دليل على صحة ما حدث **(انقسمت أمة اليهود الى سبعين فرقة، وانقسمت أمة النصارى الى إحدى وسبعين فرقة، وستنقسم أمتي الى اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار ما عدا واحدة)**[1]. والغريب ان هذا الحديث يتقبله الجميع ويتفق عليه، لكن كل واحد منهم ينسب إشارته الأخيرة الى مذهبه.

تنقسم التفاسير الى ثلاثة أقسام، الأول يتناول الآيات على معانيها الظاهرية، أي ان المفسر يرتكز في تفسيره عن حدود معاني الكلمات الظاهرية، فيعتمد على درجة فهمه للغة العربية وقواعدها ومعانيها وسبب نزول الآية، وهذا النوع من التفاسير هو السائد اليوم بين غالبية المذاهب. لكن هذا الميزان غير دقيق كما أسلفنا في فصل سابق، لأنه يعتمد في مبدأه على قوة العقل في إدراك معنى الآية، وطالما كان الإدراك فرع من فروع العقل ومرحلة تالية له، وطالما ثبت أن أولوا الألباب يختلفون في فهم نصوص الآيات كل حسب قوة عقله، وأن

العقول النيرة تختلف في درجات الفهم، إذن لا يصح الاعتماد على قوة الإدراك تماما، فلابد ان يعتريها شيء من الضعف أو الخطأ.

والقسم الثاني من المفسرين، هم أولئك الذين يبحثون بين سطور الآيات ومعاني كلماتها الخفية ويتدبرون الغاية من نزولها، فيركزون على معانيها الباطنية معتمدين على قوة عقولهم وإدراكهم في البحث والتنقيب. ومع ذلك، فهذه الطريقة لا تنجيهم من الوقوع في الخطأ، إذ ينطبق عليهم نفس المقياس السابق، لأن ميزانهم هو العقل والإدراك.

أما القسم الثالث، فهو الأقل وقوعاً في الخطأ من الفئتين السابقتين، وهؤلاء يحاولون تطبيق مفهوم معاني الكلمات الظاهرة على معانيها الباطنة ليدركوا منها كل حسب قدرته العقلية قدراً مقدورا مما أراد الله سبحانه وتعالى من علوم وحِكَم، وهم أقرب الى العقل والمعقولية في فهم النصوص من غيرهم. ولكن مع الأسف الشديد، فمثل هؤلاء المفسرون قليلون جداً وبعيدون عن العامة، لأنهم يتكلمون بمفاهيم راقية يصعب إدراكها وفهمها حتى بين مدعي العلم، لذلك راحوا يتكلمون بطرق مختلفة وإشارات خفية حفاظا على حياتهم وابتعادا عن الاحتكاك بغيرهم، بل تمادوا أحيانا حتى ألبسوا كلماتهم حللا لا يفهمها إلا من كان من طينتهم.

لذلك سندخل هذا الباب متكلين على الله وعلى عقول رجال هذه الأمة النيّرة، وسنختار بعض القصص الدينية القديمة التي تتردد على ألسنة الناس ولم يخطر على بال بعضهم حتى محاولة التفكير في مفهوم جديد لها، فأصبحت قصصا بسيطة مسلم بمعانيها تدرس لصغار الطلاب في مراحلهم الابتدائية.

ان الأفكار التي تمس صميم العقيدة والإيمان، هي من أخطر الأمور وأجلها، وبمجرد ان يقرأها الجاهل المتعصب ويجد فيها ما يخالف فكره أو معتقده، يرعد ويزبد، ويطعن ويلعن، فكم من فكرة راقية سليمة وئدت عند أول ولادتها ووئد معها قائلها، فخسرت الأمة بذلك سببا من أسباب رقيها ورفعتها.

ان حرية الفكر والتفكير من أسمى مبادئ الحرية والديمقراطية، فان كانت الأفكار المطروحة جيدة سليمة، استفاد المجتمع منها، وان كانت غير ذلك، كفاها تصدي المفكرين والعقلاء لها تصدياً فكرياً عقلانياً ليدحضوا بطلانها بالحجة والمنطق **(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)**[2].

ان ارتفاع الأصوات في جميع أنحاء العالم ومطالبتهم بوحدة الجنس البشري وضرورة نبذ وسائل العنف والقوة والإرهاب والمطالبة بحقوقهم وتصوير الأرض كقرية صغيرة والبشر سكانها، ليست سوى أدلة واضحة على دخول البشرية مرحلة تاريخية جديدة لم تعهدها من قبل.

فإن نوقشت هذه الأفكار وطرحت على بساط البحث والتقصي، فمن المحتمل أن يكون لنتائجها دور إيجابي للمساهمة فيما يجري من تقدم بين بقية الأمم، لأن البشرية لابد أن تصل الى عهد السلام مهما طال الزمن؛ أما إذا رفضتها، فمن السهل أن تهمل وتنسى، كما أشار الى ذلك قوله تعالى **(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ)**[3].

أما أن يدعى انها دخيلة وتمس صميم العقيدة المقدسة، ويجب التصدي لها، فان الديانات الإلهية المنزلة، تعرضت خلال مراحل تاريخها الطويل الى الكثير من الهجمات اللئيمة الشريرة، سواء أكانت فكرية أم دينية أم عسكرية، لكنها بقيت سليمة معافاة نقية، وفي النهاية خرجت من تلك الأزمات متماسكة أقوى من سابق عهدها، (فللبيت رب يحميه)، وما دام الجميع يعتقد بوجود اله خالق جبار، وعد البشر بإنزال العقاب الإلهي على كل من يتجرأ التقول عليه **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)**[4]، فحسبنا هذا التهديد والوعيد الإلهي، وما علينا الا مناقشة كل جديد والتفكر به لاستشفاف الخير للمجتمع.

ان الأفكار الواردة في هذا الكتاب هي محاولة لا يمكن ان ترقى الى ما أجاد به الأعلام الكبار والعلماء الأخيار على مر الزمان، أو بلوغ مستوى ما فعله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما أبطل نصيب "المؤلفة قلوبهم" من الفيء المذكور في القرآن الكريم، وهذا

النصيب كان منصوصاً عليه في الكتاب ولا يجرأ أحد على المساس به، ومع ذلك فعندما أدرك الخليفة الثاني ضرورة التغيير، لم يتردد في إجراءه.

[ولم يكتف عمر بهذه الإهانات التي وجهها الى قريش إذ سلط عليها عبيدها السابقين. انه فعل شيئا اخراً أدهى منه. ذلك انه أبطل نصيب "المؤلفة قلوبهم" من الفيء، وحرم قريشاً بهذا من عطاء كانت تتنعم به في أيام النبي وأيام خليفته أبي بكر. ان نصيب "المؤلفة قلوبهم" مذكور في القرآن ومفروض فيه حيث لا يجوز ان يعبث به عابث. لكن عمر لم يبال بهذا. فلقد نسخ أمراً صريحاً جاء به القرآن احتقاراً لقريش وإضراراً بها. وقال عمر تبريراً لعمله هذا: ان رسول الله كان يعطيهم يوم كان الدين ضعيفاً محتاجاً الى نصرهم، أما اليوم فقد أصبح الدين قوياً لا يحتاج الى تأليف قلوبهم أو استرضائهم. ومن الغريب ان نجد عمر ينسخ آية من القرآن ولا يبالي. ولو فعل أحد مثل هذا الفعل في عصرنا هذا لثار عليه رجال الدين من كل حدب وصوب. إن عمر نظر في ذلك الى مصلحة الإسلام. فهو لم يتقيد بالشكليات أو يتمسك بحرفية الدين كما يفعل أصحابنا من رجال الدين في هذه الأيام][5].

[وهذه رواية أخرى قد تصح أو لا تصح. ولكنها مع ذلك لا تستبعد. فقد وجدنا عمر أثناء خلافته من أحرص الناس على مصلحة

المسلمين، وكثيراً ما كان يخالف أمراً صريحاً جاء في القرآن أو قال به النبي اجتهاداً منه في سبيل الصالح العام][6].

ان الايمان المطلق بقدرات الله سبحانه وتعالى على الإتيان بمعجزات خارقة لقوانين الطبيعة لنصرة أنبياءه ورسله، وكذلك الاعتقاد التام بحقيقة حدوث تلك المعجزات بشكل أو بآخر واعتبارها حوادث تاريخية مادية، لا يمنع من تجديد التفكير والبحث بين مضامينها وأحداثها لاستلهام أفكار ومبادئ جديدة وجوانب معنوية لتفسيراتها، فذلك أفضل من تناولها بطرق تخالف العقل والمنطق السليم أو الوقوف أمامها جامدين لا نلوي على شيء.

فلو افترضنا ان الله سبحانه وتعالى كان يتكلم في الأزمنة القديمة مع خلقه كما يتكلم الأب مع أطفاله الضعفاء، أو كما يتكلم المعلم مع تلاميذه الصغار بلسان سهل وكلمات بسيطة ليشرح لهم مفاهيم صعبة ذات مستوى عال حتى يتم المقصود ويحصل المطلوب؛ لو افترضنا ذلك، لأدركنا ضرورة المحاولة في اعادة فهم حقيقة مثل هذه القصص والاستفادة من عبرها والبحث عن معاني عقلية ودلالات علمية مبتكرة لها، فلابد ان لله مقاصد عديدة ومعاني شتى من وراء تثبيتها وتجديد سردها في كتبه المنزلة كتاباً بعد آخر، ولابد لها من حكم خفية ومقاصد سامية يمكن التوصل الى شيء منها بعد ترقي الإنسان لمراتب عالية في مجال العلم والمعرفة والثقافة وتفهم أمور الدين، كي ننافس بقية

الأمم المتقدمة ونسترجع بعض أولئك المفكرين والعلماء الذين حادوا عن طريق الدين بعدما ظنوه مخالفا لميزان العقل؟

ورب قائل يقول: لماذا نبحث لهذه القصص عن تفاسير جديدة أو مفاهيم حديثة؟ ولماذا لا نأخذها مثلما فعل آباؤنا وأجدادنا، ولماذا نستنكر حصولها، فالله قادر أن يقل للشيء كن فيكون، والتاريخ مليء بقصص المعجزات التي صدرت من الرسل والأنبياء؛ أما الآن، فقد انتهى عهد المعجزات، وما علينا إلا تصديق ما وصلنا من أخبارها، ولن نكون أفضل علماً من أجدادنا، ولن يفيدنا ما سيتجدد من معانيها. إن أفضل جواب لهذا التساؤل هو قوله الكريم **(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)**[7].

ان الدعوة الى إعادة فتح باب التفسير والاجتهاد من جديد، ما زالت تواجه الكثير من المعترضين الذين لا تتوافق هذه الدعوة مع مصالحهم الفكرية والمادية، لأسباب عديدة لا نريد الخوض فيها. لكن المعقول في هذا النداء ان التفسير والتوضيح والبحث والتقصي هو من مستلزمات العقل، والعقل مربوط بخالقه، وطالما ان الله غير محدود، فلابد ان يكون العقل والتفكير غير محدودين أيضا؛ ومن هذا يدرك استمرارية تطور العقل، كما تدل عليه المخترعات العلمية الحالية؛ ولما كان الأمر على هذا النحو، فلماذا يريد البعض تحديد قدرات العقول والقوى الروحية بحدود قديمة عتيقة، بينما أطلقت بقية الأمم لنفسها الحق

والعنان في هذا الميدان، مما نتج عنه كل هذا الفرق الشاسع بين أمم الشرق والغرب؟ ونعود لنتساءل: ألا يمكن الخروج بمفاهيم جديدة لهذه القصص الدينية تتفق مع العلم والدين معا؟

انها محاولة للفهم وليس للاجتهاد، فإن أصبنا فحسنتان، وإلا فواحدة، وإنما الأعمال بالنيات، يدفعنا الى ذلك قوله تعالى **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)**[8]، ودعوة المصطفى عليه السلام **(اطلب العلم ولو كان في الصين)**، و **(أنا مدينة العلم..)**[9]، وما هذا التبجيل والتعظيم لمقام العلم والمعرفة الا لتأثيرهما الفعال في رقي الأمم.

قصة سيدنا آدم(ع)

من بين العديد من قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم وكتاب التوراة، نلاحظ تميّز قصة سيدنا آدم(ع) بنكهة خاصة فريدة. ففي هذه القصة نجد أحداثا غريبة تسرح بالخيال الى أبعد الحدود لتتخطى حدود العقل والمعقول، فما دار من حوار بين الله سبحانه وتعالى من جهة وبين إبليس من جهة أخرى، وما جرى من حوار بين سيدنا آدم(ع) وإبليس، وعملية العقاب الإلهي الجماعية للبشر لسبب يعتبر في ظاهره غاية في البساطة، وغير ذلك من مجريات أحداث القصة، كل هذا يدفعنا لإعادة قراءتها بصوت عال.

ان لقصة آدم(ع) البسيطة في ظاهرها، معانٍ عميقة خفية بحاجة الى كثير من التمعن والتفكير الدقيق، فهي ذات دلالات علمية عميقة وخطيرة، ومن الضروري التأمل بمفاهيمها جيداً، ولولا أهميتها العظيمة، لما حفظها الله سبحانه وتعالى وكررها في كتبه المنزلة كتاب بعد آخر.

ان صياغة أي مثال بصورة صحيحة مجدية، لابد من توافر مقوماته كاملة، مثل الزمان والمكان والشخوص وتسلسل الأحداث، وما ورد في هذه القصة من أحداث ومسميات، رغم قدم عهدها، بقيت معالمها فعالة وآثارها باقية حتى اليوم، كما هو الحال مع الثمرة والشجرة والحية والإنسان والمرأة والخير والشر والسعادة والشقاء، ومن الوارد جدا، أن الله سبحانه وتعالى مطلع وعالم بعلمه الغيبي أن الإنسان سيحاول في يوم من الأيام البحث عن كيفية خلقه وزمن بداية وجوده على الأرض، وبما أنه سيصعب عليه العودة الى ذلك التاريخ الموغل في القدم، وسيعجز عن اكتشافه من خلال تبدل معالم الأرض وطبقات قشرتها، لذلك ترك له هذه القصة الإعجازية لتسهل عليه الاستدلال من خلال أحداثها المختصرة بشكلها العجيب ليستشف منها على بداية وجوده على الأرض وبداية تاريخه، وفي نفس الوقت يستقرئ منها ما يفيده في مستقبله.

فإذا قلنا ان القصة توضح بشكل دقيق تطور مسار البشرية عبر تاريخها الطويل، فهذا أقل ما يقال عنها. فشخصية آدم في القصة،

تمثل (روح) آدم الخيّرة التي تأمره دائما باتباع الخير وعمل الأفعال الطيبة، أي ان آدم يمثل الجانب الخير في الإنسان؛ وان (الجنة) التي جاء ذكرها، تصور العالم الروحاني الأول الخالي من الشرور، أو عالم الخير المحض؛ وان معنى (الأرض) التي نزل عليها آدم بعد خروجه من عالم الخير، هي عالم الحياة المادية وما فيها من أمور الخير وعدمه (الشر)؛ أما معنى (الحيّة) فهي تمثل الدوافع والرغبات النفسية الأمارة بالسوء، وما جاء تمثيلها بالحيّة، الا بسبب طريقة تسللها الهادئة غير المحسوسة الى داخل نفس الإنسان وفكره دون الشعور بإغوائها، فتغريه على عمل الأخطاء والموبقات والنواهي دون ان يشعر بها أو بتأثيرها. أما (الثمرة) فهي تمثيل وتشبيه لطعم ومذاق الأعمال السيئة في بداية تذوقها وما يصاحب ذلك من مشاعر اللذة والزهو والغرور؛ أما (حواء) فهي لا تعني الأنثى أو المرأة على الإطلاق، بل تمثل (نفس) آدم الأمارة بالسوء، أي حالة الاستعداد والجاهزية لفعل السيئات، أي هي القوة المخالفة لقوة الروح الخيرة، التي تدعو صاحبها وتغريه من داخله الى ارتكاب أعمال الشر المضادة لحقيقة روح آدم المتطلعة الى السمو والرقي والترفع عن العالم المادي المليء بالمغريات والمشتهيات.

لو طبقنا هذا التصوير أو التمثيل على جوانب القصة المختلفة وشخوصها، لظهر لها وجه آخر يتقارب في مفهومه مع العقل والمنطق، ويخالف ما دأب آباؤنا وأجدادنا على سرده وتكراره وتناقله من

فم الى آخر، ولأدركنا ان الله سبحانه وتعالى يتكلم بمستوى عال رفيع، عجز عن إدراكه السلف الكرام وأهل الديانات السابقة، لأنه خالق كل العقول ولابد لكلامه من معان كثيرة وعميقة أبعد مراماً وأدق نظراً من تصورات خلقه؛ فطالما انه يتكلم مع البشرية جمعاء بكل عصورها وأجيالها ومراتبها وقدراتها، فلابد ان يكون لكلامه معان عميقة تتناسب مع عقول البشرية مهما تطورت على مرّ الدهور، لذلك قيل ان كلام الله يصلح لكل زمان ومكان، وليس مثل كلام رجال الدين الذي تمليه عليهم ثقافاتهم الوضعية واكتساباتهم الدنيوية، فتخضع للخطأ والصواب والإضافة والاختصار.

عندما خلق الله آدم أي (الإنسان) منذ الأزل، خلق فيه قوة الخير الخالصة الخالية من الشوائب، وبما ان هذا الخلق الجديد هو نفخة أو نفحة من نَفَسْ الله وروحه ومن صنعة يده، فلابد وان أول الخلق كان في البدء خيراً محضاً، أي لا شر ولا سوء في طباعه، لذلك عاش الإنسان الأول عيشة بسيطة بعيدا عن المساوئ والمنكرات وعصيان الله، (وحتى لو افترضنا له هفوات وزلات، فلقد كانت من البساطة التي وجب مسامحته عليها لقلة عقله وضحالة إدراكه).

فمنذ بداية عملية الخلق التي لا أول لها والمغمورة في قدم التاريخ الى الزمن الذي انتبه فيه الإنسان الى المغريات وأعمال السوء، أي الى زمن دخوله مرحلة التمييز، كان مثله مثل طفل حديث الولادة، بريئا في

تصـرفاته وأعمالـه وأفعالـه ولا يحاسـب عليهـا حتـى لـو ارتكـب أفعـالاً مخالفة للعرف والتقاليد وبدت عليها معالم الشقاوة والتمرد، فهو جاهل لا يقصد من وراء تصرفاته نية سوء؛ وهذه المرحلة، مرحلة براءة الأطفال، بدأت منذ الولادة أي منذ بداية الخلق واستمرت لملايين السنين حتى مرحلة التمييز. (راجع الفصل الثالث، بداية وجود المخلوقات على الأرض).

إذن يمكن وصف فترة الطفولة والجهالة غير المميزة بفترة البراءة البشرية (كل البشرية) على الأرض، حيث كانت أعمال البشر على الفطرة وبدون مقاصد شريرة أو نوايا سيئة، وتتمثل في القصة، بأول زمن وجود آدم في الجنة (أي في الأرض) وامتدت حتى نهوض بذرة نفسه الأمارة بالسوء (حواء) من قمقم برائتها، عندما ابتدأ ينتبه الى الفرق بين الأنا والأنت، وبين نحن وهم. هنا راحت النفس الأمارة بالسوء بعد أن كبرت، تغوي الإنسان بالتقدم لأكل الثمرة أي (ارتكاب أعمال الشر)، أي امتد عمر فترة الجهالة حتى فترة التمييز الإنسانية، يعني ان الإنسان كان يعيش في فترة وجوده الأولى على الفطرة الخيّرة، وكان الخير الخالص يعم كل تصرفات البشر، لأن الأعمال بالنيّات، ونيّة الإنسان في ذلك الوقت كانت سليمة، لأنه كان بسيط العقل والتفكير والإرادة والمتطلبات، ولم تكن لديه رغبات مقصودة في السيطرة وحب التسلط والاعتداء والكذب والغش والخداع وحب الذات والرغبات الشريرة

التـي نعرفهـا اليـوم. ولـم تظهـر صـفات الإنسـان السـيئة المقصـودة الا سـاعة موافقتـه علـى قبـول اقتـراح نفسـه الأمـارة (حـواء) بـالاقتراب مـن الرذائل والمنكرات وتذوق طعمها. في ذلك الوقت دخلت البشرية المرحلة الثانية أي مرحلة التمييز بين الأنا والأنت، وبين الخير والشر، والحلال والحرام.

يمكن من هذه الفرضية وهذا المفهوم القول ان حياة الإنسان على الأرض تنقسم الى عدة فترات، أو عدة مراحل، الأولى (فترة الخير المحض) وبدأت منذ بداية أمر الله عز وجل بإيجاد الخلق والتكوين، يوم أمر أمره المبرم القاطع وقال (كن فيكون) فكان الخلق والإيجاد، وتتمثل في القصة ببداية خلق آدم (الإنسان)، واستمرت هذه الفترة حتى بداية فترة التمييز. وهذه الفترة، أي المرحلة الأولى (فترة البراءة) لا يمكن تقديرها بالسنين لطول مدتها.

ثم جاءت مرحلة التمييز التي بدأت نفس الإنسان في محبة ذاتها وتفضيل رغباتها على غيرها، أي حب الأنا ورغبة الاستحواذ والتملك والحسد والتنافس السلبي، كما هو الحال مع الإنسان الفرد. ومن خلال هذه الأنانية راح يستبيح لنفسه حق الاستحواذ على أملاك الغير والاعتداء على حقوقهم وتفضيل نفسه عليهم. وبذلك تعتبر فترة بداية ظهور الأعمال الشريرة بين البشر وتعاملهم بها، هي بداية الدخول في المرحلة الثانية (فترة التمييز) التي بدأت منذ اللحظة التي انتهت فيها

مرحلة الفطرة، حيث بدأ الشر المقصود ينتشر وينمو في نفوس بني الإنسان ويسود تعاملهم، وكان في بدايته فردياً، ثم راح يستفحل ليتدرج مع نمو البشرية بشكل جماعي كلما دخلت مرحلة جديدة من مراحل عمرها التالية ويأخذ شكله المنظم، فمرت بمرحلة الشقاوة والاعتداء وما رافقها من تجاوزات على حقوق الآخرين، ومرحلة التفاعل مع واقع الحياة ومحاولة تفهم حقائق الموجودات، ثم مرحلة التشييد والبناء وظهور الحضارات بمختلف أشكالها البسيطة والمركبة وما رافقها من أشكال التنافس والغزو العشوائي والحروب المنظمة، ترافقها مرحلة تنامي نضوج المتطلبات الجسدية والنفسية، والحاجة الى التعليم والتعلم وظهور الكتابة وبداية اختراع القوانين، فراحت البشرية ترتكب الأخطاء وتتعلم منها، وتميز الخطأ من الصواب والخير من الشر والحلال من الحرام فتتذبذب في مسيرتها بين ممارسة هذا وارتكاب ذاك، حتى وصلت لما هي عليه اليوم من تراكم المعارف والمعتقدات والتقدم العلمي، رافقها في ذلك كثرة الحروب والمظالم وتناوب الثورات الاجتماعية وما نتج عنها من تطور المجتمعات وظهور النظريات.

أما ما توصف به حياة البشر في فترتها الحالية وما تشبّه به، فهي فترة المراهقة، ومن المعلوم أن حياة الإنسان تتسم في هذه الفترة القصيرة بالنسبة لبقية فترات حياته بشدة النشاط وسرعة الحركة وتفجر الطاقات وجودة الاستعداد والقدرة على التعلم وصفة التمرد على الأنظمة

والقوانين ومخالفة العادات والتقاليد ومحاولة التملص من رقابة الوالدين والرقيب والتذبذب بين حالتي الماديات والروحانيات، فكان انعكاس كل ذلك واضحاً على حياة البشرية على مر التاريخ الماضي. في المقابل، امتازت فترة المراهقة البشرية مرة باختراع أشد أنواع الأسلحة فتكاً، وتارة في السعي لاكتشاف أنجع الأدوية والمضادات الحيوية لما ينتشر من أمراض وأوبئة، مرة بتجاهل ما يجري من مظالم بين البشر، وأخرى مطالبته بوقف الممارسات غير الأخلاقية، والسعي الحثيث في طلب العلم والمعرفة، تقابلها فترات بالعزوف عن قوة العقل والتنكر له والاعتقاد بعدم فائدته؛ فكل هذه التناقضات والتباينات هي من معالم فترة مراهقة البشرية التي تمر بها في هذه المرحلة الحالية.

ان كل ما مرت به البشرية من مراحل مختلفة، يبشر بشكل لا لبس فيه استعدادها الحتمي لدخول مرحلة النضوج التالية، أي مرحلة الإدراك والنضوج الفكري والعلمي والسعي الى فعل الخير وتوقف أعمال الشر، وتقييم التصرفات وإدراك سبب تدهور الأحوال الى هذا المستوى الذي لا يتفق مع مستوى عقل الإنسان وقدراته، وعندما ستفهم ان كل ما يشاهد اليوم من انتشار للآثام والمنازعات والحروب والظلم، إنما مرده حصيلة الصفات السيئة والأفكار الخاطئة للنفس الإنسانية (حواء) ورغباتها الجامحة. عندها ستتوقف البشرية عن ممارسة هذه الأفعال غير اللائقة بها، ويبدأ الإنسان (آدم) في الدخول الى عالم الخير مرة أخرى

وتأسيس (جنة) الله على الأرض من خلال العودة الى نداء العقل والروحانيات، فيصحح مساره ويضبط تصرفاته.

لذلك يمكن تفسير كل ما جرى ويجري لتاريخ البشرية من أحداث وتغييرات، إنما هو حلقات متتالية لتطور نموها، وما نعيشه اليوم ما هو إلا حلقة غاية في التعقيد والارتباك نتيجة تراكم خبرات الفترات السابقة والمرور بمرحلتي المراهقة والشباب الطائش التي ستنتقل منها قريبا وتجتازها بقوة العقل الى مرحلة الشباب الناضج المفعم بالاختراعات والاكتشافات السلمية والتطور الفكري والعلمي المجدي لتترجمها الى منجزات عملية مفيدة حتى تنعم بحياتها وترتاح في فترة نضوجها ورجولتها القادمة.

ان عمر فترة المراهقة البشرية قد تطول أو تقصر، وقد تستمر الى عشرات السنين القادمة أو الى مئات، فهذا يعتمد على مجيء لحظة الانتباه والسرعة في النضوج، وعندها ستصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة وتبدع لايجاد غيرها أفضل منها، وتعلم أن الله لم يخلق الشر والشرور، وإنما هو عدم صرف غير موجود، وتدرك أن حقيقة الشر ما هي إلا ابتعاد البشر عن مواكبة التعاليم السماوية، وتتخلى عن فكرة وجود الخير والشر معاً واعتبارهما مخلوقان صنوان لا يفترقان، وان سبب ظهور هذا الاعتقاد الخاطئ هو طول الفترة المظلمة الماضية من عمر البشرية التي استمرت لملايين السنين واستقراء البشرية الخاطئ

لاسبابها ونتائجها، ولاستلاذ البشرية بمذاق (الثمرة) الشهي لجهلها بمعرفة الخير وتمييزه عن مذاق الشر، وأن باستطاعتها الامتناع عن تناول (ثمرة) الشرور، وتفهم سبب استطاعة تلك القلة القليلة من المؤمنين بأديان الله على مر التاريخ في الابتعاد عن هذا المسار الخاطئ، وان ذلك لم يكن بسبب قوة عقولهم وسعة إدراكهم حصراً، بل لشدة ايمانهم وثقتهم بأحقية كلام الله وسلامة قلوبهم وطهارة نفوسهم التي أدت الى ابتعادهم عن هذه المساوئ، كما قال تعالى **(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)**[10].

ويمكن كذلك تشبيه الفترات السابقة من عمر البشرية بالليل الطويل المظلم، وتشبيه المرحلة القادمة التي تقف البشرية اليوم على أعتابها بالنهار المنور المضيء، حيث ستتضح غالبية الأمور المعقدة للبشر وتتفجر الأفكار والعقول من خلال توالي تطور العلوم والمعرفة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسان، الى درجة سيكون فيها مستوى إنسان هذا القرن الذي نعيشه اليوم الى مستواه في المستقبل القريب، كمستوى الجهلة والأطفال بالنسبة للعلماء والمفكرين، وعندها سيعود البشر الى التمسك بعروة الدين والفضائل الإنسانية ويكتشفون توافق وتناغم علوم الأديان التي نادى بها الرسل والأنبياء مع العلوم المادية الصرفة، كما وعد سبحانه وتعالى في قوله الكريم **(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)**[11].

إننا نعلم ان طريقة الله مع خلقه هي امتحان حقيقة إيمانهم على الدوام من خلال إرسال رسل جديدة حتى لو وصلوا في مراتب إيمانهم وتقواهم الى مصاف الملائكة **(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً)**[12]، وذلك لمعرفة وتمييز المؤمن من الكافر والطيب من الشرير، فبهذه الطريقة الإلهية فقط يحتل الإنسان مقامه في العالم الآخر ان كان عالياً أم دانياً، فلما تحركت المشتهيات النفسية الأمّارة داخل آدم الإنسان حال انتقاله الى مرحلة التمييز، وتاقت واشتهت نفسه التقرب من المنكرات والرغبات النفسية التي أمره الله بالابتعاد عنها، وحاول تجربتها بالاقتراب منها وأكل الثمرة نتيجة تسلل رغبته النفسية (الحيّة) بهدوء وخفة الى داخل حقيقته، ونتيجة لجمال الثمرة (الأعمال السيئة) وشكلها الشهي، وبترغيب ودفع من نفسه الأمارة التي سميت (حواء) مجازاً والتي كانت كامنة في داخله بدون حراك، فلما تم نمو هذه النفس الغاوية وكبرت وتمكنت من تحريك سواعد الإغراء ووجدت المقدرة على إغواء آدم بعمل المنكر عن قصد وسابق تخطيط (وهو عصيان أمر الله القاضي بعدم التقرب من المنكرات)، وتسللت إليه كما تتسلل الحيّة بهدوء وخفة دون ان يشعر بها صاحبها، أقدم الإنسان (آدم) على الاستجابة لرغباته النفسية من حواء (نفسه الأمارة)، وانتقل من مرحلة البراءة والنقاء والطهارة التامة والفطرة الخيّرة الى مرحلة الصراع بين روحه ونفسه، فالروح تطالبه بالسمو والرفعة والتمسك بأحكام الله وتدعوه الى أعمال

الخير عبر تعاليم أنبيائه ورسله، والنفس تدفعه الى العصيان وتغويه الى عمل المنكرات، وبقي هذا الإنسان المتمثل بآدم ينحرف تارة الى هذه وأخرى الى تلك، لكن السمة الواضحة الغالبة في هذه المرحلة كانت سيطرة النفس الأمارة على البشر وانتشار الآثام والموبقات، وما حالة البشر المتردية في هذه الأيام الا صورة جلية واضحة لوقوفهم على قمة هذه المرحلة وأوج عنفوانها. لكن لابد لهذه المرحلة من نهاية ولا بد لها من جلاء، وعند انتهاءها ستدخل البشرية المرحلة الجديدة، مرحلة العقل والمعقولية والنضوج والمنطق السليم والاقتراب من الصفات المثلى ووقف المنازعات والحروب وضرورة الاتحاد بين بني البشر وانتشار السلام العالمي والرجوع الى الله والعمل بأوامره ومرضاته.

لكن هذا لا يأتي دفعة واحدة ولا في ساعة واحدة، بل يحتاج الى سنين طويلة وعمل دؤوب شاق، وبعد ان يمر على البشرية زمن قد يطول أو يقصر في هبوط سفح جبل الشرور، وعسى ان يكون هذا النزول سريعا حتى تعود لتبدأ تسلق سفح جبل العقل والأخلاق والمثل والقيم العليا الجديد. والله الحافظ للجميع.

من المهم إدراك معنى انتهاء مرحلة المراهقة الحالية، فهي تشمل كل ما هو موجود تحت جناحها وظلها من قوانين ونظم وثقافات وأفكار ومبادئ وأديان ومذاهب وحضارات. وما انتشار فكرة وجود الخير والشر معاً عند الإنسان التي اعتمدت على أساسها غالبية الديانات والقوانين

الوضعية والشرائع والأفكار والثقافات في صياغة مفاهيمها وقوانينها، الا من إفرازات هذه المرحلة والمراحل السابقة. ومهما امتد زمنها، فلابد ان تنتهي ويضمحل تأثيرها وتدخل البشرية مرحلة العقل والإدراك والرجولة الناضجة والحضارات السامية والعقائد الرائعة والإنسانية المثلى.

لقد كتب الفيلسوف أفلاطون عن المدينة الفاضلة وتصور إمكانية وجودها، وما تنبأ به هذا الفيلسوف لهي نظرة خارقة وعبقرية فذة استطاع من خلالها رؤية إمكانية وجود هذه المدينة إذا توفرت ظروفها، ولقد سبق هذا الرجل عصره بفكرته آلاف السنين، لكن الذي غاب عنه ولم يتمكن من تصوره، ان هذه المرحلة الراقية التي حلم بها، مرتبطة بتطور الإنسانية وتنور عقولها ومفاهيمها التدريجي التي لم تكن قد نضجت في زمانه بعد، ولا بد انه كان ينظر الى نفسه وأقرانه ثم يتصور ويفكر ويكتب ويؤلف، لذلك ترك للأجيال تلك الفكرة الرائعة.

ونحن لا نقول بتأسيس المدينة الفاضلة فقط، فهذا هدف تحقق اليوم بالفعل، فالمدينة الفاضلة موجودة في أنحاء مختلفة من الأرض هذا اليوم، وهناك كثير من المدن، صغيرة كانت أم كبيرة، يعيش أهلها في حالة من السعادة والراحة المادية والهناء والتنعم بالأمن والاستقرار لا يشوب حياتهم أي نوع من أنواع المشاكل والمنغصات، وهي مستمرة على الدوام باستقطاب كبار الأغنياء وميسوري الحال من مختلف بقاع الأرض. لكننا نقول بإمكانية تأسيس الأرض الفاضلة، كرة أرضية

فاضلة، بكل أقوامها ومللها وشعوبها ومجتمعاتها وألوانها وأديانها وثقافاتها وأفكارها ولغاتها، لأن البشرية كما أثبتنا، تدخل في هذا القرن مرحلة الاستعداد لولوج فترة العالمية الفاضلة. فسمو عقل الإنسان وتطور مبادئه وأفكاره وخبرته الطويلة واستعداداته التي لا حدود لها كفيلة بتحقيق كل ذلك.

اذن يمكن استخلاص معنى رائع من معاني هذه القصة الخفية (قصة آدم وحواء)، وهو: أن للإنسانية مراحل مشابهة تماما لمراحل نمو الإنسان الفرد، مثل: الطفولة والبراءة والميل نحو اللعب والمراهقة والتمرد والفوضى والعصيان والنضوج والتعقل. وهذا المفهوم كرر الله سبحانه وتعالى ذكره في كتبه، وحث الإنسانية على إدراك كنهه الخفي الذي حفظه لآلاف السنين بين كلمات آياته، لمعرفته المسبقة وعلمه الغيبي بمقدار عمر البشرية وتسلسل تطورها وعدد مراحلها وحاجتها فيما بعد لتفهمه وتطبيقه في حياتها. وليس المعنى المنتشر الساذج الذي يتكرر على الألسنة دون تأمل معانيه.

قصة سيدنا نوح(ع)

بعد ان اطلعنا على معنى من معاني قصة سيدنا آدم(ع)، وشاهدنا كم هي الأفكار الجديدة التي يمكن استنباطها من أحداثها، ننتقل الى قصة أخرى من قصص الأنبياء الكرام، ألا وهي قصة سيدنا نوح(ع)،

لنتناولها باسلوب جديد ونحاول مطابقتها مع ما يتقبله العقل والمنطق السليم، بعيداً عن ظواهر معاني كلماتها وما يتناقله الناس فيما بينهم من أفكار لا تتفق مع ما وصلت إليه البشرية من تطور وعلوم. وقد سبق وقلنا أن الكلام الإلهي لابد أن يتوافق مع العلم، فهما جناحين لطائر البشرية، بينما أحداث ورموز قصة النبي نوح(ع) لا تتفق مع العقل السليم وما زالت بحاجة الى استنباطات جديدة تخرجنا من مفاهيمها السطحية التي بقينا نتعامل معها بشكل بسيط لقرون طويلة.

لنعتبر السفينة التي كان يصلحها ويعمّرها سيدنا نوح، هي ليست من السفن العادية المكونة من خشب ومسامير وقير وقماش ودفة وأشرعة وسواري وملاحين وقبطان وغير ذلك. فإذا ابتعدنا عن هذه الفكرة المادية القديمة، نخرج بأحداث قصة أخرى مختلفة تماما، وإلا فبقية أحداث القصة القديمة وتفاصيلها المسلية التي يرويها الأهل والأجداد، تثير العجب والاستغراب، حيث يقال انه جمع في سفينته زوج من كل نوع من المخلوقات، ذكر وأنثى؛ ولا يخفى على أحد، كم تحتاج هذه العملية من وقت طويل قد يستغرق سنينا عديدة قبل تحقيقها، كما انها ليست بالعملية السهلة اليسيرة، والحيوانات بحاجة الى علف وغذاء وحراسة ورعاية، بل هي مستحيلة التحقق، إذ لا يمكن حجز جميع هذه المخلوقات وتجميعها في مكان محدد وسفينة واحدة وبينها وحوش كاسرة مفترسة وحيوانات أليفة، بينما سيدنا نوح دائم السفر والتجوال يتسلق

الجبال ويخوض الوديان ويقطع الصحارى والغابات ويمخر عباب البحار ليصطاد ويجمع كل أنواع هذه الحيوانات. ثم انه بهذا العمل الشاق يكون مشغولا تماما عن هدفه الحقيقي الذي ظهر من أجله وأمره الله به، ألا وهو تبليغ أمر دينه للناس ودعوتهم للايمان به. فهو ليس صياداً للحيوانات والوحوش ولا رحالة أو مستشرق يعلم بأنواع الحيوانات وأصناف الطيور، بل نبياً يبحث عن طرائد العقول المنورة والقلوب السليمة.

من هذه الزاوية الجديدة، يمكن أن تكون قصة سفينة نوح المشهورة بين الناس، قصة إلهية مجازية عميقة المعاني، يراد بها شيء آخر، وليست سفينة عادية ركابها حيوانات وملاحيها مؤمنين وربانها نبي من عند الله.

لنفترض ان معنى السفينة هو (الديانة أو الشريعة)، ديانة وشريعة سيدنا نوح(ع)، ولنفترض أن عمله وجهده في إعمارها وبنائها وتشييد هيكلها، هو حركته الدائمة وانشغاله المستمر في تبليغ الناس أمره المبارك وتجميعهم للركوب على متنها، ولنفترض ان الأرض أو الأراضي التي كان يبني فوقها سفينته، هي أراضي قلوب الكفار والملحدين والمشركين بالله الواحد؛ وبمعنى آخر، هي أراضي قلوب قومه المترسخة فيها جذور أشجار العقائد القديمة البالية وأعجاز نخيل

إلحادهم بجذورها الممتدة في أعماق قلوب آباءهم وأجدادهم منذ مئات السنين، وبيوت عقائدهم العتيقة المبنية من خيوط أوهامهم العنكبوتية.

فلقد حاول هذا النبي تعمير بناء سفينة دينه الحق بكل الوسائل الممكنة بين قومه وراح يبلّغ الناس الديانة الجديدة لعدة سنين ويدعوهم لركوبها، مرة بالمحبة والترغيب وأخرى بالتحذير والترهيب، تارة بالوعود الإلهية الجميلة، وحيناً بتذكيرهم بالدنيا وملذاتها الخادعة، وأخرى بالآخرة وحسناتها، وأحيانا بشرح فضائل الايمان بالله وشريعته الجديدة. لكن الفشل كان سمة جهود هذا النبي الملاح المتتالية؛ أما قومه، فبقوا على حالهم متمسكين بدينهم القديم دين آبائهم وأجدادهم ومتشبثين بالمعتقدات السائدة بينهم لا يقبلون تركها والانفكاك عنها (فالناس على ما جبلوا عليه)، وكانوا يضحكون ويسخرون من كثرة توسلاته ومناداته ومن إصراره على تعمير هذه السفينة الإلهية وترتيبها وتزيينها في عيونهم، وادعاءه انها المنقذ الوحيد لهم من فيضان ماء الانتقام الإلهي الجبار.

فلو افترضنا هذه الفرضية، لوجدنا تطابق أحداث هذه القصة القديمة مع العقل والمنطق السليم بشكل أوفق، حيث ان دين الله لا يبنى الا على اليابسة وبين الناس وفي أرض مأهولة كما تصور ذلك الآيات الكريمة.

من هذه الفرضية – ولا نقول هذا التفسير – يتضح ان سفينة سيدنا نوح(ع)، هي في حقيقتها، سفينة دينه وشريعته، وان عملية بنائها وتشييد هيكلها، هي بمثابة مناداته وتبليغه للناس للايمان بهذا الدين وبناء مقوماته بينهم، وان دوافع سعيه وجدّه في عملية التبشير والتبليغ كان بسبب إيمانه الثابت بانتصار أمر الله في النهاية ونجاة كل من سيركب معه فيه ويتمسك بعروته الوثقى في الدنيا والآخرة، وأن من أسباب استهزاء الناس به وبأمره، هو قلّة عدد المؤمنين والمصدقين من ذوي القلوب السليمة، وكثرة عدد المعترضين والمعاندين من أصحاب القلوب الصخرية القاسية، ويقينهم بانتصارهم في أي معركة أو مقابلة حربية بينه وبينهم.

لذلك فان معنى قوله بغرقهم في ماء الطوفان، هو محو ذكرهم من التاريخ وشطب اسمهم من بين الأمم وحلول زمن نسخ شريعتهم القديمة وانتهاء دورها في تعليم البشر، وان سفينة دينه هي السبيل الوحيد لنجاتهم من الموت كفراً والغرق في مياه الإلحاد والكفر بالله.

أما عن ولده ومعنى بقاءه مع ملة الكفر المعارضين لدعوة والده، وعملية التجائه الى جبل عال ليعصمه من الفيضان ثم الغرق **(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ)**[13]، فالمعنى هو أن الابن لم يصدق دعوة والده، كما هو حال بقية قومه، ليقينه التام بقوة فكر شريعته القديمة وظنه ببقائها وخلودها، وعدم قناعته بالدين الجديد،

واعتقاده ان جبال علماء العقيدة القديمة، هم خير حصن وأحسن ملاذ له، لأنه ظن أن دين قومه القديم هو دين الحق ولا غيره، وما دعوة والده الجديدة، إلا دعوة باطلة مجنونة، مما دفعه الى اللجوء لأحد علماء الدين السابق الكبار من الذين كانوا يعتبرون قبل دعوة سيدنا نوح، مثل الجبال الرواسخ الكبيرة في العلم والمعرفة والإيمان؛ وفي الحقيقة ان علماء الدين يعتبرون جبالاً راسخة في الدين والإيمان، فهم الذين يقودون الناس الى طريق الهداية والنور، كما يشبهون في مواقع أخرى أيضاً، بالنجوم اللامعة في سماء الأديان، لأن الناس يستدلون بهم في طريق الايمان والهدى ويحتمون بظلهم ورسوخهم ويتبعونهم في تفاسيرهم وفتاواهم عندما يسود الناس ظلام الكفر والظلم، كما قال تعالى في تشبيههم **(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)**[14] وكذلك قوله الكريم **(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**[15].

لكن هؤلاء العلماء ينحسر دورهم وتتراجع مكانتهم عند ظهور أي دين جديد، ولا يصبح لهم شأن عند بزوغ شمس جمال الرسول أو النبي الجديد في كل عهد ودور، بل على العكس يصبحون سبب الضلالة والتيه والخسران عند معاندتهم دعوات الرسل الجدد؛ مثلهم مثل أغصان

شجرة الدين، فإن نسخت وماتت الشجرة، ماتت الأغصان ولا تعد تصلح إلا للنار.

لذلك طغت مياه الكفر والاعتراض والتصدي، وعلت فوق الابن وفوق أكبر رجل دين في الديانة السابقة وأغرقتهما ومحيت آثارهما وآثار قومهما بمجرد ظهور سفينة دين سيدنا نوح، ولم يبق من ذلك العالم الجبل أي ذكر في الكتب التاريخية القديمة، وان من نجا من طوفان الكفر والإلحاد في تلك الدورة، هم فقط الذين تمسكوا بأذيال النبي الجديد في زمانهم وآمنوا به وبدينه وصدّقوه وركبوا معه سفينة أمره المبارك ووصلوا الى أرض النجاة والبقاء والخلود ودخلوا جنة مرضاة الله؛ وان ذلك الطوفان المتكرر المتجدد مع ظهور سفينة كل دين جديد، ما هدأ الا بعد ان تم انتشار الأمر الجديد ومحيت آثار الكفر، فنزل المؤمنون الى يابسة الايمان ليعمروا بيوت دين الله في الأرض، حيث انتهى حال الكفرة الى الموت المادي والروحاني معاً، كما حصل لكل من كفر بأي دين ظهر على الأرض قبل النبي نوح أو بعده، فبقي ذكر المؤمنين في الدنيا والآخرة ومحي ومحق اسم الكفرة من كل ذكر خير بشأنهم.

أما النقطة المهمة الدقيقة والإشارة المعصومة في قوله تعالى **(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**[16]، فهي: نزول الأمر الإلهي الى أرض قلوب البشر بابتلاع ماء أفكار كفرها التي

طغت على حياتهم. وأمره للسماء السامية بالتوقف عن إنزال مزيد من ماء الغيث السماوي أي مزيداً من مياه الأحكام والقوانين الإلهية لكفايتها وتمامها، وذلك لتحقق الغاية الإلهية المقدرة، أي استقرار سفينة الدين على أرض قلوب المؤمنين، وانتهاء تأثير أفكار القوم الكافرة لصد الدعوة الجديدة.

وبمعنى آخر: عودة مياه أفكار الكفر التي كانت سائدة آنذاك الى باطن أرض قلوب البشر الجرزة، لظهور أرض قلوب أيمان جديدة خصبة بدلها مستعدة لاستقبال بذرة الايمان الجديدة ورعايتها لتكون شجرة وارفة محملة بثمار الأعمال الصالحة.

أما أمره بتوقف نزول مياه التنزيل، فيعني تمام نزول الأحكام وكمال الشريعة واكتمال انتشار الدين الجديد وترسخه في قلوب العباد واستقرار سفينة دينه على أرض جديدة جيدة جادة جميلة.

أما الإشارة بعودة ماء الكفر الى داخل أراضي القلوب ودخوله فيها، فهو دليل دقيق على عملية تكرار عودته والخروج والفيضان مرة أخرى من جديد عند انتهاء قوة ديانة نوح وعودة أقوام الظالمين من بعادهم ونهوضهم من نومهم وسبات غفلتهم؛ فهو لم يختف ولم يزول، بل غاض في أعماق أرض القلوب، ولم يذهب بعيدا ليخفي، بل استقر تحت أقدام البشر، لينتظر فرصة تنقيبهم عنه بأيديهم وبرغبتهم ليفيض

بينهم وعليهم مرة أخرى بالتدريج ويعلو هاماتهم ورؤوسهم بعد زوال تأثير الأيمان الجديد.

قصة سيدنا إبراهيم(ع)

يمكن فهم جزء من قصة سيدنا إبراهيم(ع) أيضا بطريقة جديدة يتقبلها العقل وإضفاء منظور علمي جديد عليها، وإدراك المعنى الحقيقي من مغزى قصة رميه في النار وكيفية خروجه سالما منها.

فالحكاية بطرحها القديم لا تتفق مع العلم، وسبق ان قلنا بضرورة توافق المفاهيم الدينية مع العلم والعقل، فإن تناقضا، فأما أن يكون التفسير خرافة والعلم صحيح أو يكون التفسير صحيحاً والعلم خطأ.

فلو استعضنا عن المفهوم المادي للنار في القصة، بنار الكفر الضلالة ونار الحسد والبغضاء والكراهية ورمضاء العصيان والتمرد على الله ورسوله، لاتضح للقصة معاني جديدة لم تخطر لنا على بال من قبل، ولأدركنا ان النمرود وأتباعه لم يرموا سيدنا إبراهيم(ع) في هذه النار المادية التي توقد من الحطب والخشب وتحرق كل شيء حتى أقسى أنواع المعادن، بل رموه في نار الكفر والعصيان وجمر المعاندة والمحاربة التي واجهوه بها لإخماد جذوة دينه الحق. ولكن سيدنا إبراهيم استطاع بالصبر والإيمان والتمسك بأوامر الله الخروج من هذه النيران المعنوية سالماً، وتمكن من نشر أمره ودينه بين الناس والانتصار على

عناد النمرود وإفشال آماله في وأد دعوته في مهدها. **(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)**[17].

قصة سيدنا صالح(ع)

في هذه القصة أيضاً، نلاحظ دور كلمات التشبيه والاستعارة الواضح الصريح، فسيدنا صالح(ع) ولو أنه كان راعياً كما يبدو من فحوى القصة، إلا أنه كان نبياً مرسلا من عند الله. لذلك فجلَّ اهتمامه منصب على نشر دعوته وطريقة تثبيتها في قلوب الناس، وليس الجدال والنزاع على ناقة لا فرق بينها وبين غيرها، فإذا كان الناس لا يلاحظون فرقاً بينهم وبين جلال الأنبياء وعظمتهم، فكيف سيلاحظون الفرق بين ناقته ونوقهم، كما أخبر عن لسانهم قوله تعالى **(مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)**[18].

كما أن موضوع الناقة بمفهومها الظاهري، يوضح بجلاء أن صالح يريد أن يظلم قومه ويجور عليهم، فهو يطالبهم بترك ناقته ترعى أينما تشاء في أرضهم وبين مزارعهم لتأكل ما تريد وتختار ما تشاء ويقترح عليهم بعدم التعرض لها، كما في قوله تعالى **(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)**(64 هود). كما يطالبهم بتقسيم طريقة شرب الماء بينها وبينهم،

وبتخصيص يوم كامل لها لوحدها، ويوم لهم جميعا برجالهم ونسائهم وأطفالهم ونوقهم وماشيتهم وزرعهم، كما قال تعالى **(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)**[19]. فمن الواضح أن هذا التقسيم فيه ظلم كبير لا يقبل به أي إنسان عاقل منصف. فكيف يجوز لنبي مرسل من عند الله الى البشر أن يحكم بمثل هذا الظلم البيّن، وقد جاء ليعدل بين الناس وينصفهم؟

لكن لو قلنا أن معنى الناقة هي شريعة صالح، وأنه كان يدعو قومه لتركها ترعى في أراضي قلوب الناس كيفما تشاء، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليعرض، لانتبهنا أن الله سبحانه وتعالى دعا الناس الى مبادئ حرية العقيدة وحرية الفكر وحرية الكلام وحرية المبدأ حتى قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين، وها هو يجدد دعوته لهذه الحريات مرة أخرى في القرآن الكريم.

وإن معنى هذا التقسيم هو: أن كل دين من أديان الله، يعيش في الأرض مدة يوم إلهي كامل، ثم ينقضي لتشرق شمس رسالة جديدة ليوم آخر.

فهو يقول لهم بمعنى آخر: أن يوم دينكم قد ذهب وولى، وجميعكم كنتم تشربون من مائه بحرية تامة، بينما ناقة هذه الشريعة لها يوم جديد، فاتركوها تشرب من ماء قلوب المؤمنين وترعى بحريتها في

أراضي صدورهم في يومها هذا، فهذا من حقها الإلهي على البشر ومن حق البشر على ربهم.

إذا نظرنا للقصة من هذا المنظار، نرى أن هناك عدل وإنصاف إلهي تام بين البشر، ولا أثر للظلم والجور أبداً.

قصة سيدنا موسى(ع)

يتردد على ألسنة الكثير صغاراً أم كباراً، قصة سيدنا موسى(ع) وكيف رمى بعصاه لتنقلب الى ثعبان كبير يتلوى بين ثعابين السحرة وحيّاتهم، وكيف راح هذا الثعبان العظيم يلتهم ما يقف أمامه من ثعابين سحرة فرعون واحداً تلو الآخر. وكيف خرج موسى بقومه الى البحر وجيوش فرعون تسعى خلفهم تحاول اللحاق بهم والنيل منهم، وكيف فتح مياه البحر بضربة من عصاه ليمتد أمامه طريقاً برياً وسط مياه البحر العاتية يعلوه جداران جباران من المياه، وكأنه وادٍ عميق وسط جبلين شاهقين، ساعد في اجتياز سيدنا موسى وقومه الى الضفة الثانية، وعندما همَّ رجال فرعون اللحاق بالهاربين وسلكوا نفس الطريق البري (البحري)، إذا بمياه البحر ترتد عليهم من الناحيتين وتغرقهم عن بكرة أبيهم.

ان هذه القصة في شكلها الظاهري تبدو قصة جميلة مثيرة للاعجاب تبعث في السامع قوة داخلية تدفعه للإيمان بالله وقوته وعظيم

معجزاته. لكن إذا نظرنا اليها من ناحية أخرى مع قليل من الفكر العقلاني المخلوط بالروح الإيمانية، نجد لها تفسيراً آخر قد يكون أكثر عقلانية وقبولاً وقد يوسع من معانيها السامية ويثبت الناس على الايمان.

وفي الحقيقة، لولا ان جاء ذِكر هذه القصة على لسان أنبياء الله الصادقين، لما قبلها أو صدّقها أحد من الناس. لكن المشكلة تكمن في السؤال التالي، من ذا الذي يتجرأ على هذا القول؟ ومن ذا الذي يستطيع تقديم معنى جديد لقصة عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة تتداول على الألسنة جيلاً بعد جيل من مختلف الديانات والمعتقدات؟

لكن لو افترضنا مثلا، ان معنى الثعبان الكبير القوي الذي جاء بها سيدنا موسى، هي المبادئ الإلهية العظيمة للدين اليهودي، كما وصفه سبحانه وتعالى **(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ . مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ)**[20] **(قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ)**[21]؛ وان معنى ثعابين السحرة الضعيفة الصغيرة هي المعتقدات البالية العتيقة التي مضى على تداولها بين هؤلاء القوم آلاف السنين والتي لم تعد تنفع في شيء من أمور دينهم ودنياهم؛ وان السحرة هم علماء الدين القديم الذين لم تعد تنفع الناس اجتهاداتهم وعلمهم وفتاواهم؛ وان معنى البحر الذي فلقه سيدنا موسى بعصاه، هو بحر الأوهام والظنون والخيال وهو يم الاعتقادات الخاطئة والإلحاد وبحر الكفر والفساد

والإشراك بالله؛ وان معنى البر الذي تركه وانتقل منه، هو بر الكفر والإلحاد وأرض العناد والضغينة وصحراء الجفاء والكراهية وصعيد الحرب والنزاع وشاطئ الأهواء النفسية الشيطانية؛ وان معنى البر الثاني الذي انتقل إليه، هو بر الايمان والتوحيد والاعتقاد بالله الواحد وأرض المحبة الخالصة والأخوة الدينية الحقيقية وشاطئ شريعة الله الحق الجديدة.

أليس في هذا تفسيراً جديداً يجسد المعاني الكبيرة لهذه المعجزة الربانية؟! وبهذا يدرك الجميع ما قصده رب العباد عندما قال انه لا يستحي من ضرب الأمثال **(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ)**[22]. ونتأكد ان الله يتكلم على قدر عقول البشر ومقدار إدراكهم، فكلما توسعت عقولهم وضاق رداء الدين القديم عليها، وجدوا ما يناسبها في حلل الكتب المقدسة التالية.

وعلى أساس ما تقدم يمكن توضيح هذه القصة بالشكل التالي: ان سيدنا موسى(ع) لمّا أمره الله سبحانه وتعالى بإعلان الدعوة اليهودية الى فرعون وقومه، ذهب إليهم هو وأخوه هارون(ع) بغاية الضعف الظاهري، ووقفا بين جموع علماء الدين والسحرة وأتباعهم وجنود فرعون

الأشداء وعبيدهم، وليس بيدهما سلاح يواجهان به تلك الجموع سوى إيمانهما بدعوتهما الجديدة.

ولما تمت المقابلة وسمح فرعون بالمناظرة بين دعوة موسى وبين دعاوى قادة الفكر السابق، وفتح باب الحوار والنقاش وإظهار الحق من الباطل، اعتقد علماء (الديانة السابقة) الذين عاشوا وتربوا لمئات السنين في ظل قواعد وآداب وأحكام ديانتهم العتيقة التي لم يروا غيرها في حياتهم ولم يسمعوا من آبائهم وأجدادهم سوى تمجيدها ورفع شأنها، ودافعوا عنها بدمائهم ضد من كفروا بها قبلهم، ونصروها باعتبارها دين الله الحق في زمنهم وزمن آبائهم، وإنها لابد وأن تكون هي الأصلح والأقوى، وان أفكارها ومبادئها ومعتقداتها وتفاسيرها هي الأسمى، واعتقدوا موقنين ان اجتهاداتهم وعلومهم الدينية والدنيوية سوف تلتهم أمر موسى ودعوته بسرعة كبيرة، كما سبق والتهمت العديد من البدع الباطلة قبلها؛ ولمّا لم يفهموا ان عهد معتقداتهم قد انتهى وولى، وان الله أظهر ديناً جديداً، وان المدد والدعم والتأييد الإلهي قد تحول عن دينهم المنسوخ الى الدين اليهودي الجديد، وان الله تخلى عنهم بعدما كانوا مؤمنين به وعاملين بأحكام شريعته السابقة لمئات السنين، لأنه سبق ونصرهم ودينهم في كثير من المواقع والحروب ضد كفار زمانهم، فزاد ذلك التأييد الإلهي السابق من اعتقادهم بأحقية دينهم ومصداقية شريعتهم؛ فاعتقدوا انهم إذا أظهروا حججهم وادعاءاتهم وقدموا أفكارهم

وحججهم في ساحة المحاججة والنقاش قبل ان يرمي سيدنا موسى(ع) بأفكاره ويظهرها، فانهم سيفوزون عليه بسهولة تامة ويسكتوه ولا تبقى له حجة عليهم.

لكن الذي حدث كان عكس ما توقعوه، فعندما رمى سيدنا موسى بأفكاره الإلهية الجديدة وحججه وبراهينه المؤيدة من الله، راح ثعبان العقيدة الإلهية الجديد القوي، يلتهم ثعابين أفكارهم وحيّات عقائدهم البالية الضعيفة ويفنّدها ويظهر تفاهتها وقلة بضاعتها بسرعة كبيرة، مما حيّرهم وأظهر دهشتهم وجعلهم حائرين لا يعرفون الرد أو الإجابة عليه، وأسقط في يدهم وفشلوا فشلاً ذريعاً.

لكن بعضهم – وكما هو ديدن بعض علماء الديانات الذين يظهر في زمانهم دين جديد – تمسكوا بتقاليدهم وأفكارهم العتيقة واتخذوا سبيل القوة والقتال كحل أخير لمقابلة الفكر الجديد وقتله، وجمعوا شملهم ورصوا صفوف جنود الكفر والإلحاد كالبحر الهائج لمحاربة الفكرة الإلهية الجديدة. فلما أدرك موسى ما يخططون له ويعدون العدة إليه، قرر جمع شمل المؤمنين من أتباعه والخروج بهم من وسط هؤلاء الكفرة الأشرار لينجيهم من أرض أفكار الضلالة والكفر القديمة ويأخذهم الى ارض الايمان والهداية والتقوى الجديدة، فضرب بعصا دينه الإلهية بحر ظنونهم وكفرهم وإلحادهم، وماء يمّ عقائدهم البالية العتيقة، وقلزم تفاسيرهم الخرافية وسحرهم الكاذب، فشقه وفلقه الى نصفين، واستطاع

المرور بقومه المؤمنين والنجاة بهم للعبور الى أرض دينه الجديد وتمكن من إعادة توحيد الله بين الناس، بعد ان فاض بحر الكفر وسادت مفاهيم الشرك والإلحاد بين فرعون وقومه، وعبر موسى بأتباعه الى بر الأمان والإيمان والإيقان وترسخت تعاليم الدين الجديد في أراضي قلوب الناس التي هي أوسع من هذه الأرض الترابية (قلب المؤمن عرش الرحمن).

وعندما تمسك فرعون وجنده بحبال العناد وسلاسل التعصب وربطوا أنفسهم بها، وحاولوا اللحاق بموسى وقومه وخاضوا بعده بحر الكفر والشرك والإلحاد، انطبق عليهم وقتلهم جميعا ومحا اسمهم وأطفأ نارهم وأخمد لهيبهم ودثر ذكرهم، فأصبحوا هباءً منثورا، ولم يبق منهم الا العبرة لمن بعدهم، كما حصل لأمثالهم من الأقوام الكافرة.

ولهذا التفسير، دليل علمي آخر يؤيده، وهو ان الفراعنة اشتهروا بتسجيل دقائق أمور دنياهم وأحوال أممهم ودولهم وتواريخ ملوكهم وشعوبهم بدقة كبيرة، كما تشهد على ذلك سجلاتهم وتواريخهم المكتشفة داخل أهراماتهم وقبورهم، ولقد استطاع الباحثون الجيولوجيون قراءة تسلسل تاريخ حياتهم بشكل كامل تقريباً، وصرحوا وأشادوا بدقة آثار الفراعنة وتعجبوا منها. فإن كانت هذه القصة العظيمة قد وقعت مثلما تناقلتها الكتب السماوية بحذافيرها الشكلية الظاهرية، فكيف لم يسجل الفراعنة مثل هذا الحدث العظيم الجلل في سجلاتهم التاريخية وكيف

غفلوا عنه؟ لذلك لابد وان الله سبحانه وتعالى قصد من هذا المثال شيئاً آخر.

إضافة الى هذا، علينا أن لا ننسى عملية المد والجزر التي تحدث لمياه البحار، فمن المحتمل أن سيدنا موسى(ع) عرف ذلك من خلال ذهابه وعودته الى سيناء عبر أحد قرني البحر الأحمر قبل زمن بعثته. وعندما قاد قومه للخروج من مصر، قطع رأس البحر وقت الجزر من مكان مناسب بسرعة معقولة لقلة عدد أصحابه بالنسبة لجموع جيش فرعون. أما فرعون وجنده فيبدوا أنهم لضيق الوقت ولعدم اتاحة الفرصة لموسى وأتباعه للنجاة والهروب داخل صحراء سيناء والاختفاء بين جبالها وكثبانها، حاولوا العبور من نفس المكان أو من مكان آخر أجبروا عليه أثناء فترة المد، فانطبقت المياه عليهم وأغرقتهم.

من هذا يفهم ان لقصة سيدنا موسى(ع) معاني إيمانية روحانية عميقة بقيت مخفية بين سطورها لحكمة إلهية عميقة، يمكن الاستفادة منها في تقوية جذور الايمان لدى كل موقن بقدرة الله وقوته، وما تكرارها في القرآن الكريم، الا لقدرتها الدائمة على هداية البشر وإظهار قدرة الكلمة الإلهية وقوتها في هداية الخلق.

قصة سيدنا المسيح(ع)

اشتهر سيدنا المسيح بقدرته الخارقة على إحياء الموتى وإبصار العمي وإشفاء المرضى، وهذه المعجزات من صفات وقدرات الرسل والأنبياء عليهم السلام، وهي حق لا ريب فيه تحدث بقوة الله وإرادته وكانت من الأسباب القوية والمؤثرة في إيمان العديد من البشر في وقت حدوثها.

لكنها اليوم ومع انتشار الفكر المادي حتى بين بعض أتباع الديانات الإلهية، بدأ بعض المفكرين يسلطون أضواء الشك والريبة على أحداث هذه القصص أو يعتبرونها قصصا قديمة خرافية.

وهناك من يقول أننا لو سلمنا بحدوث خوارق المعجزات، فإن تصديقها حرفياً سيقتصر على من شاهدها وسمعها واطلع عليها في وقته وزمانه، فكيف لنا بالتأكد من صحة حوادثها المخالفة لقوانين الطبيعة وهي تنقل من جيل الى جيل لآلاف السنين، ألا يمكن أن يكون قد شابها شيء من التحريف أو الاضافات، فحتى القصص الواقعية الحديثة، تختلف وقائع سردها بين راويها وناقلها، فكيف بنا بمئات السنين.

وهذا منطق مقبول، خاصة وأنهم لا يقبلون تعليلها بقدرة الله على فعل المعجزات وأنه قادر على كل شيء، وان زمن المعجزات قد ذهب وانقضى.

لكننا لو سلّطنا عليها ضوء الفكر الجديد، نجدها مثل سابقاتها أقرب الى الحقيقة والتصديق مما هي عليه بقالبها المادي الأسطوري، باعتبار ان الرسل والأنبياء جميعا لهم هدف واحد وغاية فريدة، وهي هداية البشر الى طريق الحق وسبيل الصواب.

لذلك لو قلنا ان أعراض أمراض الكفر والإلحاد كثيرة ومتعددة وهي من الأسباب الرئيسة لتخلف الشعوب والأقوام فكريا وروحيا وماديا، بينما الإيمان بالله الواحد والتمسك بأوامره وأحكامه فيه شفاء للناس من كل أمراضهم الاجتماعية وعللهم الروحانية، لو سلمنا بهذا المنطق لأمكن النظر الى قصة سيدنا المسيح من زاوية علمية إيمانية جديدة.

فعملية إحياءه الموتى لم يكن المقصود بها إعادة الحياة المادية العادية الى شخص ميت الجسد من جديد وعودته الى الحياة مرة أخرى ليأكل ويشرب ويتحرك؛ وعملية إعادة البصر لرجل أعمى ليست هي المقصودة من فحوى القصة بالتحديد؛ وموضوع شفاء الأبرص والمشلول، ليس كما يعتقد البعض على انها حالة مادية كما يحدث للكثيرين ممن يشفون من أمراض اليوم.

إن مثل هذه الحالات لا تغني الدين والإيمان في شيء، لأن من قام من الموت لم يعش الى الأبد ولم يكتب له الخلود، بل عاد ومات مرة أخرى بعد سنوات مثل غيره؛ ومن شفي من العمى آنذاك عاد وعميت عيناه مرة أخرى بعد فترة حال وفاته؛ ومن برء من الشلل أو البرص عاد وشلّت كامل أعضاؤه مرة أخرى وأكل جسده العفن والدود حال وفاته.

فما هي الفائدة المرجوة من كل هذه الأعمال الخارقة إذا كانت آثارها ستمحى مع مرور الوقت ويشكك بصحة أخبارها؟ وما هي علاقتها بأحقية دعوة سيدنا المسيح(ع) وتقبل الناس دعوته؟ كما ان مثل هذه الحوادث حتى وإن حدثت في وقتها، فهي حجة وبرهان على من شاهدها ورآها في وقتها وليست حجة على جميع الناس ومن بينهم من لا يؤمن بكتاب ولا رسول في الأزمان اللاحقة.

أما لو قلنا إن إحياء الموتى كان إحياءً إيمانياً وليس مادياً، أي ان الكافر يعتبر كالميت، وحال دخول قوة الايمان الى قلبه يشعر بحياة جديدة تدب في جسده وروحه ويشعر وكأنه ولد من جديد، وفي القرآن الكريم آية تشير الى هذا المعنى **(أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)**[23]، فلو نظرنا الى مفهوم هذه الآية الظاهري لصعب فهمها، إذ لا يمكن لأي إنسان إحياء إنسان آخر بعد موته، بينما إذا أقنعه بالايمان، يكون وكأنه أحياه من جديد، هنا تكون عملية الإحياء

ممكنة ومعقولة ويمكن تصديقها، فكثير من المؤمنين يدعون الناس للايمان ويستجاب لهم، فالاشارة هنا الى الإحياء الروحاني وليس الى إحياء موتى الأجساد. وهناك آية أخرى أكثر دلالة ووضوحا من السابقة في قوله تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**[24]، فالاستجابة للايمان، هي نوع من أنواع إعادة الروح الى الحياة، وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، فالمؤمن يرى أمور الحياة بمنظار مختلف ويقل مستوى تكالبه عليها ويزداد عنده الشعور بأهمية الجماعة ويناصر مبادئ الخير والرحمة بينهم.

وهنا نتذكر قول السيد المسيح عندما طلب منه أحد تلامذته الذهاب لدفن والده، فرفض طلبه وقال له: (اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم)، وعنى بذلك دع موتى الايمان يدفنون موتى الأجساد. فهو يوضح أن من لا إيمان له لا حياة له، لأنه يعيش حياته بحواس جسده كبقية المخلوقات ثم يأتيه الموت وكأنه لم يكن شيئاً، فيخسر حقيقة وجوده وسببه. بينما المؤمن يعيش دنياه وهو عالم بسبب وجوده ويموت وهو مدرك ان الموت حالة انتقالية الى عالم آخر أرحب وأوسع من هذا العالم، لذلك يحاول أن يترك ورائه ما يدعم مسيرته ويرفع من مقامه في آخرته.

بهذا يمكن استنتاج معنى آخر لما حصل من إشفاء المرضى، فهو الشفاء من علل الجهل وأمراض الضلالة وآفات الكفر وأوبئة الإلحاد، لما تسببه من تخلف اجتماعي وإنساني وعلمي وديني، والتاريخ خير شاهد على ما أنجزته قوة الايمان بالديانات الإلهية من حضارات ما زالت آثارها شامخة حتى اليوم في العراق ومصر وفلسطين وإيران والهند والصين.

نبوءة النبي أشعيا

من خلال كل ذلك، يمكن الانتقال الى معنى قول النبي أشعيا عندما تنبأ بما سيحصل في آخر الزمان من تغير في أحوال الناس وحياتهم وتنقلب الأمور وتتغير وتحصل طفرة نوعية في مختلف شؤونهم، كما هو حاصل اليوم. فبحدود قرن واحد، ظهرت كثير من الاختراعات والمكتشفات التي غيرت وجه الأرض وحياة البشر تماما، فاستعيض عن النار بالكهرباء وعن الشموع بالمصابيح وعن العشار بالطائرات والمركبات وازداد المال وتوسعت المدن وارتفعت المباني وازدادت أعداد البشر وتحسنت صحتهم وطالت نسبة أعمارهم وتحسنت سبل الاتصال حتى انعدمت المسافات، ولو أجرينا مقارنة بين إنسان اليوم وما قبل قرن واحد، فلن نتمكن من تحقيق ذلك أبدا، وهذا ما أشارت إليه سورة التكوير في القرآن الكريم بشكل واضح.

يقول أشعيا: *[فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمّن معاً وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبّة ترعيان. تربض أولادهما معاً والأسد كالبقر يأكل تبناً. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان]*[25].

فمثل هذه النبوءات لا يمكن تحققها وحدوثها بمعناها الحرفي الدقيق حتى ولا بعد آلاف أو ملايين السنين، لأن طباع هذه الحيوانات ثابتة لا تتغير، فهي مجبولة عليها، ولابد أن يأكل الأسد الخروف إذا مر به، وتلدغ الحية من يقف في طريقها، فهذا طبعها وفطرتها. لكن إذا استعيض عن الذئب بالإنسان القوي الشرس الظالم القاسي، واستعيض عن الخروف بالإنسان اللطيف المسالم الضعيف، وعن النمر بالرجل المحتال اللئيم الغدّار، وعن الجدي والعجل بالإنسان الساذج البسيط اللطيف، وكذلك عن الطفل والبقرة والدب والأسد والرضيع والصل بنفس المقاييس، لأدركنا ان هذا التفسير أو هذا التحليل يتفق مع نص سورة التكوير وكذلك مع قول النبي أشعيا عن حتمية حلول السلام العالمي في نهاية الزمان، وان البشر بمختلف طباعهم وعاداتهم وقسوتهم ورحمتهم وظلمهم وعدلهم وشراستهم ولطفهم سيجتمعون على خوان واحد وصحفة واحدة ويأكلون من قصعة واحدة ويحل السلام على الأرض بين البشر وتطبع سيوفهم ورماحهم مناجل وآلات لأعمال الزراعة والخير والعطاء، ولا تعد ترفع أمة على أمة سيفاً، كما أشار

القرآن الكريم الى سبب خلق الناس **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**[26].

وهذا ما ذكره أشعيا في قوله أيضاً: *[فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمه على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في ما بعد]*[27].

أما إذا كان معنى الأسد والذئب والبقرة والجدي والصل والطفل هو ما يفهم ظاهرياً، فأي فائدة ترجى من ذلك؟ وماذا تستفيد البشرية إذا أكل هؤلاء من صحن واحد أو إذا أكل الأسد تبناً؟ وما شكل الخير الذي سيصيب البشر إذا لعب الرضيع مع صلّ الحيّة؟

ان مفاهيم ومعاني كلمات الرسل والأنبياء هي غاية في الحكمة والعصمة، وعندما يتكلمون لابد وان يكون هناك معان خفيّة عديدة من وراء كلامهم. وإلا ما هو الفرق بين الإنسان العادي وبين من يصطفيه ويختاره الله لمهمة هداية الناس؟

والخلاصة: ان لجميع القصص والأمثلة الواردة في الكتب المقدسة، معاني وحكم عظيمة لم يستطع إنسان القبل الغور في تمام معانيها. وكما لاحظنا يمكن استنباط الكثير من جواهر هذه المعاني والاستفادة

مـن درر حكمتهـا فـي تطـوير منـاهج التفكيـر التـي تـؤثر الـى تقـويم السلوك.

الهوامش

1 – سنن ابن ماجه كتاب الفتن ج 2 رقم الحديث 3993، مسند احمد ج 3 ص 120 والترمذي في كتاب الايمان.

2 – سورة الأحزاب آية 25.

3 – سورة الرعد الآيات 17/13.

4 – سورة الحاقة الآيتان 45،44.

5 – اجتهاد عمر في سهم المؤلفة قلوبهم ص 192 صحيح البخاري كتاب التفسير, وأيضا كتاب وعاظ السلاطين، للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية – 1995 – دار كوفان – لندن – صفحة 126.

6 – كتاب وعاظ السلاطين ص 192. انظر احمد أمين، فجر الإسلام ص 236، 239.

7 – سورة الشعراء آية 74.

8 – سورة الزمر آية 9.

9 – صحيح الترمذي ج 5 ص 25 مستدرك الحاكم ج 3 ص 26.

10 – سورة سبأ آية 13.

11 – سورة هود آية 81.

12 – سورة الإسراء آية 95.

13 – سورة هود آية 43.

14 – سورة يس آية 62.

15 – سورة الحشر آية 21.

16 – سورة هود آية 44.

17 – سورة التوبة آية 32.

18 – سورة الشعراء آية 154.

19 – سورة الشعراء آية 155.

20 – سورة آل عمران الآيتان 3،4

21 – سورة الأنعام آية 91.

22 – سورة البقرة آية 26.

23 – سورة المائدة آية 32.

24 – سورة الأنفال آية 24.

25 – التوراة – اشعيا – الإصحاح 11 آية 6،7، 8.

26 – سورة هود الآيتان 118و119.

27 – التوراة – أشعيا – الإصحاح 2 آية 4.

الفصل السادس عشر
من السُنّـة

وبمناسبة الحديث عن معاني القصص القرآنية، نأتي الى بعض معاني الأفكار السائدة مما يتمسك بها بعض المسلمين من الذين يعتقدون انها سنّة مقدسة لا يمكن تغييرها، ولا ندري كيف استطاعوا معرفة هذه السنة بهذه الدقة والحرفية، ثم يطالبون غيرهم بضرورة التمسك بها، وإلا حكموا عليهم بالكفر وجرّدوهم من صفة الايمان، رغم ان تدوين الأحاديث الشريفة بدأ في القرن الثاني الهجري تقريباً، أي بعد وفاة الرسول محمد(ص) بمائة عام أو أكثر، هذا بالإضافة الى ان الأحاديث تنقسم الى أنواع عدة، أدت الى تباين قبولها وتصديقها لدى مختلف المذاهب الإسلامية. فعلى سبيل المثال هناك ما يسمى بالحديث الصحيح والحديث الحسن ثم الضعيف والمسند والمتصل والمرفوع والموقوف والمقطوع والمرسل والمنقطع والمعضل والمدلس والشاذ والمنكر وغيرها من التصنيفات، مما حدا بالفرق الإسلامية الى الاعتناء ببعضها وتجنب بعضها الآخر، فعلى سبيل المثال لا الحصر يعتني المسلمون الشيعة بجمع الأحاديث الشريفة فيما يخص المهدي المنتظر (صاحب الزمان، القائم الموعود)، بينما لا يعتني بعض أهل السنّة بهذا الموضوع بل وينكره بعضهم.

ولقد ذكرنا في أحد الفصول أنواع موازين الإدراك عند البشر، وكيف يقيس العاقل أو العالم المدونات والعلوم المكتسبة بقدراته العقلية، وأثبتنا ان عقول العلماء تختلف في قياس مقدار الخطأ والصواب كلٌ حسب مقدرته الفكرية، كذلك أثبتنا ما لعقلية الرسل والأنبياء من مقام سام لا تصل اليها عقول البشر مهما كسبت من علوم ومعرفة، وما كانوا يكلمون الناس الا على قدر عقولهم واستطاعة فهمهم. فاذا صح هذا، فكيف يمكن فرز وتبويب أحاديث الرسل والأنبياء وكلماتهم ومعانيها تبويباً صحيحاً والتأكد من نصوصها؟ إذ لابد ان تشتبه الأمور على أتباعهم ولو بمقدار، فينزلقوا الى وادي الخطأ وسبيل السهو، فيدخلوا من هذا على ذاك وبالعكس.

لكن أفضل القياسات التي توافق الحق والصواب هي العمل على مطابقة معاني الأحاديث الشريفة مع حقائق القرآن الكريم، فإن تطابقت ففيها كل الخير، وإلا فلابد من التروي؛ لأن القرآن الكريم هو الميزان الأتم والفرقان المفرّق بين الحق والباطل، وكلام الرسول لابد وأن يتوافق مع أمر الله سبحانه وتعالى **(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)**[1]. اذن لابد من توافق الاثنين معاً لأنهما من مصدر ومنبع واحد، هو الله جل جلاله.

عندما تنزل الشرائع السماوية في أول عهدها تكون بين فترتين متناقضتين تمام التناقض، الأولى العهد الماضي بكل عاداته البالية وعقائده القديمة وقصصه المتوارثة، والثانية العهد الجديد المنوّر النقي بكل مبادئه السامية الروحانية الخلاّقة وأعمال الخير المتميز بها. ففي هذه المرحلة (مرحلة بدء الدعوة الى دين ومعتقد جديد) يكون الناس قد تعودوا وجبلوا على عادات وتقاليد وأعراف دامت لمئات السنين وحفرت آثارها وصفاتها بعمق في نفوسهم ومجتمعاتهم، واصبح من الثابت لديهم ان أي تغيير طفيف فيها يكون كفراً صراحاً وبطلاناً لا شك فيه وخروجا عن المألوف والعرف والدين والإيمان. لذلك عند نزول الديانات السماوية في أول سنينها، تتساهل في بعض الأحكام والأمور القديمة وتتركها كما هي لعدم إضرارها الكبير في المجتمع، بل من الممكن ان تكون جزءاً مهماً في نظام المجتمع الجديد وتقويمه في بعض الأحيان، ولو لم تكن كذلك لما قبل بها وأعاد تثبيتها العليم الخبير، أو وافق على استمرار العمل بها رسوله الكريم، وإلا فمن السهل الحكم بنسخها أو تبديلها.

فمثلا حدث في غزوة الأحزاب عندما تعاهد أبو سفيان مع بني كنانة وبني قحطان ويهود بني قريضة، ونهضوا مع طوائف قريش جميعاً على إطفاء نور السراج الإلهي الذي أضاء في مشكاة يثرب، وكان المؤمنون قلة أمام الأعداء الذين هجموا عليهم هجوماً عاماً

يريدون به تغبير شمس الحقيقة المشرقة بغبار الظلم والجور، ولما كانت رياح الامتحان والافتتان تهب في ذلك الزمان بقوة شديدة من كل جهة على المؤمنين والمسلمين، عرض الصحابي سلمان الفارسي على مطلع الوحي الإلهي ومهبط تجليات الفيض اللامتناهي سيدنا محمد(ص) ان أهل فارس يحفرون بأطراف المملكة خندقاً يحتمون به ويصونون به أنفسهم من الأعداء، فهو مفيد كل الفائدة لاتقاء الهجوم المباغت. فما كان جواب منبع العقل ومعدن الحكمة والعلم الإلهي محمد(ص) على هذا الاقتراح إلا الموافقة والقبول، ولم يعترض عليه أو يقول ان هذا من عادات الممالك والأقوام المشركة الكافرة المجوسية، ولا يجوز لأهل التوحيد اتباعها، لذلك أمر الموحدين جميعاً بالإسراع في حفر الخندق، حتى انه تناول بيده المباركة آلة الحفر وساعد أحباءه الصحابة في إتمام عملهم.

يستفاد من وقائع هذه القصة أنه لا ضرر في الاستفادة من أفكار وعادات الآخرين إن كانت جيدة حتى ولو كانوا من الكافرين أو المشركين طالما تساهم في تقدم المجتمع والمحافظة عليه.

وفضلاً عن هذا، جاء في كتب جميع الفرق الإسلامية من تاريخية وغيرها التي صنّفها العلماء العظام والمؤرخون الفخام، انه بعد إشراق نيّر الآفاق سيدنا محمد(ص) من مشرق الحجاز الذي أسس مباني الحِكم الربانية وأنار الوجود بأشعته الساطعة وأظهر التغيير الكلي

والتبديل الكامل في أركان العالم بنزول الشريعة الإلهية الجديدة، أنها نزلت في بعض أحكامها مطابقة لعادات أهل الجاهلية المألوفة، من ذلك: مراعاة حرمة الأشهر الحرم، وتحريم أكل لحم الخنزير، وإقرار الشهور القمرية وأسمائها، وعدم جواز نكاح الأمهات والبنات، وعدم جواز الجمع بين الأختين، وعدم جواز تزوّج الابن امرأة أبيه، وحج البيت، والعمرة، والحرمة، والطواف، والسعي، ووقوف جميع المواقف، ورمي الجمار، والغسل من الجنابة، والمضمضة، والاستنشاق، وفرق الرأس، والسواك، وتقليم الأظفار، ونتف الابط، وقطع اليد اليمنى للسارق. وارتداء الملابس العربية بشكلها المعروف (الكوفية والدشداشة والعقال والنعال وغيرها).

فهل يجوز الآن – والعياذ بالله – أن يخطر في بال أحد من أفراد جميع الطوائف الإسلامية ان بعض أحكام الشريعة الغراء قد اعتراها النقص حين شابهت عادات أهل الجاهلية المنبوذة؟ أم هل يمكن التصور ان الحق الغني سبحانه وتعالى اتبع الآراء المتسمة بالكفر من عادات أهل الجاهلية؟ معاذ الله. إذ لابد أن يكون في ذلك حكمة إلهية بالغة. فلكل حادث حديث، ولكل وقت أذان، بل كان المقصود الجوهري من هذه الحكمة الكلية هو تحرير العباد من قيود التعصبات والأفكار الجاهلية، وعدم تفوههم بمثل هذه الأقوال التي من شأنها اليوم ان تؤدي الى بلبلة أذهان البسطاء وتشويش ضمائرهم.

وقد يقول بعض الذين لا اطلاع لهم على حقائق الكتب الإلهية وجوامع الصحف النقلية والتاريخية ان هذه التقاليد والعادات انما هي من جلائل سنن الخليل عليه السلام، وقد بقيت حتى ذلك الوقت راسخة بين أقوام الجاهلية، لذلك جدد الله أحكامها في القرآن الكريم مرة أخرى. غير انه من المسلم به والمذكور في جميع كتب الفرق الإسلامية وصحفها ان احترام الأشهر الحرم والعمل بالأشهر القمرية وقطع يمين السارق لم تكن من سنن الخليل(ع)، ودليل ذلك ان التوراة ما زال بين أيدينا وفيه شريعة إبراهيم(ع) فلينظر به.

ان كل دين جديد يأمر وينهي بما هو مقدور عليه بين الناس، ولا يتشدد عليهم بأوامر قاسية جديدة، حتى يدخل الايمان الى قلوبهم بالتدريج ولا ينفروا منه. وفي بداية كل دعوة تكون الأوامر الربانية خفيفة ثم تشتد وتقوى حتى تصل الى الحد الذي تؤتي ثمارها في الأمور الكبيرة الصعبة؛ وقديما قالوا: إن أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

ومن هذه الأمور التي تدرجت في أحكامها نحو القوة، أمر الامتناع عن شرب الخمر، فالعرب كانوا أيام الجاهلية يشربون الخمر ليل نهار، ولا يفرقون بين صبح وعصر وليل، بل كانوا لا يصحون من سكر طوال يقظتهم، فجاءت الأوامر الإلهية متدرجة بهذا الخصوص حتى يسهل عليهم نبذ هذه العادة المضرة. ففي البداية نزلت الآية وكأنها

تقارن بين منافع الخمر ومضاره **(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)**[2]، ثم نزل الأمر المبارك فيما بعد بالتوقف عن السكر عند أوقات الصلاة فقط **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)**[3]، فساعد ذلك على التوقف عن شرب الخمر طول النهار لصعوبة موافقته أوقات الصلاة، ووجدوا في الليل كفاية لهم وتعويضاً لما يفوتهم، ثم نزل الأمر الإلهي الجازم **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**[4]، وفي هذه الآية المباركة، جاء التحريم قطعياً، فقد حرم الله سبحانه وتعالى الخمر ثلاث مرات متتاليات، الأولى عندما وصفه انه رجس، والرجس هو العمل القذر الواجب تجنبه، والمفروض على المؤمنين اجتناب الأعمال القذرة التي ينهى الله عنها. والثانية، وصف شرب الخمر بعمل الشيطان، وهذا عمل منبوذ لا يقبله الله وجب الابتعاد عنه، وهو أمر ثان بالابتعاد عن الخمر. ثم عاد في نفس الآية وقال للمرة الثالثة بأمر مبرم لا رجعة فيه: فاجتنبوه. وهذا يعني حكم الابتعاد عنه وتركه، وما ينهى الله عنه فهو حرام.

اذن، فقد حرّم الله الخمر ثلاث مرات متتاليات في القرآن الكريم، وما هذا التدرج في الأحكام، الا لصعوبة تنفيذ هذا الحكم الشديد بين العرب المسلمين دفعة واحدة في أول الأمر، ورحمة بهم ومساعدتهم على

الامتناع عنه بالتدريج. وهذا يعني أيضا، ان عادة شرب الخمر كانت موجودة بين بعض المسلمين حتى بعد ايمانهم ولم يستطيعوا تركها بسهولة إلا بطريقة متدرجة وانهم امضوا فترة من الزمان وهم يشربون الخمر بعد ايمانهم؛ فهل كان بعيدا عن حكمة الله وقدرته أن يأمر بحكم جازم الامتناع تماما عن شرب الخمر، وهل كان سيدنا محمد(ص) عاجزا عن قبول ايمان هؤلاء إلا بشرط الامتناع؟

وكذلك كان موضوع القِبلة وتغيير وجهتها، فمن المحتمل لو ان سيدنا محمد(ص) غيّر جهة القبلة في أول عهد الإسلام، لقام عليه العرب والمسلمون بالمعارضة، ولاتهموه بشتى التهم، ولزاد هذا من معارضتهم ورفضهم الايمان مثلما فعل بعضهم عند تغييرها بعد عدة سنوات أثناء تأدية الصلاة. لكن التغيير تم بعد ان قوي عود الدين الجديد واشتد ساعده وكثر عدد أتباعه، ومن ثقل عليه الحكم الجديد ولم يقبل به وخرج من بين صفوف المسلمين، خسر نفسه ولم يكن لخروجه تأثير كبير على تقدم الإسلام، وكان هذا امتحانا شديداً للمسلمين عندما ارتد بعضهم وهرب من صراط الايمان الى ساحة الكفر بعدما أمر الله سيدنا محمد(ص) بتغيير وجهة القبلة أثناء صلاة الظهر بعد أن أدى ركعتين منها.

اذن فالأحكام الإلهية تنزل بالتسلسل والتدريج، ليتقبلها الناس ويأنسوا بها، ولتحافظ على المؤمنين وترحمهم وتخفف وطأتها عليهم، ولا تنزل

دفعة واحدة فينفرون منها. كما أنها تختلف في قوتها بين شريعة وأخرى وتأخذ بعين الاعتبار تطور المجتمعات وعادات الناس وتقاليدهم وتراثهم، وقد تأخذ الحسن منها وتترك رديئها.

بهذه المقدمة ندخل الى بعض العادات التي تسمى اليوم (سُنة) ويشترط البعض وجودها لدى الناس كصفة للمؤمن.

حف الشوارب وإطلاق اللحى:

فمنها على سبيل المثال، موضوع إطلاق اللحى وحفّ الشارب، وهذه السنّة لم تأت من فراغ، وأكثر الاعتقاد ان الرسول الكريم أوجدها لأسباب علمية وعملية مهمة ولحكمة إلهية دقيقة. ففي العهود القديمة لم تكن جيوش الدول المتقاتلة ترتدي مثل ما نجده اليوم من ملابس عسكرية وعلامات وشارات وأعلام تميز بعضها عن بعض، فقديما كانت الحروب تحدث في الأراضي المتربة المفتوحة، وهذه من سمات صحراء الجزيرة العربية، فعندما كان يحمى الوطيس وتشتد الحرب وتتقافز الرجال والجياد وتعلو صرخات المتحاربين وتتناثر الدماء على وجوههم وملابسهم، وتثار الأتربة وتعلو رؤوس المتقاتلين وتغطي أجسادهم، ولا يمضي وقت طويل حتى تصبح أشكالهم متقاربة اللون والشكل، خاصة في زمن صدر الإسلام عندما كان المتقاتلون من

المسلمين وأعدائهم يرتدون نفس الزي العربي، لنسبتهم الى قبائل عربية تشترك بذات الأزياء.

فمن الوارد أن الرسول محمد(ص) أمر بإطلاق اللحية وحفّ الشارب تمييزا للمسلمين عن غيرهم من عرب الجاهلية وكفار المشركين، حتى لا يقتل المسلم أخاه المسلم خطأ، فالمقاتل آنذاك كان ينظر في وجه خصمه ليميزه، وذلك لمعرفتهم المسبقة ببعضهم البعض ولأعدادهم القليلة نسبياً. وعندما توسعت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، وجد العرب في ذلك التمييز المبتكر حكمة مسبقة من الرسول الكريم عندما اصطدموا بجيوش الفرس، لأنهم وجدوهم يطلقون لحاهم وشاربهم، هذا بالإضافة الى اختلاف أزيائهم، وبذلك استطاع الجانبان تمييز رجالهم عن رجال أعدائهم. ومرة أخرى، استفاد العرب المسلمون من هذه العلامة المميزة عندما بدأوا يشتبكون مع جيوش الروم في حروبهم، فوجدوهم يطلقون شواربهم ويحلقون لحاهم، أو يحلقون الاثنين معا، وهنا أيضا تميزوا عنهم واستفادوا من حكمة الرسول الكريم في حقن دماءهم وتسهيل مهمتهم وابتعاداً عن عملية القتل الخطأ.

اذن، فموضوع إطلاق اللحى وحفّ الشارب، قد يكون ضرورة أملتها ظروف ذلك الزمان للتمييز بين المسلم عن غيره في ساحات الوغى، وليس صفة يتميز بها المسلم عن الكافر أو المؤمن عن غيره. وإلا

لفسد القياس خصوصاً في هذه الأيام بعدما اعتاد الرجال حلق لحاهم وشواربهم أو العكس.

الملابس العربية:

أما عن موضوع الملابس العربية (الدشداشة والعقال والغترة والنعال)، فهذا الزي كان يرتديه العرب في زمن الجاهلية قبل الإسلام، وليس من المعقول ان يأمر سيدنا محمد(ص) بارتداء زيّ جديد أو بتغيير هذه الهيئة المناسبة لجو الصحراء الحار ومناخها القاسي الجاف، بعدما وجد فيه الأعراب راحتهم عبر مئات السنين.

أما موضوع قصر الدشداشة أو طولها، فهنا نعيد ذكر القصة التي حدثت مع الخليفة الراشد الثاني، لنتعظ منها ونستفيد من عبرتها ودلالتها. فبعدما وزعت الغنائم على المسلمين بعد انتهاء إحدى المعارك الحربية، كان بينها كمية كبيرة من القماش وزعت بينهم بالتساوي. وحدث بعدها ان كان أمير المؤمنين عمر يخطب في المسلمين وهو يرتدي دشداشة طويلة، فقام عليه أحد الجالسين معترضاً، وقال له: كيف تمكنت من الحصول على هذا الرداء الطويل رغم طولك، بينما لم تصل ملابسنا الى حد الركبة؟ فتبسم الخليفة وقال: لقد أعطاني ولدي حصته، فضممتها الى حصتي، وبذلك طالت الى هذا الحد كما ترى.

يستفاد من هذه القصة: وجود حرية التعبير عن الرأي بين المسلمين في بداية عهدهم بالدولة الإسلامية، وانعدام الفرق بين الرئيس والمرؤوس، وتقارب مستوى طبقات المجتمع، وانعدام الخوف والرهبة من الحاكم بسبب عدم وجود الظلم والاعتداء والحبس والقتل والتعسف في استعمال السلطة، وانتشار روح المسامحة والعفو والأخوة بين الحاكم والمحكوم.

وأخيرا وهو المهم في موضوعنا، ان العرب المسلمين كانوا فقراء في أول عهد الرسالة، ولو وجدوا ما يكفيهم من الرداء لفعلوا مثل ما فعل الخليفة عمر ولبسوا ملابس طويلة، اذ لم يكن هذا الرداء القصير الا بسبب الفاقة والحاجة والفقر وقصر اليد. ودليل ذلك ما وصلنا عبر التاريخ من الأشكال والأزياء المختلفة للملابس العربية الإسلامية الجميلة الطويلة المزركشة التي كان يرتديها العرب فيما بعد أيام الدول الإسلامية العريقة. ومن يحاول القول ان هؤلاء المسلمين لم يكونوا متمسكين بالدين الإسلامي أفضل منّا، فقد كذّب نفسه وتاريخه العربي والإسلامي العريق.

وهناك رأي آخر بخصوص هذا الموضوع بوجهة نظر أخرى يتوافق معه في بعض نقاطه ويختلف معه في نقاط أخرى، يقول هذا الرأي:

ان بعض هذه الحريات، مثل حرية الكلمة وحرية الرأي، وحرية

مناصرة الحق في وجه إنسان ظالم وحرية اللجوء لحد السيف في وجه المعتدي وحرية الدفاع عن الحقوق بشتى الوسائل الممكنة، وغير ذلك مما يعرف من الحقوق والحريات، لم تكن مفقودة تماما عند مجتمعات عرب الجاهلية ثم ظهرت فيما بعد عند أيمانهم بدين الإسلام مباشرة، فالناس لا يتغيرون بمثل هذه السرعة بمجرد انتمائهم الى فكر أو مبدأ أو دين جديد، بل يحتاجون الى وقت طويل وسنين عديدة حتى يتغيروا ويستوعبوا أفكارها الجديدة ويدركوا الفرق الحقيقي بين ما كانوا عليه وما سيكونون في المستقبل؛ فالإنسان لا يخلع جميع عاداته وموروثاته وتراثه وتقاليده مرة واحدة وكأنه يخلع رداء ويلبس آخر حالما يؤمن بدين جديد أو يعتنق فكرة حديثة؛ ان عرب الجاهلية عاشوا حياتهم لمئات السنين ثم آمنوا بدعوة محمد(ص) وانتقلوا الى حياة الإسلام، فكم من مسلم ترعرع في صباه وأيام شبابه أيام الجاهلية، ثم أمضى رجولته وشيخوخته في زمن الإسلام.

لقد كان مجتمع عرب الجاهلية يتألف من قبائل وعشائر عربية متعددة، وكانت هذه القبائل تتفاخر فيما بينها بالقوة والرجولة وكثرة المال والثروة والجاه والحسب والنسب وعدد الرجال ورفعة مستوى شعرائها والشجاعة والفروسية وغيرها من الصفات والمفاخر العربية، وكانت تعيش حالة من الاستقلال الذاتي والديمقراطية فيما بينها وفيما بين رجالها وأفرادها، فلا قدرة ولا سلطة لرئيس قبيلة على رئيس قبيلة

أخرى، ولا لرجل على رجل إلا بما يرضي الطرفين إن كان بالقوة أم بالاتفاق أو بما يتم الحكم فيه والتوصل الى حل لمسألته، وهذا ما أوجد حالة من تعدد القوى وتوازنها، فلكل رئيس قبيلة رجاله الذين يأتمرون بأمره ويخضعون لكلمته، وإذا ما حكم بأمر أو أقر برأي، فلا يجري إلا على أفراد قبيلته وليس على بقية القبائل، وهذا ما جعل لكل فرد قدرة على الكلام والتعبير والقبول والرفض والمواجهة والموافقة، لأنهم كانوا ينتمون الى مراكز قوى متعددة مستقلة لا تقبل إحداها بقرارات الأخرى إلا بالمراضاة والتفاهم. وعندما كان رؤساء القبائل يختلفون فيما بينهم، كان هناك من يلتجئون إليه للتحكيم بينهم، وفي زمن ظهور الإسلام كان أبو الحكم (أبو جهل) يتبوأ مثل هذا المنصب بين بقية رؤساء القبائل؛ لذلك فجميع هذه الحالات والموروثات والعادات انتقلت معهم ولم يخلعوها أو يتركوها حالما آمنوا بدين الإسلام، فلقد كانوا بحاجة الى وقت طويل ليتدربوا ويستأنسوا بالتعاليم والقوانين والأحكام الإسلامية الجديدة؛ فالنفس الإنسانية بحاجة الى كثير من الوقت لتتعلم وتتربى لينجلي عنها غبار العادات وعوالق الموروثات، ولابد من مرور وقت طويل وتعاقب عدة أجيال حتى يتم التحول، فهو يتناسب مع قوة الموروثات أو ضعفها، فإن كانت بسيطة وسهلة ووقتية، كفاها معلم عادي أو أب أو جد أو رئيس قبيلة لتتغير وتتبدل وتنمحي؛ أما إذا كانت مترسخة قديمة تناقلتها الأجيال واحدا تلو آخر وأمست عرفاً يشجب ويدان الخارج عن حدوده، فقد يتعرض المتمرد لعقوبات

اجتماعية قد تصل الى حد الطرد من القبيلة أو القتل في حالة مخالفتها؛ وفي هذه الحالة يحتاج تغيير هذه العادات الاجتماعية واقتلاعها من جذورها المترسخة في أعماق تربة التاريخ الى معلم خبير قدير وطبيب حاذق لبيب، ولن يناسب مثل هذه الحالة إلا معلم إلهي جديد بقوة رسول أو نبي ليأخذ بأيدي أتباعه ويسهل عليهم عملية تعليمهم وتحولهم؛ لذا نراه مرة يعاملهم برقة ولطف، ومرة يوجههم وينصحهم، وتارة ينهرهم وينذرهم، وأخرى يتركهم لقرارهم ورأيهم إذا ما أدرك أن نفوسهم ما زالت خشنة لم تصقل بعد، ويعاملهم بحلمه وحكمته إذا ما قابلوه بتصلب الرأي والعناد عندما يثار بينهم دخان التعصب وضباب النخوة وحمية الجاهلية، فهو يعلم بخبرته السماوية وعلمه الرباني ان جذوة مثل هذه الموروثات العتيقة ما زالت نارها حيّة في تربة نفوسهم تنتظر الفرصة لتلتهب من جديد، فيتركهم لشأنهم الى وقت آخر.

بل من الممكن ملاحظة هذا الاسلوب الرقيق بين آيات القرآن الكريم، حينما تبدو في ظاهرها كنوع من التنبيه أو التوبيخ لسيدنا محمد(ص)، بينما هي في حقيقتها خطاب موجه الى أمته لتربيتهم وتعليمهم؛ وما كل ذلك إلا لتخفيف وطأة التغيير عليهم للأخذ بيدهم نحو تأسيس الحضارة التالية. إذ ليس من المعقول أن يختار سبحانه

وتعالى رسولا غافلا أو سفيرا يرتكب الهفوات لتربية الناس وتعليمهم وهو بنفسه محتاج الى التربية والتعليم.

لقد اتسم تاريخ صدر الإسلام بعلامات خطيرة مركزة متلاحقة أثرت تأثيراً واضحاً في حياة الأمة لاحقاً، وهذا ما دفع بكثير من المفكرين الى محاولة حلَّ عقدتها وتحليل أسبابها ودوافعها، وتباينوا بين محب ينتقي الأعذار لها، وبين خصم يستهجنها ويضع عدسة التكبير فوقها وينسب بعض ما حدث من أخطاء تاريخية الى تصرفات شخص الرسول الكريم والى بعض قراراته وآرائه، واستدلوا على ذلك استعانته بآراء أتباعه ومشاورتهم، فألقوا اللوم عليه باعتباره رأس الأمة والمسؤول الأول عنها، وأن وجوده كان يحتم عليه الوقوف بحزم لفرض رأيه عليهم ومنع تجاوزاتهم طالما كان له رأي آخر، وبذلك فهم يعتبرونه بشراً عادياً مثلهم يخطأ ويسهو ويغفل كما يفعلون، ويحجبون عنه صفة التقديس والمعصومية مستدلين على ذلك ببعض الآيات التي تضعه في مقام البشر العاديين.

لكننا لو نظرنا الى الموضوع من زاوية أخرى، لوجدنا أن قداسته كان يتعامل مع مجتمع بدائي همجي متخلف رجاله قساة أجلاف لا يصحون من سكر ولا يتجنبون معصية ويعبدون أصناما يصنعونها بأيديهم ويأدون فلذات أكبادهم ويتفاخرون بالقتل والسرقة ويوقنون أن الإسلام الجديد لا يغير كثيراً من مفاهيم الرجولة والعصبية والنخوة بل

جاء ليرسخها ويزيدها ويعلو شأنها، لأنهم كانوا يعتبرونها مفاهيماً لا تمحى بل هي عنوان الرجولة وصفاتها، كما هو الحال مع حب كنز المال وتملك النساء، لذلك نرى أن الحكمة الربانية أبقت على بعض هذه المفاهيم ولم تغيرها أو تجزم بحكم متشدد في شأن تحريمها وذلك لصعوبة تغييرها واستحالة تفهمهم لضرورة التخفيف منها أو إزالتها، ودليل ذلك ما ظهر اليوم من أفكار تدعو الى الاكتفاء بزوجة واحدة بل ورفض الزوجة نفسها دخول ضرة عليها ومدافعتها عن حقوقها بكل الوسائل حتى لو اضطرها الأمر الى طلب الطلاق، بل أن بعض التشريعات الحالية راحت تدعم مطالبتها في الطلاق وتشرع القوانين التي تنصفها، وما كل ذلك إلا لتغير مفاهيم الأعراف والتقاليد وتبدلها التي عجز مجتمع الجاهلية عند اعتناقه الإسلام عن تفهمها، فبات ينظر اليها اليوم على أنها إرث عقيم لابد من تقويمه بما يتناسب مع الوقت.

وكذلك بالنسبة للغنى الفاحش، فلقد شرعت في القرون الأخيرة قوانين الضرائب والأرباح لتوقف نمو رأس المال بأيدي الأغنياء وتستعين بفائض الأرباح لتحسين مستوى الفقراء في المجتمع. كما ان الإسلام لم يحرم الرق والعبودية وامتلاك الأماء بشكل جازم تماما، وبقي المسلمون يتسابقون لامتلاك الأسرى والعبيد في غزواتهم وحروبهم، بينما نرى الفكر الإنساني والحالة الاجتماعية في هذا الوقت تستنكر

مثل هذا المفهوم وتسن القوانين لازالته وتحريمه، فظهرت مفاهيم حرية العامل والفلاح وغيرهما.

سبق وذكرنا أن حركة المجتمعات الإنسانية إما الى صعود أو هبوط، فهي تشابه تسلسل نمو الجسد الحيّ في وجودها، فتخضع للولادة والنمو والموت، ولابد من مرورها بمراحل الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة والموت. أما الشرائع السماوية فتمثل روح المجتمع وقوته، وهي تخضع أيضاً لذات القانون، تولد وتنمو وتشتد ثم تموت. ففي بداية حياتها تسمو بجسد مجتمعها وتأخذه الى أعلى مراتب الحضارات، معتمدة على قوتها الذاتية النابعة من قوة الله، وفي نفس الوقت تستفيد وتتأثر بما ينتشر حولها من أفكار بين بقية المجتمعات، كالانسان الفرد، يرتكز على قوة عقله في التعلم وعلى ما يستقطبه من معلومات والديه ومعلمي مدرسته ومن كل ما يتواصل معه في مجتمعه حتى يترقى، فجميع هذه العلاقات والمؤثرات، تجسد شخصيته وتبلورها، إذ ليس للإنسان سبيل آخر للتعلم وتكوين شخصيته والاستمرار في الحياة.

وهكذا بالنسبة لجسد المجتمعات، فعندما تدخلها حياة جديدة عند ولادة شريعة سماوية فيما بينها، تبدأ بالتعلم واستنباط الأفكار الجديدة منها، وهذا لا يمنع استفادتها مما يحيط بها من علوم بقية الحضارات الموجودة حولها، فكل ذلك يرفدها بما يزيد من قوتها ورفعتها، فاتصال

الأمة الإسلامية ببقية شعوب الأرض والاستفادة من علومها وترجمة كتبها، انما هي حالة طبيعية تزيد من قوتها وترفع من شأنها، بل انها ستكون مولود مشوه غير طبيعي لو لم تفعل ذلك؛ كما أنها تعتبر آخر مولود من أمم أصحاب الكتاب حتى ذلك الزمان، ومن الطبيعي أن يتعامل الأخ الأصغر مع خبرات إخوانه الكبار ويستفيد من تجاربهم وخبراتهم، فهذا من حقه الطبيعي، بل من واجب اخوته عليه تربيته وتعليمه ونقل خبراتهم وعلومهم إليه، وإذا لم يفعلوا ذلك فسيعاب عليهم امتناعهم، وقد يرتكب أخيهم أخطاء يحاسبه المجتمع عليها ويلومهم لعدم تنبيهه وتعليمه.

وهكذا الحال بالنسبة للأمة الإسلامية بعد ولادتها، فهي الأخ المحبوب الصغير لجميع الشرائع السماوية السابقة، وطالما كانت ولادتها طبيعية وجسدها وروحها سليمين، فمن الطبيعي أن تبدأ بالنمو والتعلم إن كان من قوتها وعلومها الذاتية (اللدنية) أم من تراث أخواتها بقية الشرائع أو مما حولها من أجساد المجتمعات، مثل الأمة الفارسية أو الحبشية أو الرومانية أو المصرية أو العراقية، فجميع هذه المجتمعات هي أجساد مشابهة لجسدها جرى عليهم ما سيجري عليها من سنن الحياة ومن الضروري أخذ العبرة والحكمة من تراثهم وتواريخهم، ولو لم تفعل ذلك، لكانت أمة متخلفة العقل مشوهة الخلقة

لا تعـرف كيـف تسـتفيد مـن خبـرات إخوانهـا وأخواتهـا المـاديين والروحانيين.

لذلك فوجود أو تشابه بعض أحكام وقوانين وقصص القرآن الكريم مع ما سبق ونزل في الشرائع السابقة، إنما هو أمر طبيعي جدا، لأنها نزلت من أب سماوي واحد ولغاية واحدة، ولابد أن يخلقها ويبدعها ويصوغها ويضع فيها كل ما يتناسب مع دوام حياتها وطبيعة نموها من مختلف القوانين الجديدة أو السابقة، وضعية كانت أم سماوية لتصلح لزمانها وطول حياتها القادمة.

أما ما يعيب بعض المفكرين على الأمة الإسلامية استعانتها بما وجد من قوانين وأحكام وضعية وعادات بقية الأمم والشعوب من حولها، فهذا أمر طبيعي لا عيب فيه، بل العيب كل العيب لو أنها تقوقعت على نفسها وانطوت على ذاتها ولم تستفد من خبراتهم، لأنها بذلك ستكون أمة غير سوية مريضة لا تعرف كيف تفكر ولا تدري أن مصلحتها تكمن في الاستفادة من خبرات وعلوم غيرها من الأمم.

وهذا ما حصل بالضبط عند انتقال المجتمع الجاهلي الى المجتمع الإسلامي وفيما بعد خلال حياته. فلننظر الى تسلسل حلقات التاريخ وعلاماته الفارقة ومنعطفات مراحله الخطيرة التي كان لابد من تتبع

مسارها وتصحيح مسيرة المجتمع باتجاهها كلما وصل الى نقطة جديدة من نقاط تطوره بعد وفاة مؤسسها وزعيمها.

إن ظهور سيدنا محمد(ص) بمبادئ جديدة جليلة بين قوم يحملون عادات وتقاليد غاية في القدم والتخلف، هو الذي دفعهم الى مواجهته بكل ذلك العنف الذي تراوح بين محاولات إقناعه وأهله بالتخلي عن دعوته، والى مناقشته ومجادلته ومحاولة التغلب عليه بالحجة والبرهان، والى مطاردة أتباعه الى الحبشة، والى تعذيب أتباعه وسجنهم وقتلهم، والى مقاطعته وأصحابه اقتصاديا واجتماعيا كان عنفوان قوتها في تركهم لمدة ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، والى محاولة اغتياله، والى إرغامه على الترحال بين بقية المدن والقبائل لنشر دعوته وما حصل له خلالها من اعتراض وأذى يندى له جبين الإنسانية، والى سلوك سبيل العنف والقتال والمحاربة، وفي النهاية الى دخولهم الإسلام مرغمين أم مقتنعين.

لكن هذا المجتمع الجاهلي بقي يحمل بشكل عام، إلا فئة قليلة منه، فكرة السيد والعبد والقائد والتابع والغني والفقير والرجل والمرأة والنسب والحسب وغيرها مما شابه بعد اعتناق دين الإسلام، لأنهم لم يتخلوا عنها تماما حال إسلامهم، وبقيت جرثومتها ترعى في مراعي نفوسهم بنسب مختلفة. فهناك من آمن عن قناعة ورضى وكان له عقل راجح وقلب سليم، فانقلب كيانه وتنورت روحه وتحول بين ليلة وضحاها الى

مـلاك طـاهر تتفـاخر الأرض بمـوطئ قدميـه. وهنـاك مـن آمـن نتيجـة ظروف معينة، فبقي في نفسه شيء من مخلفات المجتمع القديم بنسب متباينـة بقـي يصـارعها الـى فترة من الزمـان. ومن دخـل الإسـلام مرغماً غيـر مقتنـع بمبادئـه ولا بفكرتـه وبقـي علـى حالـه ينتظـر فرصـة الارتداد والنكوص ليعود الى حالته السابقة.

وهكذا كانـت هذه العادات القديمـة تظهر بين المسلمين بين الحين والآخـر بدرجـة أو بـأخرى علـى مختلـف مسـتوياتهم، فهـذا ينـادي علـى الرسـول الكـريم بصـوت عـال وكأنـه نـد لـه ومـن مسـتواه، وآخـر يطيـل الجلوس في بيته جاهلا آداب الزيارة والضيافة، ومن يحاججه ويسحبه من قميصـه وعباءتـه ويطالبـه بتقسيم الغنائم بالعدل بينهم، ومن يتحايل عليه ويحاول غشه بإبداء رأي مدسوس منمق ليساهم في إفشال دعوته وتشويه سمعتها، ومن يحكم بقتل مجموعة من اليهود ولا ينتبـه لوقوفه في محضر سيد العظمة والكبرياء وراية الرحمة والمغفرة ولا يستحي من إبداء رأيه فوق رأي النبي الكريم، ومن يفرض رأيه عليه بعدما يستفسر عن نوعيـة رأيـه إذا كـان بشريا من ذاتـه أم هو وحـي من السماء، ومن تغريـه الأموال والغنائم ويتسابق مع غيره في جمعها وتعويض ما فاته منهـا فـي المعركـة السـابقة، فيعصـى تنفيـذ أوامـر رسـوله الكـريم ويتـرك موقعـه علـى سفح الجبـل، فيتسـبب فـي خسـارة معركـة الإسـلام الثانيـة، ومن يعتبر الرسول بشرا عاديا لا فرق بينـه وبين غيره، إنما هو يوحى

إليه، وكأن عملية الإيحاء مسألة بسيطة مفهومة الجوانب يتناولها كل يوم مجموعة من العوام، فيرفض توفير قلم وقرطاس للرسول ليكتب وصيته، ويقترح الاحتكام الى القرآن الكريم وكأنه يفهم بمحتواه وتعاليمه أكثر ممن أنزل على صدره.

في قوم كهؤلاء ظهر رسول الله محمد بن عبد الله المصطفى المختار، بين أصحاب تركوه يحتضر ويموت لوحده إلا من جليسه، وتجمعوا ليقتسموا المناصب السياسية فيما بينهم، ويعودوا ليصبوا زيت الحياة على جذوة العادات البالية ويتنافسوا على منصب الرئيس والمرؤوس والقائد والتابع والسيد والعبد والأمير والغفير الخامدة لتلتهب وتعلو من جديد فيما بعد لتعيدهم شيئاً فشيئاً الى سيرتهم الأولى منذ لحظة وفاة معلمهم ومربيهم ورسولهم الذي جاهد طوال حياته في سبيل إخماد نارها، فوضعوا أول حجر في أسس بناء الحكم الفردي الدكتاتوري المطلق الذي راح بنائه يعلو ويكبر، ولم ينتبهوا لما ستؤول إليه حالهم، فالتقت حورية فكرة المجتمع الجديد مع مارد العادات الجاهلية القديمة ولم تجد بداً من مسايرته، فكانت أولى علاماته اجتماعهم تحت السقيفة حينما ساعدوا في ولادة أطروحة جديدة توفق بين مفاهيم الماضي ومبادئ المستقبل، ثم كان اختيار الرئيس كما هو الحال في القبيلة والعشيرة، ثم راحت تظهر المبتكرات الفقهية التي خالفت في بعضها نصوص أحكام القرآن، فبدت للأجيال التالية وكأنها

جزء لا يتجزأ من مفاهيم القرآن والشريعة، مثل مفاهيم الغزو والإغارة وعمليات السلب والغنائم والسبي التي لم تختلف عن مفاهيم الجاهلية الأولى، وظهر مفهوم الردة المخالف لنصوص القرآن في التسامح وترك الناس يختارون معتقداتهم وأديانهم كيفما يشاؤون، وسلط السيف على رقاب الناس وإجبارهم على اختيار الإسلام أو دفع الجزية أو القتل، بل ظهر فيما بعد من الملوك من اختصر هذه الخيارات وجعلها اثنين لا ثلاثة، الايمان أو الجزية، باعتبار ان الأخيرة أفضل من الحل الثالث، ففي حياة الخصم دوام سيل موارد الجزية وأموالها، بينما في قتله قلتها ونقصانها.

كل هذه الأمور الدخيلة على المفاهيم الإسلامية وغيرها كانت أصل بذرة ما وصلت إليه شجرة الأمة الإسلامية في هذا اليوم، وهي السبب الأول والرئيس لظهور كل أشكال التخلف التي نشاهدها في مجتمعاته، بل هي أساس تعميق وظهور فكرة الفوقية والدونية وأنا وأنت ونحن وهؤلاء والمؤمن والكافر والطاهر والنجس التي تطورت الى فكرة الصراع بين الحضارات والأديان وتعميم مفهوم الشهادة حتى على الإرهابيين وقتلة الأبرياء وتجميلها في عيون البسطاء.

إن أي فكرة عظيمة أو أية رسالة سماوية أو أي تغيير يجري على المجتمع، لا يظهر إلا إذا كانت هناك حاجة تدعو له، ولابد أن يكون المجتمع في طور الهبوط والدنو في مجال من المجالات لتظهر الفكرة

حتى تعيده الى مساره الصحيح وتعلو به من جديد. ففي طور الصعود يكون المجتمع متجها الى أعلى بوتيرة واضحة، لكنه لا يخلو من انتكاسات تقومها أفكار المبدعين والعلماء المتولدة من باطن الفكرة الكلية، أو ارتفاعات يستهجنها الرأي العام السائد فيعيدها الى مستواه إن كان بالقوة أو بالإهمال؛ وعندما يصل المجتمع الى قمة هرم التمام، يبدأ بالنزول إن عاجلا أم آجلا بما يتناسب مع استعداداته مهما بقي على القمة، بعدما ينفد معين ابتكاره ويغور ماء فكره وتغرب شمس روحانيته، وهنا لابد وأن يكون نزوله في بداية الأمر بحركة بطيئة تزداد سرعتها كتدحرج الصخرة من علوها، فتجرف كل ما يقف في طريقها، وعندما تصل الى وادي الفوضى والتخبط وأرض الخراب والدمار، تصطدم به بقوة وعنف ثم تستقر في مكانها لتغوص في وحول الجهل والغفلة والعصبية فيعلوها تراب التفاخر بالماضي والتراث والتظاهر بأمجاد الأجداد والعناد عن سماع الرأي الآخر والإصغاء له؛ فإذا انتبه علماؤها وفقهائها وأولوا الألباب منهم الى سر تدهور حالهم وسبب تخلفهم، راحوا يبحثون حولهم عما يخلصهم مما وقعوا فيه. أما إذا غلفت الأوهام جوانب عقولهم وعلا صدأ الغفلة صفحات قلوبهم وركبوا مطية تعصبهم، فستتراكم فوق صخرة وجودهم ما يهطل عليها من جديد طين الجهل حتى يعلو رؤوسهم ولا يعد يرى منهم شيئاً ويغوصون في باطن أرض الهلاك والاندثار ويمحى أثرهم.

حرق الجباه:

ان سلسلة الأفكار والتأملات تأخذنا الى ظاهرة انتشرت هذه الأيام بين بعض الناس، وهي حرق الجبهة وترك علامة داكنة عليها دلالة على ان هذا الرجل من المسلمين القائمين على الصلاة والتعبد ليل نهار. وان سأل أحدهم عن سبب ذلك؟ أجاب بتواضع مصطنع: انه من كثرة السجود! فيظهر سؤال آخر يفرض نفسه: لماذا لا تظهر هذه العلامة على جباه النساء المسلمات القانتات الساجدات المقيمات للصلاة في بيوتهن ليل نهار، مع أن جباههن أرق وألطف؟ ولماذا لا نراها على جباه كبار علماء الدين الأفاضل؟ وبهذا التلميح نترك لأولي الألباب استخراج ما يجدونه مناسباً من جواب أو تعليق.

البدعة:

هناك تعبير شاع على ألسنة بعض الناس راح يتردد بين الحين والآخر، وهو ما يعرف بالـ (بدعة)، وراحوا يطلقونه على كل ما هو جديد، بغض النظر عن فوائده للمجتمع أو صلته بالدين. ان مصدر هذه الكلمة لغويا هو: بَدَعَ الشيء، أي أوجده لأول مرة؛ أي بدء به دون ان يسبقه الى فعله شخص آخر قبله؛ فمثلا نقول: أبدع سعيد في الكلام، أو ابتدع صالح آلة؛ فنعني: ان سعيداً قال كلاماً جديداً لم يقله غيره من قبل، وكذلك لم يسبق صالح أحد في صناعة هذه الآلة، وانه

أوجدها من العدم الى الوجود. لذلك نقول ان الله هو البديع الأول، أي انه هو الذي خلق وأوجد واخترع كل شيء قبل ان يكون أي شيء موجود.

اذن فالبدعة معناها اختراع شيء جديد سواء أكان مادياً أم فكرياً، وهذا شيء جيد ومستحب، ولقد ثبت ان تقدم الشعوب والمجتمعات يعتمد اعتماداً كلياً على الإبداعات، ولم تؤسس أمة من الأمم حضارتها إلا بالإبداع والاختراع. لكن بعض من لا يعرفون من الدين الا قشوره، راحوا يطلقون على كل ما هو جديد وحديث، كلمة بدعة، مستندين الى الحديث الشريف: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) فاختلطت الأمور وتشابكت، وبما ان المؤمنين والمسلمين وغالبية الناس يرجون حسن الخاتمة ويتطلعون الى الجنة ويتجنبون القيل والقال والنزاع والجدال، لذلك، وتجنباً من الوقوع في المحظور والحرام، التجأوا الى علماء الدين ورجاله ليميزوا لهم ما هو بدعة من غيره، حتى انتشرت هذه الفكرة بين الناس بنفس القوة التي انتشرت بها اختها (حلال وحرام)، مما أدى الى نهاية خطيرة ساهمت بشكل كبير في منع المسلمين وحجبهم عن المساهمة مع بقية الشعوب في الاختراع والتفكير والإبداع خوفا من التورط في خلق البدع وبالتالي غضب الله ورسوله.

منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، والحياة تتقدم والمجتمعات تتطور والأحداث تستجد، لذلك كان المجتهدون والمفتون وعلماء الدين يفكرون

ويقيسون ويقارنون ما يستجد منها بما بين أيديهم من أدبيات الفكر الإسلامي ثم يفتون بما يرونه مناسبا وموافقا للدين الحنيف، وغالبا ما كانت تلك النتائج أو الفتاوى تظهر على شكل إبداعات جديدة لم تعرف من قبل، لأنها كانت تظهر لأول مرة ولم تسبق بمثلها. اذن فحقيقة ما كان يفعله أولئك العلماء الأفذاذ، هو ابتداع أمور جديدة غير مسبوقة رجاء خير المجتمع وصالحه. فلماذا اذن يحلل ذاك الإبداع، ويحرم هذا الاختراع؟

عندما أرسل الرسول الكريم معاذ بن جبل الى اليمن لنشر الدين الإسلامي، سأله عما سيعتمد عليه في أحكامه في نشر الدعوة؟[5]

فأجاب الصحابي: أستند الى القرآن الكريم. فسأله: وان لم تجد بغيتك فيه؟ قال: استخرجها من الحديث. قال: وان لم تجد؟ قال: اجتهد. فقال المصطفى: أذهب على بركة الله.

اذن فالاجتهاد هو نوع من أنواع الإبداع، لأنه يخرج حكم جديد من العدم الى الوجود.

فإطلاق كلمة (بدعة) واستعمالها فيما بين الناس اليوم فيه شيء من التطرف ومن الممكن ان تحصل فيه بعض التجاوزات، ومن الممكن أيضا ان يسبب الحث على التخلف والتقوقع في زوايا الظلام والجهل ومنع الناس من المشاركة في التفكير والإبداع والاختراع للمساهمة في

تقدم المجتمعات، وهذا ما يريده أعداء الأمة ويعدون له كل الوسائل ويبذلون الغالي والرخيص في سبيل تحقيقه، بينما نحن وبكل بساطة، ننفذ رغباتهم ونساعدهم على زيادة المسافة والهوّة بيننا. ان الأمم المتقدمة لم تصل الى ما هي عليه من تقدم الا بهذا السبيل، الإبداع والاختراع، ونحن مع كل الأسف نُحَرِّمُهُ على أنفسنا بأنفسنا. فلو نظرنا حولنا لوجدنا كل شيء تقريبا يمكن تسميته بدعة أو إبداع، فهل نتركها ونعتبر استعمالها حرام؟ فالسيارة والطيارة بدعة لأنهما لم يكونا موجودتان من قبل، وجميع الأجهزة الكهربائية بدعة، وقس على ذلك، فأين كل هذا من الحلال والحرام؟ والعاقل يقيس ويفهم.

فريضة الحج:

لننظر الى فريضة الحج على المسلمين، فبالإضافة الى انها فريضة سماوية روحانية تبعث روح الايمان عند المسلم المؤمن وتقويها، وهي واجبة التنفيذ لمن استطاع اليها سبيلا، كذلك يمكن إعطاؤها معاني أخرى كثيرة نجد فيها غاية الحكمة الإلهية في لمّ الشمل والاتحاد والتآخي، ان تخصيص موقع معين بذاته لاجتماع ملة أو أتباع دين سماوي واحد سنوياً، ما هو الا بمثابة اجتماع سنوي عام أمر الله به، لكنه لم يعممه على كل المسلمين ولم يفرضه على الجميع بكل فئاتهم، بل خصص لهذه المهمة شريحة معينة من المجتمع، وهم **(مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)**[6] وهذا يعني القادرين منهم على أداء هذه الفريضة

الصعبة، فلو تذكرنا ما كان يعانيه الحجيج في الأيام السالفة من مشقة بدنية غاية في الصعوبة للوصول الى مكة والعودة منها عبر تلك الأراضي القاحلة الصعبة، خاصة وانهم منتشرون في شتى بقاع الأرض، لأدركنا حكمة الله في ذلك، فكلمة (القادرين) لها معان كثيرة، منها القادرين مادياً، أي ميسوري الحال المتمكنين الذين يستطيعون إنجاز هذه المهمة على حسابهم الخاص، ودليل ذلك ان المسلم الذي ينوي الحج، عليه تسديد جميع ديونه قبل السفر، فان مات خلال حركته وإقدامه على الحج، فسيموت ميتة طيبة مرضية خال من الديون المثقلة لكاهله، لأنها تعتبر من الأوزار عند لقاء رب السموات، إضافة الى احتمال وفاته في طريق الذهاب أو العودة لكثرة المخاطر المتوقعة من قتل وسرقة وخروج قطاع الطرق والكواسر والوحوش عليه، أو التيه في الصحارى والوديان أو الموت غرقاً. اما عن كثرة المصاعب خلال الرحلة، خاصة ووسائل السفر كانت إما مشياً على الأقدام أو ركوب المطايا أو البحر وأخطاره، فالكل يعلم بمصاعبها وأهوالها أيام زمان، ولا حاجة لسردها.

وكلمة (القادرين) تعني ايضا القادرين صحياً، أي سليمي الجسم، لما ذكرناه من مشاق السفر الرهيبة. وما هذان الشرطان، الصحة والمال، الا لتحقيق وصول الحاج الى بغيته واتمام أهدافه السامية، وهي أولاً: حج بيت الله الحرام كركن من أركان الإسلام، وثانيا: الالتقاء

بالحجاج القادمين من كل أطراف المعمورة، هذا إذا تذكرنا انه لم يكن في ذلك الزمان وسائل اتصال مثلما نملكه اليوم من تلفزيون وهواتف وصحف ومجلات وراديو وأقمار صناعية وانترنت، فأخبار المسلمين كانت غالباً ما تكون مقطوعة عن بعضهم البعض ويصعب معرفة ما يحصل من حروب وفتن وانتصارات ومخاطر وكوارث طبيعية على بقية شعوب المسلمين الا بهذا الالتقاء السنوي، فيتبادل المسلمون أخبارهم ويعرفون أحوال بلادهم الواسعة المترامية الأطراف في هذا الملتقى العظيم، وبذلك يتحقق هدف كبير، يعوض بعد المسافة والسفر ويوفر عليهم مشاق الترحال لنقل الأخبار التي لا تحتاج الى مسارعة في نقلها.

فإذا علمنا ان الحجاج المسلمين الميسوري الحال في تلك الأيام، لم يكونوا إلا من رؤساء القبائل أو أعلام المجتمع أو أصحاب النفوذ أو كبار التجار أو الحكام أو الأغنياء، أي الممسكين بزمام أمور أممهم وبلدانهم من حل وربط في الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ندرك أن باجتماع هؤلاء النخبة، يحصل اجتماع قمة إسلامي سنوي عام لكل أعلام المسلمين وكبرائهم في العالم، فيتداولون أمور دينهم ودنياهم، لينقلوها الى بلدانهم حتى يقيسوا ويتشاوروا في الحلول الصائبة الحكيمة نحو كل ما يستحق المشاورة، ودليل ذلك هو السماح بتكرار الحج عدة مرات لمن استطاع إليه سبيلا، وما هذا التكرار الا للحاجة

المتكررة الى المشورة بين كبار رجال المسلمين في أمور قد تحتاج الى إعادة اللقاء والمشورة من التي لا يتم إنجازها الا بعدة لقاءات، هذا إذا علمنا ان الحجيج يمكثون في مكة أو المدينة مددا غير محدودة، وما ذلك الا ليحققوا الغرض الثاني من مجيئهم، ألا وهو المشورة، كما قال تعالى **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)**[7].

اذن كان لهذا الفرض العظيم حكماً عديدة خفيّة غير الظاهر منها، حافظت على قوة الايمان لدى المسلمين ووحدت جماعتهم ومللهم في كل أطراف المعمورة.

الوضوء:

أما ما يمكن التكهن به من أسباب وجوب الوضوء قبل الصلوات خمس مرات وغسل الأطراف. فبالإضافة الى انها تكسب المتوضئ حالة إيمانية روحانية وشعوراً بالرضى النفسي لاقدامه على مخاطبة الخالق وإيفائه حقه بتأدية أحد أركان الدين والايمان، كذلك يمكن أن يكون من أسبابها، ان الله عز وجلّ عالم بأحوال العباد ومقدار نظافتهم، وعرب الجاهلية قبل الإسلام كانوا يعيشون في أرض صعبة ترابية يقل فيها الماء، تعلوهم الأتربة والأوساخ والروائح الغريبة، حيث لم يكن الكثير منهم يقيم للنظافة مقاما يذكر، ولم يكونوا عالمين بما لها من تأثير إيجابي جيد على الروح والأخلاق والتفكير والصحة والذوق

السليم، لذلك أمرهم الله سبحانه وتعالى، بالوضوء خمس مرات يوميا درءاً لأخطار الأوبئة والأمراض عنهم ورحمة بهم، ودليل ذلك انه سمح لمن توضأ ولم يتسخ ان يقيم صلاته التالية بدون وضوء، وفي هذا تخفيف من مشقة جلب الماء ونقله، باعتباره كان نادراً وعزيزاً في الجزيرة العربية في تلك الظروف الصعبة حيث الأراضي الترابية الصحراوية الجرداء ومخاطر وحوش البرية ومتاعب الذهاب والعودة بحمل الماء، وكذلك لتعليمهم المحافظة على الذات والنفس نظيفة طوال أوقات الصلاة التي تشمل غالبية أوقات اليوم تقريبا.

اذن ان عملية الوضوء هي عملية إيمانية روحانية مادية صحية مشتركة، لذلك نسبها الرسول الكريم الى الايمان (النظافة من الايمان).

مواقيت الصلاة:

أما عن الحكم الإلهية العديدة في ترتيب مواقيت الصلوات الخمس، فلقد جاءت متناسبة تماما مع الوضع الاجتماعي لذلك الوقت، فمنها: ان الحالة الاجتماعية في تلك الأيام كانت تقتضي على الإنسان النوم المبكر والاستيقاظ عند الفجر، وذلك بسبب عدم وجود الأنوار والمصابيح، وبساطة الأعمال والمهن والحرف المنتشرة بين الناس، فأغلبهم كانوا يمتهنون الرعي والزراعة وحرفة النجارة والحدادة والبناء وما شابه ذلك من الحرف اليدوية الضرورية لتلك المجتمعات، وجميع

محترفي تلك المهن كانوا مجبرين على أداء مهام عملهم في أوقات النهار فقط ابتغاء نور الشمس، وهذا ما نشاهده اليوم واضحا في بعض القرى البعيدة عن مظاهر الحضارة. وهكذا نظم الدين حياة الناس الاجتماعية والروحانية معاً، وكان يسراً للجميع وأعطى الفرصة الكافية للعيش براحة وهناء وتأدية أمور الدين والدنيا.

ومن معاني أسباب صلاة الجماعة العديدة أيضاً، إضافة الى لقاء الرحمن وعبادته، شعور المؤمن بالقوة والفخر والإيمان وهو واقف بين أقرانه وأهله وذويه بجمعهم الكبير وهمهمتهم المدوية وهم يتلون آيات الذكر الحكيم فيما بينهم، والابتعاد عن جو البيوت حيث صخب الأطفال وضوضائهم، إذ لم تكن هناك مدارس ليجتمعوا داخلها، كما ان صغر حجم البيوت وعدم وجود المجال الكافي والمكان النظيف لأداء الصلاة، خاصة وغالبيتها كانت لا تماثل المسجد في نظافته، كل ذلك وغيره، كان من أسباب تحبيب الصلاة في المسجد للابتعاد عن كل ما يشتت الذهن والفكر عند مخاطبة الخالق؛ هذا بالإضافة الى ما لتأثير الدعاء والصلاة الجماعية من قوة على تنقية الروح الإنسانية ورقيها في ذلك الزمان.

تعدد الزوجات:

أما بخصوص الحِكَم الإلهية من وراء السماح بالزواج من أربع نساء، فمن المحتمل ان يكون لموضوع الجهاد في الإسلام دور كبير في إيجادها، فطالما ان أمر الجهاد هو فرض على جميع المسلمين القادرين عليه، وان احتمال الاستشهاد في سبيل الله وارد أثناء تأديته، ولإنهاض الهمم وتشجيع الإقدام على الجهاد دون الالتفات الى الأهل والأقرباء أو التعلق بهم وما قد يسببه هذا العائق من تردد بين المجاهدين؛ وضع الله قانون الزواج بأربعة نساء كمكافأة لتحريض المسلمين على الجهاد حتى لا يقلقوا على ذويهم، وكحل أمثل للآفات الاجتماعية؛ فان استشهد المسلم في القتال، فسيلقى خالقه وهو مطمئن على عياله وعائلته بتركهم في أحضان دولة إسلامية وقانون سماوي عادل، واحتمال اقتران زوجته مرة ثانية بمسلم آخر يرعاها ويحسن اليها وعلى أولادها، هذا بالإضافة الى ما يعتقده من نيل أنواع الملذات في جنة الخلد.

أما في الحالة الثانية، أي إذا عاد المسلم من الجهاد منتصراً، فسيدفعه حافزه الديني وإيمانه على الإقدام للزواج مرة ثانية أو ثالثة.. من إحدى أرملات رفاقه وزملائه المجاهدين الشهداء، وهذا ما يسد النقص المتتالي من حاجة المجتمع الى جنس الذكور نتيجة الجهاد. ومن هذه الحكمة الإلهية نخرج بحكمة عظيمة أخرى، وهي سد إحدى

ثغرات الفساد في المجتمع والمحافظة عليه من الانحدار الى الرذيلة لو بقي عدد الشهداء والأرامل واليتامى في تزايد مستمر. فبوجود حكمة الزواج بأكثر من زوجة، استطاع المجتمع الإسلامي تجنب الخطر الذي وقعت فيه الأمم الأخرى ودرأ عنها فتنة الفساد الأخلاقي لقرون طويلة. وإلا فلو فكّرنا قليلا فيما كان سيحدث للمجتمعات الإسلامية من انحدار أخلاقي إن اقتصر الزواج على واحدة بوجود فرض الجهاد المقدس، لهالنا ذلك، خاصة والكل يعلم كم هي عدد الحروب والمواقع الحربية الجهادية التي خاضها المسلمون في تاريخهم الطويل في سبيل الدين الحنيف.

ورب سائل يسأل، كيف يمكن ان تكون حكمة الله في حفظ مجتمعات المسلمين في وضع قانوني الجهاد والزواج من أربعة، ولم يشرعهما لحفظ النصارى عندما كانوا أصحاب دين حق قبل الإسلام، فحرّم عليهم الجهاد والزواج بأكثر من واحدة؟ أليس في هذا دليل على رقي مبادئ الديانة النصرانية؟

والجواب، ان الله لم يأمر بالجهاد في الديانة المسيحية، وبذلك بقيت نسبة الجنسين متساوية تقريبا، وكانت سمتها الغالبة في نشر الدين، هي الكلمة الطيبة والعمل السليم والمسامحة والعفو (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) لان الديانة المسيحية ظهرت في مجتمع أكثر حضارة وأقرب الى المدنية من الديانة الإسلامية التي ظهرت بين

العرب الذين كانوا بعيدين عن مواطن الحضارة ومتوغلين في مجاهل غابات الجاهلية. ولو ظهرت الديانة الإسلامية في مجتمع متساو في مقدار الرقي الحضاري الذي ظهرت فيه الشريعة النصرانية، لكانت طريقة نشر الدعوة الإسلامية، هي ذات الطريقة النصرانية في نشر دعوتها. أو بصيغة أخرى، لو أن المسيح(ع) ظهر في مجتمع مشابه للمجتمع الجاهلي القبلي الذي ظهر فيه سيدنا محمد(ص)، لرأيناه يستعمل ذات اسلوبه في وقوفه أمام أعدائه، إذ ليس من المعقول أن يترك أتباعه طعمة للسيف دون أن يحرك ساكناً، أو لا يضع خطة للمحافظة عليهم وعلى دينهم ويتركهم يبادون ويؤئد دينهم؛ أي لو كان محمداً(ص) قد ظهر في زمان ومكان عيسى(ع)، لاستعمل ذات اسلوبه، ولو كان عيسى(ع) في ذات موقع محمد(ص) وزمانه، لاستخدم ذات طريقة أخيه؛ فاختلاف طريقتي المواجهة واسلوبهما، فرضه واقع الحياة والمجتمع ومستوى تطورهما، وليس امتيازا أو مثلبة لأحدهم دون الآخر.

وهذا ما يعلل قوله تعالى **(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)**[8]؛ وهذا ما يفسر قوله

الكريم **(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)**[9].

لكن النصارى لم يدركوا هذه الحكمة الإلهية ولم يلتزموا بها وغفلوا عنها، وشدوا الرحال والرجال وجمعوا الجيوش باسم الدين من كل النواحي لنشر الدين المسيحي بالقوة، وقاتلوا في كل الأمصار، إن كان فيما بينهم البين أو في حروبهم الصليبية مع المسلمين التي استمرت أكثر من مائتي عام، فكان جزاؤهم الشديد لغفلتهم عن أوامر دينهم، ما نراه اليوم من تفشي تلك الآثار السلبية السيئة بينهم، وما أعراض هذه الأمراض الاجتماعية والأخلاقية الحالية في دول الغرب، الا من ذلك الداء القديم الجديد، لذلك يصعب شفاؤه والتخلص منه في هذه الأيام لقدم عهده واستفحاله.

ان الحكم الإلهية في كل ديانة، كثيرة لا تعد ولا تحصى **(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)**[10].

الأكل باليد اليمنى:

وننهي هذا الفصل بموضوع آخر أمر به سيدنا محمد(ص) وهو الأكل باليد اليمنى فقط، فلو فكّرنا طبياً وصحياً في هذا الأمر، لوجدناه يجبرنا على استعمال طريقة العزل الطبية الصحيّة الصحيحة التي

ينادي بها طب اليوم، فبسبب عدم وجود أسباب النظافة في السابق (الماء والصابون والمعقمات) استطاع الرسول الكريم بحكمته البالغة، الفصل بين عمل اليدين، وبذلك حافظ على حياة أمته وحفظها من الأمراض والأوبئة والجراثيم والفايروسات قدر الامكان. فعملية تخصيص اليد اليمنى للأكل، وتخصيص اليسرى للتنظيف الجسدي، هي بمثابة منع دخول الجراثيم والميكروبات القاتلة وغيرها التي تتلوث بها اليد اليسرى خلال عملية التنظيف الى داخل الجسم عن طريق الفم أثناء تناول الطعام. والعلم الحديث بكل تقدمه يحث على التمسك بعملية العزل الصحي والنظافة وأهميتهما كأفضل وسيلة في إيجاد الجسم السليم.

اذن، فكل هذه الأوامر والتعليمات التي صدرت من سيدنا الرسول الكريم وغيرها، انما هي مقتضيات زمانية واجتماعية كان لابد منها في ذلك الوقت حسب حالة المجتمع آنذاك. أما اليوم فإن المجتمعات قد تغيرت والأدوات تبدلت ودخل التقدم كل بيت حتى في أقصى البلدان النائية، وبذلك كان لابد من مسايرة التطور والتقدم واكتساب العلوم المفيدة لكل ما يسعد الإنسان ويساعد على راحته وسعادته.

فيا لحكمة وعظمة هذا الرسول النبي الأميّ.

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَـهُ يُصَلُّونَ عَلَـى النَّبِـيِّ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا صَـلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[11].

الهوامش

1 – سورة النجم الآيات 3–11.
2 – سورة البقرة آية 219
3 – سورة النساء آية 43 .
4 – سورة المائدة 90.
5 – صحيح البخاري – كتاب المغازي .
6 – سورة آل عمران 97/3 .
7 – سورة الشورى 38/42 .
8 – سورة البقرة الآية 253.
9 – سورة البقرة الآية 285 .
10 – سورة إبراهيم الآية 34.
11 – سورة الأحزاب الآية 56.

(الباب الخامس)

الفصل السابع عشر

عوالم الروح

لاحظنا في الفصول السابقة كيف كان لموضوع الروح أو العقل عصباً رئيسياً بين متونها، فكثيراً ما يخطر في الأذهان هذا الموضوع وما يتعلق ويثار حوله من استفسارات وتساؤلات، فكيف هي، وأين تسكن، وما شكلها، وهل هي مذكر أم مؤنث، داخل الجسد أم خارجه، وما هي تأثيراتها، وكيف تبدأ، وما هي نهايتها؟

ولا يخفى ما لهذا الموضوع من أهمية كبيرة لدى البشر ممن يؤمنون بوجود خالق عظيم لهذا الكون اللامتناهي، ودرجة تأثيره على قوة وضعف الايمان بالله ورسله. ولقد وقف العلم والعلماء الباحثون والمختصون في هذا المجال عاجزين عن معرفة كُنه الروح واختلفوا حتى في حقيقة وجودها، فمن يقول بوجودها ومن يقول بعدمه ويعجز الطرفان عن إثبات قولهما. لذا نريد جمع ما نتمكن من معلومات من

السلف ومن علماء الدين والطب والفيزياء والميتافيزيقيا في بودقة واحدة، ندرسها ونتفحصها، لنرى ما يمكن الحصول عليه. فللقارئ الكريم كامل الحرية في الأخذ بها أو تركها وإهمالها جملة وتفصيلا، بعد ان دخلت البشرية مرحلة متقدمة من العلم والمعرفة والثقافة والنضوج وانتشار الاختراعات، وبعد ما سجل من حوادث وأحداث مختلفة حصلت لبعض الناس في أماكن وأزمنة مختلفة، كان للروح دون الجسد دور واضح فيها، أعجزت العلماء والأطباء عن تفسيرها، كأن يموت شخص بين أيديهم ويتحقق موته، ثم يعود للحياة بعد ساعات، وآخر يجزمون بوفاته ثم يعود للحياة متحديا علمهم وتقنيتهم، وثالث يعود من الموت ليقص عليهم ما شاهده هناك، وكيف التقى أقاربه وأهله الذين سبقوه ثم عاد ليجد نفسه في هذه الدنيا مرة أخرى.

كل هذه الأمور وغيرها تشجع على الخوض في مسألة الروح وماهيتها. فالمتتبع كثيراً ما يجد ذكرها في الكتب والمجلات العلمية، إذ لم يعد علماً محجوراً يكتنفه الغموض.

قرأ أو سمع العديد من القراء عن أولئك الذين ماتوا وعادوا للحياة في مختلف أنحاء العالم، وخاصة من كان منهم في صالة العمليات، وما ذكروه عن مشاهدتهم لأنفسهم وهم يحلّقون في الهواء وأيدي الأطباء تبضع وتخيط أجسادهم، دون الشعور بتعب أو خوف أو رهبة. بل على العكس، ذكر غالبيتهم انهم كانوا في حالة من الفرح والسعادة لم يشعروا

بها في عالم الأرض من قبل، وتمنّوا جميعاً لو بقوا في ذلك العالم ولم يعودوا، ومنهم من ذكر انه بعد ترك روحه غرفة العمليات، ومجموعة الأطباء تعمل في جسده، توجه محلقاً في ممر طويل ينبعث من نهايته نور لطيف ساطع، وهو يشعر بنشوة وسعادة لا يمكن للكلمات وصفها، فاذا بشخص ما يعترضه ويأمره بالعودة من حيث جاء، أو من يخبره ان مجيئه سابق لأوانه وعليه بالعودة الى الدنيا مرة ثانية. فعادوا نادمين متأسفين. الا ان تلك التجارب لم تمر دون ان تترك أثراً إيجابيا على شخصياتهم، فجميعهم تأثروا منها وتغير سلوكهم نحو الأفضل، واصبحوا أناسا مختلفين تصطبغ أفعالهم وتصرفاتهم بالمحبة والخير ومخافة الله.

المهم ان هؤلاء كانوا لا يشعرون بأي ألم، فالجسد معطل الحركة والشعور والإحساس، ومن المحتمل ان يكون مقطع الأوصال وغارقاً في دمه. اذن، من ذا الذي كان يرى ويسمع ويتحرك؟

لنفترض في بداية الأمر انها الروح، ونرى هل يمكن الوصول الى شيء ما لإثبات ذلك؟ أما إذا نسبناه الى حالة التخدير الملازمة للعمليات الجراحية، فعمليات التخدير تجرى لملايين البشر كل يوم، فلم لا يمر جميعهم بذات الحالة أو ذات الشعور؟ وماذا عن أولئك الذين تقع لهم حوادث خطيرة في بيوتهم أو على الطرقات أو في أماكن عملهم أو أثناء سفرهم، ثم يعودون للحياة بعد فترة ليقصوا نفس

القصص أو ما شابهها، فمن غير الممكن ان يتفقوا جميعا على كذبة معينة من نفس النمط، فاختلاف المكان والزمان والأجناس والمعتقدات واللغات تحول دون ذلك.

كثيرا ما نرى على القنوات الفضائية برنامج تتكلم عن تجارب لأناس مروا بمثل هذه الحالات، فيشرحون كيف أصيبوا بأمراض فجائية سقطوا على أثرها مغمى عليهم، ولم ينتبهوا الا وهم في حالة جديدة مخالفة لحالة الحياة التي ألفوها، وشاهدوا أجسادهم تطير محلقة فوق الفراش، ورأوا عالماً نورانيا جديدا تملؤه المحبة تماما، ونوراً لطيفاً قوياً يملأ كل كيانهم. ويذكرون انهم بعد عودتهم الى الحياة، أصبحوا يدركون مفهوم الموت بمعنى جديد ولم يعد يخشونه مثل سابق عهدهم.

اذن، ألا يعني ذلك ان هؤلاء يدخلون عالماً غير هذا العالم؟ ويشاهدون ما لا يمكنهم مشاهدته في عالمهم الأرضي؟ ان الجنين لا يدرك وهو في رحم أمه، انه يعيش في عالم رحب متكامل بالنسبة له، بينما لا يفصله عن العالم المادي سوى جدار رقيق، وانه بمجرد خروجه من عالمه يدخل في عالم آخر أوسع من عالمه ملايين المرات.

لذلك يمكن مناقشة مثل هذه القصص والأحداث بقليل من الصبر والتأني وبعيداً عن التعصب الفكري والديني والمذهبي وكلمات الحلال والحرام المتأثرة بالمصلحة أو العاطفة، فالهدف ليس مخالفة عقائد الدين

(لا سمح الله)، بل العكس هو الصحيح، فما نوده هو موافقة الدين مع العلم، خاصة وان الله سبحانه وتعالى ذكر الروح في قرآنه الكريم ومهد للاعتقاد بوجودها، الا انه لم يأت بتفصيل عنها، وهذا لا يمنع من الخوض في مجال التبصّر والتفكّر، فليس من العيب أو الحرام العلم بالشيء، خاصة والرسول الكريم أمر بالتعلّم وطلب العلم.

ذكر أحد علماء الاجتماع ان العلم الحديث لا ينكر وجود الروح كما انه في نفس الوقت لا يستطيع إثبات وجودها:-

*[ولقد ظهر في اللغة العربية عدد من الكتب حول هذا الموضوع الخلاب، موضوع القوى النفسية الخارقة. ولكن الذي يؤسف له ان كثيراً ممن كتبوا فيه رأيناهم يؤمنون بالغيبيات، وهم اذن يعتبرون تلك القوى النفسية من الدلائل القاطعة على وجود عالم الروح أو ما يسمى أحيانا بعالم ما وراء المادة. وأود هنا أن ألفت نظر القارئ بأني لا أميل الى إنكار الروح، ولا أميل أيضا الى الايمان بها. وخير ما يمكنني قوله في هذا الصدد هو ترديد الآية القرآنية: "**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا**. ان العلم الحديث لا يقول شيئاً عن الروح ولعله لا يستطيع ان يقول عنها شيئاً حتى أمد طويل. وربما جاز لنا القول: بأن منكر الروح كالمؤمن بها، كلاهما يعتبران في نظر العلم من أولي التعصب أو التحيز في الرأي. وقد يحلو لبعض المتعلمين ان يتباهوا بأنهم ينكرون الروح كأنهم يعدون هذا الإنكار من*

دلائل التحرر الفكري. والواقع ان المنكر كالمؤمن قد حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء. والباحث الحقيقي هو الذي يقول في مثل هذه الأمور: لا أعلم][1].

معاذ الله من منافسة العقلاء في مجالهم وتفسير كلام الله ورسوله، فأين الثرى من الثريا، لقد كسب علماء الدين علومهم بالكثير من السهر والقراءة والدرس والتعب سنيناً طويلة، وبذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال التفكير في دخول مجال منافستهم، ففاقد الشيء لا يعطيه، أما ما يطرح هنا، فهو جزء يسير مما فاضوا به علينا، كما ان انتشار العلم والمعرفة اصبح لهما دور كبير في تفهم أمور الدين. فان أعجبهم البحث ووافقوا عليه، استفاد الجميع، وان رفضوه فالرأي رأيهم والكلمة الأخيرة لهم.

من المواضيع التي لها علاقة مباشرة بالروح وأحوالها، موضوع القيامة وحالتها، فهناك فئات من أهل الكتاب تعتقد ان القيامة ستكون بالروح فقط. ورغم وجود العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأقوال الرسل والأنبياء السابقين التي تؤيد هذا الرأي، الا ان مناقشة هذا الموضوع ستكون من خلال الاكتشافات العلمية التي تجد لها إثباتا أو جوابا، ودليلا وبرهانا في القرآن الكريم أو في الأحاديث الشريفة والسنّة النبوية والتي تدل بصراحة واضحة ان مفاهيم الدين الإسلامي هي في الأساس علمية وفكرية، وان العجز ليس في حقيقة الدين أو في القرآن

الكريم الذي **(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)**[2] انما سببه الحقيقي هو عجز بعض اتباعه عن ادراك مفاهيمه ومعانيه التي لا تعد ولا تحصى، ودليل ذلك حث وحض الآيات الإلهية القرآنية وأحاديث المصطفى وآل البيت عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام والصحابة الكرام وعلماء الدين والأمة وأفاضلها ومجدديها على طلب العلم والمعرفة والتزود به، ولم يسمع من أحدهم قط لا في السابق ولا في اللاحق من نصح بالجهل والغفلة، **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)**[3]، وقول المصطفى (أطلب العلم ولو كان في الصين) والقول المأثور (أطلب العلم من المهد الى اللحد).

أدلة مادية على وجود الروح

من الإثباتات العديدة على وجود الروح، الأحلام والرؤى، فإذا أمكن الاستهانة بالقصص التي يرويها أناس عاديون في أمر تنبؤات الأحلام ورؤاها، فمن الصعب الاستهانة بها حين يرويها ثقاة باحثون لهم وزنهم في الأوساط العلمية.

يقول "سدجوك" أستاذ الفلسفة في جامعة كمبردج، مؤيدا لموضوع وجود قوى غيبية في العالم:

[إننا نسمع كثيرا عن الخوارق التي يقوم بها بعض الأفراد، ويرويها لنا شهود ثقاة، ولكننا نلوي أعناقنا عنها هازئين. ان من الفضيحة حقا ان يشهد العالم المتمدن هذا الجدال القائم بين من يروي تلك الخوارق وبين من يكذبها. ولو ان عشر هذه الخوارق التي يتناقل الناس أخبارها صحيحة لكانت قيمتها العلمية ذات أهمية لا تقدر... فنحن نريد، سواء في ذلك المؤمنون منا وغير المؤمنين، ان نضع حداً لهذه الفضيحة التي يعانيها العالم المتمدن الآن. إننا نريد ان نعلم علم اليقين عما إذا كانت هذه القصص المروية صحيحة أم لا. وفي كل حادثة نسمع عنها سوف لا نألو جهدا في ان نتحرى مدى الصدق فيها. فنحن نريد ان نعلم، ولا نريد ان نبرهن على شيء علمناه سابقا. ان غايتنا هي الحقيقة بغض النظر عما إذا كانت نتيجتها سلبا أو ايجابا][4].

[والغريب ان كثيرا من الناس يستطيعون ان يحدثونا عن واقعة وقعت لهم تشير الى وجود موهبة في الإنسان تكتشف فكر الغير أو تتنبأ عن بعض حوادث المستقبل أو تستشف الأشياء المخفية. ولكننا تعودنا ان نعزو ذلك الى الصدفة. فاذا حلم أحدنا حلما ثم صدق حلمه بعد مدة قلنا انها مصادفة. والواقع إننا قد تطرفنا في الاعتماد على الصدفة. فالصدفة ليست عمياء كما كان يظن سابقا. انها تجري حسب قوانين ثابتة وهي لا تتعدى في عملها نسبة مئوية معينة. وقد بحث علماء الإحصاء في قوانين الصدفة ولم يبق منها جزء مجهول نستطيع

ان نعزو إليه الأشياء التي نعجز عن تعليلها تعليلا معقولا. فلو حلم أحدنا بموت قريب له ثم وجدنا ان قريبه ذلك مات فعلا بعد الحلم، فإننا نقف حائرين إزاء هذه المشكلة: لا ندري هل كان ذلك الحلم تنبؤاً حقيقيا عن الحادثة قبل وقوعها أم كان محض مصادفة. يقول السر اوليفر لودج، العالم الطبيعي المشهور، في هذا الصدد ما يلي: ان احتمال موت الإنسان في أي يوم من أيام حياته هو احتمال ضعيف جدا يقارب معدله 1 من 19000 على اعتبار ان متوسط عمر الإنسان نحو خمسين سنة أي 19000 يوم. فاذا حلم إنسان بموت أحد معارفه 19000 مرة ثم صدق حلمه مرة واحدة كان ذلك من قبيل المصادفة المحضة حسب قانون الاحتمالات. هذا ولقد ثبت من التحريات التي أجرتها جمعية المباحث النفسية ان الأحلام تصدق بنسبة 1 من 47 أي ان كل 47 حلما يراه النائم يصدق منها حلم واحد، فيتضح من ذلك ان قدرة الحلم على التنبؤ أعلى جدا من قدرة الصدفة. فمن أين جاءت هذه القدرة الإضافية؟ ان تعليلها بالصدفة أصعب جدا من تعليلها بالقوى النفسية على أي حال. ونحن لا يجوز لنا ان نتطرف في إنكار الوقائع بمقدار ما يتطرف السذج من الناس في تصديق الأوهام. ان سرعة التصديق وسرعة الإنكار كلاهما يدلان على سذاجة غير محمودة][5].

وكدليل على وجود قوة داخلية لدى الإنسان ممتزجة مع الروح أو هي جزء من قوى الروح، جاء:

[ويظهر ان الرأي العلمي أخذ يتجه حديثاً الى الاعتراف بحقيقة هذا الاحساس. وقد أدلى البرفسور ثولس، أستاذ علم النفس في جامعة كمبردج ببيان في هذا الصدد قال فيه: "ان هذه الظاهرة يجب ان تعتبر حقيقة ثابتة كأية حقيقة أخرى توصل اليها البحث العلمي. فلنترك اذن أمر البرهنة على وجودها في سبيل إقناع المرتابين، ولنتوجه عوض ذلك نحو الاستمرار على دراستها بقدر الامكان. فإننا باطلاعنا على طبيعتها اطلاعا أوفى سوف نجد الصعوبات التي تكتنف التصديق بوجودها قد قلت الى حد بعيد"](6).

ومثال آخر على وجود الروح، عندما يجلس أحدنا وحيداً يفكر في أمر ما يتدبره، نجده وكأنه يتكلم مع شخص آخر غيره، يخاطبه ويسمع رأيه ويأخذ بأفكاره وآرائه ويتناقش معه، فمن هذا الشخص المخاطب يا ترى؟ وكيف يكلمنا؟ فنسمع له ونأخذ برأيه أو لا نأخذ، ونفعل ما يشيره أو لا نفعل؟ فنحن نقرر شيئاً وهو يخالفه، ونجزم بأمر ويأمر بغيره! انه بلا شك شيء آخر غيرنا، لأن الواحد لا يصير اثنين، وليس بإمكان الإنسان ان يكون انسانين في وقت واحد! إذن من هو الذي يقابلنا؟ لابد انه شيء آخر يعيش ويشترك معنا في كل شيء. فدعونا نطلق عليه اسم "الروح" على سبيل الفرض، وبما ان هذه الكلمة موجودة مسبقا

ومستعملة ومتداولة، فلنستعملها إذن، ومن يود إطلاق اسم آخر عليها فليفعل، فهذا ليس بمشكلة، لأننا نتكلم عن ماهية وكُنه هذا الشيء وحقيقته، ونريد إثبات وجوده أو عدمه وليس إثبات اسمه.

الروح والزمن

لقد توصل بعض العلماء ان لبعض الناس حاسة خارقة تستطيع اختراق حجاب الزمن واستشفاف ما يكمن وراءه من حوادث مستقبلية، لكنهم لم يجدوا لحد الآن تفسيراً علمياً مقنعاً له. وتعليل ذلك: طالما لم يحدد هؤلاء العلماء ماهية هذه القوة وهل هي حاسة خفية للإنسان تظهر قوتها في حالات ومواقف محددة، أم هي ذات الروح نفسها. يمكن الافتراض هنا انها ذات الروح، وليست قوة مادية جسدية سادسة كبقية قوى الحواس الخمس. أما لماذا يتحلى بعض الناس بمثل هذه القوة والفاعلية دون غيرهم، فلأنها قوة دقيقة حساسة جداً تظهر عند أولئك الذين يتحلون بصفات روحية عالية وشفافية روحانية مرهفة، فهي كبقية حواس الجسد تتدرج في قواها بدرجات مختلفة عند الناس، فمثلا تختلف قوة السمع والبصر والذوق والشم واللمس من شخص الى آخر، فلا يمكن تساوي شخصين بمقدار هذه القدرات، فهذه القوى المادية تولد مع الإنسان بدرجات معينة موافقة لطبيعة جسده ولا دخل له في قوتها

أو ضعفها. وهذا التعليل قد يفسر قوة أو ضعف هذه القدرة أو الحاسة الخارقة – كما يسميها العلماء اليوم – لدى بعض الناس، وهي ليست حاسة سادسة كما يعتقد البعض، ودليل ذلك هو امتلاك البعض لها وفقدانها لدى غيرهم، فلو كان الأمر كذلك للزم وجودها لدى جميع البشر.

يمكن الاستفادة من فكرة نظرية انشتاين حول إطلاق اسم البعد الرابع على الزمن. فاذا افترضنا ان موجات الزمن هي موجات لا مرئية وانها تشبه بشكل من الأشكال الموجات الضوئية، يمكن من خلالها تصور فكرة قفز الأرواح على الزمن الى الخلف أو الى الأمام. يعني ان الروح يمكنها عبور الزمن والتاريخ عند استعمالها قواها الخفية بسهولة ويسر بينما يعجز الجسم المادي عن ذلك. ومن المحتمل ان يصل الإنسان الى تحقيق هذه النظرية في المستقبل فعلياً، إذا توصّل الى اختراع أجهزة تقنية تمكنه من ذلك. وما هذه الأمثلة التي يقولها علماء لهم مكانتهم المرموقة، إلا دليل على وجود قوة خفية لدى الإنسان يمكن تسميتها بـ (الروح). لكنهم لحد اليوم لم يتوصلوا الى معرفة حقيقتها.

الجسد وطول العمر

قبل كل شيء، يستحسن ان نتذكر ان الموت والحياة هما أمران بيد الله تعالى، وان الإنسان لا يعلم كيف يخلق ومتى يموت. فالجسد مثله مثل جهاز كهربائي أو ميكانيكي معقد التركيب، يعمل بشكل منسق وسليم ويبقى على قيد الحياة طالما بقيت أجزاؤه الرئيسية المهمة سليمة وتعمل بانتظام، مثل المخ وأجزائه العديدة المحفوظة داخل عظام الجمجمة الصلبة، وما وجود المخ في هذا الصندوق الصلد، إلا لأهميته في استمرار الحياة، مثله مثل القلب والرئتين المحفوظتين بين عظام القفص الصدري، فهذه الأعضاء مهمة للبقاء على قيد الحياة. والجسد يستمر بعمله ميكانيكيا ويبقى ينبض بالحياة باستمرار سلامة أجزائه. فإن حدث له حادث قاتل وعطّل عضو من أعضائه المهمة الحيوية، انتهى عمله، وان حوفظ عليه من الأمراض والحوادث الخارجية استمر بعمله حتى تنتهي مدته وتستهلك أجزاؤه. وهذا أيضا يتوقف على أمور كثيرة يطول شرحها، مثل قوة الجسد والتكوين الكيماوي له، ونوعية الغذاء المتناول خلال سني الحياة، ومدى العناية به، وكمية الأمراض التي أصابته ونوعيتها، وكيفية علاجها، وما تمتع به من راحة وسعادة وهناء في حياته، وأمور أخرى كثيرة تديم وتطيل في عمر أجزاء الجسد ومدة عملها، فيبقى صاحبه على قيد الحياة. وبهذا تختلف أعمار الناس ومدد بقائهم على الأرض، لكنها تبقى في حدود معينة.

وببساطة يمكن تمثيل الجسد وعمله، مثل مصباح زيتي أو شمعة موقدة، فان حوفظ عليه من الرياح والعوامل الخارجية الطارئة ووضع في مكان مناسب ولم يتعرض للكسر، استمر في ضيائه حتى ينتهي زيته ويستهلك قوته المستمدة من وقوده. وان هبت عليه ريح أو تعرض للكسر، انطفأ رغم وجود الزيت فيه. وكذلك الجسد، فان حوفظ عليه من الطوارئ الخارجية، عاش حتى يستهلك قوته. وان تعرض الى إصابات قاتلة، مات وتوقف عن الحياة رغم عدم نفاد قوته المكنونة فيه. والأمثلة على ذلك كثيرة لا تعد ولا تحصى، جئنا على ذكرها في موضوع القضاء والقدر وغيره.

ان المحافظة على جسد الإنسان، لا تعني الخلود، فمهما طال عمره، لابد من نهاية له، فهذا الجسد له مدة استهلاك واضمحلال وتوقف، ولابد انه واصلها ومدركها لا محالة، إذ لا خلود في هذا الكون الا للخالق سبحانه وتعالى فقط. فلا الماديات ولا المعنويات لها دوام، فبالنسبة للماديات التي تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد لابد وان يأتي وقت موتها وتفسخها وتفكك أجزائها، وهذا من المسلمات به. وبتعبير آخر، ان كل ما يتركب يتحلل، وكل ما هو منظور مدثور. يعني ان كل ما يتركب من الأجزاء والذرات ومن المواد المختلفة، لابد وان يأتي عليه يوم ليعود ويتحلل الى مواده الأصلية التي تركب منها. ونفس القياس بالنسبة للمعنويات، فما من فكرة أو رأي أو مذهب أو

نظرية استنتجها البشر مهما علت وسمت وطال عمرها، الا وتطرّق لها التغيير والتحوير والتعديل والاستبدال والموت. والعاقل يفهم.

كما لا يمكن ربط سلامة أجزاء الجسد وكامليتها بوجود الحياة، فمهما لطفت وتكاملت أجزاء الجسد وأعضاؤه، فهذا لا يعني بالضرورة ان يكون الإنسان حيّاً يرزق، كبيراً كان أم صغيراً. ودليل ذلك، ان من تأتيه منيته وهو على فراش الموت وأعضاء جسده كاملة لم ينقصها شيء، لا نجد فرقا بين كامل جسده خلال لحظات الموت أو قبلها أو بعدها. من هذه الحالة (الجسد قبل الوفاة وبعدها) يمكن ادراك حدوث شيء ما، تسبب في الوفاة ومفارقة هذا العالم. فما الذي حصل؟ هل هناك شيء ترك الجسد أو خرج منه وتسبب في الوفاة؟ ان ما يحدث هو استهلاك كامل قوى الجسد المادي الذي يؤدي الى مفارقة وانفصال قوة الروح عنه.

علاقة الروح بالجسد

ولنأت الى علاقة الروح بالجسد وكيفيتها، لنفترض ان الروح هي شخصية ملازمة للجسد تكون بقربه أو بجانبه أو فوقه، وليست في داخله، فهي غير قابلة للدخول والخروج منه، بل هي متعلقة به تعلق شعاع الشمس في المرآة، وهي كيان واحد مستقل مختص بجسد واحد معين دون غيره ولا يمكنها تمثيل شخصيتين في وقت واحد، فروح عمر

خاصة بشخص عمر، وروح زيد خاصة بزيد، وهكذا كل روح مختصة بجسد معين لا تشارك في غيره. ودليل ذلك إننا لا نستطيع اكتشاف أو معرفة ما في عقول الغرباء من الناس وما يفكرون به وما يستنتجونه وما يضمرون من خير أو شر في نفوسهم. لهذا نبقى جاهلين بشخصياتهم حتى نعرفهم من خلال الاختلاط والتخاطب ومن خلال تصرفاتهم وما يتعاملون به معنا. أما من يفسر معرفتنا أحيانا في عقول الآخرين على انه نوع من أنواع الفراسة، فالفراسة تحتاج الى أوليات لا بد منها لتستند عليها عملية الاستنتاج، مثل ضرورة وجود موضوع مشترك سابق أو تعارف مسبق بين الطرفين أو خبرة في نفس المجال وغير ذلك من الأمور المساعدة في الاستنتاج الصحيح، وإلا فالفراسة تنعدم تماما بين الغرباء، فليس كل مبتسم، طيب القلب، ولا كل متجهم، هو شرير.

متى تخلق الروح

من المحتمل ان الروح تخلق لحظة التلقيح، أي عند اتصال الذكر بالأنثى، بدليل ضعفها وضعف حواسها عند الجنين، ثم تبدأ في النمو لكنها تبقى خفية ضعيفة تتدرج في نموها داخل الرحم، فقواها الحسية المادية التي ستستعملها في العالم المادي لاستقبال المعلومات والاستفادة منها في ترقيها وسموها ما تزال ضعيفة غير كاملة، مثل الدماغ والعين والأذن وغيره. ومن الطبيعي ان الطفل الصغير بعد

ولادته يستقبل المعلومات المحيطة به على قدر قدرة قوة عقله وحواسه الضعيفة البسيطة. وتدريجيا ومن خلال استقبال المؤثرات الخارجية ومعرفتها وتمييزها ونقلها الى العقل الذي يقوم بتخزين هذه المعلومات واعادتها الى المخ للاستفادة منها وترجمتها الى أفعال (وهذا ما نسميه بالخبرة والتجربة)، وباستمرار هذه العملية (استقبال وارسال المعلومات) من المخ الى الروح والعقل وبالعكس، تنمو عقلية الإنسان مع الأيام ويكبر وتنضج أفكاره، ومع مرور السنين، يتضح جليا الفرق بين عقلية الصغير وعقلية الكبير، وسلوك وتصرف العالم عن الجاهل.

مكان الروح

أما عن مكان تواجد الروح، وأين هي من الجسد؟ ففي الحقيقة لا يمكن الجزم بمكانها بالضبط، ولكن يمكن مناقشة ذلك ومعرفة الأماكن التي لا تتواجد بها، فهذا شيء أفضل من لا شيء. وكما لا يمكن فرض نظرية وجود الروح على معتنقي المذاهب والأفكار الأخرى، كذلك لا يمكن اشتراط مكان معين لها داخل الجسد دون دليل علمي أو ديني قاطع. بل لم لا يفترض وجودها خارج الجسد أو أن تكون متعلقة به أو ملازمة له كالهالة أو الظل أو الصور في المرايا، وانها ترسل وتشع عليه إشعاع قوتها طالما بقيت أجزاؤه سليمة متعافية، مثلها مثل الشمس المسببة للحياة على الأرض، فالشمس لا تحتاج للنزول من مكانها لتحل في المخلوقات وتبعث فيهم الحياة، بل ان أشعتها وحرارتها

وضوءها هي التي تفعل ذلك. فعندما يهدر الجسد كافة طاقاته وقدراته المادية للبقاء في هذا العالم، ويتوقف عمل أعضائه بالتدريج، ينفصل تأثير الروح عليه، فتخلعه عنها – كما نخلع ملابسنا – دون عناء أو تعب أو عذاب، وتذهب الى بارئها. أو مثلها كمثل أشعة الشمس على المرآة، فاذا انكسرت المرآة (الجسد) بقي الإشعاع (الروح) على حاله لا يتأثر. فالجسد خلق من التراب ويعود إليه، وهو بمثابة عروة حبل تعلق الروح بهذا العالم المادي ووسيلة تستخدمه في اكتسابها الفضائل الإنسانية والصفات الرحمانية، وهو الذي يديم ارتباطها في هذا العالم حتى وقت موته وتعطله.

شكل الروح

بتسلسل الحديث، يخطر على البال، ما هو شكل الروح، أهي جميلة أم قبيحة، طويلة أم قصيرة؟ يمكن تصور شكل الروح بطريقة من الطرق، فهي لابد وأن تكون مخلوق جميل جدا بسبب ظهورها من الخالق وقربها منه وبسبب خلودها عنده (الله جميل يحب الجمال)، وان جميع الناس في عالم الأرواح لابد وان يكونوا جميلي الأشكال ومليحي الوجوه، وجمالهم يفوق الوصف والتخيل وملامحهم اللطيفة تفوق التصور، لان عملية الوفاة هي عملية انتقال من عالم دانٍ الى عالم عال، وهذا بالتأكيد يرفع من مستوى الذكاء والجمال والنشاط والتعبد ومخافة الله وغيرها، وان لقاء أي روح في العالم الآخر يبعث في الرائي

سعادة لا توصف لمجرد رؤيتها ومشاهدتها. كما ان الأرواح لابد ان تكون مختلفة الأشكال لتتعارف، وإلا فكيف سيعرف الأب ابنه والجد حفيده والأم ابنتها؟ من الوارد اذن، ان الأرواح تتميز بوجوهها في العالم الآخر كما تتميز وجوه البشر على الأرض، وهذا التنوع والاختلاف في أشكال الناس على الأرض، ما هو الا دلالة على إعجازية قدرة الخالق ووحدانيته، ففي كل وجه من الوجوه يخلق الله ما يشير الى وحدانيته وفردانيته وصمدانيته بحيث ترى الواحدية وعدم التشابه في كل المخلوقات، وهذه من معجزات الله في التفرد والصمدانية، ليؤمن البشر في كل العوالم ان الله واحد لا شريك له. من هذا يمكن القول ان التعارف بين الأرواح في العالم الثاني يتم عن طريق اختلاف أشكال الأرواح، هذا بالإضافة الى احتمال وجود طرق أخرى لا نعلم بها.

لقد سمعت شخصياً من عدة أشخاص ممن كانوا على مقربة من أسرّة أقربائهم عند الاحتضار، انهم كانوا يكلمون أقرباءً لهم توفوا قبلهم بزمن بعيد، مثل أب أو أم أو أخ أو زوجة، وكأنهم يرونهم أمامهم، ومنهم من يستبشر بوفودهم عليه ومنهم من يرفض الذهاب معهم. فان دل هذا على شيء، فإنما يدل أولا، على ان أشكال الأرواح مميزة ومعروفة حتى بالنسبة لنا في هذا العالم. وثانيا، ان ساعة الوفاة معينة ومعروفة بالنسبة للأرواح التي سبقتنا الى العالم الآخر، وهم مطلعون تماما على وقت موتنا ومغادرتنا لهذا العالم، ويعرفون الفرق بين ما

يصيبنا من أمراض قاتلة أو أمراض تنتهي بالشفاء والعودة الى الحياة الطبيعية، أي انهم يعرفون بالضبط ساعة وفاتنا بدقة، ومن المحتمل ان يكون هذا العلم هو من علوم الله التي يسبغها على الأرواح في ذلك العالم.

ويمكن تمثيل عملية الوفاة وحضور أرواح أقرباء وأصدقاء المحتضر الى قربه، بعملية ولادة الجنين في هذا العالم، فعند استقبال المولود الجديد، يكون أفراد العائلة على علم مسبق بساعة وصوله، فيجتمع الأب والأخ والأخت والأهل والأقرباء والأصدقاء في وقت واحد قرب الأم ليستقبلوا معها الوافد الجديد، ليفرحوا به ويحتفلوا بقدومه ويقوموا على خدمته وتلبية احتياجاته. وعلى نفس هذه الحالة وهذا القياس، نجد ان أرواح السابقين تتقرب من هذا العالم المادي لتستقبل الراحل الجديد (المولود الجديد) الذاهب إليهم (المتوفى)، ليرحبوا به ويرافقوه ويستقبلوا وفوده عليهم. من هذا، يمكن الافتراض ان شكل الروح، شكل مميز ومعروف للمحتضر، بدليل معرفة المتوفين لأهليهم وأصحابهم وأقاربهم ساعة وفاتهم ومناداتهم بأسمائهم. وكذلك يمكن الافتراض، ان أشكال الأرواح قد تكون مختلفة عن أشكال أجسادها في هذا العالم، ولكنها جاءت الى هنا بشكلها القديم المألوف، لتساعد المحتضر على تمييزها ومعرفتها وابعاد الخوف والرهبة والوحشة عنه بخصوص مجهولية العالم الجديد عليه.

جنس الروح

أما بخصوص جنس الروح، وهل هو ذكر أم هي أنثى؟ فمن المحتمل انها تخضع لقانون خاص لا يشبه التصنيف الأرضي، فطالما انها انتقلت الى عالم الحساب والأبدية، فمن المحتمل عدم وجود ضرورة لتوالدها، لأن عملية التزاوج والولادة ضرورية لاستمرار حياة البشر على الأرض، وهذه لا تتم إلا بهذه الطريقة، بينما حالة الاستمرارية والخلود من صفات الروح اللازمة، بمعنى ان البقاء والخلود هو من صفات الروح التي لا تنفصل عنها، كما هو الحال مع النار على سبيل المثال، فالحرارة والاشتعال من صفاتها الملازمة لها، وكما هو الحال مع الماء، فالرطوبة والسيولة من صفاته الملازمة له. كذلك صفة الخلود، فهي من صفات الروح الملازمة لها. وبذلك تنتفي الحاجة الى التزاوج ووجود الذكر والأنثى.

غذاء الروح

اما من ناحية طعام الروح وكيف تتغذى؟ فمن المحتمل ان غذاءها شيء آخر يختلف عما يتغذى به الجسد في الحياة الدنيا، لأن الروح غير الجسد، ولا هي مكونة من مواد مادية حتى تحتاج الى البروتينات والفيتامينات وغيرها من مكونات الغذاء، بل من المحتمل انها لا تأكل ولا تحتاج الى الأكل بالمرة، فما دام الطعام المادي من مستلزمات

الجسد، فهو بحاجة لنموه وصحته وبقائه؛ أما الروح فهي مخلوقة من كيان آخر ومادة أخرى مجهولة لا تخضع للقوانين المادية، لذا لابد من التفكير والتأمل فيما تقتات عليه. فمن الممكن ان غذائها الروحاني هو الكلمات الإلهية والآيات والسور والتعاليم السماوية والعلوم الطبيعية والإنسانية، فإن صح هذا الاعتقاد يتضح جلياً سبب حاجة الإنسان وروحه الى الأخلاق والتعاليم الروحانية التي يكتسبها من والديه ومربيه ومعلميه حتى يتم نضجه، وبذلك نفهم سبباً مهما من أسباب إرسال الرسل والأنبياء الى البشر، فبتعود الإنسان واستمراريته على هذا النوع من الغذاء الروحاني وإدراكه لحاجته الدائمة له، يجد نفسه مجبراً على تناوله ومتعوداً عليه، فيجتهد بنفسه في كسبه، مثلما يجتهد في كسب حاجاته الدنيوية وغذاءه المادي، لذا يمكن تعليل سعي المتدينين والمثقفين والعلماء الحثيث وراء طلب العلم والثقافة والدراسة وعلوم الدين والأخلاق الى عطشهم الروحاني، فهؤلاء لهم مشاعر وأحاسيس ودوافع داخلية روحانية رقيقة مرهفة تشعرهم بالحاجة الداخلية لمثل هذا الغذاء، لذلك يجدون أنفسهم مضطرين للبحث عن حاجتهم في الكتب الإلهية والعلمية وغيرها، حتى تسمو أرواحهم وعقولهم وتعلو مقاماتهم استعداداً لدخول عوالم الله الأبدية.

ومثلما يحتاج الجسد الى الغذاء لانتاج الطاقة للبقاء، كذلك تحتاج الروح الى الطاقة للبقاء، فمن أين تحصل الروح على هذه الطاقة؟ ومن

أين تستمدها؟ ان الطاقة التي تحتاجها الروح لخلودها، انما تستمدها من روح الله الخلاّقة، فبدون هذا الفيض الرباني الذي يسمى في بعض الكتب السماوية بـ (روح القدس) أو المدد الإلهي أو رحمة الله، ينقطع عنها الفيض الإلهي، وبالتالي تنقطع عنها الطاقة المديمة لها والتي بدونها تنعدم تماما، وكما يعتمد الجسد المادي في بقائه على هذه الشمس المادية، كذلك تعتمد الروح في بقائها على شمس الله الروحانية.

عين الروح

من المؤكد ان الروح لا تبصر بهذه العين المادية المحدودة أثناء الحلم، لأنها تكون مقفلة ومغمضة أثناء النوم، والعين من مستلزمات الجسد، وقدرتها وقوتها محدودة في مشاهدة الأشياء وأبعادها، بينما في المنام نرى الأحباب والأصدقاء في الغرب ونحن في الشرق. اذن لابد ان يكون للروح عين أخرى أو بصيرة مختلفة خارقة يمكنها المشاهدة بها عبر مسافات لا محدودة، وإلا كيف تفسر عملية النظر في المنام؟ كما يمكن الافتراض ان عين الروح لا تضعف ولا تمرض مع تقادم الزمان، ويمكنها مشاهدة أدق التفاصيل في أي مكان مهما بعد.

ورد في كتاب "الأحلام" للدكتور علي الوردي، بعض الأمثلة على اكتشافات الروح العلمية، الا ان المؤلف ينسبها الى قوة الأحلام

باعتبارها حقيقة منفردة، وغفل ان الأحلام هي نتيجة من نتائج قوى عين الروح ومشاهداتها، وهو بذلك يقدم دليلاً على صحة ما أوردناه، فيقول:-

[تروي لنا الكتب العلمية في هذا الشأن قصصاً كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قصة اكتشاف "الأنسولين" وهو الدواء الذي يعالج به الآن مرض بول السكر. وقد كان هذا المرض من الأمراض الخبيثة التي استعصى علاجها على الأطباء، الى ان تمكن باحث كندي اسمه فردريك غرانت من اكتشاف الأنسولين، وقد حصل غرانت من جراء ذلك على جائزة نوبل في عام 1922. ويحدثنا غرانت عن كيفية اهتدائه الى اكتشاف الأنسولين، فيقول انه كان ذات ليلة يعد محاضرة عن مرض بول السكر، وبعد ان تعب في إعداد المحاضرة غلبه النعاس فنام. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظ فجأة فأضاء المصباح وكتب ثلاث عبارات في مذكرته، ثم عاد الى النوم. وقد أصبحت تلك العبارات فيما بعد مفتاحاً لاكتشاف الدواء الذي أنقذ الملايين!

ويحكى مثل هذا عن الرجل الذي أخترع ماكنة الخياطة. فقد أكمل هذا الرجل اختراع الماكنة ولم يبق منها سوى تصميم شكل الإبرة المناسبة لها. وظل حائراً مدة طويلة لا يدري ما يصنع. ثم حدث له مرة ان أدركه النوم بعد ان بلغ اليأس منه مبلغه. فرأى نفسه في المنام

وكأنه محاط بجماعة من الزنوج البدائيين وهم يريدون قتله. وحانت منه التفاتة الى الحراب التي وجهها الزنوج نحوه فوجد في كل حربة منها ثقباً قريبا من رأسها. فاستيقظ من نومه مرعوباً ولكنه أدرك حالاً انه قد عثر على ضالته المنشودة، فانكب على الإبرة يصنعها على منوال ما رأى في حراب الزنوج.

ويقال عن ديكارت انه اكتشف كشوفه العظيمة وهو نائم في فراشه صباحا. وكذلك يقال عن هنري بوانكاريه، العالم الرياضي المشهور، انه توصل الى حل مسألة رياضية وهو في حالة نوم. ويحدثنا هنري فابر عن بعض أحلامه فيقول: "ان وميضا لامعا يتألق في مخه فيثب من سريره، ويشعل مصباحه ويسجل الحل مخافة ان يضيع من ذاكرته، ان هذا الوميض كضوء البرق يختفي فجأة كما يظهر فجأة..."

ولم يقتصر الأمر على العلماء والمخترعين وحدهم، بل تعداه الى أهل الفن. من ذلك ما يحكى عن الموسيقار السر أرثر سيمون سوليفان، حيث كان قد وضع أغنيته المشهورة "الوتر الضائع" في الحلم. وعندما استيقظ تذكر منها المقطوعات الأولى فسجلها. أما بقية الأغنية فقد ضاعت الى الأبد. ويقال عن رجل اسمه وليم جبس، وكان من رجال الادارة المعروفين، انه كان يتوصل الى حل المشكلات المستعصية عليه بعد ان يركز عليها تفكيره وهو منطرح على فراشه يريد النوم. وقد اعتاد ان يضع قلما وورقاً بجانب فراشه. وكثيرا ما كان

يستيقظ من نومه وفي رأسه فكرة مجدية، فيسرع الى تسجيلها قبل اختفائها من ذاكرته][7].

من هذه الأمثلة والقصص الحقيقية، يفهم ان للروح قوى معنوية غير محدودة أكبر وأسمى من قوى الجسد المحدودة، لكن بروزها وظهورها يحتاج الى حالة من العزلة والوحدة التامة حتى يتجلى نشاطاتها، فبمجرد ابتعادها عن تأثيرات محيطها الخارجي، وهذا يحدث عادة قبل فترة النوم بقليل أو خلاله، أي عند هدوء الجسد وسكونه وابتعاد حواسه عن المؤثرات الخارجية، عندها لا يبقى في كيان الإنسان غير فاعليه روحه، لأنها مستغنية عن النوم أو الراحة، ولأن الجسد المادي خلق أصلاً ليتأثر بالمؤثرات المادية الخارجية، وهذا ما يطغي على ظهور قوى الروح الرقيقة الشفافة ويقلل من دورها ويشوش فاعليتها وتجلياتها، فالعالم الذي يعيش فيه الجسد عالما ماديا يخالف تماما ما تحتاجه الروح من محيط روحاني معنوي، لذلك عندما يهدأ الجسد ويركن للسكون، لا يعد هناك شيء يعوق الروح عن حركتها وتجليها واكتشافاتها. وهذا يفسر عملية العثور على حلول وتفاسير أثناء النوم للمسائل المستعصية، فقدرات الروح أعم وأشمل وبلا حدود، لكنها رقيقة وحساسة جدا وبحاجة الى عزلة تامة عن عالمها المادي الخارجي حتى تستشف ما تريد، لذلك يمكنها بعد انفرادها لذاتها أن تكتشف غوامض الأمور مما لا تستطيع العثور عليه عندما يكون الجسد يقظا

فاعلا متحركا، كما هو الحال عندما نشاء التركيز أو التفكير في موضوع مهم أو خطير، فكل حركة أو صوت أو مؤثر خارجي، يربك التفكير ويؤثر على التركيز، لذلك تكون الحاجة الى الهدوء والسكون.

قوى الروح

ان الإلهامات والأحاسيس المعنوية بمختلف أشكالها هي من انتاجات العقل والروح غير الماديين، أي انها تدخل في باب التصور والخيال غير المادي، فتصور لحن جميل أو حكمة بالغة أو فكرة سامية أو لوحة رائعة أو كلمات قصيدة شعرية أو غير ذلك من الإلهامات التي تساهم في رقي البشر، انما هي عملية روحانية مختصة بالروح والعقل، فقوى الروح المتعددة ومنها قوة العقل، تخلق لدى البشر بدرجات مختلفة، منها البسيط والساذج ومنها المرهف والحساس ومنها ما بين بين، فالأرواح والعقول الحساسة الرقيقة عند توجهها الى مواهبها واختصاصها ورغباتها تحصل على إبداعات لا يتوصل اليها غيرها، مثلا يتمكن المهندس المختص نتيجة الخبرة والتجربة ان يتصور بناء جميلاً لا يستطيع الإنسان العادي تصوره، والفلاح الخبير الجيد يستطيع تخيّل بستان جميل إذا نظر الى أرض جرداء، وباستطاعة الطبيب الحاذق تصور عودة الصحة والعافية لمريض بعد فحصه ومعرفة علته، فهؤلاء وغيرهم من الخبراء، يستطيعون من خلال تجاربهم ودراستهم وقوة تفكيرهم أن يروا مستقبل أعمالهم. وكذلك الفنانون

والعلماء والمفكرون والمبدعون والمجددون، يمكنهم بما لديهم من حس روحاني مرهف وعقول يقظة مبدعة اقتباس روائع الأعمال بقوتهم الروحانية والعقلية. وهذه الفروق في القوى العقلية والروحانية موجودة لدى جميع البشر بأشكال وأنواع مختلفة متباينة، مثلما هي الفروقات في القوى العضلية والمواصفات الجسدية وقدرات التحمل عند البشر، تظهر بوضوح تباين قوى المبدعين والفنانين.

ومن الواضح ان الروح لا يصيبها ما يصيب الجسد من تعب وإرهاق وأذى، فهي تبقى سليمة القوى نشطة معافاة مهما حصل للجسد من إصابات، بدليل ان قوى وملكات الروح مثل المشاعر والتفكير والأحاسيس تبقى على قوتها عندما نأوي الى الفراش ونحن في أشد حالات التعب والإرهاق أو عندما نصاب بأمراض تعجزنا عن الحركة، فنرى أرواحنا في المنام وهي تتحرك بنشاطها المعتاد غير متأثرة بما تأثر به الجسد من تعب ومرض خلال يومه. كما هو الحال مع المعاق أو من تقطعت أطرافه، فهو لا يشعر بهذا النقص أثناء نومه ويرى نفسه بتمام السعادة وكامل الهيئة دون أي نقص في أعضائه. لذلك نلاحظ عدم تأثير أو إعاقة هذه الحوادث للروح وتبقى متمتعة بالسرور والفرح والانبساط والحركة، فهي بعيدة عما يصيب الجسد من عاهات ويعتريه من علل.

عندما تريد الروح (في هذا العالم المادي) ان تشاهد شيئاً ما، فهي

مضطّرة للاستعانة أو لاستعمال عين الجسد لتبصر بها، ولا خيار أمامها غيره، وهذه الرؤية محدودة المسافة. وعندما تريد الروح سماع صوت ما، فانها مضطرة لسماعه بهذه الأذن المحدودة، وهكذا مع بقية قواها وأحاسيسها المادية الجسدية. من هذا يفهم ان الجسد مثله مثل آلة تخدم الروح وتنفذ رغباتها في هذا العالم لتنمو وتتعلم. والدافع لهذا التعلّم وتلك الاستفادة، هو التعلّم والترقي لأنه من خواص الروح الملازمة لها، ودليل ذلك هو تزايد مستوى عقل الإنسان وعلمه منذ بدء التاريخ حتى اليوم، مثلها مثل الماء، لا يمكنه الا ان يسيل، ومثل الشمس لا يمكنها الا ان تشع، ومثل النار لا يمكنها الا ان تحرق. فالروح منذ بداية خلقها تريد التعلم والترقي (لأنها خير محض وهذا من طبيعتها)، وبما انها مرتبطة بالجسد في هذه المرحلة الأولية من ولادتها، لذلك تستخدم قوته وحواسه وأحاسيسه المادية المختلفة للتعلّم والتثقّف والتعبّد لتصبح روحا عالمة مثقفة متديّنة، ولا سبيل لها غير هذا السبيل. وباكتسابها هذه الكمالات أو فقدانها، تكون مهيئة للذهاب الى العالم الآخر لتحتل مكانها الذي يتناسب مع مكتسباتها في هذا العالم، فيذهب الصالح منها الى الجنة ويذهب الطالح الى النار. وبما ان الأرواح متباينة القوى ولا يوجد اثنان يتماثلان في المزايا ويتشابهان في الصفات والقدرات وذلك نتيجة اكتساباتهما المختلفة في هذا العالم المادي، إذ يؤثر في تكوين التباين بين أرواح البشر أمور كثيرة منها: العمل والبيئة والبيت والمدرسة والعلوم المكتسبة والدراسة والثقافة ووسائل الإعلام والأسفار

والتغرب والمجتمع وقوة عقل الإنسان وشخصيته ونفسيته وأمور عديدة كثيرة لا يمكن حصرها أبدا، كل هذه تساهم بشكل أو بآخر في خلق شخصية الإنسان، وبالتالي تساهم في تكوين شخصية الروح. لذلك تذهب الروح المتصاعدة الى مكانها المخصص حسب مكتسباتها الدنيوية.

من كل هذا، يمكن وصف البشر على هذه الأرض أنهم (مخلوقات روحانية تعيش في أجساد مادية) وليست (كائنات مادية تعيش بقوى روحانية). لأن الهدف من وجود الإنسان في هذا العالم هو لتربية وتعليم وسمو ورقي روحه التي ستترك هذا العالم وتنتقل الى عالمها الحقيقي الأصلي المخلوقة لأجله. فهي لم تخلق لتبقى في هذا العالم الفاني. ومن الأدلة المشهودة على ذلك، طول فترة النوم وكثرة فترات الراحة الخمول ونسبة كل ذلك الى نسبة طول عمر الإنسان، فلو كانت هذه الحياة المادية هي هدف حياة الإنسان الاساسية النهائية، لما كانت هناك حاجة بهذه الالحاح الشديد للركون الى النوم والراحة، فهما يأخذان من حياة الإنسان ما يقارب ثلث مدتها، فإذا أضفنا اليها فترات الطفولة والجهالة وهي بحدود ربع مدة عمر الإنسان، وفترات الشيخوخة والعجز وكذلك فترات العمل والانشغال التي تأخذ نصف حياة الإنسان المتبقية تقريبا، نجد أنه لا يبقى شيء يذكر من مجمل هذه الحياة يستحق كل هذا العناء. لذلك يبدو أن هذه الحياة المادية ما وجدت إلا

لسبب أو هدف آخر، هدف غير موجود في هذا العالم المادي الذي يبدو من خلال هذه الحسبة البسيطة أننا غفلنا وخدعنا كثيرا بأهميته.

حركة الروح

أما بخصوص حركة الأرواح وعلاقتها بالحالة الحركية البطيئة للجسد وسرعته المحدودة واستعانته بالاكتشافات والاختراعات للانتقال والاتصال السريع. فقياسا على الفرضية السابقة التي تقول: بما ان العالم المادي يتسم بالمحدودية، فمن الوارد وجود الاطلاق في العالم الروحاني، ويمكن الافتراض ان الروح يمكنها طي المسافات بسرعة كبيرة لا يمكن قياسها بالقياسات الأرضية، بالضبط كما يحدث في عالم الأحلام عندما ننتقل من مكان الى آخر بسرعة قياسية رغم طول المسافات الكبيرة بينها، أو كما ننتقل عند التفكير خلال لحظات من حالة الى أخرى ومن مكان الى آخر يفصل بينهما آلاف الكيلومترات. كذلك من المحتمل أن تنتقل الروح من مكان الى آخر بأقل من لمح البصر، وتقطع المسافات الشاسعة بمدد لا تتأثر بعامل الزمن ولا بتغير درجات الحرارة أو العوائق المادية، بل ومن المحتمل انها لا تشعر بكل هذا، لأن الوقت والحرارة والبرودة من مسلتزمات المادة، والروح غير مادية.

عوالم الروح

ان الله خلق وأعدَّ للإنسان عوالم عديدة لا يمكن حصر عددها في هذا الكون، ولم يقتصر خلقه على هذا العالم المادي؛ والله يهتم بروح الإنسان من خلال الاهتمام بجسده كمراحل أولية من مراحل ترقي الروح، وما عملية خلقه في الأصلاب وبداية تكونه في رحم الأم وولادته في هذا العالم المادي، إلا من أجل تدرجه في عوالم الله الأخرى التي لا نهاية لها، فالروح الإنسانية باقية ببقاء ملك الله، وهي مستمرة في الحياة الروحانية في العوالم الإلهية الى الأبد، ولا أحد يعلم بالضبط ما سيلاقي الإنسان من نعيم وراحة وهناء بعد وفاته ومغادرته هذا العالم المادي. وإذا قلنا ان الروح هي حقيقة وجود الإنسان وهي الغاية من وجوده وتدرّجه في صلب الآباء وأرحام الأمهات وفي هذا العالم المادي وفي كل مرحلة من مراحل الحياة القادمة (المؤمن حيّ في الدارين)، أدركنا ان الغرض من ذلك هو تنقية الروح وتحضيرها وتجهيزها للوصول الى أسمى حالات الروحانية من صفات مثلى تتمكن بوساطتها من دخول عوالم الله الروحانية التي لا نهاية لها، وهي تترقى في كمالها وبهائها كلما اكتسب الإنسان صفة حميدة جديدة، وهذا مقرون بما تتعلمه في كل عالم تعيش فيه، حتى تصل الى أقدس المقامات التي هيئها الله لها في عوالمها القادمة، لأن الإنسان أفضل مخلوقات الله بعد مقام الرسل والأنبياء.

فاذا كان الجماد يتطور عبر مراحل تكوينه ويرتقي عندما تدخل أجزاؤه في تكوين النبات الذي يتطور بدوره وينتقل الى عالم أفضل وأعلى منه عندما تدخل أجزاؤه في أجساد الحيوان، وهذا بدوره يتطور ويترقى إذا دخلت ذرات جسده في عالم الإنسان! هنا يأتي السؤال المهم: أين دور الإنسان وما هي مراحل تطوره؟ فاذا كان التطور يشمل كل هذه المخلوقات الدانية وهي في عالم المادة، فهل من المعقول ان يفنى أشرف المخلوقات ويموت ويذهب بدون ثمر بعد أن يحيا هذه الحياة الشاقة؟ فلابد ان يكون هناك عالم آخر بعد هذه الحياة ليرتقي إليه الإنسان ويذهب ليتنعم به، وإلا فلا فائدة من هذه الحياة وتعبها ومشاكلها.

فيا ليت يخرج هذا الإنسان من القوقعة المادية التي حبس روحه داخلها بإرادته، ويعطي عقله قليلاً من الحرية في التفكير، لكان استطاع التحليق بأفكاره بعيداً عن مجالها الضيق، ولكان أبدع أيما إبداع.

الروح والنوم والأحلام

يقول بعض عقلاء الدين، ان النوم هو نوع من أنواع الموت تنفصل خلاله الروح عن الجسد، ويكون النائم ساعتها ميتاً بلا روح. وبهذا القول لم يختلفوا عما قاله الإنسان البدائي قبل آلاف السنين. ولو كان

الأمر كذلك، فكيف تقع الأحلام؟ وكيف يتحرر الإنسان من قيود كثيرة في منامه؟

[يقول العالم سبنسر ان البدائيين لا يفرقون بين الموت والنوم. ففي كليهما تخرج الروح من بدن صاحبها. ولكنها ترجع إليه بعد النوم، بينما تتركه نهائياً بعد الموت. وفي رأي سبنسر ان هذه العقيدة البدائية هي التي أدت الى ظهور الأديان المختلفة. فاذا مات أحدهم أسرع أقرباؤه الى القيام بالطقوس وتقديم القرابين الى روحه بغية التضرع اليها والتماس العون منها. ومن هنا نشأت عبادة الأسلاف التي هي أولى العبادات بين البشر.

بينما ينسب عالم آخر وجود الروح الى مفهوم ساذج، فيقول تيلر: بأن فكرة الروح نشأت عند الإنسان البدائي من ملاحظة نفسه عند النوم. فالرؤى العجيبة التي يراها في منامه تدفعه الى تخيل وجود الروح في بدنه. وقد أدى به ذلك الى الاعتقاد بأن كل شيء في هذه الدنيا له روح وبدن. والعالم بهذا الاعتبار مملوء بعدد لا نهاية له من الأرواح، وهي قادرة على نفع الإنسان وعلى الإضرار به. وما الآلهة الا نخبة ممتازة من هذه الأرواح سمت على غيرها وصارت موضع الخشية والعبادة](8).

[إننا نستطيع أن نستهين بالقصص التي يرويها أناس عاديون في أمر تنبؤات الأحلام. ولكن من الصعب أن نستهين بها حين يرويها رواة ثقاة أو باحثون لهم وزنهم في الأوساط العلمية.

من هذه القصص ما نقلها الأستاذ راين. وهي قصة كان راين قد تأكد من صحتها بنفسه وتأكد من وثاقة راويها. وخلاصة القصة ان شابا رأى نفسه في المنام ذات ليلة كأنه في غرفة بيضاء مضاءة بمصباح سقفي، وقد تمدد فوق منضدة فيها جثمان ميت ارتفعت ركبتاه. وكان الجثمان مغطى لا يبين منه سوى وجهه الذي كان مهشماً بحيث لا يمكن التعرف عليه. فاستيقظ الشاب مذعوراً. وفي اليوم التالي استدعي الشاب الى المستشفى، وسيق الى غرفة العمليات الجراحية فيه. وقد دهش دهشة عظيمة حين وجد الغرفة تماثل تلك التي حلم بها في الليلة الماضية. وكان جثمان عمه مطروحاً على منضدة في وسط الغرفة، وقد بدت ركبتاه ناتئتين تحت الغطاء. واتضح ان سيارة دهست عمه أثناء خروجه من بيته صباحا، فمات متأثرا من جراحه[9].

ومن الذين عنوا بأمر الأحلام باحث آخر اسمه تيرل، وقد جمع في أحد كتبه عن تنبؤات الأحلام عدداً من القصص غير قليل، ننقل منها على سبيل المثال اثنتين.

الأولى: ان شخصاً بريطانيا اسمه اوكونر أراد السفر الى أمريكا في عام 1912 على الباخرة المشهورة "تيتانيك"، ولكنه رأى في المنام كأن الباخرة موشكة على الغرق وحولها ركابها وبحارتها يسبحون في الماء. وفي الليلة التالية عاد الحلم الى اوكونر مرة أخرى، فلم يعره أي اهتمام حيث أصر على السفر. وقبل اسبوع من إبحار الباخرة وصلت الى اوكونر برقية من أمريكا تأمره بتأجيل السفر. فألغى اوكونر بطاقته، وبقي في انكلترا ينتظر برقية أخرى. ولشد ما كانت دهشته حين سمع بأن الباخرة غرقت بعد إبحارها حيث اصطدمت بجبل ضخم من الجليد، ولم ينج من ركابها الا قليل[10].

وجاء في القصة الثانية: ان سيدة رأت عمها في منامها ذات ليلة كأنه ميت ومطروح في الطريق الذي اعتاد الذهاب فيه الى الصيد. وكان الحلم واضحا بحيث شاهدت فيه نوع الملابس التي كان عمها يرتديها وهو مطروح وكيف نقل جثمانه بعدئذ بعربة فيها شيء من القش ويجرها حصانان الى داره، وكيف تناول الجثمان عند باب الدار رجلان فصعدا به السلم، وكيف كانت يد الميت مدلاة أثناء حمله حيث ارتطمت بجدار السلم. رأت السيدة في نومها كل ذلك ثم استيقظت مرعوبة. والغريب انها رأت الحلم نفسه بجميع تفاصيله بعد سنتين، ثم رأته مرة ثالثة بعد ست سنوات. وشاء القدر أخيراً أن يموت عمها في

عين المكان الذي شهدته في الحلم تماما ثم حمل جثمانه على النمط الذي رأته فيه خطوة بعد خطوة][11].

ان أفضل حالة يمكن من خلالها رؤية قوى الروح وحركاتها وسكناتها هي الأحلام. فعند النوم تهدأ أجسادنا وتفقد حواسها قواها وادراكاتها مثل السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ونرى أنفسنا نتحرك ونتنقل ونتكلم ونخاطب ونرى ونسمع ونلمس. فيا ترى من هذا الذي يقوم بكل هذه الأفعال، وأجسادنا مستلقية تغط في نومها؟ لكننا عندما نستيقظ، نعرف بالتأكيد إننا كنا نحن المتكلمون والمتحركون والفاعلون. اذن لابد وان تكون أرواحنا هي التي تقوم بكل هذه الأعمال والأفعال، وإلا فمن يكون؟ فإن افترضنا انه العقل الباطن (اللاوعي) فهذا حسب التفسيرات المادية مرتبط بالدماغ، والدماغ كتلة مادية حساسة كبقية الحواس، والإنسان النائم لا يمكنه استخدام دماغه بأي شكل من الأشكال لأنه نائم لا ينتبه ولا يعي ما يدور حوله. من هذا يمكن الاستنتاج ان الشخص الذي يتحرك في الحلم ويرى ويسمع، هو ليس نفس الجسد المستلقي في الفراش بل شيء آخر غيره، إنه الروح.

وهناك نقطة أخرى مهمة هي: ان غالبية الرؤى التي يشاهدها النائمون، تتجه نحو زمن الماضي وتأثيراته، فكثير من الأحلام تعيد ذكريات مضت وانقضت، بينما فئة قليلة جداً من الناس تشاهد بعض حوادث المستقبل. وتفسير ذلك: شدة علاقة التماسك والترابط بين الجسد

والحواس والدماغ والحياة المادية من جهة، والعقل والروح من جهة ثانية، باعتبارهم يشكلون حقيقة واحدة وإنسان واحد، ومن خلال هذا الترابط يحصل التأثير والتأثر بين كياني الإنسان المادي والمعنوي. ان الأحلام التي تتأثر بالأحداث الماضية توضح بشكل لا لبس فيه عدم نضوج العقل والروح البشرية حتى اليوم، وان طريق نضوجهما ما زال طويلا، وتظهر شدة تعلق أرواح غالبية البشر وعقولهم بالعالم المادي كل حسب قوة تأثره به، هذا بالإضافة الى ان بعض الناس يعتبر هذا العالم المادي، هو العالم الوحيد الذي سيحياه، ولا عالم بعده، وهنا يبرز ضعف مفهوم القناعة واهتزاز قوة الايمان لدى هؤلاء. ولو أدرك البشر انهم كائنات روحانية بأجساد مادية، وان هذا العالم المادي هو عالم انتقالي مرحلي مثلما كان عالم الرحم، وانهم سيدخلون بعد الممات عالما أرحب وأوسع من هذا العالم المادي، كما كان هذا العالم المادي أوسع من عالم الرحم، وكما كان عالم الرحم أكبر من عالم الأصلاب. لو أدركوا كل هذا، لقلَّ اهتمامهم بهذا العالم ولتغيرت حياتهم ومجتمعاتهم نحو الأفضل كثيرا ولعملوا لآخرتهم كما يعملون لدنياهم.

وأمر آخر، يرى الكثير من الناس في منامه شيئا معينا يحصل له، مثل حادث أو حديث، وبعد ساعات أو أيام أو حتى سنين، يصادف حدوث نفس الحدث له وبنفس التفاصيل والدقة، ويتذكر ساعتها انه قد مرّ بهذا الموقف سابقا وشاهده قبل ذلك، لكنه لا يتذكر المكان والزمان،

وفي بعض الحالات يتذكّر انه كان حلما رآه من قبل، ومنهم من لا يتذكر حلمه وينساه تماما. من هذا يستدل على ان الروح غير مقيدة بالزمان والمكان ويمكنها تخطي مثل هذه الحواجز الخاصة بالجسد. ان مثل هذه الأحداث تحصل للعديد منا صغاراً أم كباراً، ولا يمكن تكذيبها أو تجاهلها. فاذا كنّا ندخل أثناء النوم في عالم المستقبل ونرى أحداثه قبل وقوعها، فلماذا ننكر ونستنكر ونكذّب من يرى بداية نهايته وساعة وفاته قبل وقوعها؟ يعني ان كان النائم يرى أمورا عادية تحدث له مستقبلا، فنصدّقها، فلماذا اذن نكذّب من يموتون ويشاهدون الآخرة وساعة الانتقال من هذا العالم الى العالم الآخر؟ ان الفرق بين الحالتين، هو ان الحالة الأولى متكررة الوقوع ومعروفة وحدثت للعديد بسبب حالات النوم المتكررة، لهذا فنسبة تكرار حدوثها كبيرة، بينما تكون نسبة حدوث الحالة الثانية نادرة وقليلة وتحتاج الى ظروف معينة لحدوثها كما ذكرنا. وبهذا نختلف مع ارسطو في تفسير مفاهيم قوة تأثير الأرواح في الأحلام، فهو ينسب ما يرى في الأحلام الى الميول والعواطف والأمزجة فقط، وان كل فرد يرى ما يلائم نزعات هواه، مثل المحبة والخوف وما يفكر به خلال يقظته. كما انه يحدد هذه العوامل بأربعة على المنوال التالي:

1 – عامل المصادفة: وهو الأمر الذي يحدث للإنسان في يقظته ومنامه أحيانا كثيرة. فالإنسان قد يتنبأ بحدوث شيء ثم يقع ذلك الشيء مصادفة واتفاقا.

2 – عامل الإيحاء: ومعناه ان الإنسان قد يحلم بوقوع حادث، فيصبح الحلم بمثابة إيحاء يسيطر على عقله وقد يدفعه بعد ذلك الى تحقيقه.

3 – الإحساس المضخم: فالإنسان قد يحلم أحيانا بمرض أو موت يقعان عليه. ومرد ذلك الى إحساسه باضطرابات عضوية دقيقة أثناء النوم. وهذا الإحساس يدل على وجود مرض خفي لا يشعر به الإنسان أثناء يقظته لانشغاله بأمور الحياة.

4 – الاهتمام الخاص: وذلك ان الإنسان يهتم بأحوال أقربائه وأصدقائه اكثر مما يهتم بأحوال غيرهم. وهو قد يرى في نومه حادثاً يقع عليهم من جراء ما خبر من أحوالهم أثناء اليقظة، ثم يقع الحادث فعلا[12].

ان هذه العوامل الأربعة التي ذكرها هذا الفيلسوف، يمكن أن يصدقها ويعتقد بها من عاش في زمانه. أما اليوم وبعد كل هذا التطور العلمي، فمن السهل تفنيدها، فعامل المصادفة غير منطقي كما جاء ذكره، وعامل الإيحاء لا ينطبق على من يحلم بشخص غريب عنه،

والإحساس المضخم يمكن نسبته الى قوة معرفة الروح، أما الاهتمام الخاص فيفنده الجواب الثاني.

رجوع الجسد وعودته

لنعد الى موضوع الجسد، ونرى كيف يتكون؟ وكيف يعود؟ ونناقش هذه الفكرة وعلاقتها بالروح. ان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق من مادة الطين ونفخ فيهم من روحه. ونتيجة لاستمرار التوالد، بقي الإنسان يتكون لدى خلقه في رحم الأم من نفس مادة التراب ومن نفس العناصر المكونة له أصلا. فعندما يحصل الحمل لدى الأم أو الأنثى، ومع ان جنينها مخلوق من التراب أصلا كما أسلفنا، الا ان الأم تغذيه وتطعمه أيضا من التراب بصورة غير مباشرة، فهي تزوده بالغذاء النابت من التراب أصلاً، وتقدم له ما تأكله من لحوم وغيرها على شكل حليب من صدرها، وهذه اصلها من التراب أيضا، لأن غالبية الحيوانات تتغذى على النباتات أو على حيوانات أخرى تغذت على النباتات. وخلاصة القول، ان الأم تعطي وليدها كل ما تجود به الغبراء عليها. فينمو الجنين ويكوّن خلايا جسده من نتائج التراب ومن مواده وعناصره ومكوناته، ويستمر على هذه الحال بعد ولادته، فتركيب جسد الإنسان هو في الحقيقة العلمية من التراب، ولكن بتركيبة لطيفة مختلفة. كما انه بعد الوفاة، يوضع الجسد في باطن الأرض ليتفسخ ويتحلل وينعدم ويعود الى مركباته وعناصره الأصلية، فيختلط بذرات التراب ويصبح

جزءا منه، فلا يمكن فصله أو تفريقه عنه، بل انه بتكرر وتعدد ولادة ووفاة ملايين البشر لملايين السنين – وهنا يحتاج القارئ للتفكر والتأمل لبعض الوقت – تختلط ذرات أجساد البشر مع ذرات أجساد الحيوانات والنباتات والتراب بعضها ببعض وتتشابك وتتفرق ملايين المرات، وبتأثير العوامل الطبيعية وغيرها، نراها وبالتدريج قد أصبحت جزءا من طبقات سطح الأرض بعمق معين محدود. ومع مرور الزمن، يأتي المعماري أو البنّاء ليأخذ منه ويبني البيوت والمدن، وتأخذ الأشجار والنباتات حصتها من مركباته فتمتص الأملاح والمواد العضوية وغيرها لتخرجها مرة أخرى على شكل فواكه حلوة المذاق أو خضراوات لطيفة يأكلها الإنسان أو الحيوان، فتعود تلك الأجزاء والعناصر مرة أخرى لتدخل على شكل مواد وعناصر مختلفة لتبني أجساد جديدة أخرى مرة ثانية وثالثة ورابعة.. وهكذا يتكرر انتقال ذرات وأجزاء أجساد الناس والحيوانات والنباتات وتتداخل فيما بينها ملايين المرات، ولا أحد يعلم سوى الله كم ذرة في أجسادنا كانت مكوّنة لذرات أجساد غيرنا، وكم مرة تكررت خلال هذا التاريخ الطويل داخل أجساد كثيرة. ان قليلا من التفكير والتمعن بهذه المسألة يوصلنا الى نتائج غاية في الغرابة والعجب! وكما قال أحد الشعراء السابقين:

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

مما سبق، نتصور ان موضوع عودة الجسد للحساب بالمفهوم العادي الشائع بين الكثير من الناس، شيء لا نستطيع الجزم في شأنه، فالله قادر – بلا شك – على إنجاز مثل هذا الفعل، ولكن هل تتطابق هذه الفكرة مع مفاهيم العقل والعلم؟ ومع محدودية إدراكنا، نتساءل: بما ان الجسد يفنى ويتفسخ ويتفرق ويتحلل وينتقل في أجساد أخرى. ألا يمكن أن تكون العودة بطريقة أخرى؟!

ان موضوع عودة الجسد للحساب أمر يحتاج الى إعادة نظر وتأمل لأسباب عديدة، أهمها فناؤه وتفسخه وتفرقه وتحلله وانتقاله في أجساد عديدة أخرى، بل هناك الكثير من أجساد الناس من ذهب طعمة للنار أو تحلل أو تبخرت أجزاؤه، وما بقي منها أصبح رماداً ذرته الرياح، أو من أكلته كواسر الأرض أو تقاسمته أسماك وحيتان البحر، وهذه الأسماك أكلها البعض على موائدهم وتقاسمها أفراد العائلة الواحدة فيما بينهم، وهلم جراً.. لذلك فمن يحدد طريقة الله سبحانه وتعالى في العقاب ويجزم بنوعيتها، كمن يقول (معاذ الله) ان لله تعالى طريقة واحدة محدودة لا غير لا يعرف سواها ولا يحاسب الناس إلا بها. ان مثل هذا القول (استغفر الله) هو تحديد لإمكانيات الله تعالى، ونسي هذا القائل، انه مادام الله قادراً على كل شيء، اذن فلا بد ان له القدرة العظيمة على إيجاد كل الطرق الممكنة وغير الممكنة التي لا تخطر على بال وقلب بشر في محاسبة الخلق، ولن تقتصر قدرته على طريقة واحدة لا

غيرها. ثم ان معرفة طرق الله في العمل والحساب وغيرها، هي من الأمور المحرّمة على المؤمنين، إذ لا يمكن التكهن وتحديد طريقة تصرف الله مع البشر، فهذا يدخل في باب التدخل في شؤونه، فإذا كان الفرد لا يقبل تدخل شخص آخر في أموره الشخصية مهما كان قريبا منه، فكيف نسمح لأنفسنا التدخل في شؤون الله سبحانه وتعالى! أَلأَنَهُ كريم ورحيم وغفور وصبور علينا وعلى أعمالنا؟

يذكرنا هذا القول بقصة الرجل الذي سأل أحد الحكماء عن مصير أبا جهل، وهل من الممكن أن يحظى بمغفرة الله سبحانه وتعالى؟ فأجاب الحكيم بكلمة واحدة: ممكن. فتعجب الرجل وقال: وماذا عن النمرود، هل يحتمل ان يسامحه الله؟ فأجاب الحكيم: ربما. هنا عاد للسؤال مرة أخرى وقال: وماذا عن فرعون: ألا يدخل النار؟ فقال الحكيم: محتمل. فعاد الرجل وسأل بتعجب: إذن لمن خلقت الجحيم؟ فأجاب الحكيم: لأمثالك الذين يتدخلون في شؤون الله.

اذن، لماذا نحدُ من آفاق عقولنا ومداركنا ونحصره في مجال واحد فقط؟ وأمامنا طرق أخرى معقولة لا تخالف الدين، كلها تشير الى ان عملية محاسبة الروح أمر اكثر احتمالا ومعقولية. من هذا يمكن الاعتقاد بان الثواب والمجازاة في العالم الثاني هي عملية روحانية بحتة لا علاقة لها بالجسد. وان السعادة الروحانية التي سنحصل عليها هناك تفوق السعادة المادية التي نتلذذ بها في هذا العالم المادي من أكل

وشرب ونوم وراحة وغيرها، فسعادة ملذات الحياة هذه، لها حدود ونهايات. مثلا، مهما طالت فترة التمتع بالنوم، فلابد وان نصحو منه ونتركه مرغمين لنتوجه نحو الحركة والعمل. وعند الإحساس بالجوع، والشروع في تناول الطعام، فلابد وان نشبع ونتركه وتعف أنفسنا منه، ولا يمكننا الاستمرار في الأكل الى ما لا نهاية. وعلى هذا القياس يكون التمتع بجميع الملذات والرغبات المادية المحدودة في الحياة الدنيا، وقس على ذلك... أما سعادة الروح، فيمكن ملاحظة مثال واحد منها، وهو عندما يرى الإنسان حلماً جميلا، فكم يتأسف حينما يستيقظ منه، وكم يتمنى لو نام مرة ثانية لتكملته.

ولنأت على حدث حقيقي يثبت ان السعادة والعذاب هما مسألتان روحانيتان تتمان في العالم الثاني مباشرة بعد الموت وليس في وقت آخر. فقد جاء في كتاب "الروح" لابن القيم الجوزية، انه جاء في الصحيحين عن الرسول الكريم(ص):

[انه أمر بقتلى بدر فألقوا في قليب "بئر قديمة"، ثم جاء الرسول(ص) حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فقال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال: والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم ليستطيعون جواباً][13].

يفهم من هذا الخطاب أولاً، ان من قتل في تلك المعركة من المشركين، دخل على الفور في يوم حسابه (قيامته)، ولم يُؤَجَّلْ أو يُنْظَرْ حتى تقوم الساعة الكبرى، يوم يقوم الناس للحساب أمام رب العباد. فتلك الساعة وذلك اليوم (يوم الآخرة) له حسابات ومواقيت وتفسيرات أخرى عديدة. وثانياً، ان الرسول الكريم(ص) كان يرى ما هي نهاية المشركين حال مقتلهم، وهذه قدرة وميزة الرسل عن غيرهم من البشر **(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)**[14]. وثالثاً، ان عالم ما بعد الممات، هو عالم أرواح وليس عالم أجساد، فاذا كان يمكن لأرواح أجساد قتلى المشركين سماع الكلام وفهمه وإدراك معناه والشعور بالخجل والندم والاطلاع على الخطأ والصواب وتقدير صالح الأعمال من طالحها ومعرفة الخسارة من الانتصار ورؤية نتيجة المعركة ومصيرها وغيرها من المشاعر التي يشتركون بها مع الأحياء، أدركنا انه لا فرق بينهم وبيننا سوى هذه الأجساد التي نعيش بها في هذا العالم المادي حتى انتهاء زمنها وفنائها، وانهم قريبون منّا ولكننا لا نراهم.

ولنجزم القول بكلمة الحق وفصل الخطاب، فلقد جاء في القرآن الكريم ما يبين ان الجزاء والثواب والعقاب يحدثان فور الوفاة تماما: **(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .**

اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِي . إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِي . قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)[15]، من قول هذا المؤمن المتوفى يفهم، انه قد فارق الحياة وتمت وفاته وانفصل عن أهله وإخوانه، وهو يتمنى ان يعلم أهله وذووه ماذا حصل له بعد الوفاة وكيف حصل على ثواب عظيم يود لو يخبرهم به، أي انه لا يستطيع ان يخبرهم انه أدخل الجنة بعد وفاته، لأنه انتقل الى عالم الأرواح وهم ما زالوا في عالم الدنيا. فمفهوم الآية ان الجزاء والعقاب لهذا المتوفى قد تم فور وفاته. وهذا من أكبر الأدلة الإلهية التي توضح بان الإنسان ينتقل الى الجنة أو النار حال وفاته.

حياة الروح بعد الموت

نعود لنتسائل عن ماهية الحياة في العالم الروحاني بعد الموت، وكيف يعيش الناس ويقضون أوقاتهم؟ وماذا يجري عندهم؟ وغيرها من التساؤلات العديدة.

ولنبدأ التفكير في مضمون الآية القرآنية الكريمة **(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[16]، وكذلك الحديث القدسي بخصوص ما موجود في الجنة عن أبى هريرة، قال الله:

(أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[17]. ورغم ورود العديد من الصفات الروحانية للحياة بعد الموت المادي في القرآن الكريم، الا انه يبدو ان لها معاني أخرى كثيرة لا نفهمها، كما قال تعالى **(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ)**[18]، وهذه الآية الكريمة تؤيد هذا الاعتقاد، وندرك منها، إننا بهذا النص الإلهي، نعجز عن فهم غالبية ما يحتويه القرآن من معان خفيّة عميقة، وإننا لا نعلم من معاني آياته الا المحكمات فقط، أي الآيات التي تختص بتنظيم الحياة والمجتمع مثل أمور الزواج والطلاق والإرث والقصاص وغيرها، اما ما تشابه منها وما يحتمل التفسير والتأويل وقبول المعاني المتعددة الكثيرة مثل الحكم والأمثال والقصص وغيرها – بدليل ما نقوله بعد تفسيرها وتأويلها تخلصاً من ذنب الخطأ (الله أعلم) – فهذه الآيات لا يمكن التقرب منها وإعطاؤها أية تفسيرات جازمة، لأنها في علم الله وسوف تفسّر في المستقبل حسب وعد الله في القرآن الكريم **(يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)**[19]، وكذلك **(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ .. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)**[20]، فلقد وعد الله بتفسير هذه الآيات مستقبلا، والله لا يخلف وعده **(وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**[21].

بصريح هذه الآيات الإلهية والكثيرة غيرها، يدرك ان تفسير القرآن الكريم مخفي على الناس وعلمائهم مهما علت مراتبهم، الى ان يشاء

الله، وان ما يفسره السادة علماء الدين الكرام، هو من باب الاجتهاد وتمشية أمور الرعية والمحافظة والحرص على مصالح المجتمع. ان التفسير الحقيقي الذي يُعتمد عليه فقط، هو ما جاء به الرسول الكريم وما تفضل به، لأنه الوحيد العالم بخفايا كتاب الله، فهو رسول حق وعالم بما ينقله من تفسيرات وعلوم للناس، فإن فسّر شيئا فذلك هو الحق المطلق وغيره الباطل، أما إذا لم يفسره، فهذا من حكمته العظيمة المستمدة من ربه والتي لا يعلم معناها ومغزاها وسبب حجب مفهومها الا الله سبحانه وتعالى.

أما ما ورد في الآيات القرآنية في وصف ما في جنات الله من أنهار العسل والنخيل والأعناب وغيرها مما يشجع المؤمنين على التمسك بالدين، فلا نريد الدخول في تفسيره، فقد يخرجنا عن صلب الموضوع. ونقتصر الجواب على ما ورد في القرآن الكريم من آيات تدل على ان كلام الله وعلمه لا نهاية له، بل وان معاني كلماته لا نهاية لها، كما قال تعالى **(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)**[22]. فإذا كان كلام الله سبحانه وتعالى بهذا الحجم العظيم وهذه الكمية المطلقة، فلابد أن تكون معانيه بكمية أكبر. وما دام الله قد وعد انه سيأتي بتأويله في المستقبل، فلنترك موضوع هذه التفاسير حتى يأتي تأويلها وكفى الله المؤمنين القتال.

من خلال الآية المذكورة في سورة السجدة **(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** والحديث الصحيح السابق (فيها ما لا عين رأت...) يفهم ان كل ما موجود في هذا العالم غير موجود في العالم القادم، والعكس صحيح. وهذا يعني ببساطة انه لا يوجد هناك أرض مثل هذه الأرض ولا جبال مثل هذه الجبال ولا بحار ولا انهار ولا غيرها.. بل ولا أجساد، لأنها جميعا تدخل في باب السماع والمشاهدة والتأمل، فهذا عالم ماديات، وذاك عالم روحانيات. ولنضرب مثلا على ذلك، ان الجنين في بطن أمه يملك المخ والعين والحواس التي يمتلكها الإنسان الكامل في العالم المادي، لكنه لا يستطيع استعمالها، ومهما حاول التفكير والتأمل بما يزخر به هذا العالم فإنه يعجز عن الوصول الى صورة مصغرة بسيطة له، حتى ولو جاء بكل عقول الأجنّة الأخرى لمساعدته. لكن هذا الجنين سيفهم عندما يخرج وينمو ويكبر ويصبح ناضجا، ما هو الفرق بين عالم الجنين والعالم المادي، وكم هو الفرق والسعة بينهما.

لذا وجب التفكير بطريقة مخالفة تماما عن الأنظمة والطرق المعهودة التي تعودنا عليها. فمثلا نبتعد عن القياسات والاجتهادات والنظريات والعادة والنظام الجاري والأعراف والتقاليد، وعما يسمع ويقرأه، وعن الممكن وغير الممكن... وما دام الأمر كذلك، وما دُمنا سنفكر بطريقة جديدة، فلنعط ونمنح الخيال حرية التفكير والتأمل

والتخيل بحدود المعقول وحدود الايمان وعدم الشرود والشطح الى الكفر (معاذ الله) أو الخروج من الحلال الى الحرام.

ان كل ما هو محدود وناقص، لابد ان يقابله بديل تام غير محدود، فالظلمة محدودة وناقصة والنور كامل، والعمى نقص والإبصار كمال، والبصر محدود والبصيرة غير محدودة، والجهل يقابله العلم، والمرض تقابله العافية، والضعف تقابله القدرة. إذن، فالمحدود لابد ان يقابله مطلق، وبما أن العالم المادي تحكمه المحدودية، فمن الوارد انه لا محدودية في عالم الآخرة (العالم الثاني) ولا يوجد وقت وأيام وما يتعلق بها، لأن الوقت من مستلزمات الكون المادي، وهو من المحدودات، فنحن نحسب الوقت باعتمادنا على حركة دوران الأرض حول الشمس، فإذا خرجنا من عالم الأرض الى الفضاء، خرجنا من عالم الوقت والزمان والمحدودية، مثلما يحدث لرواد الفضاء عندما يختلف عليهم الليل والنهار بخروجهم من مجالي النور والظلمة الملازمان للأرض الى فضاء النور، ويعتمدون في توقيتهم على الساعة ودقائقها.

لذا من المحتمل ان الأرواح لا تتعامل بالوقت والزمان، فهو قياس محدود، ومن المحتمل انها تعيش بدون أعمار في العالم الآخر، ويمكنها العيش هناك بدوام ملك الله الى الأبد. وبمفهوم آخر، انها ستحيا في الأبدية المتصلة بعالم الخالق المستظلة بظل رحمته الكبرى الباقية بدوام بقاء سلطته وسلطانه.

ومن خلال هذه الفرضيات، يحتمل تغير العديد من الأمور، فمثلا هذه المسمّيات التي نطلقها على الأشياء هي مصطلحات أرضية مادية لهذا العالم، ومن السهل على الله خلق شيء جديد في عالم جديد وتسميته بمسميات جديدة في العالم التالي. وبمعنى آخر مثلما تتعدد وتختلف اللغات على الأرض، يمكن ان تختلف لغة الأرواح أيضا، ومن المحتمل ان يتم التفاهم هناك بلغة واحدة بين جميع أرواح البشر لا فرق بين عربي وأعجمي، فالكل يتحادثون ويتسامرون ويتفاهمون بلغة روحانية واحدة، فيحدث الاتفاق والتفاهم بين أرواح البشر بعدما فشلوا في تحقيق الوئام على الأرض لحد الآن...

قوة العقل

اذن فالروح تملك بالإضافة الى الحواس الخمسة قوة العقل، وهي أقوى قوة لديها. وهنا يجب التفريق بين جهاز المخ وقوة العقل، فجهاز المخ هو هذه المادة الموجودة داخل الجمجمة، وبين قوة العقل المعنوية المفكرة المرتبطة بالروح. فالعقل، هو تلك القوة غير المرئية التي تمتلكها الروح لمعرفة الأشياء وتمييزها والاستفادة منها في عملية فهمها ورقيها. هذا بالإضافة الى ان الروح تمتلك قوى وملكات عديدة مثل قوة

الحركة وقوة السمع وقوة البصر، كما يمكن ان تكون لها قوى أخرى مجهولة لا يمكن اكتشافها الا بعد وفاة الجسد والانتقال الى العالم الثاني.

لو أدرك البشر دورهم الروحاني الحقيقي في هذا العالم المادي وما أهمية وجودهم، وعرفوا سبب خلقهم، لتغيرت المجتمعات البشرية تماما ولأصبحت الأرض جنة الله ولعمّت السعادة والراحة كل أبناء الجنس البشري ولاختفى الظلم والتعسف والقتل والعدوان والأنانية وشرورها. وهذا ما سيحصل عاجلاً أم آجلاً، فالإنسانية داخلة لا محالة في مرحلة العقلانية والتعقل، ولابد لها من ذلك ان شاءت أم أبت، إذ لابد لشجرة وجود الإنسان على الأرض في النهاية من الإثمار، وما ثمرة الإنسانية الا الأعمال الطيبة والسلام التام على الأرض، وهذا لن يتم الا بعد نضوج الفكر الإنساني مع مرور الزمن، وان غداً لناظره قريب.

الجسد قفص والروح عصفور

يمكن تمثيل الروح وتعلقها بالجسد، مثل عصفور محبوس داخل قفص، فهو محدود الحركة والطيران ومحدود البصر والغذاء والمعلومات عن عالمه الخارجي. وعندما يكسر القفص أو يفتح، ينطلق العصفور الى العالم الرحب أي الى عالم المعلومات بكل سعته. أو مثل رجل أعمى يرتد له البصر بعد عمر طويل، فيرى الفرق الشاسع بين ما كان

يعرفه وما انتبه له. وهكذا فبمجرد الانتقال من هذه الحياة الدنيا الى عالم الآخرة، يجد الإنسان حقيقته (روحه) وقد انتقلت من عالم مادي محدود الى عالم روحاني لا حدود له، وكذلك يجد الفرق الشاسع بين النعم المادية في الأرض والنعم الروحانية غير المحدودة. إن الجسد هو قفص الروح في هذه الحياة، والروح مضطرة للتعلم في هذا العالم المادي من خلال حواس الجسد، فتسلك سبيل الخير أو طريق الشر حسب مكتسباتها الدنيوية، وعند الانتقال الى العالم الآخر تحاسب الروح بما تعلمته وكسبته خلال حياتها وما أصدرته من أوامر لآلة الجسد فنفذها وترجمها الى تصرفات وأفعال.

من خلال هذه الأمثلة، يمكن معرفة نسبة العلم والمعرفة البسيطة عند الإنسان في هذه الحياة ونسبتها العظيمة في العالم الآخر. وهذا تشبيه بسيط لعلاقة الروح بالجسد. والأمثلة كثيرة وعديدة، وقس على ذلك.

المعاق وقوة الروح

يمكن تفسير إبداع بعض المعاقين بالشكل التالي: طالما ان جهاز الاستقبال والإرسال (المخ) سليم لديهم ويؤدي وظيفته بشكل جيد كواسطة بين حواس الجسم من جهة وعقله المتعلق بروحه من جهة أخرى، وطالما زرعت فيهم قوة الارادة والتحدي والإصرار من

مجتمعاتهم والرغبة في التغلب على عائق الجسد، فكل هذه الأمور وغيرها تدفع بالمعاق الى التعلم والإصرار على الاكتساب والتعلم السريع ومحاولة التفوق على عجزه. ومن المعلوم ان ثقافة الروح وكمية علومها المكتسبة عند ناقصي الحواس وأصحاب العاهات مثل الضرير أو الأصم أو الأخرس هي أقل كمّاً من الإنسان السليم كامل الحواس، إذا افترضنا استعمال بقية الحواس بشكل متساوٍ. فإذا زدنا كمية المعلومات لعقله عن طريق باقي حواسه المتوفرة بشكل صحيح، أمكن في وقت من الأوقات تفوقه وزيادة نسبة معلوماته عن مستوى أقرانه. ومن خلال هذه الفكرة، تبدو أهمية إيجاد الطرق الفنية الجيدة في تعليم أصحاب العاهات لتعويض ما عجزوا عن اكتسابه في هذا العالم. وهذا هو السبب الذي يدعو للمناداة برعاية المعاقين، لا لأنهم يملكون قوى عقلية أقوى من الأصحاء بل لقدرتهم على الاستفادة من قوى الإصرار والتحدي والاكتساب التي يفتقر اليها كثير من الأصحاء.

لذلك نعود ونقول بأهمية التربية والتعليم في حياة البشر، فهما سببان رئيسيان لترقي العقل ومن ثم المجتمعات وبالتالي أحد أسباب ترقي الروح، وفي النهاية تكون الصفات الروحانية للبشر سبب الايمان واليقين بالله، وذلك لتوافق واتحاد العلم والإيمان وعدم اختلافهما، فطالما انهما من مصدر واحد هو الخالق العليم الموجد، لذا لا يمكن التفريق بين هذين المخلوقين العظيمين، العلم والإيمان. وان من يدعي العلم

ويرفض وجود الخالق، لابد له من إعادة النظر في نفسه، فلابد ان يكون علمه ناقصا أو أن هناك شيء ما قد فاته. وهنا نذكر قول أحد الحكماء حينما قال في إثبات وجود الخالق:-

ان معرفة وجود الله سبحانه وتعالى، تحتاج الى العقل والادراك، وهناك بعض العلماء الماديين يدرسون سنيناً طويلة ثم يتوصلون الى نكران وجود الخالق. بينما نجد الحيوانات قد توصلت الى هذه النتيجة قبلهم بالبديهة وبدون تعب ودراسة، وذلك لعدم امتلاكها العقل. أما أولئك العلماء فقد احتاجوا كل تلك السنين من الدراسة ليصلوا الى نفس هذه النتيجة.

غاية وجود الإنسان

أما بخصوص البقاء في هذا العالم، فنورد المقارنة التالية: ان كان الغرض أو الهدف النهائي من وجود أو خلق الإنسان هو هذه الحياة الدنيا فقط، لكان من المفروض ان يتوفر له أفضل أشكال الحياة على الأرض ولتنعم بأسعد أيامه، لأنه يملك أقوى قوة معنوية على الأرض، ألا وهي قوة العقل. ولكنا نجد بعض الحيوانات تعيش أسعد حالاً من الإنسان، فهي لا تفكر في ماض ولا تخشى من مستقبل مجهول، لأنها لا تملك العقل، وبعضها يكد ويشقى في العمل ورفع الأحمال طوال اليوم، وفي آخر النهار يأوي الى حظيرته ليرتاح ويأكل ويهنأ ببقية

يومه، فلا نزاعات طائفية ولا حروب قومية ولا مشاكل اقتصادية، ثم تعود وتبدأ يومها التالي على نفس المنوال والوتيرة، وفي النهاية تترك هذا العالم بسلام، وليس كما هو الحال بالنسبة للإنسان الذي يواجه كل أشكال المتاعب والمنغصات في حياته وفي النهاية يخرج خال الوفاض وكأن شيئاً لم يكن.

هنا يظهر سؤال آخر: لم كل هذه التركيبة المعقدة؟ جسد وروح وحياة وممات ومشقة وتعب وعناء وسعادة وفرح وسرور وكفر وايمان وظلم وعدل وموت وفناء. ألم يكن من الأفضل ان يخلق الله الإنسان بحالة أبسط وأقل تعقيداً؟ ولم كل هذه السلسلة الطويلة المعقدة في عملية خلق الإنسان؟ ان الجواب يخضع أيضاً للقبول والرفض، لكن لكل منا رأي يقوله.

يمكن القول، ان الهدف من وجود الإنسان على الأرض ليس هذا العالم المادي، وهذا القول يصدّقه ويؤيده كل كتب الله المنزلة وكلام جميع الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فلو كانت الحياة الدنيا هي الهدف من الخلق والإيجاد، لتربعت هذه المظاهر المقدسة الربانية أي الرسل والأنبياء، على عروش الأرض وتحكمت بكنوزها وممالكها من شرقها الى غربها ولخلدت في الدنيا وما تركتها. لكننا نرى العكس والنقيض، فالأنبياء يأتون ويذهبون من هذه الدنيا وهم في أفقر حال وأضعف مستوى وفي أشد حالات الاحتياج، بل ويقتل بعضهم أو

يرمى في غياهب السجون دون أن يتمتع بملذات هذه الحياة. فلو كان لهذه الدنيا مقام وشأن، فلماذا نراهم على هذه الحالة من التعب والفاقة والعجز والمذلة، بل لماذا يأنفون من الماديات والأموال والغنى ويذهبون وهم لا يملكون شيئا؟ والكل يعلم انهم لو رغبوا، لتملكوا كل ما يريدون بكل سهولة، فالأموال تقدم لهم من كل مؤمن والأرزاق تأتيهم من كل صوب، بل هناك من المؤمنين من يفدي نفسه وحياته رخيصة بين أيديهم وفي الذود عنهم وعن مبادئهم! لكنا نراهم لا يأبهون بكل هذه الأموال ويعيشون فقراء ويموتون فقراء! فلماذا هذا التصرف وما هو السبب؟ من المؤكد انهم يعلمون علم اليقين ان الغاية من الخلق ليس هذا العالم، وإلا لاهتموا به قبل غيرهم، ولكنهم يريدون تعليم البشر ان وراء هذا العالم عالم آخر هو الهدف وهو الخلود وهو البقاء، وليتعظ من يؤمن بهم.

اذن يبدو ان وراء وجود الإنسان ومعاناته في هذه الحياة هدف أسمى وأكبر، وإلا فلا شيء في هذه الدنيا يستحق كل هذه المعاناة والشقاء والعذاب.

كيف تتكون الحضارات

من خلال كل ما ورد في هذا الفصل، يتضح جواب السؤال الذي يسعى لمعرفته علماء التاريخ والاجتماع والحضارة، وهو: **ما الذي يبعث**

الإنسان على التحرك الحضاري؟ وكما رأينا أن جواب هذا السؤال لا يكمن في اختلاف الأجناس والبيئات والمواقع الجغرافية أو الى تحدي الإنسان للطبيعة كما ذكروا، رغم انهم يعترفون انه لابد وان يكون هناك سبب آخر غير كل ذلك، لكنهم لم يتوصلوا إليه. والجواب كما جاء ذكره: ان الروح الإنسانية، هي روح سامية راقية خلاّقة تسعى على الدوام لبلوغ هدفها الطبيعي من الرقي الدائم ورفعة الشأن، وهذه صفات ملازمة لها لا تنفك عنها، تحفّز الإنسان وتدفعه للبحث والاستقصاء وخلق الرقي الحضاري بمساعدة الظروف الاجتماعية والمتوفرات العلمية التي تخلقها أصلاً الشرائع السماوية، وبما أن جميع عقول البشر وأرواحهم تخضع لهذا القانون، لذلك نرى تناثر معالم الحضارات في شتى أنحاء الأرض، كل حسب مقدار شربه وارتوائه منها. أما ما يشاهد من مظاهر مخالفة لهذه الصفات عند بعض الناس، فذلك بسبب نقص طريقة التربية والتعليم كما جاء ذكره.

وهكذا يتضح خطأ "توينبي"، أحد كبار علماء التاريخ والحضارات عندما أكد ان أحد الأسباب الرئيسية المهمة لظهور الحضارات البشرية هو مواقف المجتمعات الإنسانية تجاه ما يواجهها من تحديات خلال تاريخها ونوعية ردة فعلها أو الاستجابة لها. وهذه هي ملخص فكرة نظرية التحدي والاستجابة التي قال بها، ونسب فيها ظهور الحضارات

الـى المكـان الجغرافـي ودرجـة صـعوبته والـى سـعي الإنسـان الـدائم للانتصار على مشاكل الطبيعة والبيئة التي تدفعه الى شحذ أفكاره.

ان تحدي الإنسان للطبيعة ومشاكلها، انما هو طريقة أو وسيلة من وسائل الرقـي الحضـاري، وليس الدافع أو السبب فـي خلق الحضـارات وإيجادها. أما السبب الحقيقي وراء وجود الحضارات فهو نوعية الروح الإنساني، فهي روح دائمة التطلع نحو الأفضل والأحسن والى التقدم والسمو، وما كل ما وجد من انتصارات فكرية وعلوم وحضارات خلال مـر العصـور إلا نتيجـة لقـوة أرواح وعقـول أولئـك العظمـاء والمبـدعين الذين ساهموا بجهودهم في تقدم البشرية جمعاء بعد استعانتهم بما وفرته علوم الأديان والأنبياء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

الهوامش

1 – كتـاب خـوارق اللاشـعور أو أسـرار الشخصـية الناجحـة – للـدكتور علـي الوردي – الطبعة الثانية – 1996 – دار الورّاق – لندن – صفحة 28 .
2 – سورة فصلت الآية 42.

3 – سورة الزمر الآية 9.

4 – خوارق اللاشعور صفحة 149 .

5 – خوارق اللاشعور ص 145 .

6 – خوارق اللاشعور 150 . Jeans, op. cit., p. 148

7 – كتاب "الأحلام بين العلم والعقيدة" للدكتور علي الوردي صفحة 182.

8 – كتاب الأحلام بين العلم والعقيدة – للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية 1994 – دار كوفان – لندن – صفحة 32 .

9 – كتاب الأحلام بين العلم والعقيدة – الدكتور علي الوردي – صفحة 145. Rhine Reach of Mind, P. 59

10 – المصدر السابق .. Tyrrell, Personality of Man, P. 81

11 – المصدر السابق .. Ibid, P. 76. - 77

12 – كتاب الأحلام بين العلم والعقيدة – للدكتور علي الوردي – صفحة 34.

13 – كتاب "الروح" لابن القيم الجوزية – تحقيق كمال علي الجمل – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت لبنان – 1996 – صفحة 5 .

14 – سورة الجن الآيتان 26،27.

15 – سورة يس الآيات 20–26.

16 – سورة السجدة الآية 17.

17 – كتاب ينابيع المودة للقزويني – الباب 55 صفحة 275 .

18 – سورة آل عمران الآية 7.

19 – سورة الأعراف الآية 53.

20 – سورة القيامة الآيات 17،19.

21 – سورة الروم الآية 6.

22 – سورة الكهف الآية 109.

الفصل الثامن عشر

نظرة الى فلسلفة كتاب ابن طفيل

(حي ابن يقظان)[1]

قد يستغرب القارئ من مرورنا على هذا الكتاب الفلسفي ومناقشة أفكاره وبعض ما ورد فيه من مفاهيم غاية في الخطورة، والحقيقة لم يكن ذلك لسبب، إلا دعوة الكتاب الى سلوك الناس طريقة معينة في الحياة، ألا وهي طريقة التصوّف والتنسك والانزواء والابتعاد عن المجتمع للنجاة بالنفس واكتشاف حقائق الأمور الخفية. فالفكرة مثيرة وخطيرة بحد ذاتها، فهي تدعو الى إقناع الناس بالانزواء والابتعاد للعيش بمفردهم إذا ما ابتغوا التعمق في التفكير، وبالتالي فهي تؤدي الى تجزئة المجتمع وتفرقته وابتعاد كل من يستسيغها عن دوره الاجتماعي والتخلي عن المساهمة والمشاركة في تقدم المجتمعات والشعوب.

ولقد سبق ورأينا ما للأفكار والنظريات من تأثير على سلوك وأفعال وتصرفات المجتمعات عندما يتبنى بعض المفكرين أو الفلاسفة رأياً معينا أو نظرية ما ويعتقد بها باعتبارها أفضل ما يسهم في تقدم الأمم والشعوب، ومن ثم يأتي من بعده بعض السياسيين ويتبنوا أفكاره ويتخذوها قاعدة أساسية لدساتير دولهم ثم يجبروا شعوبهم على اتخاذها مسلكا ونظاما ودستورا لهم، حتى ولو لم يوافقوهم الرأي، وبعد مضي سنين طويلة من المعاناة والعذاب والأخطاء في التطبيق، ومحاولات دؤوبة لتصحيحها وتعديلها وتهذيبها، تجد السلطة نفسها سائرة في طريق خاطئ، عندها تبدأ في البحث عن مخرج لها، فلا تجد أمامها

إلا طريق الدمار والحروب والقتال وتعم البلايا ويحل الخراب، وما كل ذلك إلا لخلو الساحة من فكر ناجع يلبي حاجات الإنسانية، ولوجود فئة مستفيدة تجد غاياتها في ما طرح من أفكار، فلا تحبذ التغيير ولا تميل له خوفا من المجهول، وفي المقابل تظهر فئة أخرى تريد التغيير وتتطلع نحو الأفضل وتثق بالتطور وتؤمن تماما بخطأ المنهج القديم وترى ضرورة تغيير الفكرة الأساسية. وهكذا، فالشعوب المغلوب على أمرها هي التي تدفع ثمن التجارب الخاطئة لساستها بعد سنين طويلة من العذاب والمعاناة والتضحية أملا في تحسن أحوالهم.

ان قصة (حي بن يقظان) هي الأخرى تدعو الناس الى انتهاج طريقة مختلفة عن بقية الطرق، وهو سبيل الزهد والترفع عن الماديات والتمسك بالروحانيات، وهذا شيء جميل في مظهره، لكنه . وكما لاحظنا . لابد من تطبيقها بشروط محددة تنفع المجتمع، وهذه الشروط تعتمد في حقيقتها على الماديات التي لا يمكن فصلها عن الروحانيات، فالعالم الإنساني يعيش ويبقى بسبب هذين المبدأين ومن أجلهما، وهما بالنسبة للإنسان مثل الجناحين بالنسبة للطائر، فلا يمكن له التقدم أو السمو في هذا العالم الا بخفقان هذين الجناحين معا (الجسد المادي والروح المعنوية) أي بالحركة والعمل والتفكّر والتأمل، وإلا فلابد وان يسقط طائر الإنسانية من عليائه الى هاوية التردي والخراب إذا كان أحد جناحيه قويا والآخر ضعيفاً.

إضافة الى ما سبق، يحتوي الكتاب على أفكار ومبادئ وفلسفات أخرى عديدة، أحببنا مناقشتها بشكل سريع، فمن المحتمل ان يستحسن بعضها أصحاب القوة والجاه، فيتخذوها سبيلا لحياتهم وحياة شعوبهم بعد ان فقدوا الأمل في كل شيء حولهم، إذ نلاحظ في الفترات الأخيرة خروج بعض الغلاة المتشددين وهم ينادون بالعودة الى القديم، بسبب اقتناعهم بفشل النظم الحالية وفساد تطبيقها وانتفاء الفكر البديل، وهذه حقيقة لا شك فيها لا يختلف عليها اثنان، ولما لم يجدوا جديدا يتمسكون به للخلاص من واقعهم المتردي، راحوا يشكلون قوة تسلك سلوك ما قبلها من الأحزاب وغيرها، فيتمسكون بكل وسيلة مهما دنت أو سمت للوصول الى هدفهم، معتقدين ان الغاية تبرر الوسيلة، والأمثلة كثيرة خاصة بوجود الكثير من الأنانيين والمنتفعين الذين يحاولون البحث بين طيات أوراق التاريخ عن فكرة قديمة أو مبدأ مختبئ بين سنين الزمان، أو شعار طبق ونسيت مساوئه، فيستخرجونه ويضعونه في قالب جديد، ثم يجبرون الناس والعباد على سلوكه كمنهج لهم، معتقدين انه الحق اليقين وغيره الباطل، وينسبون فشله السابق إما الى أخطاء في التطبيق أو الى رجال ذلك العهد أو الى الظروف أو غير ذلك من الأعذار الواهية... فيدخل المجتمع المغلوب على أمره في تجربة جديدة ودوامة أكبر لا يعرف نهاياتها الا الله، وبعد ان تضيع السنين والعقود من أعمار الناس الذين لا حول لهم ولا قوة، يكتشف هؤلاء (العباقرة) انهم في طريق خاطئ يجب تصحيحه، وأقرب مثال

على ذلك ما سارت عليه الأمم الشيوعية والاشتراكية والقومية والمادية والدينية والحزبية وغيرها في القرن العشرين وما قبله، بل وحتى المتواجد منها في هذه الأيام، وما جنته وستجنيه من مصائب وكوارث عالمية على البشرية، فيعود المجتمع في كل مرة الى نفس الحلقة المفرغة والنقطة التي بدأ منها، وتضيع جهود الأجيال وأعمارهم.

أراد ابن طفيل ان يثبت ان بإمكان الإنسان الوصول بالروح الى أعلى درجات السموّ والرفعة عن طريق الزهد والتصوف، وذلك بإخضاع الجسد للرياضات الشاقة الصعبة من خلال الابتعاد عن حاجاته الضرورية من أكل وشرب ونوم وراحة، وهذا الفكر يدعو لتحقيق إنسانية الإنسان ضمن مجتمع إيجابي من خلال رؤى متطرفة وحياة سلبية تخالف السبب الحقيقي لوجود المجتمعات مثل التعاون والتآزر والوحدة والتعاضد والعمل الجماعي المنظم، فاقتبس من قصة سيدنا موسى(ع) شيئاً وأضاف عليها من غيرها، وراح يطبّقها على بطل قصته عبر شخصيته الخيالية (حي ابن يقظان)، حيث أسكنه في جزيرة صغيرة خالية، بعد وضعه في صندوق عند ولادته ورميه في اليم، لتعثر عليه ظبية قامت على إرضاعه ورعايته حتى كبر وأخذ يقلد الحيوانات في تصرفاتها وحركاتها وأصواتها. وأخيرا، بلغ الصبي أشده واكتسب من العقل ما مكّنه من الشروع في المشاهدة والتفكير والتأمل والمقارنة في أمور الدنيا والحياة والأمور الدينية والروحانية والغيبيات. والغريب في

القصة، ان هذه الشخصية راحت ترتفع بالتفكير الى أعلى مراتب العقل، وتخرج باستفسارات وأجوبة وحلول لا يصل اليها كبار العلماء والفلاسفة ممن قضوا جلّ حياتهم في الدراسة والبحث والقراءة والتقصي والمناقشات. وبهذا فهو يقول برأي مخالف لما جئنا عليه وأثبتناه في عدة مواقع، وهو أن الإنسان لا يتعلم إلا بوجود مربي أو معلم.

يعلق أحد الأدباء على قصة ابن طفيل، فيقول:-

[ولا ريب ان هذا الرأي هو رأي الفلاسفة القدماء جميعاً، فإبن طفيل اذن لم يأت بشيء جديد. وليس له من الفضل في هذا الا ابتداعه لقصة شيّقة حيث عرض فيها ذلك الرأي القديم في قالب جديد. وقد لاقت قصة "حي ابن يقظان" هذه رواجا عظيماً بين المفكرين وترجمت الى كثير من اللغات، وحاول تقليدها والاقتباس منها فلاسفة وكتّاب من مذاهب شتى... والغريب ان كثيرا من كتابنا ومفكرينا لا يزالون حتى يومنا هذا متأثرين بهذه القصة ويعتبرونها الكلمة الأخيرة في قضية العقل البشري. انهم لا يزالون يؤمنون بأن العقل موهبة طبيعية تنمو من تلقاء ذاتها سواءً أعاش الإنسان في مجتمع أم عاش منذ ولادته وحيداً منعزلاً. أما الأبحاث العلمية الحديثة فهي تكاد تجمع على خطأ هذا الرأي. حيث ثبت اليوم ان العقل البشري صنيعة من صنائع المجتمع، وهو لا ينمو أو ينضج الا في زحمة الاتصال الاجتماعي... فاذا ولد الإنسان وترعرع بين الحيوانات فإنه يمسي حيواناً مثلها. وما قصة "حي

ابن يقظان" التي ابتدعها خيال فيلسوفنا الرائع الا وهم أو خرافة لا وجود لها في عالمنا الذي نعيش فيه.

عثر أحد الرعاة، عام 1927، على طفل بشري في عرين للذئاب بالقرب من مدينة الله أباد في الهند، وكان الطفل يبلغ من العمر عشر سنوات تقريبا. وقد توصّل الباحثون الى حقائق مدهشة في شأن هذا الطفل، إذ وجدوا انه يسلك سلوك الذئاب، فهو ينبح مثلهم ويأكل الحشيش ويمشي على أربع. وقد يهاجم البشر فيعضّهم أو يعضّ نفسه. وتنتابه أحيانا نوبات من التوحش الشديد. وحين نقلوه الى إحدى الملاجئ العقلية. هاجم الشرطة الذين كانوا يحرسونه عدة مرات... وقد رويت قصص أخرى مشابهة لهذه القصة. وكلها تشير الى خطأ ابن طفيل. ويظهر ان هذا الطفل الهندي، الذي روينا قصته آنفا، يشابه من بعض الوجوه صورة صاحبنا "حي ابن يقظان" التي ابتدعها يراع ابن طفيل. انه عاش بين الذئاب فأصبح ذئباً، ومن المستحيل عليه ان يكون فيلسوفاً كما أراد فيلسوفنا العربي الكبير. ان أي إنسان لا ينمو عقله الا في حدود القالب الذي يصنعه المجتمع له. ومن الظلم ان نطالب إنسانا عاش بين البدائيين مثلا ان ينتج لنا فلسفة معقدة كفلسفة برجسون أو رياضيات عالية كرياضيات اينشتاين][2].

حاول ابن طفيل اختصار فلسفة تطور البشرية من خلال شخصية إنسانية واحدة، وقال: ان "حيّ" عرف النار والملابس والأصوات

والموت والحياة وما شابهها خلال سنين حياته، ومن المؤكد ان الكاتب بالغ في اختصار الزمن كثيرا، باعتبار ان هذه الاختراعات والاكتشافات لم تحصل الا عبر عصور طويلة من التأمل والتفكير والمقارنة والإضافة والتصحيح والاجتهاد والوصول الى المعقول غير المحسوس عن طريق المحسوس، إضافة الى دور السلف الصالح فيما تركوه للأجيال من ذخيرة وافرة من المعلومات والأفكار التي كان لها دور أساسي في تدرج العلوم والفنون والحضارات. ومع ذلك، فقد قدّم تصوّرا جميلا في هذا الشأن باختصاره للزمن.

ندخل الى نقاط الخلاف مع رأي الكاتب حينما يقول صفحة 122 *(إنه بعد الاستغراق المحض، والفناء التام، وحقيقة الوصول، شاهد الفلك الأعلى، الذي لا جسم له، ورأى ذاتاً بريئة عن المادة، ليست هي ذات الواحد الحق، ولا هي نفس الفلك، ولا هي غيرهما؛ وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة من المرائي الصقيلة، فإنها ليست هي الشمس ولا المرآة ولا هي غيرهما، ورأى لذات ذلك الفلك المفارقة من الكمال والبهاء والحسن، ما يعظم عن أن يوصف بلسان، ويدق عن أن يكسى بحرف أو صوت، ورآه في غاية من اللذة والسرور، والغبطة والفرح، بمشاهدته ذات الحق جل جلاله)*.

ففي هذه الفقرة يقول ان بطل القصة قد عرف الله من خلال قدراته الذاتية، دون الاستعانة بعلم غيره أو تعليم معلم أو قراءة كتاب! وهذه

نظرية مستحيلة ومحالة من ناحيتين، الأولى أنه لا يمكن لأي إنسان أن يحسن عملية التفكير والتأمل دون وجود عملية التعليم ودور المعلم، ولقد أثبتنا ذلك في فصل سابق. ولا ضرر من سوق بعض الأدلة مرة أخرى:

لقد اكتشف العلماء ان شعوب استراليا الأصليين، وبعض القبائل التي اكتشفت أخيرا في مجاهل أفريقيا وأمريكا الجنوبية، انها ما زالت تعيش في أدنى مستويات الحياة الإنسانية، فلو كان بإمكان الإنسان الرقي بنفسه ومجتمعه ذاتيا، كما يقول الكاتب، لاستطاعت هذه القبائل الرقي والتمدن مثل بقية المجتمعات الأخرى، باستعمال عقولها منفردة أو مجتمعة أو من خلال تكرار التجربة، بل ان شعوب العالم الثالث ما زالت متخلفة عن بعض شعوب الأرض رغم كثرة الاتصالات وانتشار التعليم والمعاهد والجامعات والتطور العلمي في دولها. فإذا كان بالإمكان الحصول على الحضارة والرقي نتيجة جهود فردية ذاتية وبدون الاستعانة بمعلم، وان العلم والعلوم تتفجر في عقل الإنسان بدون سبب ومسبب ودفع دافع، لما حصل مثل هذا التباين في مستويات الشعوب، ولكانت أمم الأرض في مستويات متساوية تقريبا في الحضارات والعلوم حسب هذه النظرية، لان جميع الشعوب ترنو نحو الأفضل وتجتهد في سبيله.

ومن ناحية ثانية، أن الذات الإلهية، هي ذات مقدسة عن المادة فلا يمكن رؤيتها بالحواس، وهي ذات مقدسة عن العقل والتفكير والتأمل، لأنها أسمى من هذه القوى وأعلى منها، حيث ذكرنا أن المصنوع مهما ترقى في تفكيره، فلا استطاعة له عن معرفة الصانع؛ والمخلوق مهما ترقى في خلقته، فلن يتمكن من بلوغ الخالق؛ فإذا كانت المخلوقات لا تستطيع معرفة حقائق بعضها البعض وهي من عالم المادة، فكيف يمكن لها أن تعرف ما هو فوق مستواها؛ وبمعنى آخر، أن الجنين في بطن أمه مهما تسامى في عقله، فهو عاجز عن معرفة إنسان عالم المادة، والحجر يعجز عن معرفة كنه النبات، وهذا عاجز عن معرفة حقيقة الحيوان، وهذا يعجز عن معرفة الإنسان، والإنسان عاجز عن معرفة حقيقة روحه ناهيك عن معرفة أرواح غيره؛ فكيف يمكن له معرفة كنه حقيقة الخالق؟

ان ابن طفيل نسيّ ان كل علم مقسم الى قسمين، لدنّي ومكتسب، اللدني هو ما يوحى به الى الرسل والأنبياء، والمكتسب هو ما يحصل عليه جميع البشر بالسعي والمثابرة، وهذا يقسم الى خاص وعام، عام يشترك به غالبية المتعلمين على مختلف مشاربهم، وخاص يختص به من يتوجهون نحو علم معين. بل حتى عمليتا الفهم والإدراك، تقسم الى خاص وعام، فبعض الناس يفهم بدرجة بسيطة رغم المعطيات الكثيرة وآخر يفهم بدرجة عميقة رغم قلّة المعطيات.

ان الإنسان لا يمكنه التعلم ذاتيا مهما حاول أو فعل، رغم امتلاكه للمخ والروح والعقل الإنساني، لأنه مخلوق اكتسابي التعلم لا يربي نفسه الا إذا عُلِّمَ وتَرَبْى، بل وأحسن تعليمه وتربيته. وخير دليل على هذا هو وجود الكتب والمدارس والمعاهد والكليات والجامعات وما شابه، لتعليم الناس وتربيتهم وتثقيفهم. وبغير هذه الطريقة يبقى جاهلا من الناحيتين التربوية والتعليمية.

لقد بقي التفاح يسقط من أغصانه لآلاف السنين ولم ينتبه أحد الى موضوع الجاذبية الأرضية إلا نيوتن، وكان الناس يدخلون في أحواض الماء لقرون عديدة ولم ينتبه أحدهم الى كمية الماء المزاح ووزنه إلا أرخميدس، والشمس وجدت منذ الأزل ولم ينتبه أحد الى وزن النور إلا انشتاين، والكهرباء موجود في الطبيعة منذ القدم ولم يستخرجه من الغيب الى الوجود إلا اديسون، والبخار ظل يرتفع على الدوام، حتى انتبه لقوته جيمس واط. وهكذا كانت كل هذه الأمور موجودة في عالم الطبيعة، لكنه أحداً لم ينتبه لها إلا عندما تسلح الإنسان بالمعرفة والعلم المناسبين.

لذلك فالملاحظة والرؤية، لم ولن تكونا كافيتين لاكتشاف قوانين الطبيعة، فلا يمكن للجاهل أو المتعلم البسيط إدراك كنه الطبيعة وقوانينها إلا إذا تزود بالعلم والمعرفة المناسبتين. فالاكتشاف والاختراع يحتاج الى قاعدة علمية معينة يستند عليها العالم أو المكتشف للوصول

الى كل ما هو جديد، أما تأمل الجاهل وملاحظات الإنسان البسيط فلا تؤدي الى اكتشافات واختراعات، ومن الأدلة على ذلك تناسب حجم الاختراعات والاكتشافات مع كمية العلم المتوفرة بين الناس، فقديما كانت هذه الإنجازات قليلة جدا، أما اليوم فهي في تسارع مطرد.

ان هذا الاستنتاج يدفعنا الى إعادة سؤال مهم سبق ان طرحه هذا الكتاب في فصل سابق، وهو: إذا كانت البشرية لا تتعلم الا من خلال طريقة الاكتساب، أي من خلال استعمال العقل والحواس؟ اذن من أين حصلت على كل هذه العلوم التي تملكها اليوم؟ ومن علَّم أول إنسان؟

ان أي رجل مثقف، لابد ان يكون قد اكتسب علومه ممن حوله أو ممن سبقوه، وهؤلاء بدورهم اكتسبوا علومهم من أساتذتهم ومن الكتب، وفي النهاية لابد ان نصل الى آخر هذه السلسلة، الى شخص لم يسبقه أحد في العلم، أي انه لم يتعلم من أحد! فمن كان معلم هذا الأول؟ فاذا افترضنا ان الإنسان قد تعلم من المراقبة ومن التجربة المستمرة، فلابد أن يكون ذلك بنسبة بسيطة جداً، فواقع الحال والتجارب العلمية تثبت ذلك. وإذا قيل انه تعلم من إنسان عادي مثله ومن خلال تكرار التجربة، فهذا غير ممكن أيضا لأن الإنسان وجد على الأرض منذ ملايين السنين، فلماذا حصلت هذه الطفرة العلمية في القرون الأخيرة فقط؟ اذن، لابد من وجود إنسان قد تعلم بطريقة غير عادية وغير الطريقة التقليدية الجارية. فاذا فكّرنا وبحثنا، لن نجد معلما للإنسان

ادّعى انه اكتسب علمه من غيره، أو بالأحرى اكتسب علمه من غير الإنسان، الا من نسمّيهم بالرسل والأنبياء، فهؤلاء هم الوحيدون الذين يقولون وينشرون بين الناس فكرة وجود معلم غيبي يطلقون عليه أسماء مختلفة حسب لغاتهم المختلفة، ولكنهم يعنون قوة واحدة ليس كمثلها شيء. وبما انه لم يدع شخص ما ان علمه ذاتي سوى هؤلاء (الرسل والأنبياء)، وهم بدورهم ينسبون علمهم الى ذلك الخالق المُرسِل. اذن هنا تنتهي السلسلة التي نبحث عن أولها، انهم الرسل والأنبياء الذين ينسبون علمهم الى الله الخالق العليم.

من هذه النظرية، يستدل ان الله سبحانه وتعالى هو أول ملهم، وأصل العلم الإنساني وكل العلوم الموجودة، وهو الذي خلق العلم والعقل وهو سبب كل هذا الرقي العالمي وتلك الحضارات وهذا التطور المدهش. أما ما يدعيه البعض وابن طفيل من ضمنهم، بأن الإنسان قد تعلم بالتجربة والممارسة والنظر والتفكير والتأمل، فهذه النظرية ثبت بطلانها حسب الأمثلة الواردة مسبقا.

مكان الروح عند ابن طفيل:

يقول ابن طفيل في صفحة 62 *(فعمد الى بعض الوحوش واستوثق منها كتافا، وشقه على الصفة التي شق بها الظبية حتى وصل الى*

القلب. فقصد أولا الى الجهة اليسرى منه وشقها، فرأى ذاك الفراغ مملوءاً بهواء بخاري، يشبه الضباب الأبيض؛ فأدخل إصبعه فيه، فوجده من الحرارة في حد كاد يحرقه، ومات ذلك الحيوان على الفور فصح عنده أن "ذلك البخار الحار هو 'الذي' كان يحرك هذا الحيوان" وأن في كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ومتى إنفصل عن الحيوان مات).

من هذا يتضح أن ابن طفيل يقول ان الروح عبارة عن بخار حار موجود في جوف البطين الأيسر من القلب، وذلك نتيجة إقدام بطل قصته على فتح قلب الظبية (مربية حيّ) واكتشاف خلوه من أي شيء، ودليله انه شعر بحرارة المكان بيديه، كما انه وجد ان جميع أعضاء جسم الظبية مملوء إما بالدم أو بمواد أخرى، فاعتقد بعدما شاهد خلو هذا الحيز من الدم، انه موطن الروح، وبهذا حدد ابن طفيل افتراضياً مكان الروح وشكلها وادعى معرفته بحجمها، وهو حجم فراغ بطين قلب الظبية!

وهذا شيء محال، لأن البشرية رغم تقدمها العلمي الكبير في هذا القرن المنوّر لم تستطع الجزم بمكان الروح أو معرفة كنهها! وكثيرا ما يسمع في هذه الأيام عن إنسان استبدل قلبه بآخر صناعي أو قلب إنسان آخر! فماذا عن هؤلاء، هل من عاش منهم، عاش بدون روح أو عاش بروح وعقل إنسان غيره؟ لقد أخطأ ابن طفيل بهذه ولم يدرك أو

يتصور ما ستأتي به الاختراعات في المستقبل من فتوحات علمية طبية في مجال استبدال القلوب الطبيعية بأخرى صناعية لتفند فكرته.

معرفة الله:

يقول ابن طفيل أيضا، انه بإمكان كبار الفلاسفة معرفة الحقيقة المطلقة (الله) والحقائق الأخرى عن طريق العقل والتأمل، من خلال الملاحظة والبراهين ومن ثم الوصول الى نفس ما جاء به الأنبياء عن طريق الوحي والتنزيل، فلا يعد ينقصهم شيء إلا أحكام العبادات مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة، فيقول في صفحة 136 *(فلما سمع أسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عز وجل، ووصف ذات الحق تعالى وجل بأوصافه الحسنى، ووصف ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذّات الواصلين وآلام المحجوبين، لم يشك 'أسال' في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان؛ فانفتح بصر قلبه، وانقدحت نار خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول، وقربت عليه طرق التأويل، ولم يبق عليه مشكل في الشرع إلا تبين 'له'، ولا مغلق إلا انفتح، ولا غامض إلا اتضح؛ وصار من أولي الألباب. وعند ذلك نظر الى حي بن يقظان بعين التعظيم والتوقير، وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.*

فالتزم خدمته والاقتداء به والأخذ بإشارته فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية التي كان قد تعلمها في ملته. وجعل حي بن يقظان يستفصحه عن أمره وشأنه، فجعل أسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم، وكيف كانت سيرهم قبل وصول الملة اليهم، وكيف هي الآن بعد وصولها "اليهم" ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم الإلهي، والجنة والنار، والبعث والنشور، والحشر والحساب والميزان والصراط. ففهم حي بن يقظان ذلك كله ولم ير فيه شيئاً على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم. فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به محق في وصفه، صادق في قوله، رسول من عند ربه؛ فآمن به وصدقه وشهد برسالته).

وهذا القول غاية في الخطورة، فلقد نسيّ هذا الرجل ان الفلاسفة لابد لهم من التعلم والتعليم والدراسة وقراءة الكتب الموضوعة والمنزّلة وتمضية الأيام والليالي الطويلة في مناقشة زملائهم وأقرانهم في المسائل والأفكار التي تصعب وتستصعب عليهم، وان كل واحد منهم يستوعب الأمور والعلوم حسب قدراته وقابلياته، فكل إناء فكري يستوعب قدر حجمه من العلوم، وبالتالي فمن الوارد جدا وقوعهم في الزلل والخطأ. أما الأنبياء فلم نسمع عنهم ولم نقرأ لهم، ان أحدا منهم قد تعلّم على يد معلم أو درس على يد فيلسوف أو قرأ كتب من قبله (الا ممن يفترون عليهم ذلك بدون دليل)، وإلا لكان معارضوهم ومعاندوهم قد كشفوا في

ذات الوقت وللأجيال القادمة كذب ادعائهم. لكن الذي نعرفه ان أعداءهم قبل أصدقائهم شهدوا واتفقوا على انهم أميون لم يتعلموا ولم يدخلوا المدارس ولم يتتلمذوا على يد أستاذ أو معلم، هذا بالإضافة الى ان جميع الرسل والأنبياء قد اتفقوا أيضا، رغم فارق الدهور والأزمان بينهم، ورغم اختلاف لغاتهم وتباعد مواقع ظهورهم واختلاف أممهم، على ان علومهم كلها جاءت من مصدر واحد، هو الله سبحانه وتعالى. وكثيرا ما نسمع من بعض المجادلين ان الرسل والأنبياء قد تعلموا على يد شخص ما، أو سافروا ليتعلموا في بلدان جاءوا على ذكرها في كتبهم، مثلما ينسبون الى الرسول المصطفى انه سافر الى الشام أو الصين وتعلم هناك، ودليلهم انه ما دام قد ذكر هذه البلدان في القرآن الكريم أو في أحاديثه الشريفة، فهذا يعني معرفته بها بطريقة من الطرق أو من خلال الزيارة. وجواب هذا الاستفسار سبق وأجبنا عنه في المضمون السابق، وهو ان علمهم من عند الله وما دام الخالق هو المعلم لهم، فلا غرابة في كل ما ذكروه.

العقل والمعقول:

وعندما يقول صاحب الكتاب ابن طفيل، (ان الفكرة المجردة الكاملة العاقلة لا تحتاج الى كثير من الجهد لعقلانية صحتها). فهذا كلام مردود عليه وعلى من يردده بعده، وأوضح دليل على ذلك رفض البشر لجميع الرسالات الإلهية عند ظهورها في أول أدوارها رغم أحقيتها

وصحتها، ولو كان الأمر كما يقول، لكان عقلاء الناس ومفكريهم قد آمنوا قبل غيرهم بدعوات الرسل على الفور دون تردد، لأنها دعوات إلهية حقة يمكن تحقق صحتها بقياسات العقل حسبما يقول.

كما ان المعقول نتاج العقل وهو جزء من العقل أو فرع منه، فكيف يتمكن الجزء من إدراك ما يعجز عن تعقّله الكل، إضافة الى ان العقل يتوصل الى نتائج نسبية حسب مكتسباته الثقافية والحضارية من المجتمع، لذا فالمعقول قابل للخطأ والصواب لأنه مرتبط بالعقل واكتساباته النسبية، ودليل ذلك اختلاف العلماء والفلاسفة في فهم حقيقة معينة، ففي بعض الأحيان يؤيدها بعضهم ثم يعود ليرفضها لاحقا، والعكس صحيح أيضاً، فلو كان المقياس العقلي صحيحا لا يخطئ، فلماذا يختلف الفلاسفة والعلماء فيما بينهم؟ ولماذا لا يتوصلوا دائما (باعتبارهم يملكون قمة العقل البشري) الى نتائج مشتركة تتطابق مع أفكارهم ونظرياتهم؟ إذ لو كان العقل هو القياس المعصوم، لما صدقوا تلك النظريات بعد أن كذّبوها، أو لما كذبوها ثم صدّقوها.

المنقول والمعقول:

يقول ابن طفيل أيضا في صفحة 137 *(وتطابق عنده المعقول والمنقول)*، وبهذه العبارة يريد أن يقول ان المنقولات أي ما ينقل من معلومات عن الكتب، تعطي نتائج معقولة صحيحة، لأنها نتاج أفكار

ودراسات الفلاسفة والعلماء! وهذا قول بحاجة الى مناقشة، وسبق ان فندناه في أكثر من مكان. فالمنقول لا يمكنه الدلالة على الحقيقة التامة، لأنه فرع المعقول، ولابد للمنقول من ناقل وهو المعقول، والمعقول ناتج من العقل، فكيف يمكن لفرع الفرع ان يفهم ويدرك الحقائق أكثر من أصله المعقول الذي تفرّع منه، وكيف يمكن لفرع الفرع "المعقول" معرفة ما لا يستطيع الأصل "العقل" معرفته؟

وهناك فكرة غريبة يذكرها ابن طفيل في صفحة 53 وما بعدها، وهي ان "حيّ"، راح يفكر بفسلجة وتشريح ووظائف أعضاء جسد الظبية بعد موتها، بطريقة لا تخطر على ذهن إنسان جاهل مثله. وببساطة يمكن استخلاص خطأ هذه النتيجة. فمع كل هذه الاختراعات والاكتشافات ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة، نشاهد عجز الناس الجهلة حتى عن تدبير أمور حياتهم اليومية، ناهيك عن دراسة فسلجة أجساد الحيوانات والخروج بنظريات علمية، ولو أمكن ذلك، لكان الجزّارون وبائعو اللحوم أول من تقدم لهذا العمل العلمي العظيم. ان مثل هذه الطريقة المعقدة في التفكير (دراسة فسلجة أعضاء الجسد)، لا تخطر على بال الفلاسفة والمفكرين (غير المختصين) من الذين قضوا جل حياتهم في الدراسة والعلم والتعمق، فما بالك بعامة الناس!

من ناحية أخرى ان هذا العالم الفاضل، لم يكتب مثل هذه القصة، للرواية والتسلية فقط، لأنه يتكلم بمفهوم يصعب فهمه على العامة، وهو

يدرك ذلك تمام الإدراك، لكنه يطرح نظرية خيالية تقول: انه بالفضيلة والإصلاح والصلاح، يمكن للإنسان ان يصلح نفسه ويتعلم بجهوده الفردية. فلو كان الأمر كذلك، لما حدثت كل هذه المنازعات والحروب، لا في السابق ولا في اللاحق، ولما كانت هناك حاجة للمعلمين والمدرسين والعلماء والمعاهد والمدارس والكليات والجامعات، ولما كتبت الكتب وألفت المؤلفات وصنفت العلوم ونشرت المجلات والصحف، وفوق كل ذلك والأهم منه، لما نزل الوحي وظهر الرسل والأنبياء وقتلوا وذبحوا وشردوا ونفوا وأهينوا، ومن بعدهم وعلى نهجهم وخطاهم سار الصحابة والمقربون والفلاسفة والعلماء. ان كل ذلك قد حدث، أملاً بالحصول على نتيجة سامية واحدة، وهي تربية وتعليم البشرية فقط لا غير، والتي لا تتم الا (بالمعلم الكامل المعصوم).

ان البشرية ما زالت واقفة على أعتاب أول قرن حقيقي من قرون العلم والمعرفة، وسوف تتطور وتنمو ادراكاتها ومفاهيمها مع مرور الدهور والقرون. ومثل هذا الأمل اللطيف وهذه الفكرة الجميلة، تدخلنا في تصور جديد، وهو: طالما ان التاريخ أثبت بما لا يقبل الجدل ان العلوم الإنسانية في طريقها الى الازدياد والتكاثر، بدليل ازدياد الاختراعات الجديدة وظهور الاكتشافات المهمة، فهذا يعني ان البشرية ما زالت في طور صعود وتسلق سفح جبل العلم، ولمّا تصل الى قمته بعد، أي طالما ان العلوم الأرضية والأفكار الإنسانية ما زالت تتفتح

وتنضج وتثمر أفكارا جديدة لم تصلها أو تستخرجها من قبل، فذلك يعني اننا ما زلنا في طور التطور والتقدم. وهذه الفكرة الصريحة تدفعنا للقول ان مستقبل العلوم الإنسانية سيزداد ازدهارا في كل يوم جديد، وان بحر العلم ما يزال يموج ويقذف بلئالئ العلوم وجواهر الأفكار الجديدة على سواحل العقول البشرية، ولا أحد يعلم أو يمكنه أن يتصور الى أين سيصل العلم بالبشرية والى أين سيقودها، الا الله سبحانه وتعالى؟

ان ابن طفيل يرجع كيفية التأمل والتفكير والاستنتاج، وكيف يفكر الإنسان ويفلسف الأمور ويصنّف مواد الطبيعة ومكوناتها ويجزئها، الى مجرد النظر والتأمل لرجل أمي جاهل لم يلتق في حياته إنسانا مثله، ولا يعرف القراءة أو الكتابة، ولم يقرأ في حياته كتابا ولم يعاشر أحدا من العلماء أو الفضلاء.

لقاء الخالق عند ابن طفيل:

يعود ابن طفيل مرة أخرى، ليشط شططاً ما بعده شطط في أفكاره الوهمية، ونقول وهمية لأن الرجل دعا الى أفكار غاية في الغرابة، فهو يؤكد انه بالرياضات الجسدية والروحية والفكرية، يمكن للإنسان (أي إنسان) من لقاء الرب (الله سبحانه وتعالى) خالقه وموجده والتمتع بالمشاهدة واللقاء خلال أيام حياته. فهو يقول كما قالت الصوفية في موضوع لقاء الله الخالق: ان الله متجلٍ في كل مخلوق. يعني ان

المؤمن يمكنه من خلال التفكير والتعبد والمثابرة على الصوم والصلاة والانزواء للعبادة وتحميل النفس الشدائد واجبار الجسد على المشقات وسلوك سبيل الرياضات الروحية والجسدية، ان تتفتح بصيرته، ويرى تجلي الله في مخلوقاته جميعاً، ان كانت إنسانية أو حيوانية أم نباتية أو جمادية.

ونرد على هذا الخيال الممزوج بالوهم، بما يلي: ان لقاء الإنسان للخالق وهو ما يزال على هذه الأرض، محض وهم وتصور وأضغاث أحلام، لأنه وكما قيل من قبل في مسألة معرفة ولقاء الخالق (السبيل مسدود والطلب مردود). لقد طلب وحاول ذلك الرسل المنزهون المقدسون من أولي العزم، رسل الله وسفراؤه في الأرض، لكنهم لم يحصدوا سوى رد الطلب، ومات أكثرهم حسرة من استحالة تحقق رغباتهم؛ فموسى عليه السلام طلب لقاء الله، ولكنه فشل ولم يحظ بمرغوبه، وكل ما حصل عليه هو سماعه صوت الله من الشجرة الموقدة، لذلك سميّ بالكليم؛ والسيد المسيح(ع) كان لقبه روح الله، ولم يتمكن من ذلك؛ وسيدنا محمد(ص) كان حبيب الله، وليس أقرب من المحبوب إلا حبيبه، ومع ذلك، فعند عروجه الى السماء، ووصل الى (قاب قوسين أو أدنى) لم يفز بالمشاهدة واللقاء؛ وغيرهم الكثير من الأنبياء والأصفياء، كلهم فشلوا في هذا الطلب وهذا المرغوب. لكنهم جميعا، وكما جاء على لسانهم في كل الكتب السماوية، وعدوا البشر

بلقاء الله في اليوم الآخر، أي في المستقبل، يعني ان الإنسان سيتمكن من لقاء الله ومشاهدة خالقه في مستقبل الأيام، فهذا من فضل الله على البشر، وهذا اللقاء حق لا ريب فيه.

فلقد ورد ذكر هذا اللقاء بالتخصيص وليس بشكل عام، أي انه حدد له موعد معين، وهو يوم القيامة، ففي القرآن الكريم ورد بهذا الخصوص **(هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)**[3]. وكذلك **(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)**[4] و **(وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)**[5]، وكذلك الحديث الشريف **(سترون ربكم كما ترون القمر ليلة أربعة عشر. وستنكرونه)**[6].

وكما وعد موسى في التوراة سفر ملاخي *(هأنذا أرسل إليكم ايليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف)*[7]. وكما تفضل السيد المسيح في الإنجيل حينما وعد بلقاء الأب السماوي أو الرب في المستقبل في رسالة بولس الأولى *(إذا لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله)*[8] وكذلك وعده بخصوص لقاء صاحب الكرم في إنجيل متى *(فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين)*[9].

فاذا كان هؤلاء الأخيار، أصفياء الله ورسله وأنبياؤه من أولي العزم، وهم سبب رقي البشرية في كل مراحلها، ومصدر كل خير وفضيلة حلّت ونزلت عليها، والذين كانوا طاهرين ومنزهين ومقدسين منذ الأزل وهم أقرب الأرواح الى الله سبحانه وتعالى وكانوا معصومين بالعصمة الكبرى عن الزلل والخطأ والشطط، وغير ذلك من الصفات الإلهية التي لا يمتلكها غيرهم، لم يتمكنوا من لقاء الله! فكيف يتمكن إنسان عادي اعتمد في علمه على غيره، أمثال الفلاسفة والعلماء وفضلاء الدين مثل ابن طفيل، من رؤية الذات الإلهية المقدسة، الله سبحانه وتعالى؟

ان مجال العقل الإنساني واسع وسعة الكون، وأعماقه لا يسبر لها غور، فهو طلّسم من طلاسم الله الخالق، كما ان الرياضات الروحية، مجهولة الأهداف والنهايات، ولا يمكن لمخلوق الجزم بعواقبها، وتجربتها تدخل العقل في متاهات تعجزه عن التمييز بين الحقيقة والخيال، والأمثلة كثيرة، فما يمارسه العديد من أصحاب المذاهب الصوفية وغيرهم من بقية العقائد الأخرى، مثل البوذيين والهندوس، لا يدل بأي شكل من الأشكال أنهم يتوصلون الى الحقيقة عند سلوك هذه السبل، فهذا الذي يمارس رياضة اليوغا ويجلس وحيدا لساعات طويلة، وذاك الذي يجلس على لوح من مسامير، وذاك الذي يمشي على جمر النار، وآخر يدخل السيف في بطنه، ومن يبقى يلف ويدور لساعات حتى يغمى عليه.. الى غير ذلك مما يسمى بالرياضات (الروحية)، فكل

هؤلاء لم يخرجوا علينا بعلم جديد، وكل ما في الأمر أنهم استهووا أداء طقوس طريقة خالية من الأهداف، وما هي إلا نوع من أنواع التظاهر بالاختلاف والتمييز، ليس إلا.

وطالما اننا وعدنا من قبل الرسل والأنبياء ان لقاء الله سبحانه وتعالى سيكون في العالم الثاني، أي عالم ما بعد الموت، وطالما ان هذا اللقاء لا يمكن ان يحدث في هذا العالم (الطريق مسدود والطلب مردود)، لذلك فكل ما ينسجه عنكبوت الفكر من خيوط الأفكار والنظريات الواهية في هذا المجال من مختلف التصورات، ان كانت فكرية أو عقلية أو تعبدية أو روحية، فهي أوهام في أوهام ولا ينتج عنها غير الأوهام، وربما يقودنا معاذ الله الى الكفر الصريح، فكل ما ينسجه العقل من أفكار وخيالات في هذا المجال، ما هي الا من نتاجه، والإنسان مصنوع، والعقل جزء مصنوع من هذا المخلوق المصنوع، فكيف يمكن للمصنوع مهما فكّر وفكّر ان يعرف كنه صانعه؛ فحتى لو تحول الإنسان بكامل كيانه الى عقل صرف لمعرفة الصانع (الله الخالق) لن يجد الى ذلك سبيلاً.

ان ما يستطرد الكاتب في سرده من طرق وسبل السالك والراغب في الوصل الى المشاهدة واللقاء، إنما هي مجرد متاهات في عالم الخيال، والحقيقة ان هذا العالَم (عالَم الخيال) هو جزء من عالم العقل أيضا، فكيف يمكن للجزء وهي (الأفكار والتخيلات) الحصول أو التوصل الى

ما لا يمكن للكل (العقل) التوصل إليه؟ وعندما يشرح ابن طفيل الطريقة الصوفية في نبذ الجسد والاتصال بالله، إنما هو يشرح طريقة من طرق نبذ الجسد للعالم المادي، وكل من يسلك هذا السبيل في ممارسة الرياضات الروحية في التعبد، يمكنه الوصول الى درجة محددة من درجات التعبد التي يصل اليها الصوفي، مع فارق المستويات، لأن عوالم نبذ الذات والترقي بالروح والعقل متعددة ولا يعلم عددها الا خالقها، فالنفس وهي الصورة الدنيا لذات الروح، تتعامل وتتأثر بعدد لا يحصى من العوامل والتأثيرات المادية والحياتية التي تشكل حالتها، منها على سبيل المثال لا الحصر: الحالة الاجتماعية والحالة الثقافية والعلمية والعقلية والدينية والسياسية والأخلاقية والجسمية وتأثير علاقات القرابة والزمان والمكان والدين والمذهب والأصدقاء والعلاقات الخارجية والمأكولات والملبوسات والحالة المادية ونوع الحكم الذي تخضع له والدولة والسلطة التي تعيش تحت رعايتها ودرجة مستوى ثقافة الوالدين وحالتهما المادية والقدرة على التعلم والتعليم وشدة الذكاء وقصور الفهم والاكتساب والانجذاب ونوع الحرفة وسرعة البديهة وقوة الجسم وضعفه ونوع الجنس ذكرا كان أم أنثى وصحة الجسد وكماله ونوعية الاتصالات مع الأفراد والأصدقاء والأقرباء والأهل والغرباء وشكل التعامل مع المحيطين وحدة الغضب والصبر والحلم والشرف والنسب والحسب وقوة البنية وضعفها وغير ذلك العديد من المؤثرات التي لا تحصى والتي تسهم إسهاماً مباشراً في تكوين هيئة ونوعية النفس أو

الروح أو العقل وبالتالي شخصية الإنسان. ومن المؤكد الذي لا شبهة فيه، ان شخصين من البشر لا يتفقان في طبيعة واحدة، لأن كل هذه المؤثرات تصب مجتمعة وبنسب متباينة في تكوين شخصية الإنسان، هذا من جانب ارتباطها بالعوامل الخارجية.

أما محاولة معرفة كنه النفس وحقيقتها وماهيتها، فهذا هو عين المحال، فهي سر من أسرار الله الخالق وطلسم من طلاسمه، ولقد قيل (من عرف نفسه فقد عرف ربه)، وهذا القول في غاية الحكمة والعقل، وقائله أصاب كبد الحقيقة، لأنه أعطى حقيقة مفهوم هذا الموضوع، وهو استحالة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، كما ان أي شخص يستحيل عليه معرفة أفكار ونفسية أقرب الناس إليه، فإن كان هذا وذاك مستحيلا، فكيف بمعرفة الله الخالق؟ ومثلما خلق الله لكل إنسان بصمة إبهام لا شبيه لها وميّزه بها عن غيره، وصنع كل شيء في الأرض بشكل فريد وحيد في هيئة لا شبيه لها . حتى انه لا يمكن وجود حبتي قمح متشابهتين في دقائقها بين بيادر العالم - فكيف بالأشياء الكبار؟ وهذا التنوع في الخلق والخلقة، إنما هو دليل قاطع وحازم من عند الله سبحانه وتعالى على فردانيته ووحدانيته وصمدانيته التي يصورها في خلقه ومخلوقاته. كل هذا ونحن لم نخرج عن نطاق عالم الماديات، فكيف بعالم الروحانيات؟

من هذا يتضح بشكل جازم، استحالة معرفة أرواح الناس بعضها

لبعض، فما بالنا بمعرفة ذات الغيب المنيع (الله جل جلاله)؟

فعندما يقول هذا العالم الفاضل، انه بالرياضات الروحية القاسية يمكن التشرف بذات الحق! والسمو بالروح للوصول الى الجنة ومشاهدة ما فيها من بهاء ونعم ونعيم ومشاهدة الأرواح هناك! كان هذا ضرب من ضروب الخيال والوهم والأوهام وأضغاث الأحلام، ناقض به تماما ما جاء على لسان المصطفى في وصف الجنة، عندما قال: **(فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)** وهو حديث متفق عليه عند كل ملل ومذاهب الديانة الإسلامية، وكذلك الآية القرآنية **(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[10]. وبنفس هذه المقاييس التي جئنا على ذكرها، يمكن تفنيد ادعائه في مشاهدة عالم النار (جهنم) والأرواح المتعذبة المكتوية بنارها!

ان مثل هذه الأفكار جانبت في غايتها الحق والحقيقة، وانها أفكار لا تصلح لهذا الزمان بعد كل هذا الانفتاح الفكري، وهي كسابقاتها كان لها دور فعّال ساهم في تقدم العقل الإنساني في العهود الغابرة حسب مستويات عقولهم آنذاك، الا انها فقدت فاعليتها ودورها الآن.

الهوامش

1 – كتاب حي بن يقظان، لابن طفيل، عن دار ومكتبة الهلال، تقديم وتعليق وشرح الدكتور علي بو ملحم. المطبوع في 1993م، بيروت.

2 – كتاب مهزلة العقل البشري للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية 1994 – دار كوفان – لندن – صفحة 132.

3 – سورة البقرة الآية 210.

4 – سورة الفجر الآية 22.

5 – سورة الزمر الآية 69.

6 – صحيح مسلم، صحيح البخاري باب رؤية الله يوم القيامة.

7 – التوراة – ملاخي – الإصحاح – الآية 5.

8 – الإنجيل – رسالة بولس الأولى – الإصحاح الرابع – آية 5.

9 – الإنجيل – متى – الإصحاح 21 – آية 40.

10 – سورة السجدة الآية 17.

(الباب السادس)

الفصل التاسع عشر

النظم العالمية الى أين؟

ينبغي لنا نحن البشر أن نوجد النظام ونسن القوانين الوضعية لمصلحة ورقي ورفاهية بني جنسنا ومجتمعاته، لا ان نسنّها لقتل الإنسان وصلب الإنسانية على أعواد مشانق الأنظمة والقوانين. فإذا لم يتفق النظام وقوانينه وأحكامه مع حرية وتقدم ورخاء وسعادة الفرد والمجتمع، فلابد من تغيير وتبديل القوانين والأنظمة بأفضل منها بما يتناسب مع تطور الوقت، من خلال المشورة والتفاهم بالطرق السلمية والسليمة، لا أن تتقوقع الأنظمة وتنفش إبرها لتواجه الفرد أو المجتمع وتحجر عليه وتحد من حريته عند مطالبته بأقل حق من حقوقه الإنسانية.

مما يلقي ضوءاً كبيرا على النظم العالمية الحالية وفشلها في إدارة أمور البشر وتردي المجتمعات، ومما يستدعي ضرورة الإسراع في إيجاد حلول سليمة شاملة لمشاكل البشرية جمعاء دون تمييز بين شعب وآخر، ما يصدر من تقارير وبحوث منظمات الأمم المتحدة المختلفة باعتبارها أكثر اطلاعاً من غيرها على شؤون العالم وشعوبه، فكثير من هذه التقارير تعطي صور مأساوية حقيقية للوضع السياسي والاجتماعي العالمي، ومع كون هذه التقارير قاتمة في حقيقتها باعثة على خيبة

الأمل في النفوس، إلا انها من ناحية ثانية تدفع المهتمين بأحوال البشرية الى التفكير الجدي لوضع حلول مناسبة لمجريات الأمور في العالم، فما يجري من تقدم علمي وتكنولوجي براق في ظاهره، أسهم بشكل محدود في تقدم بعض مجتمعات العالم، الا انه من ناحية أخرى زاد بنسبة كبيرة من مقدار الفقر والجريمة والدعارة وإقحام الأطفال في العمل وظهور الحركات المتطرفة والعنف والإرهاب والقتل حسب الهوية والمعتقد، وزاد من عدم المساواة وعدم الأمان في العمل، وأضعف المؤسسات وأنظمة المعونات الاجتماعية، ودفع ببعض الدول والمنظمات الإرهابية الى المساهمة في زراعة وبيع المخدرات وانتشارها في بلدان لم تشهدها من قبل، وطفت الصراعات العرقية بمختلف أشكالها بين شعوب متجانسة القوميات حتى وقت قريب، وزادت النفقات الباهظة على تكديس الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل وعلى مكافحة المخدرات ووقف انتشارها في العالم، وتفاقمت البطالة والفقر واشتد تدني الصحة العامة.

فهذه التقارير تصرح بشكل لا لبس فيه، ان السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها مما طبق في كثير من بلدان العالم كانت مغلوطة، وأهملت بشكل كبير شرائح واسعة من المجتمعات وبالتالي أسهمت في زيادة الفقر والفاقة في العالم وزادت من نسبة التضخم في كثير من بلدان العالم وشتتت أسراً وعوائل لا حصر لها،

بل زادت في توجه الناس من مختلف الفئات الى العرافين ومدعي الدين والدجالين وقارئي الكف والفنجان ومستحضري الأرواح والوقوع في براثن الطائفية والمذاهب المتعصبة والعنف السياسي والإرهاب بعد أن كاد يضمحل شأنها، ووأدت الكثير من المفاهيم والصفات الإنسانية اللطيفة.

ونتيجة لهذه السياسات الخاطئة، زادت نسبة النزوح والهجرة واللجوء الاختياري والإجباري الى أقاصي أطراف المعمورة، وازدحمت المدن بأهالي الأرياف وقل الاهتمام بشؤون الزراعة وتطويرها نتيجة الهجرة من الريف الى المدينة، وفقدت بعض البلدان خبراتها ومتعلميها ورجالها، وقل الاهتمام بتدريس البنات وزاد من سوء معاملتهن، وزادت نسبة الحروب الأهلية والطائفية وثبت ان الأحقاد والضغائن ما زالت كامنة في النفوس لم تنمح ولابد من حلول جذرية لها من خلال إيجاد فكر عالمي جديد ينبذ فكرة القوة والعنف، فهذه الأوضاع قللت من فرص تدريب الأجيال والشباب وتقلصت فرص العمل الشريف وأهمية التعليم وزادت فرص التورط في أعمال العنف والإرهاب والحروب وقلة الخبرات والثقافة وتردي المشاعر الإنسانية، كما زادت من هروب رؤوس الأموال الوطنية وأعداد الأرامل واليتامى والمعوقين ومدمني المخدرات والعقاقير، وقلل الوعي الجماهيري ومستويات المناهج التعليمية وظهرت أحزاب ومنظمات جديدة بأهداف وقتية استغلالية سيئة المقاصد، وزاد ابتعاد الناس عن مد يد المساعدة لغيرهم وقلّ أملهم

فـي جـدواها. كمـا زاد تهـرب العمـال والمـوظفين مـن العمـل داخـل المؤسسـات الحكوميـة نتيجـة الفسـاد الاداري وقلـة الرواتـب وزاد مـن تـوجههم نحـو الشـركات الاقتصـادية، وانحسـرت قـوة النقابـات المطالبـة بحقوق العمال في الدول الديكتاتورية وغيرها وصودرت حريات المواطن والمواطنة وكممت الأفواه وزادت نسبة البطالة وظهرت من جديد الفروق الاجتماعيـة بـين العمـال وأصـحاب رأس المـال وتفتـت روابـط الأسـر وزادت نسبة الطلاق وكثر الارتباط غير الشرعي بين الشباب حتى في أكثـر المجتمعـات محافظـة، وزاد عـدد الأطفـال غيـر الشـرعيين، وزاد تنـافس الأيدي العاملـة فيما بينها وهبط المستوى المعاشي للمجتمعات، وزادت المنتجات الرديئة والتهرب من دفع الضرائب، وزاد عدد المرتشين والسرّاق بـين موظفـو الحكومـات والمنظمـات الدوليـة، وظهـرت شـريحة جديدة تطالـب بالحريـة الاقتصـادية التـي هـي مـن أسباب ظهور الفساد والمتـاجرة بالسـلع الرديئـة والسـلاح والجريمـة والمخـدرات، وقـل دعـم الحكومـات للمـواد الغذائيـة الأساسـية وتـوفير الخـدمات الاجتماعيـة لمـا أصـابها من عجز فـي مواردها الماليـة، وانتشر سوء التغذيـة، وارتفعت أسـعار المـواد الاسـتهلاكية والعلاجـات الطبيـة وزاد سـوء الصـرف الصـحي، وقل المـاء الصـالح للشرب والاستعمال الآدمـي، وقلت وقايـة النـاس مـن الأمـراض والعـلاج، وزادت نسـبة الاعتمـاد علـى النسـاء والأطفـال فـي العمـل بسـبب انخفـاض أجـورهم، وزادت أعـداد السـجون والمعـتقلات والشـرطة والجـيش علـى حسـاب الخـدمات الاجتماعيـة

والتعليمية والصحية، وزاد رضوخ الناس واستسلامهم للأحوال الاجتماعية السيئة، واتسع تسلط الحكومات الصناعية الكبرى، واطمأنت الحكومات الدكتاتورية الدموية لخلو الساحة الدولية من حسيب أو رقيب يردعها أو يوقفها عند حدها، وزادت الفوضى السياسية في غالبية بلدان العالم الثالث، وزاد توجه الحرفيين لممارسة أعمال ومهن بسيطة لا تحتاج الى خبرات لتعويض نقص مواردهم وقلة مرتباتهم، وزادت حالات الإضراب والاعتصام، وقل الاهتمام بتحسين البيئة وزاد تمرد الشعوب على حكوماتهم.

قد ينسب كل ما يجري اليوم في شتى بقاع العالم من منجزات علمية باهرة الى التقدم والحضارة، لكننا نشاهد بوضوح أن له تأثيرات سلبية على معالم الإنسانية، وقد اتفق كثير من علماء الاجتماع مع هذه الفكرة، فيقول أحدهم:-

[لم تعد فكرة التقدم إذن قوة تسير التاريخ بل ان التقدم في نفسه أصبح شيئاً غير مطلوب على علاته، فهو يبني شيئاً ويهدم أشياء، ثم ما هي قيمته في آخر الأمر؟... ولقد عجز التقدم الحديث عن علاج أي علة اجتماعية أساسية، بل أضاف الى الموجود منها عللا أخرى، ثم ان تقدم الوقاية الصحية وأساليب العلاج تسير بنا اليوم نحو كارثة الجوع، ولقد كانت الطبيعة فيما مضى توازن نفسها بنفسها، فأخللنا نحن بهذا التوازن، ولا نعرف الآن كيف نستعيده. ومن الدراسات في تغيّر

المجتمعات ظهرت حقيقة نلمسها جميعا، وهي تأخر التطور الثقافي والفكري والمعنوي عن التطور المادي، وهذا هو ما يسمى في مصطلح علم الاجتماع باسم "الركود الثقافي". وهذه الحقيقة هي سبب تلك الكوارث التي تصيب الإنسانية كلما بلغ بها التقدم المادي مبلغا يجاوز التطور المعنوي بكثير، فيضر ذلك بالكيان الإنساني ويخرجه عن طبعه، وهذه الظاهرة تبدو في أيامنا هذه أوضح مما ظهرت فيه في أي حقبة ماضية من أحقاب التاريخ. وهي في صميمها انعدام التوازن بين التقدم المادي الشاسع المدى والتقدم الإنساني الأخلاقي، الذي لا يتم منه الا شيء قليل من ظواهر الأعمال والتصرفات في الغالب. ومن مظاهر اختلال هذا التوازن في عصرنا هذا انتشار الرذيلة واتساع نطاق استعمال المخدرات، وضلال الشبان في متاهات التمرد على المجتمع... واتساع نطاق الجريمة المنظمة أو الإرهاب، وكلها ناشئة من وفرة المال على الحاجة في المجتمعات الأوروبية والأمريكية. وهذه العلل ونواحي الخلل في زيادة لا في نقص، لأن الحضارة تخلق تعقيدات ومشاكل كان الماضون يبترونها دون تردد... وعامة المؤرخين اليوم (يتفقون) على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة الى الأمام أو الى الأحسن إنما هو وهم. لأن غرائز الإنسان وأخلاقياته المركبة في طبعه باقية كما هي، بل زادت حدة وضراوة، ولا يزال الوحش راقدا تحت جلد الإنسان المتحضر، بل ان لفظ "الوحش" فيه تجمل في وصف خلفية الإنسان المتحضر اليوم. فإن الوحش يهاجم

ليأكل أو ليدافع عن نفسه، وفيما عدا ذلك فهو ساكن، أما الإنسان فانه يدبر لإبادة الألوف أو الملايين وهو راقد في فراش وثير في غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادي، فأيهما الوحش؟ هنا يبدو لنا خطر التقدم العلمي الهائل الذي ضغط على المعنويات حتى كاد يزهقها، فقادة التقدم المادي اليوم يقضون نهارهم في المعامل ومراكز التجارب، بينما أسرهم تتحطم لأنهم لا يكترثون بما تعمله زوجاتهم أو أبناؤهم أو بناتهم، وهم يرون في ذلك حرية وتقدما. وهؤلاء الباحثون والعلماء أنفسهم في كثير من الأحيان بشر دون معنويات أصلا الا فيما يتصل بمواعيد عملهم، فإن إنسان اليوم مخلوق ضعيف العقل في يده قنبلة يمكن أن يحطم بها نفسه وغيره، وهذا هو وضع الإنسان القائد للحضارة والسياسة اليوم][1].

من خلال هذا الاستعراض السريع لأوضاع المجتمعات الإنسانية السيئ، كان لابد من المساهمة في إيجاد حلول مناسبة لما تعاني منه البشرية اليوم من متاهات وضياع، إذ ليس من المعقول أن يكون العلم هو المتسبب في كل هذه الترديات ويعجز عن تقديم حلول صائبة لها.

كما وان من بين الأسباب الرئيسية الأخرى التي زادت الأوضاع العالمية تعقيداً، فكرة السيادة الوطنية أو ما يسمى باستقلال الحكومات في إصدار قراراتها الوطنية وسياساتها الدولية وتعاملها مع شعوبها وتحكمها بمصائرهم، حيث باتت هذه الفكرة القديمة، بالية لا تتفق مع

نظرات الأمل والتطلعات المستقبلية العالمية، وظهر بصورة جلية قوة تأثير القرارات الوطنية على بقية بلدان العالم بل وحتى على الأفراد في أقصى بقاع الأرض، وشاهدنا كيف ينقطع رغيف الخبز عن طفل صغير في قرية نائية جراء سياسة خاطئة لدولة غريبة غاشمة تشبثت بمفهوم السيادة الوطنية. فالعالم اليوم أصبح قرية صغيرة واحدة، بل أصبح عائلة كبيرة واحدة، لابد من توافق وتناغم جميع تصرفات أفرادها وضرورة اهتمام كل فرد منها بمصالح غيره من بقية العائلة. إن تسليط النور على فكرة السيادة الوطنية وتفحصها بشكل دقيق يبرز بشكل لا لبس فيه أهمية إعادة النظر في هذا المفهوم القديم وضرورة البحث عن نظام جديد أو فكرة بديلة تتوافق مع المتغيرات العالمية، فليس من المعقول أن تتحكم عصبة من الرجال أو شرذمة من الأفراد بمصير أمة أو شعب بكل فئاته وتفعل بهم ما تشاء تحت غطاء السيادة الوطنية أو الاستقلال ولا توجد قوة أعلى منها توقفها عند حدها أو تحاسبها وتنقذ الناس من بين أنيابها وبراثنها رغم تيقن جميع حكومات وشعوب العالم من ظلم وتعسف هذه الفئات.

لذلك كان من الضروري وضع حد لمفهوم السيادة الوطنية بعد بطلانها وثبات إمكانية سوء استغلالها، لأن استمرار تشبث بعض الحكومات بها، لابد وأن يؤدي بلا شك الى مزيد من الدمار وخراب المجتمعات، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى.

ان نظـرة عامـة لنتـائج أعمـال قـادة العـالم وأحزابهـا خـلال القـرن الماضي، توضح بجلاء عمق خطأهم وسوء تصرفهم وقلة خبرتهم، فلقد خاضت البشرية حربين عالميتين راح ضحيتها ملايين البشر، وتوسع نطاق الحروب الوطنية حتى شمل الأرض برمتها، ونهض مارد التفرقة العنصرية بين شعوب كانت تعيش حتى وقت قريب بسلام وأخاء، وهذا مـا دفـع النـاس الـى المفاضـلة بـين نظريـات الأحـزاب لتبنـي أفضـلها، معتمـدين فـي قياسـاتهم علـى ميـزان بريـق شـعاراتها وطـول أعمارهـا الخـاطئ، فمـا كـان مـن المفكـرين والمنظـرين إلا ان خرجـوا بأفكـار ونظريـات مطـورة لأحـزاب مخربـة انتهازيـة سـاهمت مـرة أخـرى بتسـريع تدهور أحوال الشعوب، فمنها ما انقرض ومنها من ينتظر، وليس بسر يذاع أنها جميعا فشلت في سعادة بني الإنسان بل وسحبته بشدة الى ظلمات قاع التدهور، وثبت بشكل قاطع حاجة البشرية الى نظام عالمي جديد تتفق عليه جميع شعوب الأرض وحكوماتها؛ لكن النقطة المهمة هي من أين لنا بنظام ترضى عنه البشرية بجميع معتقداتها وأديانها وقومياتها وأجناسها، فرضاء الخلق غاية لا تدرك، لذا لابد للإنسان من السعي والمثابرة والتفكير والتوجه لرب العباد عسى أن يمد يد العون والمدد الإلهي له ويتفضل عليه بنظام إلهي بديع، فليس غير الله من يرحم البشر دون تمييز، وليس غيره من يقدر على إرضاء جميع خلقه ويرضهم عليه؛ فعسى أن يتلطف بهم وينزل عليهم عظيم رحمته وبركته

وينقذهم مما وقعوا فيه من بلايا عقيمة لا حل لها في الأفق المنظور جراء أفعالهم وجهلهم.

كثيرا ما يجري البعض مقارنة أو مفاضلة بين مقومات حكومات الدول وأحزابها ومنجزاتها وينظرون الى مستوى رخاء أفراد شعوبها ودرجة تقدمهم ومستوى علومهم عسى أن يجدوا لهم مخرجا من واقعهم بتبني مناهج بعضها. وكثيرا ما يقع هؤلاء المساكين في حيرة كبيرة، فكلما توجهوا نحو حكومة من الحكومات أو حزب من الأحزاب وأعجبوا به وبمبادئه وأفكاره، إذا بهم يفاجئون بانقلاب يطيح به وبرموزه ولا يمضي وقت كثير حتى تبدأ روائح الفضائح والمفاسد بالانتشار لتزكم الأنوف ويظهر حجم فساد رجال النظام السابق وقلة ذمتهم وكثرة جرائمهم وتدني مستوياتهم الأخلاقية، فيجبر هؤلاء المتطلعين مرة أخرى الى توجيه أنظارهم الى حزب أو مبادئ أخرى، ويعقدون الآمال عليها وعلى مناهجها، ولا يمضي زمن طويل حتى يخيب أملهم مرة أخرى ويتبين لهم أنها كانت أسوأ من سابقتها. ومن المؤسف أن مثل هذه المفاسد والمظالم التي تنتهجها مثل هذه الحكومات والأحزاب، لا تظهر إلا بعد فوات الأوان وخراب البلاد، ويكتشف المراقبون أن من كانوا يظنوهم رعاة الخير والفضيلة والفكر كانوا من أشرس مصاصي الدماء وأكثرهم تدميرا.

ان ما تمارسه الأنظمة في بلدان العالم بات فساده واضحا للعيان، لا فرق بين دول الشرق أو دول الغرب ولا بين دول متقدمة أو متخلفة فالجميع واقع تحت مطرقة قانون التطور الزمني وسندان انفتاح الفكر الإنساني، فلا هؤلاء ولا هؤلاء باستطاعتهم اللحاق بركب تطور الفكر الإنساني، وهذا ما يعجل على الدوام في ظهور عورات الأنظمة ويكشف فسادها، وإذا ما كان هناك حكومة جيدة عند بداية ظهورها، فمن الضروري أن تنتابها سوسة الفساد مع مرور الوقت وتنقلب الى دولة فاسدة، ولا يعتق من هذا التدني دولة من دول العالم، فقد سبق ورأينا على سبيل المثال عظمة هالة نظام الاتحاد السوفييتي وكيف امتدت أفكاره حول المعمورة، ولا شك أنها أفكار رائعة وأن من قاموا على نشرها كانت تدفعهم نوايا حقيقية صادقة، لكنها كغيرها وقعت تحت مطرقة التطور الفكري والحضاري للبشرية، فلم تستطع الاستمرار أكثر مما كان مقدرا لها، ولم تمض إلا عدة عقود حتى ظهر هول فسادها فانهارت وتهدمت؛ وهذه الدول العربية تقف وسط مفترق طرق لا تدري أين توجه وجهها، وكيف تشكو جميع شعوبها من الفاقة والعوز والجهل والأمراض والظلم واستلاب الحريات ولا تنفك تطلب مساعدة دول العالم في حل مشاكلها المستعصية، فلم ينفع معها لا حكومات حزبية ولا اوتوقراطية ولا دكتاتورية ولا عسكرية ولا وراثية ولا ملكية ولا قومية ولا غيرها، فلقد ثبت فشلها بل جهلها وظلمها جميعا، وهذه دول أمريكا الجنوبية وما تعانيه من مشاكل مشابهة من انتشار البطالة

والفساد والتأخر؛ وإذا ما توجهنا جنوبا نجد دول أفريقيا غارقة في بلايا قطعت آمال المساهمين في مساعدتها أو مد يد العون لها، وإذا اتجهنا شمالا نكتشف ان الديمقراطية والحرية التي كانت غاية آمال هذه الشعوب لم تكن هي نهاية الأهداف الإنسانية، بدليل أنها ما زالت تطالب حتى اليوم من خلال صحافتها وجموع المتظاهرين في شوارعها، بأكثر من مما كسبته، كما أن الحرية والديمقراطية لم ترتقيا بشعوبهم الى مستوى القدوة لبقية الشعوب، فما زالوا يعانون من مشاعر الفوقية والتعالي والعرق الأفضل ومعاملة بقية أفراد شعوب العالم بمنطق السيد والتابع المتفضل، كما أن عملية الانتحار والتخلص من الحياة ما زالت سمة واضحة بين شعوبهم، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شعور بعضهم بالفشل في تحقيق غاية الإنسانية.

أما لو التفتنا الى أقوى قوة عظمى في هذا القرن، فمن السهل ملاحظة تخبطها في فرض قوانين وأنظمة تظن فيها حلولا لمشاكل شعوب الأرض، وكيف زادت من مشاعر الحقد والكراهية ضدها وضد شعوبها بينما ما زالت ملايين الأيدي العاملة عاطلة عن العمل مما دفعها الى امتهان الجريمة وتعاطي المخدرات.

ومع جميع مظاهر الفشل التي تعاني منها حكومات العالم وشعوبها قاطبة، فقد يتصور البعض انه ما زال هناك أمل في بعض الأنظمة الحالية، فنراهم يراهنون على كفاءة النظام الشيوعي الصيني بعد أن

انتهى النظام الماركسي في الاتحاد السوفيتي، وفشل النظام الرأسمالي في تحقيق هدف الإنسانية، ويظنون أن دوام بقائه ما هو إلا دليل على قدرته ومناسبته لمطالب البشرية.

ان استمرار النظام الاشتراكي في الصين ليس دليلا على صحته ونجاحه بقدر ما هو دليل على أن لحظة وفاته وموته لم تحن بعد. فالصين بلد زراعي ذو مناخ معتدل نسبيا، ونتيجة لعدد سكانها الهائل زاد التوجه نحو حرفة الزراعة، فالأرض خصبة والناس تريد الطعام، ولابد من وجود الفلاحين لتوفير الطعام، وبسبب انتشار الأمية والتخلف، وسهولة امتهان الزراعة، سادت هذه المهنة بين الصينيين، هذا بالإضافة الى انها مهنة مربحة حسب نظام العرض والطلب إذا ما نظرنا الى عدد السكان. هنا وحسب تسلل المهن اقتصاديا وأهميتها اجتماعيا، تأتي الزراعة في المقام الأول قبل الصناعة، فلا يمكن قيام صناعة أو تجارة بدون وجود الغذاء أو توفيره، لذلك كان اعتماد الحزب الشيوعي الصيني على كثرة أعداد طبقة الفلاحين اعتمادا مماثلا لما فعله النظام الشيوعي الروسي تجاه الطبقة العاملة في بلاده، فهي طبقة سهلة الانقياد تسودها الأمية والجهل والمرض والحاجة، ومن هنا ظهر الاختلاف بين الحزبين الروسي والصيني في استقطاب هاتين الشريحتين المختلفتين، ذاك شاهد في الطبقة العاملة القوة السائدة

المنفذة لمآربه، وهذا شاهد القوة ذاتها في الفلاحين، وبالتالي في إمكانية الاستيلاء على السلطة من خلال هذه الكم الهائل من البشر.

إلا أن هناك اختلاف جوهري ومرحلي بين النظامين الاشتراكيين الصيني والسوفيتي، فغالبية الأرض السوفيتية يكسوها الجليد طوال أشهر العام تقريبا، لذلك كان اتجاه شعبها اتجاهاً صناعياً، وهذا مَهَّدَ بدوره الى زيادة الطلب على الأيدي العاملة، وبالتالي شكل العمال الطبقة الكبرى بين فئات الشعب، وبما ان الانتقال الى الاشتراكية قد حدث في بداية القرن العشرين، ونسبة البطالة كانت منتشرة بين الناس، وبما ان الشعب الروسي كان من الشعوب المتأخرة (نسبيا) عن بقية شعوب أوربا، والأمية كانت منتشرة بينهم، كما هو حال الكثير من شعوب العالم في ذلك الوقت، لذلك كان التجاء الناس الى العمل الحرفي هو أقرب وأقصر الطرق لكسب العيش، فاتجه الشعب السوفيتي بأكثريته الى هذا المنحنى.

من هنا برزت فكرة استغلال طبقة العمال (البروليتاريا) وكسب تأييدهم بتجميل حلم امتلاك وسائل الإنتاج والمصانع والعقارات والأراضي لطبقتهم، ساعد في ذلك قلة القوانين الصناعية وتصرفات أصحاب المصانع السلبية، وإحساس الناس بالظلم الواقع عليهم، فكانت الاستجابة كبيرة لتشجيع ومساندة مثل هذا النظام السياسي للخلاص من ممارسات أصحاب المصانع والبرجوازيين. لذلك حدث ما حدث في

دولة الاتحاد السوفيتي، حيث استقطبت الطبقة العاملة ووجهت لتحقق مطالب المنظّرين والمنظمين والحزبيين في كسب السلطة، إلا أن دور هؤلاء المتنفذين انحسر فيما بعد في تسييس أمور الدولة، صحيح ان بعض الأفراد من طبقة العمال استطاع الوصول الى مراكز عالية في السلطة، إلا ان هذا كان نتيجة اتساع مساحة الدولة وكبر رقعتها مما أوجد وظائف حكومية وحزبية شاغرة كثيرة، أو نتيجة لجهود فردية ذاتية. لكن الذي حدث فيما بعد بشكل عام، هو انزواء وتراجع طبقة العمال وتقدم فئة المثقفين للحلول محلها، حسب قانون البقاء للأصلح والأذكى، فنشأت طبقة متسلطة مستغلة جديدة بممارسات بيروقراطية قاسية، تشكلت من الحزبيين والموظفين وكبار رجال الدولة، فتسلمت مقاليد الحكم والإدارة وحكمت البلاد باسم العمال وتمتعت بكل الفرص الجيدة والامتيازات، بينما بقيت طبقة البروليتاريا تعاني من الفقر والعوز والتمييز.

اذن، كان اعتماد الحزب الشيوعي الصيني على طبقة الفلاحين، خطوة ذكية من قادة الحزب عندما التجؤوا اليها، وهي في حقيقتها خطوة مخالفة صريحة للفكر الأساسي الذي وضعه مؤسسه كارل ماركس في الاعتماد على طبقة العمال، وإلا فكيف يمكن لفكر فرعي مهما كان شأنه، الانحراف باتجاه معاكس تماما نحو طبقة غير متفق عليها في النصوص الفكرية والتنظيرية للمؤسس الذي يتبعه كل

المنضوين تحت شعار الحزب، ويخالف الأساس والدستور؟ لقد كان من الأجدر بالحزب الشيوعي الصيني منذ أول تأسيسه، ان يتخذ اسماً ورمزاً وأهدافاً ومقومات غير ما تبناه صاحبه، لأنه بالضرورة حمل نظاما وفكرا وقياسات تختلف تماما عن فكر الحزب الشيوعي الموضوع أصلا من قبل مؤسسه. لكن ما دفعه الى ذلك، هي الدلائل والإحصائيات التي كانت تشير الى ان طبقة الفلاحين توفر نفس القوة المطلوبة لارتقاء سدة الحكم التي وفرتها طبقة العمال في الاتحاد السوفيتي، ان لم تكن أكثر، لذلك كان الاتجاه والتركيز على هذه الطبقة.

ان نجاح الحزب الشيوعي الصيني لحد اليوم، ليس دليلا على صحته وفلاحه في توفير العدالة الاجتماعية والسعادة للبشر، فواقع حال شعبه يفصح بغير ذلك، فلا حرية فكرية، ولا حرية سياسية، ولا دينية، ولا ثقافية، ولا حرية حركة وتنقل، ولا وجود لأبسط الحريات الواجب توفرها للإنسان، بل انه يفرض قوانين غاية في القوة والصرامة والشدة، منها على سبيل المثال، وجب على العوائل عدم إنجاب أكثر من طفل واحد، وإجراء عملية العقم للرجال ناهيك عن النساء، وهذا الشرط القاسي أوجد أمراضاً نفسية غاية في الخطورة والتعقيد لدى الآباء وأبنائهم وخلق فكرة وأد الأطفال، وأعاد المجتمع الى عهود ما قبل التاريخ، فالعائلة التي ترغب بصبي، تقع بين مطرقة الرغبة بوريث ذكر

وبين سندان عدم القدرة على إنجاب أكثر من ولد، وبالتالي ظهرت فكرة الوأد، وراحت بعض العوائل تمارسها رغبة منها اما بصبي أو بنت، فاستساغ الناس فكرة القتل وسهلت عليهم، ومن يسهل عليه قتل فلذة كبده، تسهل عليه فكرة الظلم والإجرام وقتل غيره. فأين حرية الإنسان من كل ذلك؟ وأين حرية الاختيار وميزان العدالة؟ وأين السعادة في إجبار أب أو أم على قتل بكرهم أو فلذات أكبادهم بقسوة وبدون رحمة وبأيديهم ورغبتهم، بسبب جور نظام يعجز عن توفير أبسط حقوق مواطنيه. ومن المناسب أن نتذكر أنه ومنذ عهد قريب كان هناك أربعون قانونا داخلياً يحكم بالإعدام على مرتكبي بعض الأفعال والجرائم المخالفة للقانون الوضعي الصيني، ولكنهم اليوم يبحثون في زيادة هذه النسبة. ومثل هذه القوانين القاسية أوجدت رعباً حقيقياً بين أفراد الشعب تجاه سلطته القاسية مما زاد في خنوع هذه الأمة وإفشاء روح الخوف والجبن بين أجياله وقتل روح التحدي والإبداع بينهم، حتى صار المواطن يرتعب خوفاً من غضب محصل حافلات الركاب وسائقيها ناهيك عن رجال الشرطة وأعضاء الحزب. أما ما يشاهد من أنواع الصناعات الصينية واعتبارها دلالة على تطور وتقدم هذه الأمة، فالأمر ليس بهذه الصورة الجميلة، فالتطور بحد ذاته أمر لا مفر منه مع طبيعة الإنسان وفطرته .كما سبق وشرحناه . إذا ما توافرت له الفرص المناسبة، كما أن هذه النظرة تختلف من موقع الى آخر، فدول أوربا تنظرهم بمنظار التخلف لما يحتاجونه منها من تكنولوجيا ومخترعات،

بينما ينظر اليها الإنسان العربي بمنظار الدولة المتقدمة، لما يعانيه من تخلف وإحباط شديدين.

ان بداية تطبيق الأفكار الشيوعية في الصين هي مرحلة بدأت من أول سلّم طبقات المجتمع، فعندما تريد أية جماعة من البشر تشكيل مجتمع لها، تجد نفسها مضطرة للابتداء في حياتها الفعلية والعملية، بالفلاحين والأرض والزراعة والرعي والماشية، لتوفير الغذاء قبل كل شيء، وعندما يتهيأ الغذاء يأتي دور العمل والعمال لتوفير المعدات والآلات وغيرها مما يساعد على تحريك المجتمع وتطويره. اذن فالوقت ما زال طويل نسبياً أمام الحزب الشيوعي الصيني للانتقال في اعتماده من طبقة الفلاحين الى طبقة العمال، ثم الدخول فيما بعد . ان صحت هذه النظرية . الى مرحلة الانهيار التام، كما حصل لدول المنظومة الاشتراكية، وهذا يعني ان الفكر الشيوعي السوفيتي، وصل النهاية قبل الحزب الشيوعي الصيني، لأنه بدأ من المرحلة الثانية (طبقة العمال) القريبة من مرحلة النهاية، بينما يتحتم على الحزب الشيوعي الصيني اجتياز المرحلة الأولى (طبقة المزارعين) للدخول الى المرحلة الثانية (طبقة العمال) حتى يصل الى نفس النتيجة الفاشلة التي وصلها سابقه في الاتحاد السوفيتي. هذا إذا لم يجد مفكرو الحزب شيئاً جديداً تتفتق عنه أفكارهم لادامة بقائهم في التسلط على رقاب شعبهم فترة أطول نسبياً. فبقاء هذا الحزب على قيد الحياة ليس دليلا على صحة النظام

وعافيته، بل لان المرحلة التاريخية لم تنته بعد، فما زال أمامه بعض الوقت، وفي النهاية لابد وان يفشل وينتهي كما فشل رفيقه السابق وكما ستفشل الرأسمالية لا محالة، وهذا أمر مؤكد، لأن الهدف الذي يدعو له، هدف سامٍ وعزيز، وهو تحقيق سعادة الإنسان، وهذا أمر يستحيل تحقيقه بمثل هذه القوانين الوضعية التي يدعو لها ويطبقها، وسيبقى الشعب الصيني وبقية البشر من حولهم في حيرة من أمرهم يبحثون عن راحتهم وسعادتهم ولا يجدونها حتى يشاء الله أمراً كان مفعولاً.

الهوامش

1 – سلسلة عالم المعرفة، العدد 237، كتاب الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامه وتطورها، الطبعة الثانية، صفحة 365. تأليف: الدكتور حسين مؤنس.

الفصل العشرون

من أسباب تخلف العالم العربي

وسبل الخروج منها

ثبت في فصول سابقة ضرورة اتفاق الدين والعلم، وثبت أيضاً ان كل العلوم الإنسانية الموجودة هي علوم إلهية الأصل جاءت عن طريق الرسل والأنبياء، إلا أن المشكلة تكمن في سوء استعمال الإنسان لها وكيفية تطبيقها. لذلك كان لزاما على العقلاء والعلماء محاولة التوفيق بين الفكرين الديني والعلمي، خاصة وان نشوء الحضارات والإنجازات الفكرية والعلمية مرتبط ارتباطا وثيقا بظهور الديانات السماوية بصورة مباشرة كالحضارات الإسلامية والمسيحية واليهودية والزرادشتية وغيرها أو بصورة غير مباشرة كالحضارات الرومانية أو اليونانية وغيرها.

ومن الأسباب العديدة التي أدت الى تخلف الواقع العربي عن بقية الأمم المتقدمة، عملية الربط الخاطئة بين المفاهيم والعقائد الدينية من جهة وبين المفاهيم الفكرية والعلمية من جهة أخرى، وتحجيم حرية حركة هذين الرافدين العظيمين كل في اتجاهه الخاص الصحيح، فكم من عالم جليل برز بفكرة علمية أو دينية كانت ستؤدي الى تطور المجتمع وتقدمه لو تركت تسعى في أرض الله، إلا أنه كان هناك على الدوام من ينبري لها ليكفّرها وصاحبها، ويحرّم تداولها ويصفها بالبدعة أو الكفر، ويؤلّبَ سواد الناس وجهالهم ضد مبتدعها! ان الخلط في

التخصص، والاعتقاد ان رجال الدين قادرون على معرفة الصواب من الخطأ، وانهم مصدر كل علم ديني أو دنيوي، أدخل البشرية في نتائج سلبية ما زالت تعاني منها حتى اليوم، وكان هذا التحجيم تكرارا لما حدث في أوربا عندما سيطرت الكنيسة على كل المجالات العلمية والاجتماعية، وراحت تفرض رأيها في صحة وخطأ النظريات والأفكار العلمية، مما أدى في النهاية الى قتل العديد من جهابذة العلم والمعرفة.

في المقابل سيطر رجال الدين في العالم الإسلامي منذ القرون الهجرية الأولى على روافد العلم والمعرفة، وكانت لهم اليد الطولى في تقدير صحة وخطأ الأفكار والنظريات العلمية، كما دعى إليه الإمام الغزالي على سبيل المثال.

[وهذا موقف أليم عرفناه نحن بعد القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي، عرفناه دون ان نفكر في الخروج منه كما فعل هؤلاء (مفكرو أوروبا)، لأن نفراً من أعاظم مفكري الإسلام نجحوا في إقناع الناس بأن السعادة في هذه الدنيا لا وجود لها ومن ثم فمن العبث البحث عنها، وأن السعادة لا توجد الا في الحياة الآخرة، ومن ثم فلابد من تركيز جهد الإنسان كله في ضمان وصوله الى سعادة الآخرة، عن طريق العبادات والزهد في كل ما تقدمه هذه الحياة من خيرات، وذلك هو لباب كلام الغزالي في كل مؤلفاته، وخاصة "إحياء علوم الدين"] (1).

[وكان يغلب عليهم الميل الى القول أن البشر عاجزون عن التزام الصراط المستقيم، وان أيام الرسول(ص) هي أفضل الأيام، وهكذا يأخذ التاريخ في نظرهم اتجاها منحدرا، وينظر كل واحد منهم الى العصور التي سبقته على انها بالضرورة أحسن من عصره، وان هذا الاتجاه سيستمر حتى تعم الفوضى ويعود الإسلام غريبا كما ولد غريبا، ويضطرب الأمر كله في النهاية تبعا لذلك حتى يستنقذ الله الناس بعودة عيسى بن مريم عليه السلام ويقتل الدجال، أي يقضي على الفوضى والظلم، ويملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا كما يقولون، ويكون ذلك من إشارات الساعة أي مقدمات نهاية الدنيا.][2].

[ان العلم الذي يتحدث عنه معظم الناس في العصور الماضية عندنا لا يخرج عن نطاق علوم الدين، من قرآن وتفسير وحديث وفقه ولغة وما الى ذلك، ظنا منهم أن الانصراف الى دراسة ما سوى ذلك انما هو مضيعة للوقت وصرف للإنسان عن عبادة الله][3].

[وإذا كانت دولة كالدولة العباسية قد ركدت رياحها وانحدرت فلأنها عندما قامت بدأت بتقييد الفكر وكتم أنفاسه، فأقفلت بيدها أمام نفسها طريق المزيد من القوة، وقضت بنفسها على نفسها. وكذلك يقال عن معظم دول المسلمين الماضية التي نادرا ما تركت الفكر حراً ليستكشف الطريق أمام الأمة، ويفتح للإنسانية سبيل الحياة والقوة وطول العمر ومزيدا من الرخاء][4].

[ان مثل هذه الأفكار والمعتقدات أسهمت بشكل لا لبس فيه في قتل الكثير من أفكار ونظريات بعض العلماء الذين حاولوا إطلاق مارد الفكر العربي والإسلامي من قمقمه، ومنعت انتشار كل ما هو جديد من الأفكار المستحدثة، مما أدى الى تحجيم التقدم العلمي والثقافي بشكل كبير وعقر حرية الفكر الديني والمذهبي، وهذا أدى في النهاية الى حجر وحصر الفكر العلمي والثقافي الإسلامي الا في بعض الحالات التي توافقت مع مفهوم الدين في القرآن والسنة، مع ان هذا الصد كان مخالفا بشكل أو بآخر للفكر الإسلامي الذي يدعو الى طلب العلم مجردا من المهد الى اللحد ولو كان في الصين. وحتى الحضارات المتقدمة قد تصاب بظروف وعوامل توقف تقدمها الحضاري أو تعود بها الى الوراء، والمثل الظاهر عندنا المشهود منا جميعا هو تدهور الحضارة العربية الإسلامية في كثير من الأقطار بسبب سوء النظام الإداري أو المالي، وإذا تتبعنا صورة عالم الإسلام من إيران الى المحيط الأطلسي ابتداء من القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي – لرأينا كيف ان النظام السياسي الجامد المخرب الذي سارت عليه الحكومات الإسلامية، ابتداء من حكم البويهيين في منتصف القرن الرابع الهجري، قد أوقف التقدم الحضاري المادي أولا ثم المعنوي بعد ذلك، لأن هذا النظام تحول الى أداة لجمع المال دون تقديم خدمات في مقابل المال المجموع...][(5)].

[ولولا جهد أولئك المفكرين من فلاسفة وأهل علم لما انفتح الطريق المسدود، ولظلت الإنسانية واقفة ووجها الى الحائط كما كان الحال بالنسبة للعالم الإسلامي في عصر الأتراك العثمانيين... أن الحكم العثماني في مصر والشام مثلا دام 281 سنة ولم تتحرك خلالها الحضارة في بلادنا خطوة واحدة الى الأمام، بل تراجعت بشكل مخيف، حتى كان المستوى الحضاري لبلادنا (مصر) عندما دخلها الفرنسيون سنة 1798 أقل بمراحل عما كان عليه في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. إذا تصورنا ذلك اتضحت لنا جسامة الدور الذي قام به أولئك الأفذاذ القلائل في نقل البشرية كلها من حال الى حال][6].

فلو حدث العكس وفسح المجال في تلك القرون لحرية الفكر والرأي، لأصبحت الأمة العربية اليوم أفضل حالاً ولسبقت غيرها من الأمم بمراحل عديدة، خاصة وإنها كانت متقدمة بالفعل على جميع أمم العالم في العديد من مجالات الثقافة والبحث العلمي في القرون الوسطى. وما هذا التخلف الذي يشاهد اليوم، الا بسبب محاربة من كانوا في سدة السلطة الدينية والدنيوية للأفكار الجديدة والنظريات المخالفة لمصالحهم، ولقد ثبت بشكل قاطع ان تقدم العلوم والمجتمعات لا يتم الا من خلال المنافسة الشريفة والنقاش الحر وطرح النظريات والبحوث في جو من التفاهم والتسامح. ولما كان بعض علماء الدين الإسلامي ممن أرادوا التقرب من كراسي الخلفاء والملوك ينشدون فكرا يوفق بين

الدين والدنيا خوفا على مصالحهم وأفكارهم من الاهتزاز، لذلك حدثت تلك الفجوة الهائلة بين العلم والدين الذي أدى في النهاية الى هذه الحالة. إن الدين بحد ذاته يشجع على التقدم العلمي ولكن الخطر يكمن في من يدعون انهم يمثلونه أو من يسمون أنفسهم بالمسؤول الشرعي في المجتمع.

ان ما حدث في أوربا من فصل بين تطبيقات العلم وممارسة الدين وإبقاء دور الكنيسة محددا وإبعادها عن إبداء آرائها تجاه الأفكار والنظريات والمبتكرات العلمية، أدى الى تحرر العلم والفكر الأوربي ونشوء الجامعات العلمية المستقلة عن الدين، مما أعطاها حرية كبيرة في الاستقلال الفكري والأخذ بما يتناسب مع حقيقة العلم، وبالنتيجة راح العلم يتقدم بكل قوته دون عقبات كنسية أو قانونية حكومية.

لقد تغير الحال وتبدل التعامل واختلط العالم كوحدة واحدة، فلم يعد فكر أمة مقتصراً بها، بل أصبح العلم مشاعاً للجميع، وسيزداد هذا الاختلاط في المستقبل، فلا يعد باستطاعة أية قوة مهما عظمت وقف مد الترابط والتآلف العالمي بين الشعوب أو استغلاله وتوجيهه لخدمة أغراضها، وستختلط ثقافات وعلوم الشعوب رغم أنف المتعصبين والمنادين بالعودة الى الماضي، فالأقمار الصناعية وأجهزة الكومبيوتر والهواتف الدولية ومحطات التلفزيون الفضائية وتراجم الكتب والمؤلفات وبرامج الانترنيت والبريد الإلكتروني والفاكس وما سيجد من جديد

الاختراعات والاكتشافات في المستقبل، سيؤدي في النهاية الى اختلاط جميع شعوب الأرض بطريقة لم يعهدها التاريخ ولم تتصورها البشرية من قبل. ومن يبتغي الابتعاد عن ربيع تقدم العالم الجديد، سيكون مصيره الفشل وتنتهي محاولاته بالخسران، فمد مياه فيضان التقدم قادم ولن يوقفه أحد، ومن أراد النجاح في المحافظة على تراثه وعقائده وأفكاره وأجياله، فلابد له من السعي في البحث – بعينه لا بأعين الآخرين – عن البديل الناجع مهما كان غريبا ومذاقه مراً، وعدم الانتظار والاعتماد على الغير لمد المساعدة وإنقاذه، وإلا فلن يتمكن من تحقيق غايته بالمنع والشد والصراخ والقوة والتمني والدعاء والتمسك بشبابيك الأولياء.

من العوامل العديدة التي ساهمت في تخلف الأمة العربية، فكرة المذاهب والتشيع، فالنزاعات والصراعات المذهبية التي قامت بين اتباع الدين الإسلامي وتكفير بعضهم البعض وما يتبعها من عمليات قتل وحرق وتشويه أفكار وإحراق كتب، أدت الى اختفاء صورة مهمة للتباينات الفكرية والمذهبية والعلمية بين ملة المسلمين، وكانت الجذور الأم لظهور فكرة تسلط الحزب الواحد، رغم ان القرآن الكريم نص بصراحة لا لبس فيها على الابتعاد ونبذ مثل هذه الأفكار، فقد قال عز من قال: **(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ**

نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)[7]، وكذلك **(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)**[8] **(مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)**[9].

ان ما حصل من تسلط المذهب الواحد حتى على نطاق الولايات الإسلامية في مراحل التاريخ الإسلامي، سلك بالأمة الإسلامية الى اتجاه عكسي بعيد عن التقدم الفكري ولم يساعدها على تخطي آخر مرحلة علمية رفيعة تمكنت من وصولها. يضاف الى ذلك فكرة الحلال والحرام التي سيطرت على عقول الناس بشكل متطرف بعيداً عن مفهومها الديني الحقيقي، فقد جعل بعض رجال الدين كل جديد حراماً، فكانت ولا تزال هذه المقولة القاسم المشترك الأعظم بين المسلمين في تقرير كثير من الأمور المهمة، وبقيت الميزان الأعظم لأمور الأمة، فلا يتقرب إنسان من عمل ما، أو يدنو من علم حتى يسأل، أحلال هو أم حرام؟ مما حدا برجال الدين الى تبوء مراكز ومقامات عالية زادت من مساهماتهم في أمور الملة وأصبح من العسير إنزالهم من مراكزهم. وفي النهاية كان لهذا التدخل أعظم الأثر في تقرير أمر من أخطر الأمور في حياة الأمة الإسلامية، وهو تحريمهم آلة الطباعة التي اخترعت في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي تحت ذريعة الخوف والحرص

على سلامة النص القرآني، فساعد هذا التصرف على بقاء نسبة الجهل والأمية عالية بين الناس.

كما ان مفهوم الطهارة والنجاسة المتطرف بقي مسيطراً على مفاهيم العرب والمسلمين ومنعهم من التعامل مع الغرب وغيرهم من الملل، مما أوجد مانعا من الاستفادة حتى من أقرب الملل التي تعيش بينهم، فساعد ذلك على انحسار العلم والمعرفة والمال والاقتصاد والحرف الفنية المهمة والمؤثرة عن العرب والمسلمين.

[لهذه الأسباب لم يكن التدريس العلمي للعلوم الطبيعية متاحاً، ولم يكن مسموحاً بهذه المدارس حسب مفهوم الإحسان في قانون الوقف، والاستثناءات في خرق هذه القاعدة كانت قصيرة الأمد، وفضلا عن ان فكرة الابتداع كانت تتضمن معنى الهرطقة وتدعم بنيات كثيرة مع متابعة البحث، وحينما يتخطاها مفكرون جريئون فلا توجد آليات تتيح لهذه الثغرات المبعثرة ان تتخذ صورا مشروعة من البحث، على العكس فهؤلاء بإيجادهم طرقا ابداعية من البحث كانوا يثيرون غضب الدوائر الدينية التقليدية، وكان ذلك داعيا الى تجنب العلانية، ومن أقوال الرسول(ص): "شر الأمور مستحدثاتها، وكل مستحدث بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار"، وفي الصورة المتطرفة لهذا المبدأ كان ذلك يعني رفض أي فكرة ليست معروفة في شبه الجزيرة زمن محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه واستخدمت لدى الأجيال التالية

من الدوائر المسرفة في المحافظة لمعارضة تناول الطعام على مناضد وتعاطي القهوة أو التدخين أو آلة الطباعة أو الهاتف أو اللاسلكي أو الانتخاب للنساء، والعالم اذن مبتدع غير مسموح به ولا متسامح معه في الحضارة الإسلامية خلال هذه الفترة][10].

ان اختلاف المفكرين في نسبة جهل الأمة العربية الى سبب معين، وتوزيعه على أسباب عديدة، فيه شيء من الصحة، فجسد الأمة العربية مريض بأكمله ويعاني من شتى العلل، وعلته تكمن في جميع أعضاءه وحتى في دمه! فكيف يمكن لطبيب وصف دواء للقلب أو الكبد أو لعضو معين، بينما تعاني بقية الأجزاء من العلة والأوجاع؟ لهذا لا يمكن شفاء جسد الأمة العربية بحلول جزئية مؤقتة. وبات يلاحظ هذا العجز واضحاً في مجمل الأفكار المطروحة، وفي غالبية الكتابات ومحدودية أفقها، والمنشورات وأهدافها المصلحية، والعلوم والثقافات ومستواها المتدني، والاجتماعات ونتائجها الفاشلة، والخطط وضيق أفقها، بل بين المفكرين واطروحاتهم الهزيلة. فحقيقة المرض تكمن في المعنويات وليس في الماديات، في الأفكار والعقول وليس في الأدمغة! في المشاعر والأحاسيس وليس في القلوب! ان العلة الحقيقية تكمن في بعض أفكار المجتمع القديمة وبعض أعرافه المتداولة وجزء من تقاليده البالية وفي بعض ما ورثه من مخلفات فكرية عقيمة لا يعيها ولا يدرك صحتها، بل ولا يفكر حتى في احتمالية مناقشتها أو إعادة النظر في

معانيها، لأنها أصبحت جزء من شخصيته وقطعة من كيانه. لذلك باتت الحاجة ضرورية للتجديد والتطور في كل المجالات.

لقد جربت الأمة العربية في هذا القرن كل أنواع الأنظمة، حزبية وعسكرية وعلمية ودينية وغيرها، ولم تتمكن من شفاء ما فيها من مصائب وبلايا ومحن، بل زاد الطين بلّه، والتاريخ خير شاهد، فلقد حكمها رجال ادعوا الدين والإيمان ورفعوا شعارات غاية في الاحترام والتقديس ولم يفلحوا، وتسلط عليها العسكر بالقوانين الصارمة وبالسيف والنار وفشلوا، وحكمها الساسة بكل اطروحاتهم وأنظمتهم وخربوا ودمروا، وحكمها الديمقراطيون والدكتاتوريون والبيروقراطيون والحزبيون ولم يفلحوا. اذن ما هو الحل؟ هل تبقى الأمة العربية تعاني من كل هذه المصائب والبلايا، بسبب الخوف من التغيير؟ أليست الحاجة ملحة الى نظام عالمي جديد يتناسب مع المتغيرات العالمية بعد فشل كل هذه المحاولات فينتشل هذه الأمة من وهدتها ومعها بقية شعوب العالم.

ان استقراء التاريخ بصورة مختصرة جدا يساعد على توضيح هذه الضرورة، فالامبراطوريات القوية التي حكمت مناطق شاسعة من العالم، انكمشت مع مرور الوقت حتى تقلصت داخل حدودها الإقليمية والسياسية ولم تعد تشرق الشمس على أرضها إلا لفترات قليلة. ثم ونتيجة للتطور التاريخي، اكتشفت ضرورة الاستجابة لمتطلبات تطور البشرية، وأدركت ان مشاكلها المحلية تدفعها للاتحاد سياسياً أو

اقتصـادياً أو عسـكرياً أو علميـاً مـع بقيـة دول العـالم لإيجـاد مخـرج لأزماتها المختلفة، فظهرت بعض أشكال الاتحادات الدولية والإقليمية مثل الاتحاد الأوروبي والاتحاد السوفيتي ورابطة دول جنوب شرق آسيا وجامعة الدول العربية وغيرها، وما هذه الأشكال من الاتحادات الا دليل واضـح علـى صـحة النظريـة الجديـدة التـي تـدعو جميـع دول العـالم وشعوبها الى الاتحاد تحت نظام عالمي جديد.

كمـا ان عجـز رجـال جميـع الأديـان السـماوية المعروفـة فـي إيجـاد حلول سياسية لمشاكل أممهم بات جلياً لا يحتاج الى برهان، رغم انهم – كما ذكرنا – ساهموا كثيرا في تطور البشرية، وكانوا نجوماً لامعة يهتدى بهم في ظلمات تلك الليالي السوداء بعد غروب شموس رسلهم وأنبيـائهم، لكـنهم اليـوم يقفـون عـاجزين مكتـوفي الأيـدي أمـام حاجـات سياسـية ملحـة ومشـاكل اقتصـادية ومالية واجتماعيـة ودينيـة وعلميـة مستعصـية بـرهن التـاريخ والوقـت والتطـور الفكـري والعقلـي للمجتمعـات علـى عجزهم حتـى فـي إبداء رأي واضـح فيها، وباتوا يتشبثون بمقولات وأحاديـث وأفكـار قديمـة وضـعيفة تكشـف عـن قلـة حيلـتهم وضـحالة تفكيرهم، بل أنهم راحوا يطالبون بالتغيير والتصحيح كما هو حال بقية النـاس غيـرهم، ونسـوا أنهـم هـم المطـالبون بوضـع أسـس قوانين التغييـر والتحديث وليس غيرهم. ومع كل ذلك، ما زال هناك من يطالب بين الفينـة والأخرى بـالعودة الـى الدين كسبيل وحيد للخـلاص – رغم تعدد

الديانات وشرائعها وكثرة المذاهب وطرقها – ورغم كل التجارب الفاشلة السابقة. أما من لا يصغي إليهم ولا يرغب باتباعهم ويحاول استعمال عقله وفكره في تفهم ما يدور حوله مدفوعا بما يراه من تطور علمي واجتماعي وسياسي كبير، تراهم يسرعون الى تكفيره وإدانته.

لقد اتسع وكبر حجم مارد الفكر الإنساني وضاقت عليه كل الحلل الفكرية القديمة وأصبح من الضروري تفصيل وخياطة رداء مناسب جديد لقدّه الناضج. والواجب يقضي على عقلاء الأمة العربية والإسلامية ذات التاريخ العظيم التي كان لها أعظم الأثر وأرقى الإسهامات في تقدم الإنسانية كل الإنسانية، ان يدركوا ان طريق التقدم والفلاح وإمساك أول سبيل الولوج في مسار الحضارة العالمية ليس عن طريق المناداة بالتمسك بالماضي والتراث، فبدون عمليات الإبداع والاختراع والمجاهدة **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)**[11] لن يصلوا الى غاية سليمة، والدليل على ذلك، هو عدم عودة حياة أية حضارة سابقة. فهذه أمة الصين رغم فكرها التقدمي المزعوم وحضارتها العظيمة المنغرسة في قلب التاريخ فشلت في النهوض مرة أخرى، وان ما تعيشه اليوم وان كان فيه شيء من التقدم العلمي الظاهري بالنسبة لشعوب العالم الثالث، الا انه ليس بذي بال إذا ما قيس بالتقدم العلمي العالمي، هذا بالإضافة الى خلوه من المفاهيم الإنسانية والدينية والروحية، وبذلك فهو يبتعد عن مفهوم الحضارة الحقيقية. وهذه الأمة الهندوسية لم تعد

كما كانت، ومن يتعمق في معتقداتها يرفضها ولا يقبلها أو يستسيغها. وهذه الأمة المصرية والعراقية والإيرانية واليونانية والرومانية، جميعها باتت ليس كما كانت؛ بل ولم تعد تقوى حتى الأمم الدينية على النهوض مرة أخرى، فلا حضارة بوذية ولا زرادشتية ولا صابئية ولا يهودية ولا مسيحية ولا حتى إسلامية، وذلك بسبب خروجها عن جوهرها نتيجة ظهور من يدعي العلم بها وهو يجهلها ويتصرف وفق أهوائه ومصالحه. فان فشلت أمهات الحضارات في النهوض مرة أخرى بكل ما لها من تاريخ صلب قوي، فهل تنهضها تيارات مذاهبها الفرعية المتصارعة، أو تعدد أحزابها وأفكارها ونظرياتها التي يسرقها بعض المدعين من بعض؟ ان هذا شيء محال ومستحيل.

ان هذا الرأي ليس لنشر فكرة اليأس والخمول والتردد، بل العكس تماما، هدفه الدعوة الى النهضة والتقدم والسمو والرفعة واللحاق بالحضارات العلمية العالمية من خلال البحث عن كل جديد من المبادئ والأفكار، وفي النتيجة مسيرة عالمية إنسانية واحدة لا فرق بين أمة وأخرى ولا فضل لقوم على قوم الا بالسعي والجد والمثابرة.

من الضروري إعادة النظر فيما هو موجود من تراث أخلاقي وديني وقومي ووطني ومذهبي وغيرها بدون تردد أو استثناء، وفرز الصالح عن الطالح منها، فليس كل ما هو موروث صحيح، ومن المحتمل وجود العلة في أحد أو بعض هذه المفاهيم، فالكل يعلم ان التاريخ قد

تغير والزمان غير الزمان والتباين شاسع بين مجتمعات الأمس واليوم، وهناك قول عربي مأثور يبقى منهاجاً منيراً ونوراً مشعاً في سماء التيه والضلال وهو **(لا تعلموا أولادكم مثلما تعلمتم لأنهم خلقوا في زمان غير زمانكم)** فان كانت هذه المثل السامية وهذه الأفكار التقدمية قد خرجت من وسط أمة العرب عندما كانت تعتلي أولى درجات سلم الحضارة، ودعت لمثل هذا النهج المتطور، ونادت بمواكبة الزمن ومراعاة اختلاف الوقت حتى بين الآباء وأبنائهم، فما بال هؤلاء يدعون للعودة الى الوراء والتمسك بأسمال الماضي وترك حياة وروح العصر الحاضر المتفتح رغم ما حدث من تغير واختلاف وتطور عبر عشرات القرون والأجيال؟

ان البشرية تخوض تجربة عالمية جديدة خطيرة ذات تأثير بالغ على مستقبلها، فسكان العالم في ازدياد مستمر أعجز المدارس والجامعات والمعاهد عن احتوائهم، مما أدى الى تردي الحالة العلمية والثقافية وزيادة نسبة الجهل والأمية وأنصاف المتعلمين، وهؤلاء كغيرهم من البشر يرغبون في حياة أفضل وعيش هانئ، وهذا من حقهم الطبيعي على دولهم وحكوماتهم، وعندما يصطدمون بجدار قلة فرص الدراسة والعمل، يزداد شعورهم بالغبن والظلم، مما يدفع بجزء منهم الى مخالفة النظام والمجتمع، خاصة وهم لا يملكون ما يخشى عليه، لذلك نرى بعضهم يلتجئ الى النصب والاحتيال والسلوك السيئ والمهن غير

الشريفة بل وحتى الإجرام والإرهاب، ويوجدون المبررات العقلية البسيطة لسلوكهم، وبذلك تظهر طبقة في المجتمع تستسيغ الأعمال الإجرامية وتعتبرها أمراً حتمياً لا مفر منه، وبتكرار هذه التصرفات يظهر الخطر الحقيقي، حيث تصبح هذه الأفعال هي الأصل، والتصرفات السليمة شاذة، وبالتالي يشار الى الإنسان السوي السليم على انه متخلف ورجعي وجبان، مما يدفع بجزء من الفئة الأخيرة الى مجاراة أقرانهم السيئين في مسلكهم، عندها، يصبح الخطأ عرفاً وتراثاً وتقليداً ويتغير سلوك المجتمع بأجمعه نحو الانحدار والتردي، كما تشاهد بوادره الخطرة اليوم. ان هذه الحالة يجدها المفكرون وعلماء الاجتماع في ازدياد مطّرد ويخشونها ويخافون منها أشد الخوف فنهايتها الاضمحلال والعدم، ولو تتبعنا أثرها ومنشئها، نجدها – كما ذكرنا – من سوء التربية والتعليم وعجز الأنظمة عن مجاراة الواقع المتطور. وفي المقابل، تقف الحكومات حائرة مكتوفة الأيدي عاجزة عن صرف المزيد من الأموال على إنشاء وبناء دور التعليم والمدارس والمعاهد والجامعات لسببين، الأول اهتمامها بتقوية سلطتها التنفيذية وجيشها وشرطتها ورجال أمنها، لتثبيت نفسها في هذا البحر المتلاطم من المشاكل المحلية والعالمية، وثانيا ان الثقافة والتعليم سلاح ذو حدين، والخوف كل الخوف من مجتمع مدرك ناضج تحت مظلة هذه الثورة الفكرية الإنسانية العالمية، فالمصلحة تقتضي بقاء الشعوب في جهلها وتخلفها والابتعاد عن ركوب مراكب التطورات المستجدة على الساحة العالمية،

فلا حاجة لتحريك ساكن الأمور والأحوال وانفلات الأوضاع الى طريق مجهول لا تعرف عاقبته.

كأمة مختارة وخير أمة أخرجت للناس، لابد من البحث عن الأسباب الحقيقية التي أدت الى هذا التردي الاجتماعي والحضاري بشيء من الصراحة والشجاعة الأدبية وعدم الخوف والتردد، وإبعاد كل أشكال التعصبات جانباً، والوقوف وقفة إنسان متعقل متجرد من كل خلفياته مهما كان نوعها، والتفحص ببصر حديد في الكتب والنشرات والمجلات، وسماع كل قول ورأي، والإنصات لكل ملة ومذهب ورأي بكل رحابة صدر، والابتعاد عن التقليد الأعمى وسلبياته، فلم يقتصر فضل الله ورحمته على أمة معينة بذاتها، فقد سبق وأن فضل اليهود على غيرهم رغم ذلتهم ومسكنتهم وانحطاطهم تحت سياط جنود فرعون وانزل فيهم ديناً سماوياً رحمة من السماء، وهاهم العرب الجاهليون رغم وحشيتهم وكفرهم وإشراكهم وشراستهم وفرقتهم، جعلهم الله محط نزول رسالة سماوية سمحاء رفعت من شأنهم وتبوءوا أعلى مكانة حضارية بين الأمم، وهؤلاء الهنود وقد رفعهم الله من حضيضهم الى حضارة ما زالت آثارها شاخصة حتى اليوم، ومثلهم الإيرانيون والصينيون والرومان واليونان وغيرهم.

اذن، أليس من المحتمل ان يعيد التاريخ نفسه ويتكرر؟! فما علامات الانحطاط الحضاري المنتشرة في جميع أنحاء العالم الا دليل

واضح من الأدلة العديدة على تكرار ما حدث سابقا... وقد جاء التنبيه الى ذلك واضحاً في القرآن الكريم **(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)**[12] وكذلك **(سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)**[13]. وبقليل من التأمل والتفكير يمكن ادراك معنى من معاني سنة الله الثابتة المتكررة في تغيير وتبديل أفكار ومفاهيم البشر، إذا ما تأملنا في أعماق معاني الآيات الكريمة التالية **(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ قُبُلاً)**[14] وكذلك **(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)**[15] وكذلك **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)**[16] وأيضا **(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ)**[17].

إذن فلنبحث في كل مكان، عسى ولعل أن نجد الخير والبركة والرحمة بين ظهرانينا ونخرج بجديد الأفكار السامية حتى نعود كما كنا **(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)**[18] ونسقي البشرية جمعاء من ذات زلال معين أفكارنا السليمة مرة أخرى كما سبق وسقيناها أول مرة، ولقد قال سبحانه وتعالى **(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)**[19] وقال جلّ جلاله أيضا **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)**[20].

الهوامش

1 – كتاب الحضارة، من سلسلة عالم المعرفة، للدكتور حسين مؤنس، العدد 237 صفحة 316.

2 – المصدر السابق صفحة 186.

3 – المصدر السابق صفحة 193.

4 – المصدر السابق صفحة 323.

5 – المصدر السابق صفحة 53.

6 – المصدر السابق صفحة 300.

7 – سورة الأنعام آية رقم 65.

8 – سورة الأنعام آية رقم 159.

9 – سورة الروم الآيتين رقم 32.

10 – كتاب "فجر العلم الحديث"، الإسلام، الصين، الغرب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 220، الجزء الثاني 1997، تأليف توبي أ. هاف صفحة 50.

11– سورة العنكبوت آية 69.

12 – سورة فاطر 43.

13 – سورة الإسراء 77/17.

14 – سورة الكهف 55/18.

15 – سورة الأحزاب 38/33.

16 – سورة البقرة الآية 143.

17 – سورة البينة الآيات من 1–4.

18 – سورة آل عمران الآية 110.

19 – سورة الطلاق الآية 2.

20 – سورة العنكبوت الآية 69.

(الباب السابع)

الفصل الواحد والعشرون

نبذة مختصرة عن

ماهية النظام العالمي الجديد

كانت فصول هذا الكتاب بمجملها تمهيداً للدخول في هذا الفصل، فهو ثمرة كل الفصول، إذ لا يمكن التبجح في وصف الداء والتهرب عن وصف الدواء. لذلك كان من الضروري إلقاء (قبسات) من النور على ماهية النظام العالمي الجديد الذي نقترح بعض أفكاره وبنوده، ونشرح الغاية الأساسية من إيجاده.

خلال العقد الأخير من القرن العشرين، راحت تتردد عبر وسائل الإعلام جملة جديدة تشير الى ولادة مبدأ عالمي جديد بعث في النفوس آمالا لطيفة أطلق عليه اسم (النظام العالمي الجديد)، الا انه ومن خلال ما شوهد من كيفية تطبيق بعض مبادئه ووسائلها، وجدنا اختلافا كبيرا بينه وبين ما يدعو له هذا الكتاب، بل بدت وكأنها مجرد محاولات سياسية متذبذبة غير ناضجة لم تتبلور بشكلها الصحيح، سمتها الواضحة المصالح الفردية والدولية والقوة الغاشمة، مما أدى الى تشويه الفكرة واتخاذ بعض الشعوب جانب الحذر منها، إذ بدا معناها للوهلة الأولى سيطرة دولة على أخرى أو سيطرة مجموعة دول على غيرها أو تسلط الدول الغنية على الفقيرة.

اذن، كان لابد من توضيح مفهوم هذه الفكرة الجديدة قدر المستطاع، حيث يتوقع لها احتلال مكان الصدارة بين الفلسفات العالمية

والدساتير والنظم الدولية في المستقبل القريب، وان قدر لها التطبيق بشكل سليم، فستقود البشرية الى مرحلة عالمية جديدة قد تكون أسمى ما توصل إليه العقل البشري على مر عصوره.

أولا، يجب ان لا يفهم من عبارة (النظام العالمي الجديد) سيطرة دولة على أخرى أو الاعتداء على حقوقها أو احتلالها أو تغيير نظامها، ولا سيطرة قارة على قارة ولا مجموعة من الدول على غيرها، ولا سيطرة الدول الغنية على الفقيرة، ولا الشمالية على الجنوبية، لا اقتصاديا ولا اجتماعيا ولا فكريا، ناهيك عنه عسكريا. فهذه المفاهيم مرفوضة رفضاً باتاً، ولم تكن ولن تكون مفهوم النظام العالمي الجديد لهذا الكتاب أو من ضمن مقترحاته. فما ندعو له هو نظام اجتماعي سلمي عالمي كامل لحقوق الإنسان ونظام تام للقانون الدولي، يرتكز على تنظيم القوانين المحلية والوطنية وأنظمة الشعوب والحكومات وغيرها من الأنظمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دقة وحرفية، فهو يعتني ويكفل بالدرجة الأولى حرية المواطنين في كل قطر من أقطار العالم ويضع هذه الحرية المنظمة المدروسة فوق كل اعتبار في حدود القانون المحلي والدولي. ولأجل ان لا يغلو ولا يَسْتَغِلَ المواطن هذه الحرية الفردية ولا يتعسف في استعمال حقه الشخصي ويتخذهما سلاحاً يحارب بهما مجتمعه ونظام دولته والنظام العالمي الجديد، وحتى يبقى تحت سلطة النظام والقانون وتصان حقوقه ويمتثل لواجباته، عليه وقبل

كل شيء الخضوع والمشاركة شخصياً في تكوين وتأسيس هذا النظام العالمي من خلال المشاركة المباشرة في التصويت واختيار مواد قانونه، ليكون ملزماً بالتقيد والانقياد إليه باعتباره أحد المشاركين في وضع دستوره، وحتى يعرف المواطنين حقهم الطبيعي في مجتمعاتهم ليذودوا عنها إذا ما تعرضت لنوع من أنواع الغبن أو التهاون، وليخلقوا مجتمعات متفتحة الأذهان ويشاركوا في تقرير أمورهم المصيرية بشكل مباشر، فالدستور يكفل لهم الحق في التعبير عن رأيهم بكل صراحة ووضوح.

بل ان هذا النظام العالمي يلزم بقية شعوب العالم على تقديم آرائها واقتراحاتها ومساعداتها للشعوب الأخرى وتوضيح حقوقها وواجباتها بعيداً عن مبدأ السيادة الوطنية الذي تتحصن خلفه مجموعة كبيرة من الحكومات، باعتبارهم أعضاء جسد الإنسانية الواحد، حتى تتعاضد شعوب العالم بأجمعها وتسهم في النهوض والتقدم كمجتمع بشري متجانس يسكن هذه الكرة الأرضية الصغيرة. ومن خلال هذه المشاركة في النصيحة والمشورة وإبداء الرأي والمساعدة بين شعوب العالم يصعب على الذئاب البشرية الكاسرة المتعطشة للظلم والدماء والحروب، التفرّد بمجتمع دون غيره والتهام وطنه وثرواته وشعبه، إذ لا مجال للتخفي والتحصّن وراء مبادئ استغلت أسوأ استغلال في السيطرة على الشعوب لقرون عديدة على مر التاريخ مثل "سيادة سلطة الدولة" أو "سيادة

الحكومة" دون رقابة حكومة محلية أو سلطة دولية، فكم من شعب عانى من الظلم والبلايا والويلات من جراء تطبيق هذه الشعارات بشكل خاطئ، ومنعت عنه المساعدات بسبب درع السيادة الوطنية الزائف، وحاجز الحق الوطني، والاستقلال الوطني، ووطنية الحكومة، والثورة الحرة، بينما وقفت بقية دول العالم تنظر إليه من خلال نافذة المصالح، وتمتنع عن إبداء رأيها أو تقديم المساعدة لتصحيح ما يجري داخل حدوده.

ان سرعة تطور الفكر الإنساني كفيل بتغيير الكثير من القوانين القديمة نحو الأفضل، ويوضح بشكل لا لبس فيه، التغير التدريجي الحازم في الأفكار الإنسانية وخروجها من حدود الأوطان ومحاور القومية نحو العالمية، بدليل زيادة انتشار فكرة حقوق الإنسان، وحرية المجتمعات، وحرية الفكر، وحرية الصحافة، وحرية المرأة، وضرورة رعاية الطفل، والحفاظ على البيئة، وحسن الجوار، والسلام العالمي، ونبذ العنف والحروب والإرهاب، والمساعدات الدولية، والاقتصاد العالمي، وشركات متعددة الجنسية والمنظمات الإنسانية العالمية وغير ذلك من الأفكار والمؤسسات التي ظهرت على البشرية بمنظار عالمي جديد لتؤكد هذا التقدم في أحوال المجتمعات.

وعندما يتمكن المواطن – أي مواطن في أي دولة من دول العالم – من إمساك زمام أموره بيده ويدرك إمكانية مشاركته في تقرير مصيره

من خلال حرية الفكر والتعبير والانتخاب التي يتمتع بها وينفذها القانون ويضمنها له الدستور، عندها فقط يحصل التغيير والتطور نحو الأفضل في أفكار الناس، ومن خلال هذه التربية الصحيحة يبتعد المواطن عن الجهل والعمى والظلام ويدخل آفاق العلم والرؤية والنور.

ان النظام العالمي الجديد، لا يتعلق بمصير فرد أو أسرة أو قرية أو شعب من الشعوب، انه بحق مصير كل الإنسانية، انه نتاج تفكير وتجارب فلاسفة جميع شعوب الأرض وخلاصة معاناتهم، بعدما أدركت جميع حكومات العالم ان مشاكل مواطنيها لا تحل وطنياً وداخل حدود بلدانهم وعبر بعض الوطنيين وقليل من الشعارات. فبعدما امتزج العالم اليوم حكومات وأوطان وشعوباً وأفراد، أصبحنا نعيش في قرية صغيرة واحدة، ووجد الفلاسفة والعلماء والسياسيين أنفسهم مجبرين على التوجه الى حل مشكلات دول العالم بشكل مترابط، وأيقنوا ان الحل لابد وان يكون جماعيا.

من هذا المنطلق ظهرت فكرة (النظام العالمي الجديد). لذا نود الدخول في تفصيل بسيط يلقي بعض من (قبسات) النور على آراء واقتراحات بنود واتفاقات وقوانين هذا النظام، وهي ليست ملزمة في شكلها المعروض، بل تخضع لتفصيلات وتقنينات وتبويبات دقيقة حساسة يتناولها في وقتها رجال الاختصاص والخبراء وعلماء العالم كلٌ حسب اختصاصه.

ولتحقيق هذا النظام العالمي وإيجاده على ارض الواقع، وجب التفكير بطريقة جديدة مختلفة تماما عما ألفناها وتعودنا عليه سابقاً، فإن لم نوجده اليوم ونتحرك لتحقيقه، فلابد ان يتقدم أحفادنا لتحقيقه غداً، فالضرورة التاريخية وحتمية التطور الإنساني تقضي بذلك. ولتسهيل الأمر عليهم ورحمة بهم وبمستقبلهم، علينا المبادرة والتفكير بشكل سليم وتقديم الأفكار والاقتراحات التي تساعد على تحقيق رفاهية جميع البشر على الأرض، والمحاولة الجادة في تحدي الصعاب. فكم من فكرة أو اختراع اعتبر ضرباً من الخيال أو الجنون قبل اختراعه وتحقيقه، لكنه تحقق وأصبح حقيقة مشهودة بفضل جهود وعطاء أولئك الجبابرة الأفذاذ الذين ضحوا بسني أعمارهم بل وحتى بحياتهم في سبيل تحقيق ما نتمتع به اليوم من علم ومعرفة واختراعات وأدوية ووسائل راحة وخدمات.

أما إذا رفع علينا البعض اصبعه واتهمنا بالمثالية أو الجنون، فحسبنا ان هذه الألقاب والصفات قد وصم بها رسل الله وأنبياؤه من قبل مع كل رفعة شأنهم ومقاماتهم العالية.

من المتوقع – إن ترجمت هذه الأفكار والمقترحات العالمية الى نظم وقوانين – فستؤدي الى تغيرات إيجابية جذرية في حياة الشعوب وحكوماتهم، وستختفي جملة ممارسات خاطئة وخطيرة أو تنحسر الى أدنى أشكالها، منها على سبيل المثال لا الحصر:– هذا الكم الهائل من

السجون العامة والخاصة ومعسكرات الاعتقال، وأعداد الجيوش وترساناتها النووية والتقليدية، والشرطة والأمن والمخابرات والاستخبارات، وكذلك تهم الخيانة والتآمر على كل مخالف لآراء وأفكار الحكومات (الوطنية)، ولصق أقذر التهم بأشرف العوائل وأعرقها نسباً، وعمليات التنصت على المكالمات الهاتفية ومراقبة صناديق البريد والرسائل، وتمثيل المسؤولين دور المرشد الشريف والراعي الصالح للمواطنين، وتوريط المواطنين في عمليات التجسس، وممارسات التعذيب والقتل على الهوية والمذهب والدين والفكر، وهتك أعراض الناس وناموسهم، والكف عن مطاردتهم وتهديدهم وابتزازهم وتصفيتهم، ومظاهر الخوف والرهبة والعقد النفسية تجاه المسؤولين وأفراد السلطة والحكومة، وغير ذلك من الأمور التي تحد من حرية الأفراد والمواطنين والشعب بصورة عامة.

ان كل هذه التصرفات والممارسات، وما خفي كان أعظم، يمكن إزالتها والاستعاضة عنها بالقوانين العالمية العادلة الجديدة. لأن التقدم والتمدن قادم لا محالة وسيوصل البشرية الى أعلى وأفضل المستويات الاجتماعية قريباً.

كما سيساعد انتشار هذه المبادئ على:- نشر الطمأنينة بين الناس، وتسهيل معاملات سفرهم وإعطاءهم حرية التنقل وتغيير محل سكناهم، والتمتع بحرية التعبير والكتابة والخطابة، وممارسة دور النشر والمطابع

أعمالها بحرية في نشر المؤلفات والكتب والمجلات والصحف والدراسات دون رقيب أو حسيب، وترك المواطن وشأنه في اختيار ثقافته وقراءاته، وإبداء رأيه والرأي المضاد، والشعور بالحرية والأمان، وحرية التجمع وتشكيل الجمعيات والأحزاب والمنظمات، واستقبال قنوات البث الفضائية والإذاعات المختلفة، ومساهمة الأحزاب في تشكيل الحكومات العادلة، وفتح أبواب السجون للتحقيقات الحرة لمفتشي حقوق الإنسان الدولية ومندوبي الأمم المتحدة والحكومة العالمية، وبالتالي توفير فرص العمل الشريف وتوفير مقاعد الدراسة للاطفال وتعميم الصحة للجميع.

فلندخل معاً في موضوع النظام العالمي الجديد ونناقشه، ومن يجد في نفسه القدرة على تحسينه بإنقاص أو زيادة أو تحوير بعض نقاطه أو بنوده، فهذا أمر تترك مناقشته لجميع ذوي الاختصاص. ولنعمل مثل هيكل واحد وعصبة واحدة لتخليص الإنسانية من مصائبها العالمية والكوارث المستقبلية التي يرى كل عاقل شريف إنها تركض إليها ركضاً.

من الجدير بالذكر التنبيه على نقطة مهمة أساسية في هذا النظام العالمي الجديد، حيث تعتبر حجر الأساس بين بنوده، ألا وهي: أنه يعتمد اعتمادا كبيرا على تحلي الإنسان بالصفات الإلهية الرحمانية والإنسانية التي طالما نادى بها رسل الله وأنبياءه، مثل: مخافة الله والرحمة والمحبة والعطف والتسامح والصدق وصفاء النية ونكران الذات

والعدل والإنصاف والأمانة وحب الخير لجميع البشر بمختلف أجناسهم وشعوبهم، ولا يمكن بأي حال من الأحوال إبعاد هذه المبادئ الأساسية عن مطلبنا الرئيسي. فبدونها لا يمكن تطبيق هذا النظام وإيجاده على أرض الواقع، فالمحبة بين الناس والتعاون وحب الخير هي أساس هذا النظام وجزء لا يتجزأ منه، فإن لم توضع هذه الفضائل الإنسانية كأول حجر في زاوية بناءه، وتفرض كمناهج دراسية في صفوف التلاميذ منذ نعومة أظفارهم، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تشييد هذا النظام، وستلقى أي محاولة لإيجاده، نفس النتائج الفاشلة التي أصابت بقية النظم السابقة، وستأتي الأجيال القادمة لتحققه بالمحبة والاحترام لا محالة.

بعض مقترحات أسس النظام العالمي الجديد وفقراته:-

(1) إيجاد لغة عالمية مشتركة وخط واحد للكتابة

ان هذه الفكرة، وان يرى بعض القراء صعوبة تحقيقها، الا انها ممكنة إذا نوقشت طرق تنفيذها وعرفت الغاية المرجوة منها ومقدار فائدتها لكل الناس. أما الوسائل اللازمة لتنفيذها فلا تحتاج الى جنود وجيوش وحروب وقتال. ان الإنسانية بحاجة ماسة الى إيجاد لغة تفاهم واحدة سهلة بين مختلف شعوب الأرض بمختلف لغاتهم ولهجاتهم، لتمكينهم من الاطلاع على علوم وثقافات وتاريخ بعضهم البعض، فإذا

تحقق هذا الأمل، سيحصل ارتقاء عالمي للبشرية من جراء الاستفادة من قراءة مختلف ثقافات شعوب العالم والاطلاع على كل فكرة ونظرية واختراع جديد.

ومن فوائدها أيضا، ان الإنسان سوف لا يشعر بغربة في أي بلد يحل فيه ويتمكن من تدبير أموره بغاية البساطة ويشعر انه في وطنه أينما ذهب، ويتمكن من قضاء كل التزاماته واحتياجاته دون تأخير أو حاجة الى مساعدة ان كانت دراسية أو ثقافية أو علمية أو تجارية أو رياضية أو غيرها.

كذلك ومن خلال تبني لغة عالمية واحدة وخط واحد، لن تضيع أعمار الناس الغالية سدى في تحصيل لغات بقية الشعوب وتعلم لهجاتها التي تعد بالمئات. فلو كانت هناك إحصائية بعدد السنين المهدورة التي أضاعها ويضيعها الناس في تعلم لغات بعضهم البعض، لوجد انها تزيد على آلاف السنين، كلها ضاعت بسبب التعصب الوطني والقومي والمذهبي وقلة التفاهم بين الشعوب وعدم نضوج الفكر الإنساني لإدراك هذه الحاجة سابقاً.

ان الكرة الأرضية مثل بستان جميل كبير، أو حديقة عظيمة مزهرة، أو سلّة ورد كبيرة عطرة، يزداد تألق جمالها وحسنها باختلاف ألوان أزهارها وتنوع أشكال شتلاتها وتباين أحجام أشجارها وتدرج أغصانها

وتطاول أفنانها وتعدد روائح أورادها واختلاف عبير زهورها وتنوع أشكال طيورها وألوان بلابلها، فالتعدد والتنوع والاختلاف في هذه الحالة مطلوب ومرغوب وهو سر جمال ذلك البستان وتلك الحديقة وهذه الزهرية. وفي المقابل تزداد الكرة الأرضية جمالا باختلاف أراضيها وتنوع مناطقها وتباين مناخها، وتزهو وتتألق وتزداد جمالا وبهاء بتعدد ألوان وأشكال شعوبها.

لذا كانت الحاجة ضرورية في هذا الوقت الى **(الوحدة العالمية في التعدد)**، فجمال العالم الإنساني يكمن في تعدد شعوبه وتراثه وأقوامه وثقافاته. أما فكرة دمج شعوب العالم في بوتقة واحدة وشعب واحد بمقاييس محددة متساوية، فكرة خاطئة غير مجدية، حاول بعض المفكرين والسياسيين تحقيقها كما شاهدنا ذلك في القرن العشرين، الا انهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعا، هذا بالإضافة الى ما حصل من دمار هائل ومعاناة رهيبة للبشرية جمعاء جراء تطبيق تلك الأفكار، تمثلت في حربين عالميتين راح ضحيتها عشرات الملايين من الشباب اليافع والرجال الشجعان، إضافة الى الحروب الإقليمية والأهلية والمشاكل المحلية التي ما زالت مشتعلة في مختلف أنحاء العالم حتى هذا اليوم.

لذلك كان من الضروري ان يجتمع ممثلو حكومات العالم والمفكرين والعلماء لاختيار لغة عالمية واحدة من بين لغات العالم أو إيجاد لغة عالمية جديدة للتفاهم بين الشعوب إضافة الى تقوية اللغات المحلية

الخاصة بكل قوم وشعب وملة وقبيلة، لأن كل إنسان يحب لغته الأم ويتعصب لها، لذلك لابد من بقاء اللغات الأم الى جانب تعلم اللغة العالمية. وبهذا تتمكن جميع شعوب العالم من التفاهم والتجانس فيما بينها، وتحافظ في نفس الوقت على لغاتها الأصلية وتراثها وحضاراتها وتاريخها وفنونها، ويتمكن الجميع من اكتساب ثقافات غيرهم وزيادة كمية معارفهم وعلومهم بطريقة أسهل وأسرع.

ان هذا الاقتراح ليس بالجديد تماما، فلقد دعا إليه كثير من الفلاسفة والعلماء، وهو مطبّق بشكل متباين وعفوي في بعض أنحاء العالم، فغالبية مثقفي العالم اليوم، يتكلمون أكثر من لغة ويتفاخرون بذلك، وهذا الاكتساب اللغوي لم يولد من فراغ، بل كان دافعه ظهور الحاجة الى الاندماج بين الشعوب والاطلاع على أحوالهم وثقافاتهم والتعلم منهم والتفاهم معهم وكسب خبراتهم. فاذا اتفقت حكومات العالم على لغة عالمية واحدة وخط واحد، ازدادت أواصر التفاهم بين الناس وزادت نسبة التعاون والمحبة بينها، وقلّت احتمالات الاختلاف والتنازع بين البشر.

أفليس هذا أفضل من الشعور بالغربة والوحشة التي يشعر بها كل إنسان يطأ أرضاً غريبة لا يعرف لغة أهلها وعاداتهم؟ وأليس هذا أفضل من اقتصار ثقافات الناس على تراثهم وما توفره لهم قوميتهم؟ وكم كان

الجهل بلغة قوم سبباً في إشعال نيران الفتن والحروب والمنازعات بين الناس.

(2) توحيد المقاييس والأوزان عالمياً

غالبا ما تصادفنا كأفراد مشاكل من هذا النوع، فتارة لا نفهم وزناً ما لأنه مسجل بالأونصة ومرة لأنه مكتوب بالغرام، وآخر يقيس المسافات بالميل وغيره بالكيلومتر والعقدة والمتر أو اليادرة والقدم والإنج والسنتيمتر، ناهيك عن المقاييس القديمة مثل الفرسخ والمحطة وغيرها.

اذن، أليس من الأفضل توحيد هذه المشكلة البسيطة التي تسببت في خسارة الكثير من أموال الحكومات والتجار والأفراد، لا لسبب سوى لعدم إيجاد صيغة للتفاهم بين بشر وصلوا الى أقصى متاهات الأفلاك السماوية؟ ان تحقيق هذا الهدف يساهم كثيرا في تقارب وجهات النظر بين الناس ويزيد سبل التفاهم بينهم، ويحافظ على أموالهم ومكتسباتهم ويزيد من ترويج تجارتهم وصناعتهم.

(3) توحيد العملات النقدية عالمياً

من المؤكد ان هذا الاقتراح صعب المنال، فهو يحتاج الى دراسات اقتصادية كبيرة واجتماعات مكثفة وسنين طويلة من الاتصالات والاجتماعات والوفود وغير ذلك. لكن، كم من هدف أصعب منه حققه

الإنسان بفضل مثابرته وجهده؟ ان المواطن العادي يرى كل يوم ارتفاع وانخفاض أسعار العملة التي تؤثر على لقمة عيشه، لكن القليل منهم يعلم كم تؤدي ذبذبة العملات الى خراب بيوت وأوطان وتدمير اقتصاد دول، وكم من شركة قوية أفلست وتدهورت وخربت بيوت أصحابها وموظفيها وعمالها بسبب هذا المؤشر الرقّاص! ان هذا الاقتراح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد الدولي والوطني والمحلي، ومن المؤكد ان تنظيمه يعود بالفائدة على الجميع. وها نحن نرى بوادر إحساس بعض أمم العالم بالحاجة الى مثل هذا المقترح، وكيف اتفقوا واتخذوا الدولار أو اليورو – في الوقت الراهن – عملة عالمية لهم، وها هي الدول الأوروبية قد بدأت بهذا المشروع ووحدت عملتها، ولابد ان تحذو حذوها بقية دول العالم لما فيه خير البشرية جمعاء، خاصة الدول التي تربطها عوامل مشتركة مثل وحدة اللغة والدين والمواقع الجغرافية، ومن الواضح ان العرب أكثر الأمم حاجة لمثل هذا التوحيد.

(4) إلزامية التربية والتعليم لكل شعوب العالم

ولو ان هذا الاقتراح مطبق محليا في بعض دول العالم اليوم، الا ان العمل به عالميا يعتبر أسّ أساس تنظيم شعوب العالم والأخذ بيدها، ولابد من الاهتمام به دوليا ووضع القوانين المحلية الملزمة للآباء والأمهات بتعليم أولادهم، فإذا لم يستطيعا تربية وتعليم أولادهما، فمن واجب الحكومات تنفيذه حتى ولو استخدمت القوة في ذلك. ان ثمرة هذا

المشروع ستشمل فائدته جميع الشعوب، وفي خلال بضع سنوات ستحصل طفرة ثقافية في أجيال العالم برمتها ويعم الخير جميع البشر دون استثناء.

(5) الاهتمام بتربية وتعليم المرأة

ان هذا المطلب من المطالب المهمة في الوقت الحاضر، فليس هناك عاقل ينكر دور المرأة في تربية الأجيال، فهي الأم وهي المدرسة الأولى للطفل وهي نصف المجتمع، وكما قال الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وطالما انها كذلك، فلابد ان تكون واعية متعلمة مثقفة لتتمكن من تخريج أجيال متعلمة. ان العائلة التي تتكون من أب متعلم وأم جاهلة، معرضة للإصابة بالخلل بلا شك، فالأب غالبا ما يكون مهتما بعمله ومبتعدا عن بيته وأطفاله طوال يومه تاركا تربية أبنائه الى الأم، فهي المدرسة الأولى التي يدخلها الطفل، فإن كانت جاهلة لا تقرأ ولا تكتب، فمن المؤكد ان أساس الأطفال سيكون ضعيفا ركيكا مهتزا، وعندها سيتأثر المجتمع بأكمله بهذه النتيجة السيئة.

قد يعترض أحدهم بالقول ان مجتمعاتنا القديمة كانت ناجحة رغم وجود الأم غير المتعلمة وغير المثقفة. وهذا أمر ينطوي على شيء من

الحقيقة، لكننا لم نجرب لحد الآن شعباً كامل التثقيف بكل رجاله ونساءه، فان تم هذا الهدف، عندها سوف نرى الفرق بين النجاحين، نجاح الماضي ونجاح المستقبل، كما ان مقتضيات التطور تجبرنا على تحديث حياتنا ومواكبة تطور بقية الشعوب وتفعيل النصف الآخر العزيز على قلوب الجميع.

أما الإدعاء أن تعليم المرأة سوف يفسدها، فهذا قول ثبت بطلانه، لأن قوة الإنسان في عقله، فإذا تعلمت المرأة وتثقفت، تحصنت وتمكنت من حماية نفسها. كما أنه اتهام للرجل قبل المرأة، وبمعنى آخر إنه يقول، ان إرادة الرجل أضعف من إرادة المرأة، لأنه وبمجرد ان يراها تقف بجانبه خارجة من عزلتها البيتية، تضعف حصانته ويستهوي السقوط في الرذيلة. كما أنه حكم مسبق على حدث لم يثبت بعد، واتهام للرجل بالضعف واتهام للمرأة بالإغواء.

من هذا يمكن الخروج برأي آخر، وهو ان التربية هي المسؤول الأول عن هذا الوضع، فمتى تحسنت تربية المجتمع وتم تثقيفه، اختفت كل هذه السلبيات. ثم ان المرأة تشكل نصف تعداد مجتمعات العالم، ولقد بقي دورها مهمشاً مهملاً على مر التاريخ، فإلى متى يبقى طائر البشرية يطير متذبذباً بجناح واحد فقط، بينما يبقى الجناح الثاني– المرأة – ضعيفاً لا يقوى على مد يد المساعدة ليصحح طيران الإنسانية. ان المرأة هي الأم والأخت والبنت والزوجة والعمة والخالة وغيرهن،

فلماذا يبقين متخلفات جاهلات وهن يحطن بالرجل من كل ناحية؟ ألا يؤثر هذا على عقليته وقوة فاعليته عندما تحيط به كل هذه المؤثرات السلبية؟ أليس من الأفضل بناء شخصية الإنسان منذ طفولته بشكل صحيح وتربية سليمة تحت إشراف أفضل معلم له؟

هناك من يقول ان المرأة مخلوق ناقص العقل، بل وهناك من يتجاوز ويقول إنهن بدون روح. ان الله خلق البشر من ذكر وأنثى **(وخلقناكم أزواجا)** فلماذا هذه التفرقة العنصرية بين أعز خلق الله. لقد شاهدنا دور الرجل في تاريخ الإنسانية وكيف ملأه بالدماء والحروب والقتال والدمار والخراب، وكانت المرأة أولى ضحاياه، فمنهن الأرملة واليتيمة والثكلى والأسيرة والمسبية والعبدة والجاهلة والفقيرة والجائعة والعارية والمسكينة والذليلة والأمية وغيرها.. فلماذا لا نعطيهن دورهن الآن ليتخلصن من هذا المصير المفروض البائس؟ من المؤكد إنهن سيغيرن وجه التاريخ بشكل أفضل إذا تبوأن مكانتهن بشكل صحيح داخل المجتمع، فهن مخلوقات رقيقات ضعيفات لا يملن الى العنف ولا يقوين على القتال، ويصعب عليهن خراب الديار ويمقتن رؤية الجراح والدماء، ويعلم الجميع دورهن التاريخي في تضميد الجراح وتسلية المرضى والاعتناء بهم، وهن خير من عمل في مجالات التعليم والتمريض والتدريس والتطبيب والتربية، بل وَفُقْنَ زملائهن في كثير من

العلوم والفنون، فمنهن العالمات والشاعرات والمؤلفات والكاتبات، وأكثر من ذلك رأيناهن سياسيات بارزات في أعلى مراكز السلطة.

لو افترضنا ان المرأة أخذت دورها الحقيقي بشكل كامل منذ قرون وتساوت مع الرجل في كل الواجبات والحقوق! أفلا يمكن ان يكون العالم اليوم أفضل حالا مما هو عليه؟ ألا تكون الإنسانية أكثر تقدما؟ من المؤكد ان تعاضد قوتين للبناء وسلوك طريق الصلاح والفلاح، أفضل من قوة واحدة.

ان البنت المتعلمة المتربية، خير من ألف بنت جاهلة، كما هو الحال عند الذكور **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)**[1] وما يحصل اليوم من عدم الثقة بين البنت وولي أمرها في المجتمعات المتخلفة، يعود في أساسه الى نوعية مجتمعاتنا وما يسودها من أفكار رجولية عقيمة، وليس في ضعف عقلية البنت. اذن فتعليم المرأة أمر ضروري لابد منه، بل هو أولى وأفرض من تعليم الولد. فلو افترضنا ان عائلة تملك ولداً واحداً وبنتاً واحدة، وليس بإمكانها الصرف على تعليم الاثنين معاً في وقت واحد، وكان بمقدورها تعليم أحدهما فقط، فمن الأفضل للعائلة والمجتمع تعليم البنت دون الولد، وذلك لدورها الرئيسي والأساسي في بناء الأجيال التالية، فهي أول مدرسة يدخلها الرجل.

(6) تأسيس حكومة عالمية

بعدما رأينا أنواع وأشكال الحكومات في كل بلدان العالم من ديمقراطية ودكتاتورية ووطنية وثيوقراطية وغيرها، وشاهدنا ممارساتها غير المسؤولة وظلمها في كثير من الأحيان وعجزها عن توفير متطلبات غالبية الشعوب، اصبح من الضروري التفكير بإنشاء حكومة عالمية تمتلك سلطات قوية أعلى من سلطات الحكومات الوطنية، لتراقب تصرفاتها وطرق تنفيذها لقوانينها المحلية، وتفرض سيطرتها وقانونها عليها وتحد من تسلطها وممارساتها على مواطنيها إذا ما انحرفت عن مسارها السليم. لذلك فان الاقتراح بإنشاء حكومة عالمية تمثل جميع شعوب الأرض، وتتمثل قوتها التنفيذية بجيش عالمي موحد، يعتبر مرحلة ضرورية ملحة لما سيصل إليه العالم من تطور وتقدم بعد أن صغر حجمه حتى أصبح مثل قرية. ان انتخاب أعضاء هذه الحكومة العالمية من بين شخصيات معروفة بالحكمة والعلم ومشهود لها بالثقافة السليمة العالية وانتخابها عالمياً من بين جميع شعوب الأرض دون استثناء بطريقة يتفق عليها جميع الحكماء والمفكرين، أمر ضروري يساعد كثيرا في نشر السعادة والحرية في مختلف أقطار العالم وينشر الطمأنينة والسلام بين الناس.

(7) إنشاء محكمة عدل دولية

من الحاجات الملحة للإنسانية ولحكوماتها في هذا اليوم، إنشاء محكمة عدل دولية قوية ذات سلطات تنفيذية تحكم بين منازعات واختلافات دول العالم وتلزمها بتنفيذ قراراتها، فمثل هذا المشروع المفيد يساهم كثيرا في توطيد أواصر العدل والسلام بين الشعوب. ورغم ان هذه المحكمة موجودة الآن بشكل مبسط، الا انها ما زالت بعيدة عن أداء دورها المطلوب بشكل صحيح، إذ تنقصها القوة التنفيذية والحكومة العالمية. ان إنشاء مثل هذه المحكمة يجب ان يكون باتفاق ومشاركة جميع حكومات دول العالم دون استثناء، فإن ادعت حكومة ما، عدم حاجتها لمثل هذه المحكمة، أو امتنعت عن الاشتراك في تأسيسها، فيجب إقناعها أو إلزامها بالمشاركة من خلال تنفيذ بعض أنواع العقوبات الاقتصادية أو الثقافية عليها، وإلا فعلى بقية دول العالم بتمامها السعي لإقناعها على الاشتراك بكل الطرق السلمية، حتى لا يتاح لها مجال الجنوح بعيدا عن مصالح مجتمعات العالم التي تشابكت اليوم وستستمر في التشابك بشكل مطرد حتى يصبح العالم وطنا واحداً. كما ان قرارات هذه المحكمة الدولية يجب ان تكون ملزمة لجميع دول العالم بدون استثناء، كبيرها وصغيرها قويها وضعيفها غنيها وفقيرها، فلا تجرؤ حكومة أو دولة أو عدة دول الاعتداء على غيرها خوفا من قرارات هذه المحكمة القابلة للتنفيذ الفوري من قبل جيشها العالمي الذي يأتمر بأمرها. وبهذه القوة الدولية يمكن لجميع دول العالم العيش بأمان

تحت ظل القانون الدولي، وتأمن حقها من الاعتداء والاغتصاب، ويكون حكمها ملزماً لكل دول العالم.

ان وجود محكمة عدل دولية قوية متمكنة، سيساعد كثيراً في بسط مبادئ العدل والاطمئنان ليس فقط بين الحكومات، بل حتى بين أفراد الشعوب، ويشعر جميع البشر ان حقوقهم مصانة، وان هناك من يلجأون إليه، حتى وان مس الظلم مواطناً واحداً في بلد ما، وسيخلق بين البشرية الأمل في تحقيق السلام العالمي، وسوف لا يجد الأشرار، ان كانوا مواطنين أو مسؤولين، مكانة لهم بين الشعوب إلا بتغيير طباعهم وسلوكهم، وبالتالي يزداد تمسك شعوب الأرض بهذه المحكمة وقوتها، مما يلزم الحكومات المحلية سلوك المسلك السليم في التعامل مع مواطنيهم.

فهل ستتمكن البشرية من النضوج بما فيه الكفاية للدخول في زمن العدل هذا؟ بالطبع.. نعم. والدليل هو الزيادة المطردة في نسبة ذكاء الناس وثقافاتهم وبوادر المطالبة العالمية بحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية ونبذ الحروب والقتال والإرهاب.

(8) تأسيس جيش عالمي موحد

يرتبط تنفيذ الفكرة السابقة (تأسيس محكمة عدل دولية) ارتباطاً وثيقاً بفكرة إنشاء قوة تنفيذية عالمية (جيش عالمي)، ومن الضروري اشتراك

جميع دول العالم في تأسيسه وتمويله، كل حسب نسبة عدد سكانها، ولابد أن يكون انتشار قواعد هذا الجيش في كل أنحاء العالم، ليتمكن من الوصول بسرعة ويسر الى مواقع الاختلاف والتمرد والعصيان، وتكون قوته أقوى من قوة أكبر جيش لأية دولة في العالم، بل على دول العالم الاتفاق على تخفيض عدد قواتها العسكرية بعد تأسيس هذا الجيش العالمي، ويتم الإنفاق عليه من قبل جميع دول العالم بنسب تتساوى مع مقدار ميزانيتها ومدخولاتها، بل على دول العالم التنافس لتقوية وإسناد هذا الجيش العالمي، لأن أمنهم وقوتهم مرتبط بوجوده وقوته.

ان هذا الاقتراح لا يتم ولا ينفذ الا إذا أدركت جميع دول العالم شعوبا وحكومات حاجتها لمثل هذا المفهوم المؤثر في تحقيق وحماية السلام العالمي، حتى يشارك الجميع برغبة ذاتية في تشكيله للمحافظة على القانون الدولي العام. ان الأوضاع العالمية والمشاكل الدولية في المستقبل ستزداد وتتفاقم وستجبر أقوى دول العالم يوما بعد يوم الى سلوك سبيل التعاون والتفاهم والعمل الجماعي، ولابد من مجيء ذلك اليوم الذي ستدرك فيه حكومات العالم عجزها عن الوقوف في وجه كل شعوب الأرض وحكوماتهم واتباع سياسة التفوق أو الانعزال عن بقية دول العالم والعيش بعيدا عن الاتصال والتعاون العالمي. هذا بالإضافة الى ضغط ورغبة شعوب تلك الحكومات القوي للانضواء تحت لواء

النظام العالمي، وعندما تتحد غالبية حكومات العالم وشعوبها على تنفيذ هذا المشروع، لا يبقى أمام الممتنع أو المتردد منها سوى الإذعان للمشاركة أسوة بغيرها، لتنامي المفاهيم الإنسانية في جميع أنحاء العالم. لذلك لابد وان يأتي اليوم الذي يكون فيه تأثير الرأي العام العالمي على الحكومات وخصوصا النساء بغاية القوة والمتانة إذا ما تذكرنا دورهن الفاعل داخل الأسر والبيوت، بحيث ترضخ جميع الحكومات للقبول بالمشاريع العالمية، وإلا فإنها ستواجه خطر السقوط والاندثار، وهذا أبعد أهداف السياسيين الذين يحاولون إرضاء شعوبهم بكل الوسائل التي تضمن بقاءهم في السلطة.

اذن، من الضروري التفكير في إنشاء جيش عالمي موحد تشترك فيه جميع شعوب الأرض وجيوشها بنسب معقولة يحددها المتخصصون في هذا المجال، فلا ينحاز الى دولة معينة، ويخضع مباشرة لسلطة الحكومة العالمية ويأتمر بأمرها، ويكون أقوى من كل جيوش دول العالم مجتمعة، ويدرك منتسبوه من ضباط ومراتب وأفراد، انهم بانتمائهم إليه يناصرون ويذودون عن جميع البشر دون تمييز، وان هدفهم الأساس هو السلام العالمي، وانهم لا يخضعون لأوامر حكومات دولهم الوطنية أو المحلية مهما كانت قوية أو متسلطة، بل يأتمرون بأوامر الحكومة العالمية. فإن تشكَّل مثل هذا الجيش وتسلَّح بالعقيدة العالمية ووضع

مبدأ الحفاظ على السلام العالمي نصب عينيه، عندها لن تتجرأ دولة ما بالاعتداء على دولة أخرى خوفا من قوة هذا الجيش العالمي العظيم.

(9) إنشاء مؤسسة أمنية عالمية (شرطة عالمية)

عندما نفكر في مثل هذه القوانين والاقتراحات، يجب أن لا ننسى أننا نصوغها ونحن نسلط نظرنا على ما يجري بين الناس من مشاكل واضطرابات في هذه الأيام. ان إنشاء هذه المؤسسة يجب ان يخضع مباشرة للحكومة العالمية ويأتمر بأمرها، ويكون أفرادها ومنتسبيها مسؤولين عن الوصول الى كل مجرم يخالف القانون الوطني أو الدولي في أي مكان من العالم واعتقاله وتقديمه للعدالة الدولية ورفض أية أعذار تقدمها الدولة المستضيفة للمجرم. ان هذه الفكرة موجودة ومطبقة الآن على نطاق محدود في بعض الدول المتقدمة، لكننا نقترح تعميمها على دول العالم بأجمعها دون استثناء وبقوة وفاعلية أكثر وتحت لواء الحكومة العالمية وقوتها التنفيذية.

(10) إلزامية حكم المحاكم القضائية الأولية

من الأمور المضيّعة للوقت والمهدرة للأموال والجهود والمضرة بالصالح العام، وجود المحاكم الاستثنائية والثانوية ومحاكم الاستئناف، فوجود مثل هذه المحاكم القضائية يفتح المجال لكل الأطراف المتنازعة للجدال والنقاش والمنازعات وحتى الحروب والمعارك بين الناس، فكل

من خسر دعوى معينة، تراه يعتمد على أمل الاستئناف وتكرار رفع قضيته أمام العدالة للفوز بها، يدفعه الى ذلك سوء استعمال مواد القانون والبحث في ثغراته ومصالح وقدرات المحامين ودرجة ذكائهم ومحاباة بعض القضاة وإمكانية قلب الحقائق وتزويرها والنزعة الظالمة لدى بعض الناس والمصلحة الشخصية والاستفادة من طول الوقت وعدم الشعور بالمسؤولية الاجتماعية والكثير من الأسباب التي تشجع الفرد على مثل هذه السلوكيات. فان فاز الخصم ونجح في مسعاه، سارع غريمه الى نفس الأسلوب والهدف والتشبث بذات الأسباب والسبل، وهكذا تضيع الأموال والمجهودات والأتعاب وتزداد المشاحنات والمنازعات، مما يسبب إعاقة كثير من الأعمال وتخلف المجتمعات وإبعاد الناس عن الالتفات الى شؤونهم وأعمالهم وحاجاتهم والاحتجاب عن عملية بناء مجتمعاتهم. هذا بالإضافة الى أن فكرة الاستئناف تزيد من غرس مفاهيم ومبادئ الحقد والتحدي وحياكة المؤامرات والالتفاف على القانون وغير ذلك من الأمور.

ومن هذه المفاهيم الخاطئة الظالمة ظهر المبدأ القائل (القانون لا يحمي المغفلين) لكن الحقيقة هي ان القانون وضع أصلاً ليحمي المغفلين وبسطاء الناس الأبرياء، بينما يتمكن الخصم القوي من أخذ حقه بالقانون أو بقوة اليد أو بمختلف السبل الملتوية، أما الضعيف فليس أمامه سوى اللجوء الى الله ثم الى القانون. اذن كان لابد لهذا

القانون ان يحمي ضعاف الناس والمغفلين من المجرمين والنصابين والأشقياء، وإلا فلمن سيلتجأون إذا خذلهم القانون؟

لذلك.. فإن أدرك المدعي أو المدعى عليه ان الحكم في قضيتهما هو أولي ونهائي، وليس هناك حكم ثانوي آخر يلتجئ إليه، وان هذه هي فرصتهما الوحيدة، فسيحاولان بشتى الوسائل ومنذ البداية الاهتمام بتقديم كافة المستندات والدلائل والاثباتات على صحة دعواهما، إذ لا سبيل أمامهما غير هذه المرة، وإلا فسيضيع الحق من صاحب الحق. فإن حكم لأحدهما، أجبر الآخر على الرضى والقبول بالحكم. وقد يكون هناك بعض الأحكام الخاطئة في هذه الطريقة، فيظلم صاحب حق، لكنها ستكون نادرة وقليلة ولا تقاس نسبتها بما يتكرر من مظالم باتباع القوانين القضائية الحالية.

ان هذه الطريقة ستساعد أفراد المجتمع والمحامين والقضاة والحكومات على العودة للاهتمام بأمورهم الطبيعية الأخرى والانتهاء من تكرار المثول أمام المحاكم للاستئناف وإضاعة المجهودات، وبهذا يقل عدد القضايا المعروضة بشكل كبير ويزداد الوقت عند الحكّام والقضاة لإعطاء الوقت الكافي لبقية الأمور وقضايا المجتمع المفيدة.

(11) تغيير طريقة الانتخابات

ان ما يصاحب عمليات الانتخاب المحلية أو الوطنية في غالبية دول العالم من تزوير وخداع وغش ووعود كاذبة، يشوه ويؤثر كثيرا في تقدم الصالح العام وفكرة الديمقراطية. ولقد حان الوقت لتطوير العمليات الانتخابية الى شكل أفضل مما هي عليه لمصلحة المجتمعات، طالما ان البشرية في حالة حركة وتقدم. فما ينظمه المرشحون حاليا من حملات إعلامية وغيرها، تفسد بشكل كبير المضمون الحقيقي والغاية المرجوة من عمليات الانتخاب، وتسمح لهم باستعمال المال والدعاية والوعود البراقة وخصوصاً من هم على رأس السلطة للتأثير على المواطنين لنيل أصواتهم بمختلف الوسائل، مما يؤدي بالنتيجة الى فوز من يحسن استغلال عمليات الدعاية، مؤهلا كان أم فاشلا. هذه التصرفات الدعائية، وهذه الأموال المصروفة لكسب ثقة المواطن وصوته، ليست من الحرص على مصلحة الناس بشيء، فالكل يعلم ان المرشحين يستعملون في بعض الأحيان الكذب والخداع والوعود المثيرة أملاً بكسب أصوات الناس والوصول الى السلطة واسترجاع أضعاف ما صرفوه من أموال بشتى الوسائل، ومن يقول بغير ذلك عليه الإنصاف قليلا. لذلك لو أجريت التحسينات التالية على طريقة الانتخاب ومضمونها، لخرجنا بنتائج أفضل وتقربنا من مفهوم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. فعلى سبيل المثال:.

لابد ان تتم عمليات الانتخابات المحلية أو الوطنية بوجود ومراقبة لجان فاعلة من ممثلي الحكومة العالمية والوطنية واللجان والمنظمات الدولية، ويعتبر قرارها النهائي الفيصل في نزاهة الانتخابات ونجاحها. تهيأ قوائم واضحة بأسماء جميع الراشدين ذكوراً كانوا أم أناثاً بكميات كافية للجميع. إجراء عملية الانتخابات بشكل سريّ مطلق، لدرجة أن يجهل الزوج رأي زوجته. إلغاء عمليات تزكية الأفراد أو ترشيحهم، فجميع أفراد المجتمع الراشدين، قابلين للانتخاب. تقسم المدن حسب المناطق السكنية الى دوائر انتخابية صغيرة حتى يتمكن المواطنون من معرفة مرشحيهم المحليين وانتخابهم بسرية تامة كل حسب معرفته الشخصية. تكرر العملية السابقة بعد توسيع ساحة الدوائر الانتخابية ويتم الانتخاب مرة أخرى بين الفائزين فقط تحت إشراف لجان يختارهم أهل المنطقة بأنفسهم. يكتب كل فرد مُنتَخِب العدد المطلوب من المرشحين بأقلام وأوراق متشابهة غير مميزة وبدون تكرار الأسماء، وإلا فالتكرار يبطل رأي صاحب الورقة. يمنع اطلاع المنتخبين على آراء بعضهم البعض. تحدد فترة الانتخاب الدورية بمدة سنة أو سنتين على الأكثر. تشمل الانتخابات كل أفراد المجتمع البالغين الراشدين رجالاً كانوا أم نساء بدون استثناء. يلتزم المُنتخَب الفائز بمصلحة وراحة ورفاهية كامل المجتمع دون استثناء، وليس بشريحة معينة من الناس أو من قاموا على انتخابه أو محاباة شريحة أو طائفة دون أخرى. يدرك المنتخبون استحالة التأثير على الفائزين أو توقع بعض المكتسبات منهم

باعتبارهم قد قاموا على انتخابهم، ولا يلتزم الفائز أمام المنتخبين بأية مسؤوليات ويضع نصب عينيه المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة.

بهذه الطريقة يحتل أفراد الشعب مكانتهم الحقيقية، كل حسب ما يتمتع به من قدرات وامتيازات، ويمارسون الديمقراطية بشكل أفضل. وبذلك يوضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وتصبح السياسة في خدمة المواطن وليس العكس.

(12) تقليل كميات الأسلحة والجيوش

من الضروري التفكير والعمل بجدية تامة على تقليل وتقنين وتحديد أعداد ونوعية وكميات السلاح وعدد الفرق العسكرية لكل دولة من دول العالم كبداية للوصول الى السلام العالمي، خاصة بعدما أدرك العالم ان السلام العالمي هو مطلب الإنسانية جمعاء، وان البشرية لم تجنِ من الحروب على مر التاريخ إلا الموت والدمار والخراب، وانه من الضروري بل ومن الواجب على كل دولة وكل جيش بل وكل فرد من شعوب هذه الأرض ان يسعى ويعمل ما في وسعه للحفاظ على السلام العالمي، فطالما ان النظام والعدل والقانون هو الهدف الأساسي على الأرض، فلا حاجة بعد ذلك الى تشكيل كل هذه الجيوش الجبارة وإعداد الرجال وتعليمهم أساليب القتال والحرب وإضاعة سني أعمارهم وشبابهم

في أفعال سلبية يمكن تسخيرها لفائدة المجموع، ويوقف نشر فكرة القتال في سبيل الدفاع عن المبادئ والحرية وحدود الأوطان، طالما ان جميع شعوب الأرض تبتغي السلام والسعادة فيما بينها ولا تفكر بشن الحروب والاعتداء على غيرها من الأمم من خلال ربطها بمواثيق وأعراف دولية صارمة دقيقة تشرف على تنفيذها حكومة عالمية قوية لها جيشها العالمي وشرطتها العالمية الخاصة.

ومن الضروري إيجاد السبل الكفيلة لوقف التلاعب والتحايل من قبل بعض الحكومات الشريرة لزيادة أعداد جيوشها بالسر أو العلن لأي سبب كان، لانتفاء الحاجة لهذه الجيوش بعد تطبيق النظام العالمي الجديد، ولوجود حكومة عالمية ومحكمة دولية يلتجئ اليها كل من يشعر بالظلم والمظلومية. ومن خلال هذه السبل يفسح المجال لترسيخ المفاهيم السلمية العالمية في أذهان الأجيال القادمة لتصبح تقاليد وأعراف وسلوك وأنظمة ثابتة في حياتهم.

يلاحظ تسابق حكومات العالم لامتلاك السلاح التقليدي والنووي وإنشاء الجيوش وتدريب الرجال وتخزين العتاد، ويحاولون تبرير ذلك بشتى الوسائل والذرائع، من خلال نشر فكرة الحرب والقتال وضرورة توازن القوى، ونشر مشاعر الخوف من خطر الاعتداءات الداخلية والخارجية وتوقع هجوم الأعداء الغزاة ان كانوا حقيقيين أو وهميين وغير ذلك الكثير من المبررات الواهية، فيستغلون وسائل الإعلام

والكتب المدرسية وأناشيد الأطفال وغيرها. فإذا أنشئ جيش عالمي واحد وحافظ على أمن العالم وشعوبه، انتفت الحاجة الى نشر مثل هذه الأفكار العدائية السلبية بين أفراد المجتمع ويدرك المواطن ان شراء الأسلحة وتكديسها وتدريب الرجال وتعليمهم فنون الحرب والقتال وتخصيص الميزانيات الكبيرة لهم، ليس في مصلحته ويشكل عبئا ثقيلا على كاهله، وبذلك يتخلص من جزء كبير من الضرائب التي تزداد سنويا، ويعلم انه المتضرر الأول والوحيد من نشر أفكار الخوف والعداء وزيادة أعداد حماة السلطة ورجال الأمن والجيش، فالحكومات تصرف جلّ دخلها القومي على إنشاء الجيوش وشراء السلاح بدلا من صرفها على راحة المواطن.

ان الأموال الهائلة التي تقدر بمئات البلايين من العملات الصعبة التي تصرف على اختراع أسلحة الدمار الشامل وشراء السلاح وتدريب الجيوش وشراء مستلزماتهم في جميع أنحاء العالم، يمكن بقليل من التعقل والاتزان صرفها على راحة ورخاء وخدمة شعوب الأرض بأجمعها، وبالعمل الجاد والهمة السليمة يمكن تغيير وجه الأرض بأكمله وتحويله الى جنة رائعة، إذا تغيّر اتجاه تفكير الإنسان وصرف اهتمامه نحو نشر العلم والثقافة والعناية بالصحة والخدمات والسلام وسبل الاهتمام به. وما كل هذه المصروفات الهائلة من قوت الشعوب، الا بسبب ترسخ فكرة وجود الشر في الأرض، فإن تغيّر هذا المفهوم

الساذج وأدرك الجميع ان الشر هو وهم وخيال لا وجود له الا في عقول بعض الناس حسب ما أثبتناه سابقاً، استطاعت البشرية التوجه نحو السلام العالمي بخطى أكثر وثوقاً.

وفي المقابل ستتجه الدول المنتجة للسلاح ومستلزماته الى صرف طاقاتها وإمكانيتها للإنتاج السلمي وما يسبب راحة الإنسان ورخائه، وتبعد أفكار الحروب والدمار والقتال والتعصب عن عقول العمال والمستخدمين والموظفين وتجنبهم المشاركة في جريمة قتل الإنسان لأخيه الإنسان وإنتاج وسائل وأسلحة الدمار والخراب.

(13) خضوع الحكومات الوطنية للمحاسبة الدولية

من الضروري وضع رقابة صارمة على مصروفات الحكومات المحلية والوطنية وأفرادها ومنتسبيها، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب كل حسب جهده وعمله وشهادته ودوره في خدمة المجتمع، والكف عن استعمال شريعة "وهب ما لا يملك لمن لا يستحق". فما نراه من توزيع ظالم غير عادل لثروات الشعوب من سيارات وأموال وقصور وأراض للمتملقين وقليلي الذمم وعوائل أقرباء السلطة وحراسهم، هو من قبيل تبذير ثروات الشعوب. فكم من عائلة تطلب الخبز الحاف لأولادها ولا تجده، وغيرها ينعم بخيرات ليس لها نهاية ويبذرها كيفما يشاء بدون وجه حق. ان الله قد أنعم على بعض الشعوب بثروات كبيرة لا حد لها،

لكن المتسلطين أو القائمين عليها يبذرونها ليس فقط على مصالحهم الشخصية، بل على اختراع السبل الشيطانية لإهلاك شعوبهم وشعوب جيرانهم. لذلك كان من الضروري وضع قانون دولي عام تتبناه حكومة عالمية واحدة بمساندة حكومات العالم، لمحاسبة الحكومات المحلية والوطنية على مصروفاتها، وضرورة عدم التبذير باعتبار ان الإنسانية جمعاء هي أسرة عالمية واحدة، يتأثر بعضها ببعض بعد ان أصبحت مصالح الشعوب متشابكة ومؤثرة ومتأثرة، فيخصص للدولة ما تحتاجه من مصاريف لتمشية أمورها الداخلية حسب ميزانية مدروسة، ويقدم الباقي الى الحكومة العالمية لصرفه على بقية شعوب الأرض المحتاجة.

(14) تقليص أحجام السفارات والقنصليات في دول العالم

تعتبر السفارات والقنصليات من سبل الاتصال المهمة بين حكومات العالم، وتلعب دورا هاما في تحسين العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها من العلاقات الإنسانية بين الدول. إلا ان مصاريفها باتت تزداد كل يوم بشكل كبير مما شكلت عبئاً ثقيلا على بعض الحكومات الفقيرة بشكل واضح، هذا بالإضافة الى ان أعداد موظفي ودبلوماسيي السفارات ورجال مخابراتها راح يزداد كل يوم بشكل مطرد مما زاد الأعباء المالية على الحكومات وبالتالي على المواطن، فدفع ببعض الدول الى تقليص تمثيلها الخارجي الى قناصل فخرية يقوم

بتصريف شؤونها موظف أو أكثر في مكتب مناسب أو سفارة غير سفارتها. وما هذا الإجراء الا تجنباً لكثرة المصاريف وتدارك العجز المالي المتفاقم، خاصة وان الجميع يدرك ضخامة رواتب موظفيها وجسامة كميات مخصصاتهم إذا ما قيست بكميات انتاجهم.

لذلك كان من الممكن إقامة بناية كبيرة أو إنشاء مؤسسة ضخمة واحدة في كل دولة من دول العالم، لتضم جميع موظفي وقناصل وسفراء دول العالم الأجانب داخلها، مثلما هو الحال في هيكل الأمم المتحدة الحالي. كما ويمكن تخصيص مجمع سكني حكومي واحد لجميع الدبلوماسيين الأجانب، وبذلك تسهل مهمة الاتصالات بينهم وتزداد أواصر الصداقة والمحبة بين الشعوب وتقل أعداد الدبلوماسيين وبالتالي كمية الضرائب على أفراد المجتمع. كما ان هذا الإجراء سيقلل من كمية العرض والطلب على المساكن والأبنية داخل بلدان إقامتهم مما يساعد على تخفيض أسعار الأبنية والأراضي والإيجار على المواطن، خاصة وان الدبلوماسيين يقيمون في أفضل الأبنية والمساكن دون خوف من ارتفاع أسعار إيجاراتها.

أما إذا ارتقت أفكار الناس وحكوماتها وتحسنت نواياهم واستعانوا بأجهزة الاتصال الحديثة مثل الانترنيت وغير ذلك مما سيظهر مستقبلا من سبل الاتصال الجيدة السريعة، فلن يكون هناك حاجة حتى الى التمثيل الدبلوماسي وسفر وإقامة الموظفين في بلدان غير بلدانهم،

وستجري الاتصالات والاتفاقيات وسبل التفاهم والكل مقيم في وطنه وفي بلده. وبذلك يقل أو يختفي تماما جانب مهم من جوانب المصاريف الحكومية.

(15) حرية السفر والتنقل لكل مواطني العالم

هذا مطلب انساني بحت، فمن الضروري تسهيل قوانين الإقامة وتأشيرات الدخول والتجديد والخروج ومنح أوراق ووثائق وجوازات السفر لجميع المواطنين دون استثناء، وتقليل رسومها لجعلها بالحدود المعقولة بمختلف الوسائل الممكنة، وفسح المجال لكل فرد من شعوب العالم للسفر الى المكان الذي يرغب الاستقرار فيه بالطرق القانونية، وبهذا لن يبقى سبب للجوء وهجرة وتهجير وتشريد الملايين من البشر، فالأرض ملك الإنسانية، وما هذه الحدود السياسية الا حدود وضعها الإنسان منذ زمن ليس ببعيد، ولقد حان الوقت لإزالتها وفتح الطريق لكل البشر للتنقل في ارض الله أينما شاءوا دون قيد أو شرط، فلقد ظلمت وسحقت ودفنت ملايين العوائل في مختلف القارات لا لسبب سوى لأنهم خلقوا في أوطان تحكمها زمر ظالمة، فلم يتمكنوا من اجتياز حدود دولهم، أو فشلوا في دخول حدود دولة أخرى. فبعض الدول تفرض رسوما باهضة لدخول أراضيها أو الخروج منها، وذلك لزيادة وارداتها أو للمساهمة في حجز وحجر المواطنين والسيطرة عليهم والاحتفاظ بهم كرهائن داخل حدود أسوار وطنهم. فان خصصت للدولة واردات دولية حسب حاجتها

التي تقدمها في تقارير ميزانيتها السنوية للحكومة العالمية، ستجد نفسها مضطرة لتخفيض غالبية الضرائب والرسوم المفروضة على مواطنيها اجتناباً لمحاسبة الحكومة الدولية لها.

ان طبقت هذه الاقتراحات بمجملها بشكل صحيح وتحت اشراف خبراء عالميين، سوف لن يجد المرء مكانا أوسع ولا أجمل ولا أكثر حرية من بلده ووطنه وقريته، ولن يفكر بترك مسقط رأسه للاستقرار في أي مكان غريب عنه، وستختفي مظاهر نزوح الأفراد والهجرة من الأرياف الى المدن، ويحصل التوازن بين الريف والمدينة، وبذلك يحصل استقرار اجتماعي واقتصادي كبير في كثير من بلدان العالم، وستختفي أزمات السكن والماء والكهرباء والازدحام والنقل والبطالة وغلاء المعيشة وتقل نسبة الجنح والجرائم وتقل مصروفات الأمن وغيرها من المشاكل الاجتماعية العويصة.

(16) السلام العالمي

ان هذا المطلب هو من الأهمية القصوى بحيث تؤلف له الكتب والدراسات ويفرض تدريسه في المدارس والجامعات حتى يترسخ مفهومه في أذهان جميع الأجيال وفي نفوسهم من مختلف الشعوب ويصبح جزءاً من كيان المجتمعات وضرورة حياتية لا غنى عنها، ويدرك الجميع ان الإنسان خلق للحب والسلام، لا للحرب والاعتداء، وتنتهي

فكرة الحروب والقتال ويسود السلام على الأرض. وبهذا يتبوء كراسي السلطة، قادة جدد بأفكار جديدة ويتبنوا مفاهيم السلام ومبادئه العالمية بضمائرهم وأفكارهم وسواعدهم ويذودون عنها بكل غال وثمين، يساعدهم في ذلك كل فرد من شعوب العالم.

ان إحدى الغايات الحقيقية من تأليف هذا الكتاب، هو هذا المبدأ السامي المهم (استقرار السلام العالمي بين البشر)، فبنشر هذه الفكرة وترسيخها في عقول ومفاهيم الأجيال، تختفي كثير من مفاهيم التعصبات الوطنية والدينية والسياسية ويدرك الإنسان تفاهة وعدم جدوى الحروب والمنازعات المنتشرة في كل أنحاء العالم اليوم، وعندها ستختفي صور الظلم والمآسي والاعتداءات والقتال، وتنبذ الى الأبد كل أشكال النزاع الطائفي والحزبي والوطني أو اللجوء الى حل المشاكل الوطنية بالسلاح والجهاد، كما ستختفي صور المجاعات والمعدمين من كتاب العالم وصوره.

(17) تقاسم الموارد الطبيعية بين بني البشر

يبدو لأول وهلة ان هذا الاقتراح من أكثر الاقتراحات مسّاً بحقوق المواطن الشخصية والوطنية، وإجحافا لحقه في موارد بلده الطبيعية، وانه يسلب مواطني البلدان الغنية حقاً من حقوقهم الوطنية وأموالهم وخيراتهم الطبيعية التي اختصت بهم وبأوطانهم فقط.

لكنه الحقيقة غير ذلك على الإطلاق. فكل ما سبق طرحه من اقتراحات، كان القارئ يرى فيها مصلحته الشخصية والوطنية بشكل واضح ومباشر، لكنه مع هذا الاقتراح سوف يقف متردداً ويبدأ بالتفكير والتساؤل: كيف يكون هذا، وما هي الغاية منه، وكيف يمكن تنفيذه، ومن يرتضي سلب خيرات بلده ليعطيها بمحض إرادته الى إنسان آخر؟

ان الغاية الحقيقية من هذه الاقتراحات، هي مصلحة الإنسان أي إنسان في أي شعب وأي أرض، دون الالتفات الى قوميته أو عقيدته أو جنسيته، فالكرة الأرضية ملك الإنسانية جمعاء ولا فرق بين سكانها من مختلف الأجناس، وهي حديقة واسعة والبشر أزهارها وأورادها، فليس هناك تحيز أو محاباة أو بغض نحو شعب دون غيره أو ملة أو فئة دون سواها، وبما ان الهدف من كل هذه الاقتراحات هو مصلحة الإنسان الصرفة المنزهة عن كل غرض أينما كان. اذن كان لابد من التمهل وإعطاء الفرصة لشرح هذا الاقتراح. ورب قائل يقول، صحيح ان فكرة المساعدة والتعاون مطلوبة بين جميع البشر، وان كل ما اقترح مقبول مع بعض التحفظ، الا ان هذا الاقتراح مرفوض جملة وتفصيلا، هذا بالإضافة الى ان بعض الدول الغنية قائمة بالفعل على مساعدة الدول الفقيرة في كثير من الأحيان، فما حاجة البشرية لهذا الاقتراح؟

ان فكرة توزيع الثروات بين شعوب الأرض، ليست فكرة شيوعية ولا مذهبية ولم تأتِ من مبدأ طمع شعب فقير بأموال شعب أغنى منه، كما

حدث خلال القرون الماضية من تسلط بعض الحكومات أو الشعوب على غيرها واستغلال شعبها وأرضها ومواردها. بل على العكس انها فكرة خالصة منزهة عن الرغبات السيئة بمختلف أشكالها، ودليل ذلك مجمل أفكار هذا الكتاب.

ان هذا الاقتراح هو للمدى البعيد، والغاية منه هي سعادة الناس وراحتهم وأجيالهم عموماً، وضمانا مستقبليا لجميع شعوب الأرض، فكم من شعب كان غنياً قبل الآن ثم أصبح فقيرا، وكم من شعب كان فقيرا فاغتنى مع مرور الوقت. ان الله سبحانه وتعالى خلق الأرض كلها بدون حدود، وخلقنا شعوبا وقبائل لنتعارف ونتعاون ونتساعد، وخلق نعماً وبركات تكفي جميع الناس وكل المخلوقات إذا أحسن توزيعها. والإنسان، أي إنسان لا يريد أكثر من حاجته إذا ما خضع للضوابط والقوانين وأدرك ضرورة تناسب قدراته مع مكتسباته، ولم يسمع أو يشاهد من توفي من الناس وأخذ ماله معه، اللهم الا بعض الشعوب القديمة التي كانت تعتقد باعتقادات باطلة خرافية. فإن تربّت شعوب العالم وأدركت معنى الأخوة الإنسانية ونتائجها وأيقنت بوجود خالق راع لكل شعوب الأرض وشاهدت العدالة الاجتماعية منتشرة بين الناس، والإنسان يولد ويعيش ويموت وهو مكتف ومرتاح، قلَّ تكالبها وتنافسها على جمع المادة، بعد أن تأمن قوت يومها وتضمن رزق غدها. وفكرة هذا الكتاب بأكملها، تهدف الى سعادة بني البشر عموما، فالصفات

الإنسانية، كالمحبة والأخلاق والرحمة والعطف والإنسانية وحب الخير للجميع وتفضيل الغير على النفس أو على الأقل (حبّ لأخيك ما تحب لنفسك) هي صفات ضرورية لتنفيذ هذه الاقتراحات وترجمتها على أرض الواقع، وذلك لخلق عالم يسوده الرخاء والسعادة والإنصاف، وبهذه الصفات فقط يختلف عالم الإنسان عن عالم الحيوان.

هناك من يقول ان هذه الاقتراحات صعبة التنفيذ، والنفس الأمارة بالسوء تمنع تطبيقها، ولابد ان تقف حجر عثرة في سبيل تطبيقها. لكنا نعود ونقول أن هذه الفكرة قد سبق تفنيدها في أول فصول الكتاب، فمن خلال التربية والتعليم تتغير النفوس وتتبدل الأخلاق ويمسي الإنسان ملاكاً يمشي على الأرض وبالتالي يتغير وجه العالم.

ان هذه الفكرة، لا تقول بتقاسم ثروات الشعوب بينها وبين غيرها بالتساوي، فهذا منطق غير معقول وغير قانوني ولا عادل، إذ لابد من وجود اختلافات وفروق في مستويات أفراد المجتمع الواحد، فهناك الغني والفقير والذكي والبليد والنشط والخامل وغير ذلك من الفروقات الكثيرة بين بني الإنسان مما لا يمكن تشابه شخصان على سطح الأرض، فما بالك بالتباينات الموجودة بين المجتمعات.

من المؤكد ان التباين الشاسع بين ثروات الناس، وبين ثروات الشعوب، ليس من الأهداف الإلهية، فالله هو العادل وهو المنصف

والرحيم والعاقل، ولابد ان تكون له حكمة عظيمة لم ندركها بتوفيرها لشعب من الشعوب دون سواها، بينما تنوء شعوب أخرى تحت أثقال الفقر والفاقة. اذن كان لابد من إيجاد قانون جديد يتناسب مع الحكمة الإلهية ليقلل من هذه الفروقات والتباينات بين الشعوب ولا يساوي بينها، بعد ان وصلت البشرية الى هذا المستوى الرفيع من التقدم العلمي، لتتعاون وتتعاضد وتتخلص نهائياً من الديون والفقر والعوز والحاجة والجوع والمرض والهلاك، فهذا من أكبر المظالم الواقعة على بني البشر ولابد لكل المجتمعات من التعاون على إزالة مظاهرها الظالمة.

ان فكرة تقسيم بعض الثروات بين البشر، تحتاج الى طريقة مثلى وحكيمة وقلوب تملؤها الرحمة والإنصاف والثقة بمصير الإنسانية لتطبيقها، ليتمكن الجميع من العيش براحة ولو جزئية، فليس من العدل ان ينام إنسان بدون فراش ولا غطاء ويفترش الأرض وبطنه خاوية وأولاده يتضورون جوعا، بينما ينام آخر وهو يعاني من التخمة ولديه من الأموال المكنوزة التي لا يعرف كيف يبددها.

لقد اتفق المفكرون وعلماء الاجتماع في هذا العصر على ان الغنى الفاحش والفقر المدقع رذيلتان اجتماعيتان لابد من تقليل الهوة بينهما، ولا تنهض أمة حديثة وفيها هاتان العورتان. فإذا وضع قانون محكم متين للضرائب على فائض الأموال، أي على ما يجنى من أرباح سنوية فائضة، وتستغل هذه الأموال في تحسين مستوى الفقراء، فيكون حداً

أدنى لمستوى معيشتهم، ويكون للأغنياء سقفا محددا لمستوى ثرواتهم، بحيث يجد الفقير بيتا مناسبا يأويه وطعاما يكفيه ودواء رخيصا يشفيه ومدرسة مجانية تعلمه وعملا مناسبا يعتاش منه، أمكن في هذه الحالة تحسين الوضع الاقتصادي العالم للبشرية، فلا يفترش الفقير تراب الأرض ويتوسد حذائه، ولا ينام الغني في قصر فخم وبقية قصوره خاوية.

(18) حل المشكلة الاقتصادية العالمية

لترتيب ضمان نوع من العدالة الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية بين بني البشر يجب الابتداء بتنظيم أمور طبقة الفلاحين قبل غيرها لأنها أولى طبقات المجتمع. فلا تعتبر المشاكل الاقتصادية الوطنية والعالمية محلولة تماما إلا إذا عولجت مشكلة الزارع والفلاح أولا.

والفلاح في الحقيقة هو أول عامل في الهيئة الاجتماعية، ويزيد عدد الفلاحين على عدد أي طبقة من طبقات المجتمع في غالبية دول العالم وخصوصا في العالم الثالث، ولهذا فمن اللياقة والإنصاف والعدل، البدء بحل مشكلة هذه الطبقة الكثيرة العدد المجهولة القيمة والقدر، لأن سر حل المشاكل الاقتصادية في العالم يكمن في حل مشكلة الفلاحين وترتيب أوضاعهم وحياتهم.

وعلى هذا الأساس يقترح تأسيس لجنة محلية في كل قرية من القرى، ينتخب أعضاؤها من بين أفرادها المعروفين برجاحة العقل وحسن التدبير، فتوضع شؤون القرية تحت إدارتهم، ويؤسس لها مخزن عمومي، ويعين لها محاسبين وإداريين. فاذا جاء وقت الحصاد جبيت الضرائب والواردات لذلك المخزن بمعرفة اللجنة وإدارتها، بنسبة معينة محددة معقولة عادلة يتفق عليها علماء الاقتصاد، تؤخذ من جميع محاصيل أصحاب الأراضي التابعين للقرية كل حسب قدرته وحاجته، هذا بالإضافة الى وجود واردات أخرى عديدة للقرية، مثل: ضريبة الحيوانات والمال الذي لا وارث له والثروات الأرضية والتبرعات. ولقد أيّد بعض علماء الاجتماع والاقتصاد هذا الرأي، بقولهم:

[تحاول الحكومات الحديثة ان تكثر بين رعاياها نسبة المرفهين الذين يقفون وسطاً بين الفقر المدقع والغنى الفاحش. والأمة الراقية يقاس رقيّها اليوم بنسبة ما فيها من هؤلاء المرفهين المتوسطين. ان الحكومات الحديثة تفرض الضرائب المتصاعدة على الأغنياء. وقد ينده ش القارئ حين يرى النسبة الهائلة التي تفرضها بعض الأمم الحديثة على مكاسب الأغنياء وعلى مواريثهم وأرباحهم المفرطة، تأخذ الحكومات هذه الضرائب لتنفقها على الطبقة الفقيرة، ترفع من مستواها وتشبع حاجاتها وتسد عنها منافذ الكفر والزندقة. ان أهم وظيفة من

وظائف الحكومة الحديثة هي رفع مستوى الطبقة الفقيرة. فهي تأخذ فضول أموال الأغنياء لتنفقها على الفقراء][2].

وفي مقابل هذه الواردات والضرائب، هناك مصاريف تتكفل بها إدارة القرية لرفع شأنها الاجتماعي والاقتصادي، لذلك يجب تخصيص مبالغ من واردات المخزن لانفاقها على تربية الأيتام وإعانة العجزة والمقعدين وادارة المعارف وتحسين الصحة ومدارس القرية والخدمات العامة، واكمال المعيشة الضرورية لفقراء القرية، وأداء العشر ورسوم الحيوانات للحكومة. ويرسل ما يتبقى في صندوق المخزن التابع للقرية الى الخزينة العامة في المحافظة. أما إذا عجزت القرية عن تلبية احتياجاتها الضرورية، فعلى صندوق المدينة أو المحافظة المسؤولة عن شؤونها تسديد النقص المطلوب.

هذه الطريقة تشمل تنظيم حياة الفلاح في جميع قرى الدولة، فالقرى تقدم لمركز المحافظة التابعة لها ما يتوجب عليها من حقوق وأموال فائضة عن حاجتها، واذا عجزت عن الوفاء باحتياجاتها الضرورية لظروف قاهرة خارجة عن قدراتها مثل الفيضانات أو الحرائق، فلابد للمدينة أو المحافظة مساعدتها في تسديد النقص. وبدورها، فالمحافظة أو (المدينة) تجمع ما يصلها من جميع القرى التابعة لها بالإضافة الى وافر إنتاجها الزراعي والصناعي والتجاري، فتقدم الى القرى التابعة لها ما تحتاجه للصرف على مشاريعها الداخلية المحلية حسب ميزانية

مدروسة، ثم ترسل الفائض الى العاصمة. وبهذا يمكن وقف نزوح القرويين الى المدن، بعد حصول التناسب الطوبوغرافي في الدولة، وتجد هذه المشكلة العويصة (نزوح سكان الأرياف الى المدن) التي حيرت الحكومات خلال هذا القرن حلاً لها بعد ان أعيت الكثير منها.

أما الحكومة المركزية، فتكون مسؤوليتها النظر في حاجات الشعب والمحافظات عموماً، فتنشئ المطارات والموانئ وتشق الطرق وتعبدها وتبني المساكن والمدارس والمستشفيات ودور العجزة والأيتام وتنشئ المصانع والمعامل والشركات والمؤسسات وكل ما تحتاجه لمدد معينة حسب خطة وميزانية توافق عليها الحكومة العالمية. ومن خلال ما يرسل من فائض أموال الحكومات الوطنية في جميع أنحاء العالم الى الحكومة العالمية، تقوم الأخيرة بإنفاق ما يصلها على شعوب البلدان الفقيرة في مختلف أنحاء العالم، لتساعدهم حسب خطط عالمية مدروسة على تعمير بلدانهم وتطويرها للّحاق بركب الدول المتقدمة والنهوض بمستواها في جميع النواحي.

وهكذا يعم التقدم والخير والرخاء جميع سكان الأرض قاطبة، وتتبدل الأرض غير الأرض ويحيا الإنسان في سعادة وخير، وبذلك لن يبقى فقير لا يملك الخبز، ولا غني يحار بأمواله كيف ينفقها، ولا دول غنية جداً ولا دول فقيرة جداً. فتتقلص الفجوة بين الطبقتين وتزول مظاهر

الفقر المدقع والغنى الفاحش ليس بين أبناء المجتمع الواحد بل بين جميع شعوب الأرض.

(19) حل مشكلة العمال عالمياً

أما بالنسبة لتنظيم حياة طبقة العمال التي شغلت كثير من العلماء لقرون عديدة، فان تنظيم أمور هذه الطبقة، لا يمكن إيجاده من خلال دفع أجورهم المحددة المتفق عليها فقط، فغالباً ما تكون هذه الأجور محدودة وغير كافية لأسباب عديدة، أو لا تعد تكفي متطلباتهم المعيشية نتيجة التضخم المستمر. لذلك كان من الضروري ان يصبح العمال شركاء في واردات العمل، ان كانت خاصة بالأفراد أم بالحكومة، أي لابد أن يتقاضى العامل علاوة على أجره المعتاد ربحاً اضافياً معينا يدفع له من مجموع أرباح المعمل او المصنع او المؤسسة او الشركة التي يعمل بها كما لو كان شريكاً فيها، بنسب يتفق عليها العمال وأصحاب رأس المال بإشراف الحكومة المحلية أو الوطنية أو الحكومة العالمية، حتى لا يدخر العمال جهدا في العمل للمصلحة الجماعية والصالح العام، وتزول أسباب المنازعات وتختفي ظاهرة الإضراب الضارة بمصالح الطرفين والمجتمع. فاذا اعتمدت هذه الطريقة بشكل صحيح، سيبذل العمال قصارى جهدهم في تطوير العمل واسراعه وتحسين الإنتاج وتوفير الوقت والحرص عليه والانتباه لما قد يؤخر

الإنتاج ويسيء اليه. وسيكون حاصل كل هذا في النهاية مصلحة الأمة ككل ومصلحة ورخاء وسعادة البشرية جمعاء.

وهكذا فمن خلال ما يؤخذ ويجبى من الضرائب والأرباح النسبية من أصحاب العمل ورأس المال، ومن موارد العمال في المصانع والمؤسسات، ومن القرى والمدن والدول في كل أنحاء العالم، وإنفاقه بإشراف الحكومة العالمية في مساعدة بقية شعوب العالم الفقيرة، يعم الخير والسلام كل الأرض.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجب النظر بعين الاحترام والتقدير لموظفي الحكومات ومستخدميها وتعديل معيشتهم ورواتبهم بما يتناسب مع ارتفاع أو انخفاض مستوى المعيشة، والتفكير بأحوالهم الاقتصادية وتخصيص الرواتب والعلاوات التي تضمن لهم ولأولادهم حياة كريمة وشريفة تحت إشراف رجال متخصصين في الاقتصاد والمال للابتعاد عن صرف أوقاتهم الثمينة في العمل الاضافي بعد أوقات الدوام الرسمي او إضاعتها فيما لا يتناسب مع مصالح عوائلهم.

ان جميع هذه الاقتراحات – وكما قلنا – خاضعة للأخذ والعطاء والتحسين والتطوير والزيادة والنقصان، وإلا فلا يمكن أخذها بعين الاعتبار، الا بعد تمحيصها والتفكير والتدقيق بها وتفصيلها وتبويبها من قبل علماء الاجتماع والاقتصاد والمال والقانون الوطني والدولي

وغيرهم من ذوي الحكمة والاختصاص.

هذا بالاضافة الى وجود العديد من الاقتراحات الوطنية والأفكار العالمية الأخرى يمكن طرحها في مرحلة لاحقة. فليس كلما يعرف يقال، وليس كلما يقال حان وقته، وليس كل ما حان وقته حضر أهله.

وأخيراً يجب ان لا ننسى ان كل هذه الاقتراحات لا تتم ولا تجنى منها أثمار ناضجة وفوائد كاملة ولا يمكن تطبيقها على ارض الواقع بشكل صحيح، الا باتصاف البشر بالصفات الروحانية والكمالات الإنسانية السامية الرفيعة. وكل هذا يعتمد تماماً على تربية وتعليم البشر تربية صحيحة سليمة.

والله يوفق الجميع لخدمة الإنسانية طراً.

والسلام . .

المؤلف

سيفي سيفي النعيمي

2004م

الهوامش

1 – سورة الزمر الآية 9.

2 – كتاب وعّاظ السلاطين – للدكتور علي الوردي – الطبعة الثانية 1995 – دار كوفان لندن – ص 92.

الخاتمة

سألني أحد الأصدقاء بعد أن قرأ مسودة هذا الكتاب: ما الهدف من تأليف كتاب بهذه الأفكار، وهل في اعتقادك أن سعادة البشر ستتحقق من خلال تطبيق مثل مبادئه ومقترحاته؟

ان غالبية الفلاسفة والعلماء على اختلاف أفكارهم وتنوع اطروحاتهم، استهدفوا على مر التاريخ، رقي الانسان ورفعة شأنه وايجاد مجتمع أفضل يعيش فيه براحة وسعادة، وبحثوا واجتهدوا في جميع المجالات، عسى ان يساهموا ولو بمقدار بسيط في تطور الإنسانية وتقدمها. لكن مشكلتهم الدائمة انهم بحثوا فيما توفر على ساحة الفكر من مفاهيم مطروحة، واقتبسوا من بعضهم البعض وكرروا، ولم يتجرأ إلا القليل منهم الخوض في الأفكار التي تعتبر مُسلمات حقيقية ثابتة لا يجوز الاقتراب منه، إما غفلة أو خشية قيام غوغاء الناس عليهم، والأهم من كل ذلك هو قلّة الأفكار الجيّدة المتوفرة وندرة المعلومات السليمة التي تساعد على تخطي كل هذه الحواجز. كما ان مصلحة بعض المنتفعين في بقاء البشرية على هذا المستوى المتواضع واستمرار هذه الحالة المزرية له دور فعال وكبير. فالعالِم أو الباحث يكتسب معلوماته مما يتوفر بين يديه، فإن فسد المعروض، كانت النتائج

مشابهة لجوهر المنبع، لذلك لا يمكنه تقديم رأي أو فكر جديد، ويبقى يدور في نفس الحلقات التي دار حولها من سبقه، حتى يغير ما في نفسه.

مصادر الكتاب

1 – كتاب القرآن الكريم.

2 – كتاب الإنجيل.

3 – كتاب التوراة.

4 – كتاب خوارق اللاشعور، أو أسرار الشخصية الناجحة، الدكتور علي الوردي، الطبعة الثانية عام 1996، دار الوراق للنشر، لندن.

5 – كتاب مهزلة العقل البشري، الدكتور علي الوردي، الطبعة الثانية 1994م، دار كوفان، لندن.

6 – كتاب وعّاظ السلاطين، الدكتور علي الوردي، الطبعة الثانية 1995م، دار كوفان، لندن.

7 – كتاب الأحلام بين العلم والعقيدة، الدكتور علي الوردي، الطبعة الثانية 1996م، دار الوراق، لندن.

8 – كتاب الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الثانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237.

9 – كتاب نهج البلاغة، الجزء الثالث رقم الوصية 77، محمد عبده المصري.

10 – كتاب الكافي، المجلد الخامس، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد.

11 – صحيح البخاري، المجلد الرابع.

12 – كتب ومصادر أخرى متعددة.

Qabasat

(Quotations)

By

Sayfee Sayfee

Copyright 2004 Sayfee Sayfee

First Edition in Arabic